



السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
وَالَّذِينَ مَعَهُ

حَجَّتِ الْوَدَّاعِ

عبد محمد بن حوزة النصار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾

(قرآن كريم)

سجى الليل ونام الكون وما كان يعكر الصمت الذى ران على مسجد الرسول إلا غطيظ أهل الصفة ، ما منهم رجل إلا عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم . كانوا من فقراء المسلمين وكانوا سبعين قد انقطعوا للعبادة وحراسة رسول الله ﷺ — وكانوا يلزمونه — صلوات الله وسلامه عليه — بشبع بطونهم ، فإذا أتت رسول الله ﷺ — هدية أصاب منها وأشر كههم فيها ، وإذا كان فى دوره طعام من لبن أو تمر أخرجه إليهم وتناوله معهم ؛ وما أكثر ما كان يصوم ويصومون .

وفى هجعة الليل سار بلال بينهم على أطراف أصابعه مفتوح العينين خشية أن يدوس أحدهم أو ترتطم رجله بأحد التوام فيوقظه من نومه اللذيذ . وفيما هو يقدر موقع قدميه وقعت عيناه على أبى هريرة عريف أهل الصفة فرفت على فمه ابتسامة ؛ إنه تذكر ما رآه منه فى أول الليل ، كان الصبية يلعبون لعبة الغراب فإذا بأبى هريرة يتسلل إليهم وهم لا يشعرون ، حتى إذا ما صار بينهم ضرب برجليه كأنه مجنون ، ففر الصبية ههنا وههنا وهم يتضحكون .

إنه يحب مداعبة الأطفال ليشرح صدورهم ويدخل السرور إلى نفوسهم ، وكثيرا ما يداعب أصحابه دعابات لطيفة كيسة ، وله فى رسول الله ﷺ — أسوة ، فهو يداعب أبناء المهاجرين والأنصار ويقبلهم فى حب أبوى عميق ، ويحملهم أمامه على دابته أو يركبهم خلفه ، ويمزح مع أصحابه ولا يقول إلا صدقا .

وبلغ بلال الدرج فراح يعرج فيه ، حتى إذا صار على السطح الذى يؤذن من فوقه أخذ يرعى النجوم ويمد عينيه إلى الأفق الشرقى ، إنه الفجر الكاذب وما حان أو ان الأذان بعد ، فجلس يرصد السماء ، وما لبث أن انثالت الأفكار على رأسه ، ذكريات بعيدة طواها الزمن ولكنها لا تزال حية فى وجدانه ، وذكريات قريبة حبيبة إلى نفسه ينشرح لها صدره ، وآمال لا تزال فى جوف الغيب لا يدرى إذا ما كانت سترى النور يوما .

تذكر أيام كان مولدا من مولدى بنى جمح ؛ كانت أمه حمامة لا تملك من أمرها شيئا ، زوجها من أبيه رباح لينسلا للسادة عبيدا ، فجاء إلى الدنيا عبدا حياته عبث ونهايته عدم .

وشب لا يعرف من أمر الدنيا إلا أن سيده أمية بن خلف . إن غضب عليه جلده وإن رضى عنه أعطاه من فضل زاده ، وعاش بلا أمل يخرج قوافل التجارة كما تخرج السائمة ، ليس له من أمرها ألا شبع بطنه والعرق الذى يتصبب منه إذا ما حمل الأثقال على ظهره ليرفعها إلى ظهور الإبل أو ليحطها عنها ، وما كان له أن يشكو من التعب فما كان للدواب حق الشكوى أو التبرم من حياتها !

ومن خلال ظلمات العدم بزغ النور والأمل ، فصوت أبى بكر الصديق يلامس أوتار قلبه فيهبزها فى نشوة وهو جالس يرقب الفجر فوق أعلى بيت فى المدينة مثلما هزها فى تلك الليلة التى قال له فيها لما كان فى مكة : إن محمد بن عبد الله يدعو إلى عبادة الله وحده . وراح يدعو إلى الإيمان بذلك الدين الذى يثبت الربوبية لرب السموات والأرض وينفيها عن كل الأصنام والأوثان والبشر . أحس فى تلك الليلة سحر الكلمات التى كانت تسكب فى أذنيه وعظمتها ؛ إنها كلمات قليلة ولكنها فتحت أمامه آفاقا واسعة من الرجاء والأمل . إنه فى لحظة من لحظات العمر الذى كان يبدده سدى تيقن أنه ليس عبدا لأحد من بنى جمح ،

وأنه حر ليس لبشر سلطان عليه ، فهو وأمية بن خلف سواء أمام رب الناس إليه الناس ، بل قد يصبح عند الله أفضل من أمية بن خلف إن أحسن العمل .

كانت حرية لا تستند إلى شيء ، وكانت إرادته كلما هفت روحه إلى الحرية تنجو ؛ فالموت الذى سينهى حياته بالعدم كان يقضى على كل إرادة ، ولكن الدين الجديد الذى يدعو إليه أبو القاسم لم يجعل الموت نهاية ، بل هو بداية لحياة أخرى خالدة توفى كل نفس فيها حسابها ، فلم تعد الحياة عبثاً ولا حملاً ثقيلاً بل دار ممر إلى دار مقر ، والعامل من أخذ من عمره لمقره لينال الفوز الأكبر .

لم يعد يتأرجح بين الوجود والعدم ، تملكه نزوع وجدانى ينشد الحرية المطلقة ، حرية العقل وحرية الاختيار والإرادة . فكلمات أبى بكر قد رفعت عن عين بصيرته الغشاوة فشعرت ذاته بوجودها وحريتها ، وامتلاً قلبه بنور أضواء ذاته العميقة فإذا به يكاد يقرع أبواب ملكوت السماء .

إنه عرف ما يريد بعد تدبر وتفكير فاعتنق الإسلام دون إكراه ، وخل الأمانة وهو سعيد ، فقد عزم على أن يتحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، وأن يعانى الحياة فى صبر بعد أن بدد ظلمات وجوده واهتدى إلى اليقين المبين . خرج بنو جميع لما حمت الظهيرة فطرحوه فى بطحاء مكة ثم أمروا بالصخرة العظيمة فتوضع فوق صدره ، ثم قالوا له :

— لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .
كان إيمانه أرسخ فى ذاته الحية التى شحذها الإسلام من تلك الصخرة العظيمة التى تكاد تكتم أنفاسه ، وكانت إرادته مضى بما نزل به من بلاء فراح يقول :

— أحد .. أحد .

ونزل نشيده برداً وسلاماً على قواده ، فلم يكتف بالثبات على دينه بل جعل

يسخر من معذبيه . وجاء أبو بكر الصديق ورأى ما يقاسيه من تعذيب فأنقذه مما كان فيه ، وأخذته فأعتقه فتمحّر الجسد بعد أن تمحّرت الروح .

وأشرق وجوده وابتهج به فالدين الذى اعتنقه يعبر عن صوت العقل ، عن جوهر الذات المتعالية ؛ بنمى فى النفوس الخير ويسد جميع المسالك فى وجه الشر ، ما دام الخير والشر لا وجود لهما إلا فى عين إرادة البشر .

كان سعيدا بحرية روحه وجسده ، وبالطمأنينة التى شاعت فى وجدانه ، وبالتجانس الذى بات يحسه فى نسيج الكون بعد أن كانت الفوضى ستمته ، والتنافر صفته ، وزاد فى سعادته أنه تعلم بعد الهجرة إلى المدينة أن الله قد خلق آدم ليكون خليفته فى الأرض ، فبنو آدم قد أصبحوا خلفاء الله بسلطان العلم الذى علمهم ، وبثقل الأمانة التى حملهم ، وإنه شرف يشارك فيه إخوانه من البشر ، وإنه ليعمل مع إخوانه المؤمنين على تأكيد استحقاق الإنسان لهذه الخلافة وهذا الشرف . وقد زكاهم الله بقوله العظيم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ... » (١) .

إن صراع الذات مستمر ، وسمو النفس فوق الأهواء يشتد عوده ، والنزوات تتحطم عند حدود الله ، والإحساسات الدينية السامية تزداد إرهافا . وذلت عبودية المادة بعد أن أغلقت الأفق المأمونة الأبواب دونها ، ورفعت الأفتنة عن الحرية الراشدة ووجدت على ظهر الأرض الحياة الروحية الحققة القادرة على طرق أبواب السماوات ، فكان الإنسان فى أروع صورة وأحسن تكوين .

وطافت به ذكريات أيام الخندق ، فرأى سلمان الفارسي يضرب فى ناحية منه فغلظت عليه صخرة ورسول الله ﷺ قريب منه ، فلما رآه يضرب ورأى

شدة المكان عليه نزل فأخذ بالمعول من يده فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى ، قال سلمان :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟

— أو قد رأيت ذلك يا سلمان ؟

— نعم .

أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق .

كان بلال على يقين من أن الله قد أعطى رسوله — ﷺ — مفاتيح تلك البلاد ، وأن المسلمين سيفتحونها ، فما ساوره في ذلك شك ، ولكن سؤالا قام في نفسه : ترى أيقدر له أن يؤذن في صنعاء أو منف أو دمشق ؟

إن الله قد أكرمه يوم فتح مكة ، فقد اعتلى ظهر الكعبة أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين ليؤذن في ضمير الكون معلنا تحرير البشرية من العبودية لغير الله وحده ، وبزوغ شمس الحرية الكبرى ، وبداية عصر القيم والمثل العليا . ورن في عين ذاته ذلك الدعاء الذى سمعه ذات ليلة في مسجد الرسول : « اللهم اجعلنى ممن سيلقون أسماعهم إلى أذان بلال في الجنة » . فسرت فيه قشعريرة وبللت الدموع روحه قبل أن تبلبل مقلتيه ، وأطرق برأسه تواضعا لله وشكرا حتى كادت جبهته تلمس الأرض .

وبدأت طلّائع الفجر تزحف في الأفق الشرقي فراح صوت بلال يدعو الناس إلى الصلاة ، إلى استفتاح يومهم بقاء الله لتطهير النفوس وتطبيب الروح واستدرار البركات ؛ فما أروع أن يبدأ اليوم باسم الله وذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب .

* * *

وقام سلمان الفارسي يتوضأ وكل خلجة من خلجات نفسه تتجه إلى الله وتسبح بحمده ، فهو يعيش بالله وفي الله ؛ فخفقات قلبه شكر ومضات فكره ذكر ؛ فقد كان في بيت أبيه خادماً نار المجوس ولكن الرحمن الرحيم أراد له الرشد والهداية فبذر في أعماق ذاته الشك ووهبه نفساً تهفو إلى الحق ، فما إن مر بكنيسة من كنائس النصارى وسمع أصواتهم فيها وهم يصلون حتى دخل عليهم ينظر ما يصنعون ، فلما رآهم أعجبه صلاتهم ورغب في أمرهم وقال دون استكبار : هذا والله خير من الدين الذي نحن فيه .

كان يريد وجه الحقيقة أينما كانت وقد برأه الله من الهوى ، فلما علم أن أصل ذلك الدين بالشام لم يفكر في أبيه ولا في أهله ولا في قريته ، بل شد الرحال إلى الشام باحثاً عن إيمان يستريح إليه فؤاده .

وجاء إلى الأسقف في كنيسة وراح يخدمه ويتعلم منه ويصلي معه ، ولكنه وجد الأسقف يعمل غير ما يقول ، يأمر الناس بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ، فلم يسخط على الدين بل سخط على رجل السوء ، وبقي في الكنيسة ثم رحل من الشام إلى الموصل بحثاً عن الحقيقة ، ولم تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلبه فشد الرحال إلى نصيبين ثم إلى عمورية في أرض الروم ، وهناك علم أنه قد أظل زمان نبى وهو مبعوث على دين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب .

نبى ١٢ يا ليتة يستطيع أن يلقاه ليجد عنده جوهر الحقيقة التى ترك الأهل والخلان والأوطان فى سبيلها . وجاءه الفرج فقد مرت به قافلة من العرب فالتمس منهم أن يحملوه إلى أرضهم التى أصبحت حلمه ومهوى فؤاده ومحط آماله . وبلغوا وادى القرى فظلموه وباعوه إلى رجل يهودى عبدا .

إن ابن دهقان قرية جى بأصبهان المجوسى خادما النار الذى هام على وجهه فى الأرض بحثا عن الحقيقة قد أصبح عبدا يهودى . ولم يدر ما حكمة صبر ورته عبدا ولكن ظل قلبه عامرا بالإيمان بأن الله الذى خرج للبحث عنه لن يضيعه ، وكان أن تعلم العربية لغة ذلك النبى المنتظر ، وكانت حكمة الله التى غابت عنه أن يتعلم لسان القرآن الذى شيشفى نفسه وينير فؤاده بأنوار اليقين .

وقدم على اليهودى الذى اشتراه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة فابتاعه منه فاحتمله إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رآها فعرفها بصفة صاحبه فبات يتحرق شوقا للقاء ذلك النبى الذى بشر به الأنبياء ، واحتمل الرق صابرا فى سبيل أن يكون له شرف أن يلقاه ويلقى إليه السمع والفؤاد .

وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وسمع به فإذا برعدة تسرى فى بدنه وإذا بكيانه كله ينتفض وإذا به ينطلق إلى حيث كان رسول الله ﷺ صلوات الله وسلامه عليه ، فلما رآه وأصغى إلى حكمته خفق قلبه فى رضا ، وتيقن أن ذلك الحديث الذى ينبض بالصدق هو ما هجر كل مباهج الدنيا فى سبيله ، وبهرته الحقيقة وغمره فرح فياض أن عثر على ضالته المنشودة ، فنطق بالشهادتين فى صوت متهدج تحنقه العبرات من فرط الانفعال .

وعلم رسول الله ﷺ أن سابق الفرس عبد يهودى من بنى قريظة ، ولما كان رسول الإسلام قد بعث لتحرير النفوس والرقاب قال :
— كاتب يا سلمان .

وهرع سلمان إلى اليهودى الذى اشتراه وراح يفاوضه على تحريره من الرق

والعبودية ، فكاتبه صاحبه على ثلاثمائة نخلة يبيعها له بالحفر والغرس ، وأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ — محرر الأرواح والرقاب — لأصحابه :
— أعينوا أحكام .

فأعانوه بالنخل ، الرجل بثلاثين من فراخ النخل الصغار ، والرجل بعشرين ، والرجل بخمس عشرة ، والرجل بعشر ؛ يعين الرجل بقدر ما عنده ، فقد كان المسلمون يحبون أن يروا إخوانهم في الدين أحرارا من أغلال الرق البغيض .
واجتمع له ثلاثمائة من فراخ النخل الصغار ، فقال له رسول الله ﷺ :
— اذهب يا سلمان ففقر^(١) لها ، فإذا فرغت فأتني أكن أنا أضعها بيدي .
وحفر وأعانه أصحابه ، حتى إذا فرغ جاء رسول الله ﷺ — فأخبره ،
فخرج عليه السلام معه إليها ، فجعلوا يقربون إليه فراخ النخل الصغار ويضعها
رسول الله ﷺ — بيده حتى فرغوا ، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها
واحدة .

وأدى سلمان النخل وبقي عليه المال ، فأتى رسول الله ﷺ — بمثل بيضة
الدجاجة من ذهب ، فقال لسلمان :
— نخذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان .

فأخذها فوزن لهم منها أربعين أوقية فأولى صاحبه حقه منها ، وأصبح سلمان
حرا فخر ساجدا لله شكرا أن حرره من رقه ، وأن كشف له عن وجه الحقيقة ،
وأن افتتح عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وأن جعله صاحب رسوله المصطفى عليه
السلام .

وتذكر سلمان وقلبه يخفق سعادة ما كان بين المهاجرين والأنصار من شأنه ،

(١) فقر : احفر .

قال المهاجرون سلمان منا ، وقال الأنصار بل سلمان منا ، فقال رسول الله ﷺ :

— سلمان منا أهل البيت .

وكان بعض المسلمين الذين لم يتخلصوا بعد من روح الجاهلية يعيرون بلالا بأنه حبشي وأن أمه سوداء ، وكانوا يعيرون سلمان بأنه فارسي . فقضى رسول الله ﷺ — على هذه النعرة التي لا تتفق مع دين الإنسانية جمعاء ، فقال عليه السلام :

« يا أيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد ، ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي .
وأم سلمان وضوءه فخرج إلى المسجد وقد أشرقت أنوار المعرفة في قواده ، فهو على نور من ربه ، قد ارتفعت الحجب عن عين بصيرته بلطف خفي من مولاه ، فلمع في قلبه من وراء الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف بالزهد في الدنيا ، والتبري من علائقها ، وتفرغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله ، فمن كان لله كان الله له .

* * *

وخرج على بن أبي طالب إلى المسجد تتحرك شفثاه ببعض ما في صدره من كنوز علمه ، وقد اتجهت عيناه إلى الباب الذي سيخرج منه رسول الله ﷺ — حبيبه ومعلمه وقُدوته وأب زوجه الزهراء وجد ولديه الحسن والحسين .

أصابته قريش أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذاعيل كثير ، فقال رسول الله ﷺ — للعباس عمه وكان من أيسر بني هاشم :

— يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه

الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله ، أخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه .

فقال العباس :

— نعم .

لم ينس رسول الله — ﷺ — قبل أن يبعث ليتمم مكارم الأخلاق أن أبا طالب قد كفله صغيرا وأن الأوان قد آن ليرد للشيخ بعض أفضاله ، فانطلق مع عمه العباس حتى أتيا أبا طالب فقالا له :

— إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .
— إذا تركتما لي عقيلًا فاصنعا ما شئتما .

وكان مما أنعم الله به على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان في حجر رسول الله — ﷺ — قبل الإسلام ، وفي بيت خديجة بنت خويلد فلم يهره ما في الدار من فاخر الرياش بل كان مأخوذاً بابن عمه ، وبذلك النور الذي كان يملأ الغرفة التي أعدها ابن عمه لعبادته .

وكان الصبي يجلس إلى ميسرة غلام خديجة يسمع منه في إعجاب ما كان من أبي القاسم لما خرج معه إلى الشام في تجارة مولاته ، إن محمداً قد أسر الناس في الأسواق ببسره ودمائه خلقه ولين جانبه . وكان ميسرة يقول في حماس . إن أبا القاسم قد خلق ليكون أعظم تاجر في جزيرة العرب وإن أمانته تؤهله لذلك ، ولكن علياً على الرغم من صغر سنه كان يستشعر في أعماقه أن ابن عمه قد خلق لشيء أعظم من ذلك ، فهو زاهد في عرض الدنيا لا يحفل كثيرًا بالمال ، وهو ينفقه إنفاق من لا يخشى الفقر ، فهو جواد كالغيث كريم كالسحاب .

وجاء ما أكد حدس الصبي فبعث الله رسوله بشيرا ونذيرا للناس كافة ، فأمن به وصدق بما جاءه من الله تعالى ، وكان إذا حضرت الصلاة خرج رسول الله

صلوات الله وسلامه عليه إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبى طالب وهو ابن عشر سنين مستخفيا من أبيه ، ولكن أبى طالب عثر عليهما يوما وهو يصليان ، فقال لرسول الله — ﷺ :

— يا بن أختى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟
— أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أئينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجباني إليه وأعاننى عليه .
— أى ابن أختى إني لا أستطيع أن أفارق دين أبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت .

قطب الصبى جبينه وطاف به حزن ، كان يطمع في إسلام أبيه ، وقد خفف من لوعته أن الأمل في إسلام أبى طالب كان يراوده ما دام أبو طالب حيا ، ولكن أبى طالب قد وافاه أجله دون أن يربط لسانه بشهادة الحق ؛ كان في قرارة نفسه يؤمن أن الله أكبر من أن يبعث بشرا رسولا . إن عليا كرم الله وجهه كلما تذكر أن الشيخ مات على الكفر أحس غصة في حلقه ودموعا تبيل مقلتيه .

إنه في تلك الليلة التى هاجر فيها الرسول — ﷺ — نام على فراشه وتسجى بيرده الحضرمى الأخضر ، ولم ترتعد فرائضه وإن كان يعلم أن قریشا اجتمعت على باب الرسول يرصدونه حتى ينام ليثبوا عليه ويضربوه ضربة رجل واحد ، وأنهم قد يدخلون عليه في أية لحظة ينتهبونه بأسيا فهم .

كان هادئ النفس مطمئن الفؤاد فهو منذ أعلن إسلامه قد وطد العزم على أن يكون نحره قبل نحر رسوله ، وأن يفدى ابن عمه الذى اصطفاه ربه بالروح ، وهاجر الرسول — صلوات الله وسلامه عليه ولم يخلص إلى على شيء يكرهه من أعداء الإسلام ، فراح على يؤدى الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول

الله — ﷺ — ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته — ﷺ .

وهاجر إلى المدينة ونزل بقاء ليلتين ، فرأى امرأة مسلمة لا زوج لها يأتيا إنسان في جوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيه شيئا معه فتأخذه ، فاستراب بشأنه فذهب إلى المرأة وقال لها :

— يا أمة الله من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئا لا أدري ما هو ، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟
— هذا سهل بن حنيف بن واهب قد عرف أنى امرأة لا أحد لي ، فإذا أمسى عدا على أو ثائن قومه فكسرها ثم جاءني بها فقال احتطبي بهذا .

وكانت صداقة بينه وبين سهل بن حنيف ، ولم يدر في خلده في ذلك الوقت أن سهلا سيقف إلى جانبه في الفتنة الكبرى ، وأنه سيهلك عنده بالعراق .
وآخى رسول الله — ﷺ — بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال :

— هذا أخى .

واشتد وجيب قلب الفتى وامتألاً صدره رضا ، فإمام المتقين ورسول رب العالمين قد أعلن على الملأ أنه قد آخى بين نفسه التي لا نظير لها في العباد وبين ابن عمه الذي شب في حجره يغترف من نبع الحكمة ، ويروى ذاته المتعطشة إلى العلم من أنهار المعرفة المتدفقة من لدن العليم الخبير إلى صدر رسوله المصطفى الأمين .
وكان الفتى رفيق عمار بن ياسر في غزوة العشيرة ، فلما نزلها رسول الله — ﷺ — وأقام بهارياً أناساً من بنى مدلج يعملون في عين لهم وفي نخل ، فقال علي ابن أبي طالب لعمار :

— يا أبا يقظان هل لك في أن نأتى هؤلاء القوم فننظر كيف يعملون ؟

— إن شئت .

فجاءهم فنظروا في عملهم ساعة ، ثم غشيها النوم فانطلقا حتى اضطجعا في صفار النخل وفي تراب لين فناما ، فوالله ما أيقظهما إلا رسول الله — ﷺ — يحركهما برجله وقد تتربا من ذلك التراب اللين الذي ناما فيه ، فيومئذ قال رسول الله — ﷺ — لعلی :

— مالك يا أبا تراب ؟

لما يرى عليه من التراب ، ثم قال :

— ألا أحدثكما بأشقى النار رجلين ؟

— بلى يا رسول الله .

— أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا على على هذه — ووضع

يده على قرنه — حتى يبلى منها هذه — وأخذ بلمحيته .

وكانت كنية أبى تراب أحب كناه إلى نفسه .

وخرج المسلمون إلى بدر وكانت إبل أصحاب رسول الله — ﷺ — يومئذ سبعين بعيرا فاعتقبوها ، فكان رسول الله — ﷺ — وعلى بن أبى طالب ومرثد ابن أبى مرثد الغنوى يعتقبون بعيرا ، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله — ﷺ — يعتقبون بعيرا ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا ، أين ذلك اليوم من يوم حنين ؟ كانوا يوم بدر قلة ولكن قلوبهم عامرة باليقين ، وكانوا يوم حنين يقولون فى غرور لن تغلب اليوم عن قلة ، بينما كان فيهم منافقون يترصدون الأحداث لينفثوا سموم الهزيمة فى قلوبهم .

وقتل على بن أبى طالب يوم بدر الوليد بن عتبة فبذر بذرة الكراهية فى قلب أخته هند بنت عتبة ، فكانت ترى ابنها معاوية بن أبى سفيان على كراهية ابن أبى

طالب . ولم ينج بيت من بيوت قريش من سيف على بن أبى طالب البتار ، فقد قتل منهم سبعة وثلاثين رجلا ، فكانت قريش كلها تتحرق شوقا للثأر من ربيب محمد وفارسه . وقد دخلت قريش كلها فى الإسلام بعد فتح مكة ولم تخمد نار العدواة لفتى الإسلام بل ظلت ذممة تحت الرماد ، حتى إذا ما هبت رياح الفتنة بعد مقتل عثمان تأججت نيران الثأر القديم والحقد الدفين ليكتوى بها الإمام . وكان يوم أحد ، فراح مصعب بن عمير يقاتل دون رسول الله ﷺ — وهو يحمل لواء المهاجرين ، وقتل مصعب فأعطى رسول الله ﷺ — اللواء على بن أبى طالب فتقدم على فقال :

— أنا أبو الفصم^(١) .

فناداه أبو سعد بن أبى طلحة وهو صاحب لواء المشركين ، قال فى سخرية :
— هل لك يا أبا الفصم فى البراز من حاجة ؟
— نعم .

فبرز بين الصفين ، فاختلفا ضربتين فضربه على فصرعه ، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه فقال له أصحابه :
— أفلا أجهزت عليه ؟

— إنه استقبلنى بعورته فعطفتنى عنه الرحم ، وعرفت أن الله عز وجل قد قتله .

كانت ضربة فتى الإسلام وترا فما كان فى حاجة إلى أن يجهز على الرجل فضربه قاتلة ليس لها دواء .
وعصى الرماة أو امر النبى ﷺ — فكانت الهزيمة ، ولما انصرف أبو سفيان

(١) الفصم : كسر بغير بينونة ، ككسر القضيب الرطب ونحوه .

(حجة الوداع)

ومن معه نادى :

— إن موعدكم بدر للعام القابل .

فقال رسول الله ﷺ — لرجل من أصحابه :

— قل نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسول الله ﷺ — على بن أبى طالب فقال :

— اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جئوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم . فخرج على في آثارهم وقد امتلأ شفقة على المسلمين ، فبعد الرحمن بن عوف أصيب فوه فهُتَم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر أصابه بعضها في رجله فخرج ، وترس دون رسول الله ﷺ — أبو دجانة بنفسه يقع النبل في ظهره وهو منحني عليه حتى كثر فيه النبل ، وأصيبت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته ، وكسرت رباعية النبی ﷺ — وشج في وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه ، وقتل « أسد الله » حمزة بن عبد المطلب ، وقتل رجال من الأنصار والمهاجرين ، وأصاب الجهد المسلمین .

وجنب أبو سفيان ومن معه الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة ، فاستشعر على راحة وتنفس الصعداء فلن يكون قتال في المدينة بين المسلمين المتخفين بالجراح وبين أعدائهم الذين فضلوا أن يعودوا إلى مكة وفي ركابهم نصر ، وإن لم يكن نصرا حاسما ولكنه نصر على أى حال .

وعاد رسول الله ﷺ — إلى داره ومع ربيبه وحبيبه وأخوه على بن أبى طالب ، وناول عليه السلام سيفه ابنته فاطمة فقال :

— اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

وناولها على بن أبى طالب سيفه فقال :

— وهذا أيضا فاغسلي عنه دمه ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

فقال رسول الله ﷺ :

— لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهيل بن حنيف وأبو دجانة .

وساد الصمت برهة ، ثم قال رسول الله ﷺ — لعل :

— لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا .

وصدق رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — فما أصاب المشركون منهم مثلها حتى فتح الله عليهم مكة .

وجاءت قريش بزوها يوم الخندق إلى المدينة وهى تحرض القبائل على المسير معها ، فعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن عبدود وهبيرة بن أبى وهب والخزوميون ، وضرار بن الخطاب الشاعر ابن مرداس تلبسوا للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا :

— تهيموا يا بنى كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم .

ثم أقبلوا تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا :

— والله إن هذا لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتنحت منه ، فجالت بهم فى السبخة بين الخندق و سلع ، وخرج على بن أبى طالب عليه السلام فى نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تسرع نحوهم ، وكان عمرو به عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله قال :

— من يبارز ؟

فأراد على بن أبى طالب أن يتقدم لمبارزته ولكن رسول الله ﷺ — حال بينه وبين ذلك ، فقد قتل يوم بدر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه الحارث ، وقتل يوم أحد عمه حمزة بن عبد المطلب ، وهو يخشى أن يقتل في هذه الغزوة ربيبة وحيبيه وزوج الزهراء ، ولكن عليا صمم على قتال ابن عبدود فراح رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يتهل إلى الله في حرارة أن يبقى له خير أهله الذى نشأ في حجره ، والذى أحبه من كل قلبه .

وبرز على بن أبى طالب لعمر بن عبدود فقال له :
— يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

— أجل .

— إنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام .
— لا حاجة لى بذلك .

إن ربيب محمد — صلوات الله وسلامه عليه — قد حفظ الدرس الذى لقنه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — للمسلمين : أن يعرضوا السلام قبل القتال ، فالله لا يحب المعتدين ، وقد دعا ابن أبى طالب عدوه إلى الله فأبى ، فقال له على بعد أن يمس من سلمه :

— فإنى أدعوك إلى النزال .

— لم يا بن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .
— لكنى والله أحب أن أقتلك .

فاشتد غضب عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعفره وضرب وجهه ، ثم أقبل على على فتنازلا وتجاولا ورسول الله ﷺ — يتهل في حرارة ويدعوره أن ينصر ابن عمه ولا يفجعه فيه ، وارتفعت أصوات المسلمين بالكبير ، وأعلنت

أصواتهم في فرح أن علياً قتل ابن عبدود، فالتفت رسول الله ﷺ — وقد امتلأ قلبه بالشكر لله، فرأى خيل المشركين منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة .
وخان بنو قريظة عهد رسول الله ﷺ — واتفقوا مع قريش على أن يخذلوا رسول الله عليه السلام وأن يفتحوا لهم الطريق الذي كان عليهم أن يدافعوا عنه، ليطوقوا المسلمين في الخندق، ولولا لطف الله وهبوب الرياح التي اقتلعت خيام قريش وكفأت قدورهم فاضطروا للرحيل تمت المؤامرة وقضى قضاء مبرماً على الإسلام والمسلمين، إنها خيانة عظيمة للدولة ليس لها جزاء إلا القتل، فأمر رسول الله ﷺ — مؤذناً فأذن في الناس :

— من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة .
وقدم رسول الله ﷺ — علي بن أبي طالب برأيه إلى بنى قريظة، وابتدراها الناس . فسار على بن أبي طالب حتى إذا دنا من الحصن سمع منها مقالة فيبيحه لرسول الله ﷺ — وضايق ابن أبي طالب أن يسمع رسول الله ﷺ — السباب من أفواه اليهود، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ — بالطريق فقال :

— يا رسول الله لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث .
— لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى .
— نعم يا رسول الله .
وكان رسول الله ﷺ — أعلم بأخلاق اليهود من ربيبه وحبيبه فقال :
— لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً .
فلما دنا رسول الله ﷺ — من حصونهم قال :
— يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته ؟
— يا أبا القاسم ما كنت جهولاً .

وكان جزاؤهم جزاء من يرتكبون جريمة الخيانة العظمى للدولة التي

يعيشون فيها أثناء حرب تنذر بالقضاء على الدولة ومعتقداتها ، فضربت أعناقهم .
وكانت غزوة بنى المصطلق وسقوط عقد عائشة وتحلفها للبحث عنه ،
ومرور ابن المعطل بها واحتماله إياها على بعيره وحديث الإفك وخطبة الرسول في
الناس يذكر إيداء قوم له في عرضه ، ثم دعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد
فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى على عائشة خيرا وقاله ، ثم قال :
— يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .
وأما على فإنه قال :

— يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية
فإنها ستصدقك .

ولم يكن على يريد النيل من عائشة ، كان هدفه أن يقطع دابر ذلك القلق الذى
استولى على حبيبه ، فدعا رسول الله ﷺ — بريرة ليسألها ، فقام إليها على بن
أبى طالب فضر بها ضربا شديدا ويقول :
— اصدقى رسول الله ﷺ .

— والله ما أعلم إلا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئا إلا أنى كنت أعجن
عجيني فأمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأقى الشاة فتأكله .

ونزلت براءة عائشة من فوق سبع سموات ، وأطمأن قلب رسول الله —
صلوات الله وسلامه عليه — وفرح على لبراءة عائشة فقد كان على يقين من أنها
أحب زوجات رسول الله عليه السلام إليه ، ولكن قول ابن أبى طالب وفعله
جرح كبرياء عائشة جرحا عميقا لم تقو الأيام على برئه ، فلما قتل عثمان نكأت
الأحداث جرح النفس فخرجت عائشة تطالب بدم عثمان ، وكانت وقعة
الجمال ، وكان أن قُتل صحابة الرسول بأسيايف صحابة الرسول بعد أن كانوا
سيوف الله المسلولة في وجه أعداء الإسلام .

وكان صلح الحديبية ، ثم نقض قريش لذلك الصلح بأن تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم من أصابوا وكانوا في عقد رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ، وكان أن خافت قريش أن يصل أمر ذلك إلى رسول الله عليه السلام فينهض لنصرة حلفائه ، فبعثت أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة ، ولكن أبا سفيان قدم على رسول الله — ﷺ — في المدينة بعد أن خرج عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله — ﷺ — فاستنصره فنصره .

ودخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين ، إنها كانت من أوائل المسلمين وقد هاجرت إلى الحبشة وتنصر هناك زوجها وبقيت هي على دينها ، وتزوجها النبي — ﷺ — لعل هذه المصاهرة تخفف من عداوة بنى أمية عامة وأبي سفيان خاصة ، ولكن هذه الزيجة لم تحقق هدفها السياسي ، فقد بقي أبو سفيان بن حرب على عداوته للإسلام والمسلمين .

إن أم حبيبة مسلمة مؤمنة بالدين الذي اعتنقته وإن أباها ليعلم ذلك ، ولكن زعامته مهددة إذا ما أخفقت سفارته ، بل إن مكانة مكة كلها قد أصبحت في الميزان ، ولا بد أن أم حبيبة ستفطن إلى كل ذلك وإلى حرج موقف أبيها فتعتمد العون إلى سيد قريش وتشفع له عند زوجها الذي صار مفتاح الموقف في يده : وذهب ليجلس على فراش رسول الله — ﷺ — فطوته عنه ، فلاح الدهش في وجهه وقال وهو يتفرس فيها في عجب :

— يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني .
— بل هو فراش رسول الله — ﷺ — وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله — ﷺ .
وتقاصرت نفس شيخ قريش فما دار في خلده أن يأتي يوم يطوى عنه فراش ،

وهو الذى قدمت إليه الخمارق فى قصر كسرى وكانت الأبواب تفتح له فى قصور الشام . ومن ذا الذى طوى عنه الفراش ؟ إنها أم حبيبة ابنته التى كانت أطوع له من بناته قبل أن يفرق محمد بن عبد الله بتعاليمه بينه وبينها .
وهب غاضبا وقال :

— والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر .
ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ — فلم يرد عليه شيئا ، فاستشعر مذلة وراودته فكرة أن يعود من حيث جاء ؛ ولكنه وجد فى رجوعه خائبا نهايته فعزم على أن يسير إلى آخر الشوط وأن يقرع كل الأبواب وإن كان فى ذلك إراقة لماء وجهه ، فالمهانة التى قد تلحقه فى المدينة أهون من أن يعود إلى مكة دون أن يشد العقد ويزيد فى المدة .

ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ — فقال :
— ما أنا بفاعل .

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال :
— أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ — ؟ — فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به .

ثم خرج فدخل على عليّ بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ — وعندها حسن بن على غلام يدب بين يديها ، فقال :
— يا عليّ إنك أمس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لى إلى رسول الله .

— ويحك يا أبها سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ — على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه .

فالتفت إلى فاطمة فقال :

— ٢٥ —

— يا بنّة محمد هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

قالت :

— والله ما بلغ بُنيّ ذاك أن يُجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله —
ﷺ :

— فالتفت إلى عليّ وقال في هوان :

— يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحنى .

— والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك .

— أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟

— لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان في المسجد فقال :

— أيها الناس إني قد أجرت بين الناس .

ثم ركب بغيره فانطلق ، فلما قدم على قریش قالوا :

— ما وراءك ؟

— جئت محمدا فكلّمته فوالله ما رد على شيئا ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد

فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين

القوم وقد أشار على بشيء صنعته فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئا أم لا ؟

— وبم أمرك ؟

— أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت .

— فهل أجاز ذلك محمد ؟

— لا .

— ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك فما يغنى عنك ما قلت .
— لا والله ما وجدت غير ذلك .

كان على بن أبى طالب لينا ولكنه كان داهية ، ولولا التقى والدين لكان أدهى
العرب ، فالداهية يفجرون وربيب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لا
يفجر بل يتقى الله فيما يفعل وفيما يقول .

وكان رسول الله — ﷺ — يحب عليا وكان ذلك الحب يثير غيرة المنافقين ،
فلما خلف رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم
عندما خرج لغزوة تبوك وجد المنافقون في ذلك فرصة لا يغار صدر على على
رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقالوا :

— ما خلفه إلا استقالا له وتخففا منه .

فلما بلغ القول مسامع على أخذ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله
— ﷺ — وهو نازل بالجرف فقال :

— يا نبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك — استقلنتني وتخففت منى .
— كذبوا ولكننى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى
وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى
بعدى ؟

كان عبد الله بن أبى بن سلول كبير المنافقين فى المدينة لم يخرج مع المسلمين
للغزو ، وقد قعد المنافقون عن الجهاد ، فكان من الحكمة أن يبقى رجل قوى
الشكيمة من أهل بيت الرسول يقطع رأس الفتنة إذا ما زينت لها أطماعها أن
تتحرك ، فرجع على إلى المدينة ليخلف رسول الله — ﷺ — لما ترك ورائه من
أهله ومن أعداء الله وأعداء رسوله .

ونزل صدر سورة براءة على رسول الله — ﷺ — وقد كان بعث أبابكر

— ٢٧ —

الصدیق ليقیم للناس الحج ، قيل له :

— يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟

— لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى .

ثم دعا على بن أبى طالب فقال له :

— اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا

بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ،
ومن كان له عند رسول الله ﷺ — عهد فهو له إلى مدته .

فخرج على بن أبى طالب على ناقة رسول الله ﷺ — العضاء حتى أدرك
أبا بكر فى الطريق ، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال :

— أأمير أم مأمور ؟

إن أبا بكر يقبل بقلب سليم كل ما يأتى من عند رسول الله ﷺ — فسواء
عنده أن يكون أميرا أو مأمورا فقد جبل على الطاعة منذ إشراق قلبه بنور
الإسلام ، فقال على :

— بل مأمور .

ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذا ذاك فى تلك السنة على منازلهم
من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب
فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ — فقال :

— أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف
بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ — عهدا فهو له إلى مدته .
وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى ما منهم أو
بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ — عهد
إلى مدة فهو له إلى مدته .

ولو رفعت الأسجاف عن الغيب القريب لرأى الناس أن ذلك كان تدبير العزيز الحكيم لآخر حجة يحجها رسوله الأمين ليضع آخر اللمسات في الدين القيم ، وليكمل الله للناس دينهم ويتم عليهم نعمته ويرضى لهم الإسلام ديناً .

وفتح دار في السنع فخرج منه شيخ جليل في الثامنة والخمسين من عمره ، نحيف قد انحنى ظهره قليلاً ، وديع كالحمل ، مستقيم الضمير سهل لين ، متواضع يألفه الناس ، ذهنه متفتح للفهم والتفكير ، مطبوع على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصلاح ، وراح يوسع من خطوه في عماية الصبح ليصلي الفجر خلف صاحبه الذي لم يفارقه في طفولته وشبابه وشهد معه المشاهد كلها ، إنه أبو بكر الصديق ثاني اثنين إذ هما في الغار .

تأثر بصاحبه منذ نعومة أظفاره فتعلم منه قبل أن يبعث الكفر بالأصنام والاستخفاف بعبادة قومه ، فلما ناهز الحلم أخذ أبو قحافة بيده فانطلق به إلى مخدع فيه الأصنام فقال :

— هذه آلهتك الشم العوالى .

وخلاه وذهب ، فدنا من الصنم وقال :

— إني جائع فأطعمني .

فلم يجبه فقال :

— إني عار فاكسنى .

فلم يجبه ، فألقى عليه صخرة فخر لوجهه ، وفي تلك اللحظة انهارت جميع الحواجز والسدود التي قد تقف في سبيل اعتناقه ديناً جديداً يقبله عقله المتفتح للفهم وقلبه الذي خلا من التعصب للدين الذي وجد آباءه عليه عاكفين .
وبعث الله محمداً — ﷺ — بشيراً ونذيراً فعرض الإسلام على رفيق صباه ،

فأسلم أبو بكر بن أبي قحافة ولم يتردد بعد أن وجد أن ما يعرضه عليه رسول الله ﷺ — يستقيم مع الفطرة ويتساق مع منطق الوجود ، ولما كان شجاعا يجهر بالحق فقد أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله ؛ فأسلم بدعائه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة الخزومي والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان ابن مظعون وأخواه .

وكان عثمان بن مظعون أحد من حرم الخمر في الجاهلية وقال :
— لا أشرب شرابا يذهب عقلي ، ويضحك بي من هو أدنى مني ، ويحملني على أن أنكح كريمتي .

فلما حرمت الخمر أتى وهو بالعوالي فقيل له :
— لقد حرمت .

— تبا لها ، قد كان بصرى فيها ثاقبا .
أقبل أبو بكر على الإسلام بكل كيانه وخماسة ، ودخل في الإسلام من بعده خلق كثير ، ولكن إسلام أبي بكر كان شيئا هاما في الإسلام ترك أثرا عميقا في وجدان رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، حتى إنه كان يقول :
— ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة^(١) ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم^(٢) عنه حين ذكرته له وما تردد فيه .
وكان أبو بكر منذ أول يوم دخل فيه في الدين الجديد عوناً للإسلام ونبي الإسلام عليه السلام ، فقد كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه يطوف

(١) الكبوة : التأخير وقلة الإجابة . وهو من قولهم كبا الزند : إذا لم يور نارا .

(٢) عكم : تلبث .

— ٣٠ —

بالبیت فوثب إليه أشراف قریش وثبة رجل واحد وأحاطوا به ، وأخذ رجل منهم بمجمع رداءه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبکی ويقول :

— أتقتلون رجلا أن يقول ربِّي الله ؟

وفهم أبو بكر روح الإسلام فهما عميقا ، إنه جاء ليحرر الأرواح ويفك الرقاب ، فما أتاحت له فرصة ليعتق عبدا إلا اهتبلها ، إنه أعتق مولاه عامر بن فهيرة وأم عبيس وزئيرة ، وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قریش :

— ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى .

فقالت :

— كذبوا وبيت الله ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان .

وأعتق النهدية وبنتها و كانتا لامرأة من بنى عبد الدار ، فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول :

— والله لا أعتقكما أبدا !

— جل (١) يا أم فلان .

— جل ، أنت أفسدتهم فأعتقهما .

— فبكم هما ؟

— بكذا وكذا .

— قد أخذتهما وهما حرتان ، أرجعا إليهما طحينها .

فالتا وقد أرهف الإسلام إحساسهما بالمسئولية :

— أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليهما ؟

— وذلك إن شئتما .

(١) حل : يريد تحلى من يمينك واستثنى فيها .

ومر بجارية بنى مؤمل — حتى من بنى عدى بن كعب — وكانت مسلمة ،
وعمر بن الخطاب يعذبها للترك الإسلام وهو يومئذ مشرك ، وهو يضربها حتى
إذا مل قال :

— إني أعتذر إليك ؛ إني لم أتركك إلا ملالة .

— كذلك فعل الله بك .

فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

ومر أبو بكر ببلال وهو يعذب وكانت دار أبي بكر في بنى جمح ، فقال لأمية
ابن خلف :

— ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟

— أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى .

— أفعل . عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به .

— قد قبلت .

— هو لك .

فأعطاه أبو بكر الصديق غلامه ذلك ، وأخذ بلالا وأعتقه .

وكان أبو قحافة يرى ما يفعل ابنه فيعجب في نفسه ، كان أبو قحافة على دين
قومه ولم يكن قد أسلم فلم يتشرب روح الإسلام بعد ، فكان عسيرا عليه أن يفهم
صنيع ابنه فهو يقيس أفعال أبي بكر بمقاييس مادية لا تصلح لقياس الأفعال في
الدين الجديد .

قال أبو قحافة لأبي بكر :

— يا بني إني أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا

جلدا يمنعونك ويقومون دونك ؟

— يا أبت إني إنما أريد ما أريد الله عز وجل .

فأنزل الله فيهما : « فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره
 لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما
 يغنى عنه ماله إذا تردى . إن علينا للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم
 نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى .
 الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه
 الأعلى . ولسوف يرضى »^(١) .

واضطهد كفار قريش المسلمين فضاقت على أبى بكر مكة وأصابه فيها
 الأذى ، فاستأذن رسول الله ﷺ — فى الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر
 مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين لقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش فقال :
 — أين يا أبا بكر ؟

— أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىّ .

— ولم ؟ والله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف
 وتكسب المعدوم . ارجع فأنت فى جوارى .

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرضن له أحد إلا بخير .

فكفوا عنه . وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جمح فكان يصل
 فيه ، وكان رجلا رقيقا إذا قرأ القرآن استبكى ، فيقف عليه الصبيان والعبيد
 والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة
 فقالوا له :

— يا ابن الدغنة إنك لم تُجر هذا الرجل ليؤذينا ! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويكيى وكانت له هيئة ونحو ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأتته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء .
فمشي ابن الدغنة إليه فقال له :

— يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذى قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

— أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

— فاردد على جوارى .

— قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى ، فشانكم بصاحبكم .

ولقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة فحشا على رأسه ترابا ، فمر بأبى بكر الوليد بن المغيرة فقال أبو بكر :

— ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟

— أنت فعلت ذلك بنفسك .

فرفع أبو بكر عينيه إلى السماء وقال :

— أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك !

وأسرى برسول الله — ﷺ — فغدا رسول الله عليه السلام على قريش

فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس :

— هذا والله الأمر (العجب) البين ، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى

الشام مُدبرة وشهرا مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟

(حجة الوداع)

فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له :
— هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس
وصلى فيه ورجع إلى مكة .

— إنكم تكذبون عليه .

— بلى ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس .

فقال أبو بكر في إيمان عميق :

— والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرني أن
الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا
أبعد مما تعجبون منه .

إنه يؤمن برسالة محمد عليه السلام ويصدق كل ما جاء به ، فهو الصديق ، ولو
وزن إيمان الأمة ووزن إيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر .

وهاجر المسلمون إلى المدينة وأقام رسول الله ﷺ — بمكة بعد أصحابه
من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة . ولم يتخلف معه بمكة أحد من
المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق .
وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله ﷺ — في الهجرة فيقول له
رسول الله ﷺ — :

— لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا .

فيطمع أبو بكر أن يكونه ، فلما أذن الله تعالى لنبيه ﷺ — بالهجرة انطلق
إلى دار أبي بكر فقال :

— إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة .

— الصحبة يا رسول الله .

— الصحبة .

وبكى أبو بكر من الفرح ثم قال :

— يا نبي الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتكما لهذا .

فخرجوا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار بثور فانتها إلى ليلا .
فدخل أبو بكر قبل رسول الله — ﷺ — فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية ،
يقى رسول الله — ﷺ — بنفسه .

ومضت ثلاثة أيام وسكن عنهما الناس ، فأتاها صاحبهما الذى استأجراه
ببيعيريهما وبعير له ، فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله — ﷺ — قدم له
أفضلها ثم قال :

— اركب فداك أبى وأمى .

— إني لا أركب بعيرا ليس لى .

— فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى .

— لا ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟

— كذا وكذا .

— قد أخذتها به .

— هى لك يا رسول الله .

فركبا وانطلقا ؛ رسول الله — ﷺ — مطمئن الفؤاد تنكشف له الحقائق
بكشف إلهى وتنسكب فى قلبه الأنوار ويرى ببصيرته النافذة عالم الملكوت
فيشاهد ما وراء حواسه ويستشعر شعورا صادقا لا ريب فيه أنه مع الله وأن الله
معه ، وأبو بكر الصديق متفرح فى الله يعيش بكل كيانه فى اللحظة الخالدة التى
تحتويه . إنه اختار الطريق وإنه يتحمل راضيا ما يقاسيه من آلام فراق الأهل
والأحباب والأوطان ، فأرادته الحرة قد غمرته بسعادة طاغية يهون فى سبيلها أى
ألم ، إنه قطع كل علائقه بالدنيا وأقبل بكنه المهمة على الله فأشرفت ذاته بأنوار تهرما

فى النفس من آمال زائفة وأطماع زائلة . إنه ذاق حلاوة الإيمان فعلى شوقاً إلى ما عند الله .

كانت قافلة صغيرة تسرى فى معبد الكون ؛ رسول الله ﷺ — قد رطب لسانه بذكر الله ، وأبو بكر الصديق يفكر فى جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسماؤه فأنساه ذلك الخطر المتربص بهما فى الطريق ، كان عميق الإيمان بأن الله ناصر رسوله ومبلغه مأمنه ، فهو سبحانه الذى أشار على عبده بالهجرة ولن يضعيه ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يخدمهما فى الطريق ، وكان الدليل ينطلق بهم فى شعاب غير مطروقة ليبتعد بهم عن الأنظار !

كان الركب صغيراً ولكن الحدث كان أعظم حدث فى تاريخ البشرية ، كان سوس الفساد ينخر فى شجرة الحضارة ، اتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً ، الرعية يعبدون ملوكهم بعد أن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ، والأقوياء يستعبدون الضعفاء ، والأغنياء يعيشون فى الأرض فساداً بأموالهم ، والوجود قد رانت عليه الظلمات ، حياة بلا أمل وضياح بلا نهاية . الدولة الرومانية غائبة فى غيوبة الخمر واللذات الحسية قد صمت أذنيها عن أنات الشعب الذى طحنته المظالم والضرائب الجائرة ، وقصر قد صار إلهاً ، والكنيسة أعرضت عن السماء وصار القصر الإمبراطورى مصدر وحيها ونبع بركايتها ، والمترفون يتخذون الرجال شهوة من دون النساء ، والدولة الإيرانية ساجدة أمام بيوت النار قد سرى فى جنباتها الفساد بعد أن أنهكتها الحروب وخوت خزائن الأموال ، فراح الأقوياء يهضمون حقوق الضعفاء ، وصارت الحياة بلا هدف كأنما كان خلق الكون باطلاً وعبثاً ، وفى ذلك الوقت الذى وصل فيه العفن إلى قلب البشرية ، كان الركب الصغير الذى خرج من مكة ، فراراً من الاضطهاد متجهاً إلى المدينة هو النور والأمل والبلسم الشافى لكل أمراض الإنسانية .

إنه إعلان أن لا عبودية بعد اليوم إلا لله وحده، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن الإنسان خليفة الله في أرضه، وأنه حر رقبته حرة وإرادته حرة، له أن يعتقد ما يشاء وأن يفكر كيف يشاء وأن يحتمل مسئولية حرية إرادته وحرية فعله وتفكيره، ولم تعد الحياة عبثاً تنتهى بخمود الأنفاس بل هى بداية لحياة أخرى خالدة، حياة توفى فيها كل نفس ما عملت ولا يظلم ربك أحداً.

أصبح العمل عبادة، وطلب العلم عبادة، وطهارة النفس والبدن عبادة، وإنفاق المال فيما أمر به الله عبادة، والصدق فى القول والعمل عبادة، وبر الوالدين عبادة، ومحاربة الظلم عبادة، وكف الأذى عن الناس عبادة، وبذل المعروف لأهله ولغير أهله عبادة، وحب الخير للبشرية جمعاء عبادة، والصبر على المكروه عبادة، وإمالة الأذى من الطريق صدقة، وابتسامتك فى وجه أخيك صدقة.

خرج محمد — ﷺ — من مكة ليس معه إلا صاحبه أبو بكر الصديق، ولم تمض إلا سنوات حتى عاد إلى مكة فى عشرة آلاف من الأبرار ليحطم الأصنام ويطهر منارة التوحيد من الشرك ويعيد للبشرية كرامتها، وقد فاضت النهضة التى سعدت بها الجزيرة العربية على الرومان والفرس فجددت شباب الحضارة المتداعية وزيتها بمكارم الأخلاق، فهرقل إمبراطور الروم لما بلغه نبأ تحطيم الأصنام فى البلاد العربية قام ينادى بإزالة التماثيل والصور من الكنائس فكانت حرب الصور، ولم ينجح هرقل فى أن يحقق بعض ما حققه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه، وظل الاستبداد الطبقي مسيطراً على الدولة الرومانية والدولة الفارسية، فكان على العرب حملة مشعل الحرية أن يغزوا دولتى الفرس والروم لتمكين الحرية والمساواة فى الأرض، والقضاء على الطبقة المستبدة العاملة على استعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

وسمع المسلمون في يثرب بخروج رسول الله ﷺ — من مكة فانتظروا قدومه ، فكانوا يخرجون إذا صلبوا الصبح إلى ظاهر حرّتهم ينتظرون رسول الله ﷺ — وأكثرهم لم يكونوا رؤا رسول الله ﷺ — إنهم سمعوا ما أنزل عليه من القرآن فانشروا صدورهم للإسلام ، كانوا يلقون أسماعهم إلى شعراء الأوس والخزرج يصيخون إلى ما يلقي في الأسواق من حكم وأشعار فكانوا يتذوقون البيان . فلما أنصتوا إلى آيات الله البينات أشرقت أفئدتهم بالأنوار ، فتلقفت يثرب وحى السماء في شوق وإكبار ، وفتح القرآن العظيم أبواب يثرب على مصاريعها للوafd الكريم .

وقدم رسول الله ﷺ — فخرجوا إليه وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر ، فازدحم الناس عليه وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ — فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفوه عند ذلك .

لم يعرفوه يوم مقدمه ، أما الآن فهو أبو الجميع والروح السارى فى جنابات المدينة والأسوة الحسنة والأمل المشرق قد نزل حبه فى سويداء القلوب ، إذا رآه الصغار هرعوا إليه فرحين فهو يغمرهم بعطفه ، ويداعبهم ويلاعبهم وما ينهر أحدا منهم بل يزجى إليهم النصيح فى حب غامر وحذب شديد ، وإذا مرّ بجى فسرعان ما تحلّ بهجة بالدور وتنسرخ صدور الرجال والنساء والولدان ، فهو يفشى السلام ويعود المرضى ويواسى المكروبين ، وإذا دعاه عبد أن ينطلق معه إلى السوق أو إلى أى مكان فإنه ينطلق معه يحدثه فى ود فهو على خلق عظيم .

وأخى — ﷺ — بين المهاجرين والأنصار ، فكان أبو بكر الصديق وخارجة بن زهير أخو بلحارث بن الخزرج أخوين ، وبلال مؤذن الرسول وأبو رويحة أخوين ، وقد ظل المهاجرون يذكرون هذه المؤاخذة حتى إنه لما دون عمر

ابن الخطاب الدواوين^(١) بالشام ، وكان بلال قد خرج إلى الشام فأقام بها مجاهدا ، قال عمر لبلال :

— إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟

— مع أئى رويحة لأفارقة أبدا ، للأخوة التى كان رسول الله — ﷺ — عقد

بينه وبينى .

وكان رسول الله — ﷺ — يدخل مجامع اليهود يجادلهم بالتى هى أحسن ، وكان أبو بكر الصديق يذهب إلى حيث كان اليهود يتدارسون كتابهم ويعرض عليهم الإسلام . وذات يوم دخل بيت المدارس على يهود فوجد منهم ناسا كثير اقد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ، ومعه خبر من أخبارهم يقال له أشيع ، فقال أبو بكر لفنحاص :

— ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، والله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل .

فقال فنحاص لأبى بكر :

— والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقر ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم .

وئارت الدماء فى عروق أبى بكر وغضب لله غضبا شديدا ، فضرب وجه فنحاص ضربا ألما وقال :

— والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله .

(١) ديوان : نصيب فى العطاء .

إن الرجل الحليم قد ثار الله، وإنه وهو الرجل السهل اللين إذا ثار الله لا يبقى ولا يذر، فبين جنبى جسمه النحيل قلب جيسور وعزم من حديد .
 وذهب فنحاص إلى رسول الله — ﷺ — فقال :
 — يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك .
 فقال رسول الله — ﷺ — لأبى بكر :
 — ما حملك على ما صنعت ؟
 — يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء .
 فلما قال ذلك غضبت لله مما قال وضربت وجهه .
 فجحد ذلك فنحاص وقال :
 — ما قلت ذلك .

وضايق أبابكر كذب عالم اليهود وحبرهم، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص رداعليه وتصديقا لأبى بكر : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق » (١) .
 ونزل فى أبى بكر الصديق وما بلغه فى ذلك من الغضب : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثير وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » (٢) ، ثم قال سبحانه وتعالى فيما قال فنحاص والأخبار معه من يهود : « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون . لا تحسن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » (٣) .

(١) آل عمران ١٨١ (٢) آل عمران ١٨٦ (٣) آل عمران ١٨٧، ١٨٨

غضب أبو بكر وكان قويا في غضبته ، وقد وضحت شخصيته القوية منذ ذلك اليوم ، فهو ليس بخوار وإنه لكفء لقتال الذين ارتدوا بعد موت رسول الله ﷺ — ومنعوا أداء الزكاة ، ولم يكن بين صحابة رسول الله ﷺ — غيره من يقول ما قال : « والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ — لحاربهم عليه » .

وكان أبو بكر قليل الكلام يتكلم بخير أو يصمت ، وكان يرى نعيمان وهو يداعب رسول الله ﷺ — أو يداعب أصحابه عليه السلام فيتسم . وقد حدث أن خرج أبو بكر في تجارة إلى بصرى بعد أن استقر الإسلام في مكة ومعه نعيمان وسويط بن سعد بن حرملة — وكان مزاحا يفرط في الدعابة — وكان نعيمان على الزاد فقال له سويط :

— أطمعني .

— لا ، حتى يجيء أبو بكر .

— أما والله لأغيطانك .

فمروا بقوم فقال لهم سويط :

— تشترون مني عبدا ؟

— نعم .

— إنه عبده كلام ، وهو قائل لكم إلى حر ، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة

تركتموه فلا تفسدوا على عبدي .

— بل نشتره منك .

فاشتروه منه بعشر قلائص ، فجاءوا فوضعوا في عنقه حبلا ، فقال نعيمان

الذي طالما أضحك النبي ﷺ — :

— إن هذا يستهزئ بكم وإني حر لست بعبد .

فقالوا له في استخفاف :

— قد أخبرنا خبرك .

فانطلقوا به ، فجاء أبو بكر فأخبره سويط ، فاتبعهم فرد عليهم القلائص وأخذه .

وبلغ أبو بكر مسجد رسول الله ﷺ — وصوت بلال يتردد في جنبات المدينة ، فدخل وهو يتلو بعض آيات الذكر الحكيم ، وكانت عيناه قد اعتادت على الظلام فرأى عمر بن الخطاب فذهب ليجلس إلى جواره خلف محراب الرسول — صلوات الله وسلامه عليه .

كان عمر جبارا في الجاهلية ينزل أقسى العذاب بمن تنكر لدين الآباء ، فكان يضطهد عامر بن ربيعة وزوجه أم عبد الله بنت أبي حثمة فيمن يضطهد من جيرانه الذين شرح الله صدورهم للإسلام ، فلما ضاق المسلمون باضطهاد قريش واستأذنوا رسول الله ﷺ — في الهجرة إلى الحبشة ، راحت أم عبد الله بنت أبي حثمة تتأهب للرحيل ، وذهب زوجها عامر في بعض حاجاتها ، وأقبل عمر بن الخطاب ورأى أم عبد الله وقد عزم على فراق أهل والوطن ، فإذا برقة تغمر قلب الرجل الجبار فيقول في صوت قد خلا من كل غلظة :

— إنه للانطلاق يا أم عبد الله .

— نعم والله لنخرجن في أرض الله آذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجنا .
— صحبتكم الله .

ورأت له رقة لم تكن تراها ، ثم انصرف وقد أحزنه خروجهما فجاء عامر بحاجته تلك فقالت له :

— يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا .

— أطمعت في إسلامه ؟

— نعم .

— فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب .

وكانت أم عبد الله أكثر فراسة من زوجها ؛ إنها لمست نفاسة معدن ابن الخطاب ، فلو أن صداً الجاهلية قد جلى عن قلب عمر ، ولو أن عمر قد فقه فى الدين لكان من خير رجال الإسلام ، إنه لو أسلم لكان إسلامه فتحاً ، فهو رجل ذو شكيمة لا يرام ما وراء ظهره .

وقد أثر خروج أم عبد الله وزوجها عامر فى نفس عمر تأثيراً عميقاً : كان يفكر فى ذلك الدين الذى هان فى سبيله العذاب والاضطهاد وفراق الأهل والصحاب وهجرة الأوطان ، وكان يلقى سمعه أحياناً إلى صوت عقله ولكن شبابه الثائر كان يصده عن أن يصغى إلى ما يهمس فى وجدانه من تدبر وتفكير ، فكان يدفعه إلى الحانات ليرتمى فى أحضان الغيبوبة التى تريحه من آلام أفكاره ، وإلى حلقات المصارعة فى الأسواق ليفتن بقوته النساء .

وفى لحظات صحوه كان فكره يؤرقه ، كان الدين الذى جاء به محمد بن عبد الله يعكر عليه صفو حياته ، إنه يتذكر المعذنين والمهاجرين وذلك الفراق الذى وقع بين الأب وبنيه والزوج وزوجته . إنها فتنة أصابت كل بيت ، ولن يخمد الثورة التى اندلعت فى مكة إلا قتل الصائى الذى سفه أحلام الآباء وأثار الأبناء على الآباء وجراً العبيد على السادة .

وخرج عمر متوشحاً سيفه يريد رسول الله — ﷺ — ورهط من أصحابه قد ذكروا له أنهم اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله — ﷺ — عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله — ﷺ — بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقى نعيم بن عبد الله النحام رجلاً من

قومه من بنى عدى ابن كعب قد أسلم وكان يستخفى لإسلامه فرقا من قومه ،
فقال نعيم لعمر :

— أين تريد يا عمر ؟

— أريد محمدا هذا الصبايى الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها
وسب آلهتها فأقتله .

وخفق قلب نعيم خوفا ؛ إنه يعلم جبروت عمر ، وأراد أن يكسر حدته وأن
يخوفه إنقاذا لحياة رسوله الذى أخرجه من الظلمات إلى النور ، فقال له نعيم :
— والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر . أترى بنى عبد مناف تاركيك
تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا !

وأراد أن يوجه عمر وجهة غير وجهته إلى رسول الله — ﷺ — ليبعد عنه
أذاه ، فقال :

— أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

— وأى أهل بيتى ؟

— ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ،
فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

لم يخن نعيم بن عبد الله سر سعيد بن زيد وفاطمة بنت الخطاب فقد كان هدفه
أسمى من أن يشي بهما . إنه يريد إنقاذاً لحياة رسول الله — ﷺ — وإن كل شئء
دون حياة الرسول عليه السلام يهون ، وإن صلة الرحم التى بين عمر وأخته
فاطمة قد يكون لها أطيب الأثر فى ثورة ابن الخطاب ، فلن يصل به غضبه إلى أن
يقتل أخته بينما كان عازما على قتل من فرق أمر قريش وسفه أحلامها .
ودخل عمر بيت أخته وبطش بسعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت
الخطاب لتكفه عن زوجها فضر بها فشجها . فلما رأى ما بأخته من الدم ندم على

ما صنع فارعوى وقال لأخته :

— أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون أنفا أنظر ما هذا الذي جاء به

محمد !

قرأ عمر القرآن بقلبه فإذا بالغشاوة تنزاح عن عين بصيرته ، وطاب فؤاده فإذا
بأنوار تنسكب فيه لتشع بالهداية في أرجاء وجدانه ، وإذا بنسائم الألفاظ تهب
عليه ففاضت عليه الرحمة حتى دمعت عيناه فسالت عبراته لتغسل كل أدران
ماضيه ، واستشعر كأنما قد خلق من جديد فرفع بصره عن الصحيفة وقال :

— ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

وأسلم عمر فكان إسلامه فتحا ، وأراد أن يعلن إسلامه على الملأ فقال :

— أى قریش أنقل للحديث ؟

— جميل بن معمر الجمحى .

فغدا عليه حتى جاءه فقال له :

— أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت في دين محمد ؟

فقام جميل يجرداءه واتبعه عمر ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى

صوته :

— يا معشر قریش ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .

ويقول عمر من خلفه :

— كذب ولكن قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده

ورسوله .

كانوا في أنديتهم حول الكعبة فتأروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاثلونه حتى

قامت الشمس على رءوسهم وبلغ به الإعياء فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول :

— افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها

لكم أو تركتموها لنا .

كان المسلمون قد صاروا أربعين بعد إسلام عمر ، ولو كانوا ثلاثمائة رجل لما سكتوا على اضطهاد قريش . فبينما هم يوسعونه ضربا إذا قبل العاص بن وائل عليه حلة جبرة حتى وقف عليهم فقال :

— ما شأنكم ؟

— صباً عمر .

— فمه ! رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أتريدون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هكذا ؟ خلّوا عن الرجل .

فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه ، وخرج عمر من الكعبة وانطلق إلى دار أبى جهل وكان يعلم أنه أشد أهل مكة عداوة لرسول الله ﷺ — ليخبره أنه قد أسلم ، وراح يضرب عليه بابه فخرج إليه أبو جهل فقال :

— مرحبا وأهلا بابن أختى . ما جاء بك ؟

— جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به .

فضرب الباب فى وجهه وقال :

— قبحك الله وقبح ما جئت به .

وفزعت قريش لإسلام عمر بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب ، فهما لا يهابان أحدا ويصران على أن يعلنّا إسلامهما فى الكعبة وأن يمارس المسلمون شعائر دينهم فى بيت الله الحرام . ففشأمر محمد — صلوات الله وسلامه عليه — فى قبائل قريش كلها ، وتأرجحت هيئة سادات البيت العتيق ، بل أصبح الخطر يهدد مكانة الكعبة قبله قبائل العرب كلها والعروة الوثقى التى تربط العدنانيين والقحطانيين على السواء .

وبلغ الذين هاجروا إلى الحبشة نبأ إسلام عمر فأفعموا بالسرور وكانت أم

عبد الله بن أبي حثمة أكثرهم فرحا فقد رأت بعين بصيرتها جوهر عمر النفيس على الرغم مما كان يبدو عليه من غلظة ، وكانت تطمع في إسلامه وإن سخر منها زوجها وقال : « فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب » . وها هو ذا عمر يهتدى إلى الطريق ويشرح الله صدره للإسلام فيصدق حدسها ، وقد شجع إسلام عمر كثيرا من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة على أن يعودوا إلى مكة ليقيموا إلى جوار إخوانهم في وجه الطغيان .

وكانت هجرة عمر إلى المدينة نصرا ، فقد اتعد لما أراد الهجرة هو وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل أن يتقابلوا عند التناضب على بعد عشرة أميال من المدينة وقالوا :

— أينما لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحبه .

كان عمر لا يخشى أن يحبسه قومه فقد عزم على أن يخرج على رعوس الأشهاد ، ولكنه كان يخشى أن يحبس أحد صاحبيه . فلو علم أبو جهل بخروج عياش فلن يتردد في حبسه ، ولو علم العاص بن وائل بخروج ابنه فسيرغمه على البقاء في مكة قسرا . وخرج عمر وقد توشع سيفه وقال قولته المشهورة : « من يريد أن تشكله أمه فليقابلني خلف هذا الجبل » . وسار ولم يجرؤ أحد على أن يعترض سبيله ، وأصبح هو وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب وحبس عنهما هشام وقتن فافتتن . وقدا المدينة فنزلا في بني عمرو بن عوف في قباء . وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهاتهما حتى قدما عليه المدينة ، ولم يحاول أبو جهل أن يجادل ابن أخته عمر بن الخطاب أو أن يغريه بالعودة إلى مكة ، بل تقدم هو والحارث بن هشام إلى عياش فكلماهما وقالوا : — إن أملك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فَرَّقْ لَهَا .

فقال عمر لعياش :

— يا عياش إنه والله إن يردك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد أذى أملك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت .
— أبر قسم أمى ولى هنالك مال فأخذه .

فقال عمر فى صدق :

— والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قریش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى عليه إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلا ذلك قال له :
— أما إذ فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجبية ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم فانج عليها .

فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل :
— يا بن أخى والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟
— بلى .

فأناخ وأناخوا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة نهرا موثقا وقالا :

— يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهاكم كما فعلنا بسفينا هذا .
وفتناه فافتن ، فكان المسلمون فى المدينة يقولون :

— ما الله قابل من افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى

الكفر لبلاء أصابهم !

وكان الذين افتتنوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله ﷺ —
المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفى قول المسلمين وقول الذين افتتنوا فى أنفسهم : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب

جميعاً إنه هو الغفور الرحيم . وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » (١) .

فكتبها عمر بيده في صحيفة وبعث بها إلى هشام بن العاص ، فلما أخته جعل يقرأها بذى طوى (٢) ويعيد قراءتها ولا يفهمها حتى قال :
— اللهم ففهميها .

فألقي الله تعالى في قلبه أنها أنزلت فيهم وفيما كانوا يقولون في أنفسهم ويقال فيهم ، فرجع إلى بعيره فجلس عليه فلحق برسول الله — ﷺ — وهو بالمدينة .

وكان الناس يجتمعون إلى رسول الله — ﷺ — للصلاة لحين موافقتها بغير دعوة ، فهم رسول الله — ﷺ — أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم ثم كرهه ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس إذ رأى في المنام : لا تجعلوا الناقوس بل أذنوا للصلاة .

فذهب عمر إلى النبي — ﷺ — ليخبره بالذي رأى ، فمأراه إلا بلال يؤذن فقال له رسول الله — ﷺ :
— قد سبقك بذلك الوحي .

وكان بلال يؤذن على أطول بيت حول المسجد وكان لامرأة من بنى النجار ، وكان يأتي بسحر فيجلس على البيت ينتظر الفجر ، فإذا رآه تمطى ثم قال :

(١) الزمر : ٥٣ — ٥٥ (٢) طوى : مكان بأسفل مكة .

(حجة الوداع)

— اللهم إني أحمذك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك .
وما كان يتركها ليلة واحدة حتى جاء نصر الله والفتح .

وكانت غزوة بدر وكان رجال من بنى هاشم في صفوف المشركين قد خرجوا مع قريش مستكرهين وهم يخفون إسلامهم حتى لا ينكشف أمرهم ، فهم مخبرات الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وكان العباس بن عبد المطلب كبيرهم وما كان من الحكمة أن يكشف النبي عليه السلام أمرهم ، فقال لأصحابه :

— إني قد عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري ابن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها .
فقال أبو حذيفة :

— أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ! والله لئن لقيته لألجمنه (١) السيف .

فبلغت رسول الله — ﷺ — فقال لعمر بن الخطاب :
— يا أبا حفص أ يضرب وجه عم رسول الله — ﷺ — بالسيف ؟
إنه لأول يوم كنى فيه رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب بأبي حفص ، فقال عمر :

— يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق .
وانبلجت الحقيقة لعيني أبي حذيفة فكان يقول :

(١) لألجمنه : لأطعن لحمه بالسيف ولأخالطنه به .

— ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة .

فقتل يوم اليمامة شهيدا .

وانقضت غزوة بدر ولكن لم تنقض أحقادها ، فقد مر سعيد بن العاص بعمر ابن الخطاب فقال له عمر :

— إنني أراك كأن في نفسك شيئا : أراك تظن أني قتلت أباك ، إنني لو قتلتك لم أعتذر إليك عن قتله ، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه (بقرنه) فحدث عنه ، وقصد له ابن عمه علي فقتله .

فذهب أبو الحسن بأحقاد بدر كلها .

وبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف فقال :

— هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذي حرش بيننا وحزنا (قدّر عددنا تخميناً) للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ — فقال :

— يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه .
— فأدخله علي .

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبّيه بها وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :

— ادخلوا على رسول الله ﷺ — فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غير مأمون .

— ٥٢ —

ثم دخل به على رسول الله ﷺ — فلما رآه رسول الله ﷺ — وعمر
أخذ حمالة سيفه فى عنقه قال :

— أرسله يا عمر ، ادن يا عمير .

فدنا ثم قال :

— أنعموا صباحا .

— قد أمرنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة .

— أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

— فما جاء بك يا عمير ؟

— جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه .

كان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر ، فقال عليه السلام :

— فما بال السيف فى عنقك ؟

— قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئا ؟

— أصدقتنى ما الذى جئت له ؟

— ما جئت إلا لذلك .

— بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القلب

من قریش ثم قلت : لولا دَينِ علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا .

فتحمل لك صفوان بدینك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين
ذلك .

فظهر الدهش فى وجه عمير ثم قال :

— أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من

خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان .

فوالله إنى لا أعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا

المساق .

ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ﷺ :

— فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره .

وراح عمر ينظر إلى عمير في دهش ، فالرجل الذي كان جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، قد أشرق قلبه بالأنوار وأصبح يلتمس من رسول الله أن يأذن له أن يقدم مكة فيدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ — وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذاهم في دينهم كما كان يؤذى أصحاب رسول الله ﷺ .

وكانت غزوة أحد وقتل وحشى حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة هرب وحشى إلى الطائف فمكث بها ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا سدت في وجهه السبل فقال :

— ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد .

وإنه لفى ذلك من همة إذ قال له رجل :

— ويحك ! إنه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل في دينه وتشهد بشهادته .

فلما قال له ذلك خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ — المدينة ، فلم يؤرعه عليه السلام إلا به قائما على رأسه يشهد بشهادة الحق ، فلما رآه قال :

— أو حشى ؟

— نعم يا رسول الله .

— أقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة .

— كنت غلاما لجبير بن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم

بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق ، فخرجت مع الناس وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة فلما أخطىء بها شيئا ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى غرض الناس مثل الجمل الأورق (١) ، يهد الناس بسيفه هذا ما يقوم له شىء ، فوالله إني لأتمنيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى ، إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له :

— هلم إلى يا بن مقطعة البظور .

فضر به ضربة كان ما أخطأ رأسه ، وهزرت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجله ، وذهب لينوء نحوى فغلب ، وتركنه وإياها حتى مات ثم أتيت فأنخذت حربتى ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة وإنما قتله لأعتق .

— ويحك ! غيب عنى وجهك فلا أرينك .

فكان يتنكب رسول الله — ﷺ — فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرج وحشى معهم وأنخذ حربته التى قتل بها حمزة ، فلما التقى الناس رأى مسيلمة الكذاب قائما فى يده سيفه وما يعرفه ، فتهبأ له وتهبأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى كلاهما يريد ، فهز حربته حتى إذا رضى منها دفعها عليه فوقعت فيه ، وشد عليه الأنصارى فضره بالسيف فربك أعلم أيهما قتله ، فإن كان قتله فقد قتل خير الناس بعد رسول الله — ﷺ — وقد قتل شر الناس .

ولم يستطع وحشى أن يمتنع عن الشراب فلم يزل يُحد فى الخمر حتى تُخلع من

(١) الجمل الأورق : الذى لونه بين الغيرة و، سواد ، سماه كذلك لما عليه من الغبار .

الديوان ولم يعد له عطاء مثل غيره من المسلمين ، فكان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يقول :

— وقد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة .

ورمى عتبة بن أبى وقاص رسول الله ﷺ — يوم أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى ، وشجه عبد الله بن شهاب الزهرى فى جبهته ، وجرح ابن قمئة وجنته فدخلت حلقتان من حلقتى المغفر فى وجنته ، ووقع رسول الله ﷺ — فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون . وأوسع ابن قمئة الأرض إذاعة أن محمدا قتل فقعد المسلمون عن القتال ، وانتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال :

— ما يُجلسكم ؟

— قتل رسول الله ﷺ .

— فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ .

ثم استقبل القوم يقاتل قتال الأسود الكواسر ، يتلقى الطعنات فى صبر ، ولم يسقط شهيدا إلا بعد أن ضرب بسيف المشركين سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته عرفته بينانه .

وكان أول من عرف رسول الله ﷺ — بعد الهزيمة ، وقول الناس قتل رسول الله ﷺ — كعب بن مالك ، عرف عينيه تضيئان من تحت المغفر فنادى بأعلى صوته :

— يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ — .

فأشار إليه رسول الله ﷺ — أن أنصت ، فلما عرف المسلمون رسول الله

— ﷺ — أخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله — ﷺ — ورفع طلحة بن عبد الله حتى استوى قائما . ومص مالك بن سنان ، أبو أئى سعيد الخدرى الدم عن وجه رسول الله — ﷺ — وانطلق رسول الله عليه السلام نحو الشعب معه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصمة ورهط من المسلمين ، وجاء أبو عبيدة بن الجراح ونزع إحدى الحلقتين من وجه رسول الله — ﷺ — فسقطت ثنيته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين .
ثم إن أبا سفيان بن حرب لما أراد الانصراف أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته فقال :

— إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، اعل هبل .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— قم يا عمر فأجبه قتل : الله أعلى وأجل لا سواه ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان :

— هلم إلى يا عمر .

فقال رسول الله — ﷺ — لعمر :

— ائتته فانظر ما شأنه .

فجاءه فقال له أبو سفيان :

— أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟

— اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن .

— أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر .

عرف أبو سفيان قائد قريش أن رسول الله — ﷺ — لم يقتل ، فلماذا لم يأمر

باستئفاف القتال حتى يقضى على المسلمين ونبي الإسلام ويستأصل ذلك الخطر الذى بات يهدد قريش فى المدينة؟ إن كان الجهد قد نال من المسلمين، وإن كان قد مسهم جراح فقد مس الكافرين جراح مثلها، وما كانت نتائج المعركة إذا ما استؤنفت مضمونة، فأثر أبو سفيان أن يعود ظافرا منتصرا وإن لم يكن نصرا حاسما من أن يخاطر مخاطرة قد تكون نتائجها وبالا عليه وعلى قومه.

وبعد ست سنوات من الهجرة خرج رسول الله ﷺ — عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل فكانت كل بدنة عن عشرة نفر. وانطلق المسلمون معتمرين حتى إذا بلغوا الحديبية أمر رسول الله ﷺ — الناس بالنزول فنزلوا، ومشت السفارات بين رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — وبين قريش فقالت قريش :
— والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تحدث بذلك عنا العرب .

ثم دعا عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال :

— يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان .

فدعا رسول الله ﷺ — عثمان بن عفان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت للحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة . وكان صلح الحديبية، وثار عمر بن الخطاب ثورة عارمة، إنه ينكر الصلح ولا يقره فأتى أبابكر فقال :

— يا أبابكر أليس برسول الله ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

— بلى .

— فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

— يا عمر الزم غُرزة ، فإنى أشهد أنه رسول الله .

— وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أألسنت برسول الله ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

— بلى .

— فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

— أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني .

وفي أثناء العودة إلى المدينة نزلت سورة الفتح : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا .

ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا

مستقيما » (١) . وعلم عمر أنه تسرع لما أنكر على رسول الله — ﷺ — الصلح ،

ثم جاء فتح مكة فتقاصرت نفس عمر وأرهقه ضميره المرهف ، فما زال يتصدق

ويصوم ويصلى ويعتق من الذى صنع يوم الحديبية ، مخافة كلامه الذى تكلم به .
وأجمع رسول الله ﷺ — المسير إلى مكة فكتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا
إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ — من الأمر فى السير
إليهم ، ثم أعطاه سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب وجعل لها جُعلا على أن تبلغه
قريشا ، فجعلته فى رأسها ثم قتلت عليه قرونها ثم خرجت به .

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث على بن أبى طالب
والزبير بن العوام فقال :

— أدر كما امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم
ما قد أجمعنا له من أمرهم .

فخرجوا حتى أدركاها بالخليفة خليقة بنى أحمد فاستنزلاها فالتمسا فى رحلها
 فلم يجدوا شيئا ، فقال لها على ابن أبى طالب :

— إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ — ولا كُذِّبنا ، ولتخرجن لنا
هذا الكتاب أو لنكشفنك .

فلما رأَت الجد منه قالت :

— أعرض .

فأعرض فعلمت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأتى به
رسول الله ﷺ — فدعا رسول الله ﷺ — حاطبا فقال :

— يا حاطب ما حملك على هذا ؟

— يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت وما بدلت ، ولكنى
كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل
فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب :

— يا رسول الله دعنى فلاضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق .
— وما يدريك يا عمر لعل الله قد أطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال :
« اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

فأنزل الله تعالى في حاطب : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِي وَعَدُوَكُمْ
أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ
أَنْ تَوَدُّوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ
إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
السَّبِيلِ . إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا أَعْدَاءُ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ
وَوُدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ . لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا
لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ
وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَاؤُنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . رَبَّنَا لَا
تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَارْحَمْنَا رَحْمَةً رَافِعَةً لِنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ » (١) .

و ذات يوم استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ — وعنده نسوة
من قریش يكلمنه ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر بن
الخطاب قمن فبادرن بالحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ — فدخل عمر
ورسول الله ﷺ — يضحك ، فقال عمر :

— ٦١ —

— أضحكك الله سنك يا رسول الله .
 — عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن بالحجاب .
 — فأنت أحق أن يهين يا رسول الله .
 ثم قال عمر :
 — يا عدوات أنفسهن أتهنئ ولا تهين رسول الله ؟
 — نعم ، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله .
 فقال رسول الله — ﷺ :
 — إياها يا بن الخطاب ، والذي نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فحك .

* * *

ودخل مسجد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — عثمان بن عفان ذو النورين تعلوه السكينة والوقار ؛ إنه رجل تستحي منه الملائكة ، وكان عثمان جسرا من الجسور التي تربط بنى هاشم ببني أمية ، فأمه أروى بنت عامر بن كرز وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب ، وكانت البيضاء وعبد الله أبو رسول الله — ﷺ — توأمين ، وكان أبوه أبا العاص بن أمية فهو هاشمي من جهة أمه وأموى من جهة أبيه .

وكان عثمان يألف أبا بكر ، فلما أسلم أبو بكر دعا عثمان إلى الإسلام فدخل فيه ، وكان عثمان في الرابعة والثلاثين لما اعتنق الدين الجديد ، وقد تزوج رقية بنت رسول الله — ﷺ — وقد اضطهده عمه الحكم بن العاص وأنزل به سوط عذاب ، فكان عثمان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية إلى الحبشة معه امرأته رقية ، وتوطدت الصداقة بينه وبين النجاشي ولكنه لما سمع بأن الله أعز الإسلام

بعمر بن الخطاب عاد إلى مكة ليكون إلى جوار رسول الله ﷺ — ثم هاجر عثمان إلى المدينة فنزل على أوس بن ثابت بن المنذر أخى حسان بن ثابت . ولما آخى رسول الله ﷺ — بين المهاجرين والأنصار آخى بين عثمان بن عفان لكماله وحسن خلقه وأوس بن ثابت . وقد آخى رسول الله ﷺ — بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة ، أنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ (١) . فلم يعد من آخى بينهما الرسول يرث أحدهما الآخر ، بل أصبح الميراث من حق أولى الأرحام ، ثم جعل الله المؤمنين كلهم إخوة في التوادة وشمول الدعوة ، فقال جل من قائل : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (٢) .

وكانت غزوة بدر وتخلف عنها عثمان بن عفان ، فقد كان إلى جوار زوجته رقية التى كانت تجود بأنفاسها . وجاء خبر النصر وعثمان يسوى التراب على ابنة رسول الله ﷺ — فقد ماتت ذات المهجرتين قبل أن تسعد روحها الطاهرة بالبشرى . وأقبل رسول الله ﷺ — على المدينة وقد شاع فيها السرور بنصر الله ، ودخل مسجده وصلى فيه ركعتين شكرًا لله ، ثم دخل على فاطمة الزهراء فوجدها تسح الدموع على رقية الحبيبة فاعتصر الحزن قلبه وجعل يمسح دموع الزهراء بطرف ثوبه .

وضرب رسول الله ﷺ — لعثمان بسهمه فقال عثمان :
— وأجرى يا رسول الله ؟
— وأجرك .

وفر عثمان فيمن فر يوم أحد وعفا الله عنه وغفر له ، وقد أمره رسول الله ﷺ — أن يضرب عنق الحارث بن سويد . وكان الحارث منافقا فخرج يوم أحد مع المسلمين ، فلما التقى الناس عدا على المجذر بن زياد البلوى وقيس بن زيد فقتلها ، ثم لحق بمكة بقريش ، وكان رسول الله ﷺ — قد أمر عمر بن الخطاب بقتله إن ظفر به ففاته فكان بمكة ، ثم بعث إلى أخيه الجلاس بن سويد يطلب التوبة ليرجع إلى قومه ، فبينما رسول الله ﷺ — في نفر من أصحابه إذ خرج الحارث بن سويد من بعض حدائق المدينة وعليه ثوبان في لون الدم ، فأمر به رسول الله ﷺ — عثمان فضرب عنقه .

وبعث رسول الله ﷺ — عثمان بن عفان إلى أبي سفيان وأشراف قريش يوم الحديبية يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمة ، فخرج عثمان إلى مكة فلقه إبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فحملة بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ — فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ — ما أرسله به ، فقالوا له حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ — إليهم : — إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

— ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ — واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ — والمسلمين أن عثمان قتل ، فقال رسول الله ﷺ — :

— لا نبرح حتى نناجز القوم .

فدعا رسول الله ﷺ — الناس للبيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وكانت البيعة على ألا يفروا ، ثم أتى رسول الله ﷺ — أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل .

وفتحت مكة ثم تأهب المسلمون للخروج إلى تبوك ، وحض رسول الله ﷺ — أهل الغنى على النفقة والحملان فأنفق عثمان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فقال رسول الله ﷺ :

— اللهم ارض عن عثمان فإنني عنه راض .

وتوضأ أبو موسى الأشعري في بيته ذات يوم ثم خرج فقال :

— لألزم من رسول الله ﷺ — ولأكون معه يومى هذا .

فجاء المسجد فسأل عن النبي — فقالوا :

— خرج ووجهه ههنا .

فخرج على أثره يسأل عنه حتى دخل بئر أريس ، فجلس عند الباب وباها من

جريد حتى قضى رسول الله ﷺ — حاجته فتوضأ ، فقام أبو موسى إليه فإذا

هو جالس على بئر أريس وتوسط حافة البئر وكشف عن ساقيه ودلاهما

في البئر ، فسلم أبو موسى عليه ثم انصرف ، فجلس عند الباب فقال :

— لأكونن بواب رسول الله ﷺ .

فجاء أبو بكر فدفع الباب فقال أبو موسى :

— من هذا ؟

— أبو بكر .

— على رسلك .

ثم ذهب أبو موسى فقال :

— يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن .

— ائذن له وبشره بالجنة .

فأقبل أبو موسى حتى قال لأبي بكر :

— ادخل ورسول الله ﷺ — يبشرك بالجنة .

فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ — ودلى رجله في البئر كما صنع النبي ﷺ — وكشف عن ساقه .

ثم رجع أبو موسى فجلس فإذا إنسان يحرك الباب فقال :

— من هذا ؟

— عمر بن الخطاب .

— على رسلك .

ثم جاء أبو موسى إلى رسول الله ﷺ — فسلم عليه فقال :

— هذا عمر بن الخطاب يستأذن .

— ائذن له وبشره بالجنة .

فجاء أبو موسى فقال له :

— ادخل وبشرك رسول الله ﷺ — بالجنة .

فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ عن يساره ودلى رجله في البئر .

ثم رجع أبو موسى فجلس فجاء إنسان يحرك الباب فقال :

— من هذا ؟

— عثمان بن عفان .

— على رسلك .

فجاء أبو موسى إلى رسول الله ﷺ — فأخبره فقال :

— ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه .

فجاء أبو موسى فقال له :

— ادخل وبشرك رسول الله ﷺ — بالجنة على بلوى تصيبك .

ودخل عثمان بن عفان فغطى رسول الله ﷺ ما انكشف عن ركبته .

بشر رسول الله ﷺ — عثمان بالجنة ، فلم يمش عثمان في الأرض مرحابا بل

(حجة الوداع)

— ٦٦ —

كان يرتجف من خشية الله ، وكان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقليل له :

— تذكر الجنة والنار ولا تبكى وتبكي من هذا ؟

— إن رسول الله ﷺ قال : إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن

نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه .

كان عثمان بن عفان ورعا تقيا حليما أوأها دمث الخلق ، زوجه رسول الله

ﷺ — ابنتين ؛ فلما ماتت أم كلثوم قال له ﷺ :

— لو كان عندنا ثلاثة لزوجنا كلها .

وبشره رسول الله ﷺ — بالجنة ، ولكن لما كثر ظلم الناس له أرادوا أن

يخصوه فضله وأن يسلبوه محاسنه ، فقد جاء رجل من أهل مصر حج البيت

فرأى قوما جلوسا فقال :

— من هؤلاء القوم ؟

— هؤلاء قریش .

— فمن الشيخ فيهم ؟

— عبد الله بن عمر .

— يا بن عمر إني سألك عن شيء فحدثني عنه . هل تعلم أن عثمان فر يوم

أحد ؟

— نعم .

— هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟

— نعم .

— هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدا ؟

— نعم .

— الله أكبر !

— تعال أبين لك . أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ، وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ — وكانت مريضة ، فقال له رسول الله ﷺ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه ، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله ﷺ — عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول الله ﷺ — بيده اليمنى : هذه يد عثمان ف ضرب بها على يده فقال هذه لعثمان .

* * *

وهبط بلال بعد أن أذن بالفجر من فوق أعلى بيت بجوار مسجد الرسول ، وخرج رسول الله ﷺ — أطيب رائحة من المسك فقام أقرب الناس منه فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم . وتقدم عليه السلام إلى المحراب وقد تواضع لله ووقف يصلى وقد اصطف خلفه أصحابه قد ملئت أقدتهم تقوى وازدادوا علما فازدادوا من ربهم قربا ، تجنبوا محارم الله وأدوا فرائض الله وعملوا بالصالحات من الأعمال ، ووقروا وجدانهم أن الأجل دون الأمل ، فبادروا الأجل بالعمل ليزدادوا في عاجل الدنيا رفعة وكرامة ، وينالوا في آجل العقبى بصالح أعمالهم من ربهم القرب والعز والفوز الأكبر .

كانوا رعاة أو تجارا وكان من المفروغ منه أن يمروا كأجدادهم في قافلة الحياة دون أن تستشعر بهم البشرية ، ولكن القرآن العظيم وأسوة رسول الله ﷺ — الحسنة جعلت منهم أعظم حكام وأعدل قضاة وأشهر قواد ، وقد دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه وأطهره ، فقد أصبحوا على يقين من أنهم لم يخلقوا عبثا ولن يتركوا سدى ، وأن الله سائلهم عما هم فيه وعما عملوا به ، فقد قال لهم رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — ومعلمهم الأكبر : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن علمه ما عمل به ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين

اكتسبه وفيه أنفقه ، وعن جسده فيم أبلاه .
 أرهفت حواسهم فلم يكن شيء أحب إليهم من الإصلاح ولا أبغض إليهم من
 الفساد ، فكانوا يحاسبون أنفسهم قبل أن تنكشف أقنعتهم فيما بينهم وبين الله في
 مجمع الأَشهاد ، فجعل الله لهم نورا يمشون به في الناس ومن لم يجعل الله له نورا فما
 له من نور .

كانوا يعملون بالحق ليوم لا يقضى فيه إلا بالحق ، فكان حكامهم حكماء ،
 وأموالهم في أيدي السامعاء ، يأمررون بتقوى الله ويخلصون العمل لله ، ويخلصون
 الرغبة بالرهبة ، يأمررون بما أمر الله به ، وينهون عما نهى الله عنه ، يعلمون أن
 الطمع فقر ، وأن اليأس غنى ، وأن في العزلة راحة من خلطاء السوء ، الحياة عليهم
 نعمة ، والموت لهم كرامة ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس : « كنتم خير أمة
 أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل
 الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (١) .

كان طسّم وجديس من ساكنى اليمامة ، وهى إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيرا وثمّارا وحدائق وقصورا . وكان ملك طسّم غشوما لا ينهّاه شيء عن هواه ويقال له عُمْلوق ، وكان مضرا لجديس مستذلا لهم حتى كانت البكر من جديس لا تنهى إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفتريها ، وكان السبب فى ذلك أن امرأة منهم كان اسمها هُزيلة طلقها زوجها وأخذ ولده منها ، فأمر عملوق ببيعها وأخذ زوجها الخمس من ثمنها ، فقالت شعرا تتظلم منه فأمر ألا تتزوج منهم امرأة حتى يفتريها ، فقاموا كذلك حتى تزوجت الشمسوس وهى غفيرة ابنة غفار بن جديس أخت الأسود ، فافتضها عملوق فقال الأسود بن غفار لرؤساء جديس :

— قد ترون ما نحن فيه من الذل والعار الذى ينبغى للكلاب أن تعافه فأطيعونى ، فإنى أدعوكم إلى عز الدهر .

— وما ذاك ؟

— أصنع للملك وقومه دعوة ، فإذا جاءوا نهضنا إليهم بأسيا فنفقتلهم . فأجمعوا على ذلك ودفنوا سيوفهم فى الرمل ، ودعوا عملوقا وقومه فلما حضروا قتلوهم فأفئوهم . وقتل الأسود عملوقا وقد حسب أنه قد استراح من طسّم وظلمهم ، ولكن رباح بن مرة بن طسّم أفلت فأتى حسان بن تبع مستغيثا ، فنهض حسان فى حمير لإغاثة حتى كان من اليمامة على ثلاث مراحل ، قال لهم رباح :

— إن لى أختا مزوجة فى جديس اسمها اليمامة ليس على وجه الأرض أبصر

منها ، وإنها لتبصر الراكب على ثلاث مراحل وأخاف أن تنذز القوم .
فأمر كل رجل أن يقلع شجرة فيجعلها في يده ويسير كل كأنه خلفها ، ففعلوا
وبصرت بهم اليمامة فقالت لجديس :

— لقد سارت إليكم حمير ، وإنى أرى رجلا من وراء شجرة بيده كتف
يتعرقها أو نعل يخصفها .

فاستبعدوا ذلك ولم يحفلوا به ، وصحبهم حسان وجنوده من حمير فأبادهم
وضرب حصوتهم وبلادهم ، وهرب الأسود بن غفار إلى جبلى طيء فأقام بها
ودعا تبع باليمامة أخت رباح التى أبصرتهم فقلع عينها ، وكانت تلك البلد جَوَّ
فسميت باليمامة اسم تلك المرأة .

وبقيت اليمامة بعد طسم يبابا لا يأكل ثمرها إلا عوافى الطير والسباع ، حتى
نزلهابو حنيفة وكانوا بعثوارئدهم عبيد بن ثعلبة الحنفى يرتادهم فى البلاد ، فلما
أكل من ذلك الثمر قال :
— إن هذا لطعام .

وانتشرت النصرانية فى الحبشة بعد أن ازدهرت فى الشام ، فأراد قيصر أن
يتصل نصارى الشمال بنصارى الجنوب عبر جزيرة العرب وأن يقوض البيت
العتيق الذى يجمع قبائل العرب لعل راية النصرانية ترفرف على طول الطريق من
الحبشة إلى روما ، فأمر قيصر النجاشى أن يغزو جزيرة العرب وأعانه على ذلك ،
فاستولت الحبشة على اليمن ، ثم خرج أبرهة وأصحاب الفيل ليهدموا الكعبة
فجعل الله كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من
سجيل ، فجعلهم كعصف ماكول .

وانسحبت فلول جيش أبرهة إلى اليمن وظل الاحتلال الحبشى جاثما على أرض
اليمن ، فخرج سيف بن ذى يزن الحميرى حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا

إليه ما هم فيه وسأله أن يخرجهم عنه ويلبهم هو ويبعث إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن ، فأعرض عنه قيصر ولم يجد عنده شيئا مما يريد .

وانطلق سيف بن ذى يزن إلى كسرى وكانت العداوة ناشبة بين الفرس والروم ، فأمد كسرى سيف بن ذى يزن بالمقاتلين فانتصر سيف والفرس على الحبشة وصارت اليمن منطقة نفوذ للفرس ، فكان الأكاسرة يبعثون قوافل التجارة من فارس إلى اليمن في حماية ملوك اليمن .

وقد أجار هوذة بن علي الحنفي صاحب الإمامة قافلة لكسرى ، فلما وفد هوذة عليه توجه وملكه فأصبح هوذة ملكا على الإمامة .

وكانت اليمن أكثر بلاد العرب حضارة للصلة الوثيقة التي كانت بينها وبين فارس ، فلما بعث الله رسوله — ﷺ — قال أعداؤه :

— إنما يعلمه رجل من الإمامة .

وسمعت اليمن بالدين الجديد ورسول الله — ﷺ — بمكة ، فقد جاء الطفيل ابن عمرو الدوسي إلى الحرم وسمع القرآن من النبي — صلوات الله وسلامه عليه — فشرح الله صدره إلى الإسلام ، فلما عاد إلى قومه أسلمت دوس وأسلم أبو هريرة ، وألقى الناس أسماءهم إلى قرآن محمد ، وكان مسيلمة يصغى إلى ما يتلى عليه فكان الحسد ينهش فؤاده ويتمنى لو أن ذلك النور قد نزل عليه ، وبقيت اليمن في ظلمات الجاهلية فخورا بما أتاها من فارس ، حتى إذا ما كان صلح الحديبية أرسل عليه السلام الرسل إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام .

وخرج سليط بن عمرو أخو سهيل بن عمرو من المدينة يحمل كتاب رسول الله — ﷺ — إلى هوذة بن علي ملك الإمامة الذي توجه كسرى ، فلما مثل بين يديه قدم إليه الكتاب ففضه هوذة وراح يقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي . سلام على

من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر . فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يدك » .

وكان عند هودّة عظيم من النصارى فقدم إليه الكتاب ، فلما انتهى من قراءته رفع رأسه إلى الملك وقال له :

— لم لا تنجيّه ؟

— أنا ملك قومى ولئن اتبعته لم أملك .

— بلى والله لئن اتبعته ليملكنك وإن الخير لك فى اتباعه ، وإنه للنبي العربى الذى بشر به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل .

وأطرق الملك ونظر إليه سليط طويلا ، إنه يخاف على ملكه وإن سليط ليعرفه جيدا فلطالما جاء إلى اليمامة ودخل عليه ، وسادت فترة صمت ثم قال له سليط :
— تسويد كسرى إياك هو أعظم حائل بينك وبين الإسلام ، إنما السيد من متع بالإيمان ثم تزود بالتقوى . وإن قوما سعدوا برأيك فلا تشقين به ، وأنا آمرك بخير مأمور به وأنهاك عن شر منهى عنه . آمرك بعبادة الله وأنهاك عن عبادة الشيطان فإن فى عبادة الله الجنة وفى عبادة الشيطان النار . فإن قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت . وإن أبيت فبيننا كشف الغطاء وهول المطلع .
فقال هودّة فى حيرة :

— سودنى من لو سودك تشرفت به ، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور فقدته ، فاجعل لى فسحة ليرجع إلّى رأيى فأجيبك .

لم يكن يخطر على قلب هودّة أن أتباع ذلك الدين الجديد سيقوضون ملك من توجه ، وما كان بقادر على أن يتصور أن جزيرة العرب تستطيع أن تنجب رجلا فى مكانة كسرى ، فقد كانت نظرتة دنيوية وما قدر الروح الجديدة التى نفخها

الإسلام في أتباعه حتى قدرها .

وأراد هزيمة أن يكسب مكاسب دنيوية فرد على كتاب الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ردا دون رد ، فكتب إلى النبي — ﷺ — : « ما أحسن ما تدعوا إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تناب مكاني ، فاجعل إلي بعض الأمر أتبعك » .

وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبي — ﷺ — فأخبره ، وقرأ النبي — ﷺ — كتابه وقال :
— لو سألتني سبابة (١) ما فعلت . باد وباد ما في يديه .
وسمع مسيلمة بما كان فراح يحلم أنه بعث رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى دينه !

وجاء نصر الله والفتح ، فلما انصرف رسول الله — ﷺ — من فتح مكة جاءه جبريل عليه السلام فأخبره بأن هزيمة قد مات .
ورأى رسول الله — ﷺ — في المنام أن في يده سورين من ذهب ، فأهمه شأنهما فأوحى الله إليه في المنام أن ينفخها ، فنفخهما فطارا ، فأولهما كائين يخرجان من بعده .

وراحت الوفود ترد إلى المدينة بعد أن تم فتح مكة واعتنقت الإسلام ، فجاء وفد بنى حنيقة ومعهم مسيلمة وجعلوه في رحالهم ، فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا :

— يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحبنا في رحالنا يحفظها لنا .
فأمر له — ﷺ — بمثل ما أمر به لواحد من القوم — خمس أواق من فضة —

(١) سبابة : قطعة من الأرض .

وقال :

— أما إنه ليس بشر كم مكانا .

وكان نهار الرجال بن عُنفوة قد هاجر إلى النبي ﷺ — وقرأ القرآن وفقه في الدين ، فبعثه — ﷺ — معلما لأهل الإمامة ، وما كان نهار الرجال صادق الإيمان فقد كان يحب الدنيا ، وما كان بقادر على زجر نفسه الأمانة بالسوء .

وعاد بنو حنيفة إلى الإمامة فراح مسيلمة يزعم أن رسول الله — ﷺ — أشركه معه في الأمر ، وقال لمن وفد معه :

— ألم يقل لكم حين ذكرتموني له : أما إنه ليس بشر كم مكانا ، ماذا إلا لما كان يعلم أنى أشركت معه في الأمر .

وعاد مسيلمة إلى المدينة مع وفد من قومه ، فلما انتهى إلى رسول الله — ﷺ — وهم يسترونه بالثياب كلمه وسأله أن يشركه معه في النبوة ، وكان في يد رسول الله — ﷺ — قطعة من جريد ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتك ، وإنى لأراك الذي منه رأيت .

تذكر رسول الله ما رأى في المنام من أمر السوارين ، إن مسيلمة أحد الكذابين وإنه لا يستحق أن يطيل رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الوقوف معه ، وكان قد خرج معه ثابت بن قيس بن شماس فقال عليه السلام :

— وهذا ثابت بن قيس يجيبك عنى .

ثم انصرف — صلوات الله وسلامه عليه .

وانضم نهار الرجال إلى مسيلمة فقد أثر الدنيا على الآخرة ، فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة . شهد له أنه سمع محمدا — ﷺ — يقول إنه قد أشرك معه ، فصدقه واستجابوا له .

وضرب حرما بالإمامة فنهى عنه وأخذ الناس به فكان محرما ، فوقع في ذلك

الحرم قرى الأحالف أفخاذ من بنى أسيد ، وكانت دارهم باليمامة فصار مكان دارهم في الحرم .

والأحالف سيحان ونمارة ونمر والحارث ، فإن أحصبوا أغاروا على ثمار أهل اليمامة واتخذوا الحرم ملجأ ، فإن اقتفوا أثرهم دخلوا الحرم فيحجم عنهم الطلب ، وإن أحجموا عن مطاردتهم فذلك ما يريدون ، فكثرت ذلك منهم ، فرفع الناس الأمر إلى مسيلمة فقال :

— أنتظر الذى يأتى من السماء فيكم وفيهم .

ثم قال لهم :

— « والليل الأطعم . والذئب الأدلم . والجذع الأزلم . ما انتهكت أسيد من

محرم » .

— أما محرم استحلل الحرم وفساد الأموال ؟

وشجع ذلك بنى أسيد فعادوا للغارة وعادوا للعدوان ، فرفع الأمر إلى مسيلمة فقال :

— أنتظر الذى يأتينى .

فقال : « والليل الدامس . والذئب الهامس . ما قطعت أسيد من رطب ولا

يابس » .

— أما النخيل المرطبة فقد جفوها ، وأما الجدران اليابسة فقد هدموها .

— اذهبوا وارجعوا فلا حق لكم .

وكان يجب أن يتألف بنى تميم فكان يقرأ لأتباعه : « إن بنى تميم قوم طهر لقاح ، لا مكروه عليهم ولا إناوة ، نجاورهم ما حيننا بإحسان . نمنعهم من كل إنسان . فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمن » .

وكان أصحابه يتلون فى دورهم قرآنه : « والمبذرات زرعاً . والحاصدات

حصدا . والذاريات قمحا . والطاحنات طحنا . والخازيات خبزاً . والثارذات
ثرداً . واللاقمات لقماً . إهالة وسمنا . لقد فضلتم على أهل الوبر . وما سبقكم أهل
المدر . ريفكم فامنعوه . والمعتز فأووه . والباغي فناوئوه .
وجاء طلحة الثمري اليمامة فقال :

— أين مسيلمة ؟

— مه ، رسول الله .

— لا حتى أراه .

فلما جاءه قال :

— أنت مسيلمة ؟

— نعم .

— من يأتيك ؟

— رحمن .

— أفي نور أو في ظلمة ؟

— في ظلمة .

— أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من

صادق مضر .

والنف حول مسيلمة الذين غرهم الدنيا فأرادوا إيهام الناس أن الصلوات طيبة بين
رسول الله — ﷺ — وبينه فأشار على الكذاب أن يكتب رسول الله — ﷺ —
فبعث إلى المدينة رسولين يحملان كتابه ، فدخلا على الرسول — صلوات الله
وسلامه عليه — وقدا إليه الكتاب ، فدفعه عليه السلام إلى من يقرأه فقرأ :
— من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ؛ سلام عليك ، أما بعد فإني قد
أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقریش نصف الأرض ، ولكن

قريشا قوم يعتدون .

فالتفت عليه السلام إلى الرجلين وقال :

— فما تقولان أنتما ؟

— نقول كما قال .

— أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

وكتب رسول الله ﷺ كتابا إلى مسيلمة بعث به حبيب بن زيد ، وأم حبيب نسيبة بنت كعب أم عمارة وقد شهدت بدرا هي وزوجها ، وابناها حبيب وعبد الله ، فانطلق حبيب إلى الإمامة فرأى عجبا : رأى عبد الله بن النواحة يؤذن للنبي ﷺ — ويشهد في الأذان أن محمدا رسول الله ويشهد لمسيلمة ، ورأى الناس يترنجون من الشرب فقد أباح لهم مسيلمة الخمر ، وانتشر في أرجاء الإمامة الفسق بعد أن أحل لهم الزنا .

ودخل حبيب على مسيلمة وقد أحاط به أنصاره ، فقدم إليه كتاب رسول الله ﷺ — فراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

واكفهر وجه مسيلمة ، والتفت إلى حبيب وقد ملئ غضبا وقال له :

— أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

— نعم .

— أفتشهد أني رسول الله ؟

— لا أسمع .

فراح يقطع يده ويقول :

— ٧٨ —

— أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

— نعم .

— أفتشهد أني رسول الله ؟

— لا أسمع .

فجعل يقطعه عضوا عضوا حتى مات في يده لا يزيده على ذلك ، إذا ذكر له رسول الله ﷺ — آمن به وصلى عليه ، وإذا ذكر له مسيلمة قال : لا أسمع . وبلغ نُسبية ما فعل مسيلمة بابنها فراحت تتأهب للخروج مع المسلمين لمحاربة الكذاب .

صلى أبو بكر العصر ثم خرج يمشى وعلى يمشى إلى جانبه ، فرأى الحسن يلعب مع الصبيان فحمله على عاتقه وقال :

— بأبى (١) شبيه بالنبي لا شبيه بعلى .

وعلى يضحك ، فما من أحد رأى الحسن إلا وقال إن الحسن يشبه جده عليه السلام ، وكان الحسن إذا نادى أباه يقول :

— يا أبا الحسن .

وكان الحسين ينادى أباه بقوله :

— يا أبا الحسن .

وكانا يقولان لرسول الله ﷺ :

— يا أبتاه .

وأتى الحسن لعبه فذهب إلى المسجد فوجد رسول الله ﷺ — يحدث أصحابه ، فلما رأى عليه السلام الحسن استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وفتح له ذراعيه فارتقى الحسن في أحضانه ، فجعل رسول الله ﷺ — يقبله ثم قال :

— اللهم إني أحبه فأحبه .

وقام رسول الله ﷺ — والحسن يسير إلى جواره حتى دخل على ابنته فاطمة الزهراء ، فأشرق وجهه بابتسامه وخفق قلبه في حب ، فالزهراء تذكره بخديجة وزينب ورقية وأم كلثوم ، بالأحبة الذين رحلوا وخلفوا في القلب الأحران .

ومال رسول الله ﷺ وقبل زينب بنت فاطمة ، الصغيرة التي حملت اسم خالتها الراحلة فاستشعر عواطف جياشة تمور في صدره . عواطف من الحب والأسى ، من الشفقة والحنان ، فابتسامته التي ترسم على شفتيه كلما وقعت عيناه على زينب الصغيرة وأم كلثوم تمتزج بالدموع ، فهو وإن كان رسول الله الذي يعد نفسه للموت وما بعد الموت فهو إنسان .

وجاء الحسين فلما رأى جده في الدار نادى في فرح فياض :
— أبتاه .

فأقبل عليه رسول الله ﷺ وقبله ثم حمله على عاتقه وجعل يداعبه ، وفاطمة الزهراء تنظر في سرور تكاد الدموع أن تبلبل عينها من الفرح . كانت الزهراء كأبيها حليفة الأحزان ، وما كانت تحس سعادة حقه إلا في تلك الأوقات التي يمضيها أبوها العظيم في دارها ، فالسرور كان يشيع في كل من في البيت المتواضع الذي كان يخلو من أى أثاث وقد خلا من كل ترف .

لم يكونوا فقراء بعد أن فتح الله عليهم خير والطائف ، ولكنهم كانوا أكرماء ينفقون على الفقراء والمساكين كل ما يصل إليهم ، فقد كانوا أكثر ثقة بما في يد الله مما في أيديهم ، وكانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

كانت فاطمة بضعة منه وكانت قلبه وروحه التي بين جنبيه ، فكان إذا قدم من سفر يصل ركعتين لله ثم يبدأ بزيارتها قبل أن يعود إلى داره ، وكان كل صباح يطرق باب دارها ويقول :

— السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، الصلاة رحمكم الله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

وكان بكاء طفل من أطفالها في الليل يطير النوم من عينيه ، فكان إذا سمع بكاء الحسن أو الحسين يهرع إلى دار الزهراء ويحمل الصغير بين يديه في حنان دافق

وهو يقول للزهراء في عتاب لطيف :

— ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني !

وأقبلت أمانة بنت زينب ، فهفا قلب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إليها . إنه يحبها بكل جوارحه وقد أعلن أكثر من مرة أنها أحب أهل بيته إلى فؤاده ، وكان يحملها في الصلاة على عاتقه فإذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها ، وكان قلبه الكبير يسع حب أبنائه وحب بناته وحب أحفاده وحب أصحابه وحب المسلمين وحب المؤمنين بل وحب البشر أجمعين ، فما بعث إلا رحمة للعالمين .

وَأذن بلال المغرب فخرج رسول الله — ﷺ — إلى المسجد فرأى أبا الدرداء يمشي أمام أبي بكر فقال :

— يا أبا الدرداء أتمشى أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة؟! ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر .

وكان رسول الله — ﷺ — يقول :

— ما أحد عندي أعظم من أبي بكر ، وإسأني بنفسه وماله وأنكحني ابنته .
ويقول :

— لو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن أخوة الإسلام .

ويقول :

— أبو بكر وعمر بمنزلة السمع والبصر .

كان أبو بكر ملكًا في زى مسكين ، وكان إذا مُدح قال :

— أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون .
(حجة الوداع)

وقدم عمر بن الخطاب أبيض اللون يعلوه حمرة، أصلع شديد حمرة العينين في عارضيه خفة، وقد قال رسول الله ﷺ — فيه :

— عمر معي وأنا مع عمر، والحق مع عمر حيث كان .
وقال عليه السلام :

— يا عمر إنك لذو رأي رشيد في الإسلام .

— وقال — صلوات الله وسلامه عليه :

— قال لي جبريل ليكن الإسلام على موت عمر .
وقال :

— أبو بكر وعمر منى بمنزلة هارون من موسى .
وكان عمر يقول :

— لولا خوف الحساب لأمرت بكبش يشوى لنا في التنور .

وجلس عثمان في المسجد لسانه رطب بذكر الله لا يرفع عينيه في الناس، وقد قال رسول الله فيه :

— عثمان أشد أمتي حياء .

وقال لابنته أم كلثوم لما زوجها لعثمان بن عفان :

— إن بعلك أشبه الناس بمجدك إبراهيم عليه السلام وأبيك محمد .

إنه يطعم الناس أطيب الطعام ويدخل بيته يأكل الخل والزيت وهو الغنى الذي يوسع على الناس، فقد أصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر الصديق، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبي بكر وقالوا :

— يا خليفة رسول الله، السماء لم تمطر والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك فما نصنع ؟

— انصرفوا واصبروا فإنى أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرج عنكم .

— ٨٣ —

فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيرا العثمان جاءت من الشام وتصبح بالمدينة ، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هي ألف بعير موسوقة براوزيتا وزيبيا . فلما جعلها في داره جاء التجار فقال لهم :

— ما تريدون ؟

— إنك تعلم ما تريد ، بعنا من هذا الذى وصل إليك فإنك تعلم ضرورة الناس .

— حبا وكرامة ، كم تربحونى على شرائى ؟

— الدرهم درهمين .

— أعطيت زيادة على هذا .

— أربعة .

— أعطيت زيادة على هذا .

— خمسة .

— أعطيت أكثر من هذا .

— يا أبا عمرو ما بقى فى المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليك أحد ، فمن ذا الذى

أعطاك ؟

— إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟

— لا .

— فإنى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين

وفقراء المسلمين .

وقال له رسول الله ﷺ :

— يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصا ، فإن أراذك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني يوم القيامة .

* * *

وسار على بن أبى طالب ناحية المحراب . إنه آدم شديد الأدمة ثقيل العينين عظيمهما . أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، ذو بطن ، كثير الشعر ، عريض اللحية ، أصلع أبيض الرأس ، عريض ما بين المنكبين ، لا تبين عضده من ساعده . كان رسول الله ﷺ — إذا غضب لم يجترأ أحد أن يكلمه إلا على ، فقد كان يحبه ويقول :

— من آذى عليا فقد آذاني .

ويقول :

— على مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض . وكان على لا يترك فرصة يتعلم فيها من رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فهو يبجل العلم ويقول :

— العلم يرفع الوضيع ، والجهل يضع الرفيع ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه . ومن حكمه :

— لا تكون غنيا حتى تكون غفيفا ، ولا تكون زاهدا حتى تكون متواضعا ، ولا تكون متواضعا حتى تكون حليفا ، ولا يسلم قلبك حتى تحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، وكفى بالمرء جهلا أن يرتكب ما عنه نهي ، وكفى به عقلا أن يسلم الناس من شره ، وأعرض عن الجهل وأهله .

كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من لسانه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل

ووحشته ، إنه غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما خشن يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

* * *

وصلى رسول الله ﷺ — بالناس المغرب والعشاء ثم دخل يدور على نسائه ، فدخل على سودة بنت زمعة ولم يكن بها يوم تزوجها بعد موت خديجة أم المؤمنين على الأزواج من حرص ، ولكنها أحبت أن يبعثها الله يوم القيامة زوجا للرسول .

إنه — صلوات الله وسلامه عليه — تزوجها عزاء لها بعد أن مات زوجها وابن عمها السكران بن عمرو هناك في الحبشة ، ولم تكن جميلة ولم تكن شابة ولكنها كانت وحيدة ، وما كان المسلمون يدعون مسلمة مؤمنة بلا زوج بل لا بد أن تكون في كنف رجل ، وما أكثر الزيجات التي تمت بين الأرامل وكبار الصحابة صيانة للنساء .

وكانت سودة تحاول جاهدة أن تسعد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فكانت تشرح إذا ما رأته يتسم ، وكانت تسارع بفعل كل ما تظن أن رضاه فيه ، فلما فطنت إلى أن عائشة بنت أبي بكر أحب نساء النبي ﷺ — إلى قلبه ، ووجدت أن الشيخوخة قد دبت فيها قالت لزوجها العظيم :
— إنى أهب ليلتى لعائشة ، وإنى لا أريد ما تريد النساء .

* * *

وذهب إلى غرفة عائشة فإذا بالزوجة الحبيبة ترحب به في ود صادق وحب عميق ، إنه ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، إنها لو كانت قد تزوجت من جبير بن مطعم بن عدى لما ارتفع شأنها عن أى زوجة من زوجات المؤمنين ، ولكنها

بزواجها من رسول رب العالمين أصبحت أم المؤمنين وحب نبي الإسلام، عليه السلام، الكبير .

إنها لا تستطيع أن تنسى ذلك اليوم الذي ماتت فيه أمها أم رومان، فقد واساها عليه السلام أجمل مواساة وغمر بعطفه أباه الصديق، ولم يكتف بذلك بل نزل قبر أمها واستغفر لها وقال :

— اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك .

إنها لا تفتأ تذكر يوم عرسها كلما خلت بنفسها، فقد جاء رسول الله بيتهم فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتها أمها وهي في أرجوحة بين عذقين فأنزلتها ثم سوت شعرها ومسحت وجهها بشيء من ماء ثم أقبلت تقودها حتى إذا كانت عند الباب وقفت بها حتى ذهب بعض نفسها، ثم أدخلتها ورسول الله جالس على سرير في بيتها فأجلستها في حجره وقالت :

— هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك .

ومنذ ذلك اليوم ورسول الله يصنعها على عينه ليأخذ عنها المسلمون نصف دينهم، وقد علم المسلمون حب الرسول لبنت أبي بكر فكانوا يبعثون إليه الهدايا وهو في بيتها، فدفعت الغيرة زوجاته إلى أن يلتمسن من الزهراء أن تخاطب أباه في الأمر فذهبت إليه وقالت :

— يا أباي إن نساءك أرسلتنني إليك وهن ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة .

— أى بنية أتحيينني ؟

— نعم يا أباي .

— فأحييها .

ولم تحاول فاطمة أن تؤذى أباه بعد ذلك في عائشة .

وظل الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، فاجتمع نساء النبي إلى أم سلمة

فقلن :

— يا أم سلمة والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، وأنا نريد الخير كما تريده عائشة ، فمرى رسول الله ﷺ — أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان وحيث ما دار .
فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ — فأعرض عنها ، فلما عاد إليها ذكرت ذاك فأعرض عنها ، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال :
— يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها .

ودخل رسول الله ﷺ — حجرة حفصة بنت عمر ، إنه تزوجها بعد أن مات زوجها خنيس بن حذافة يوم أحد ليشد الأواصر بينه وبين عمر كما شد الأواصر بينه وبين الصديق من قبل بزواجه من عائشة ، إنه تزوج ابنتي وزيريه .
لم تكن حفصة في رقة عائشة ولم تكن جميلة وكان فيها حدة ، وكان عمر يحس أن النبي ﷺ — يتحملها إكراما له ، ولقد قال لها ذات يوم :
— والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولاى لطلقك !

ودلف رسول الله ﷺ — إلى أم سلمة بنت زاذ الركب ، إنها كانت زوجة لعبد الله بن عبد الأسد بن هلال الخزومي ، ابن عمه الرسول برة بنت عبد المطلب ، وأخوه — ﷺ — من الرضاعة أَرْضَعْتُهُمَا ثَوِيَّةَ مَوْلَاةِ أَبِي لَهَبٍ .
وكان ممن هاجر إلى الحبشة وهناك أنجبا ابنتهما سلمة ، وهاجرا إلى المدينة وفي غزوة أحد جرح أبو سلمة جرحا خطيرا ثم التأم ، فبعثه رسول الله ﷺ — لقتال بنى أسد فعاد الجرح ففغر وحمل أبو سلمة إلى المدينة حيث قضى نحبه وترك

أم سلمة أرملة .

ولما مات أبو سلمة قال لها — ﷺ :

— سلى الله أن يؤجرك في مصيبتك ويخلفك خيرا .

— ومن يكون خيرا من أبى سلمة ؟

ولما اعتدت أم سلمة أرسل إليها النبي — ﷺ — يخاطبها مع حاطب بن أبى

بلتعة ، فلما جاءها حاطب قالت :

— مرحبا برسول الله — ﷺ — تقول له إني امرأة مسنة ، وأنى أم أيتام ، وأنى

شديدة الغيرة .

فبعث إليها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يقول :

— أما أنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال

فإلى الله ورسوله .

وشبت زينب بنت أم سلمة في رعاية الرسول — ﷺ — فكانت من أفقه .

نساء أهل زمانها ، واختار لربيبه سلمة ابنة حمزة أسد الله وأسود رسوله وسيد

الشهداء .

إن ابن أم سلمة زوج أم سلمة رسول الله — ﷺ — على متاع منه رحي

وجفنة وفراش حشوه ليف ، وقيمة ذلك المتاع عشرة دراهم ، فتزوجها رسول

الله — ﷺ — وأدخلها بيت زينب أم المساكين بعد أن ماتت ، فإذا جرة فيها شيء

من شعير وإذارحى وبرمة وقدر وأدم ، فأخذت ذلك الشعير فططحته ثم عصدته

في البرمة ، فكان ذلك طعام رسول الله — ﷺ — وطعام أهله ليلة عرسه .

إن أم سلمة بنت زاد الركب كانت تعيش عيشة مترفة في بيت أبيها ، فلما

اعتنقت الإسلام ضحت بكل راحة في سبيل راحة ضميرها وإحساسها

الصادق بحريتها ، وقد هاجرت إلى الحبشة ثم هاجرت إلى المدينة وهى راضية كل

الرضا . ثم أصبحت زوجة لرسول الله ﷺ — تعيش في حجرة متواضعة كل ما بها لا يساوى أكثر من عشرة دراهم ، ولكنها كانت تستشعر في أعماقها سعادة من ملك الدنيا بأسرها والآخرة بنعيمها .

* * *

ودخل على زينب بنت جحش فإذا بها غارقة في الصلاة فهي حميدة متعبدة مفزع اليتامى والأرامل . كانت زوجة لزيد بن حارثة وكان الأشراف يأنفون أن يزوجوا بناتهم من الموالى . وقد أراد الإسلام أن يقضى على هذه النعرة الجاهلية فكان زواج زيد من زينب سلية المجد والشرف .

وكان أشراف العرب يتعففون عمن تزوجن من الموالى ، وأراد الإسلام أن يقضى على تلك العادة المتأصلة فيهم وأن يعلن أن الناس سواسية وأنهم من آدم وأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، فكان زواج محمد ﷺ — من ابنة عمته زينب بنت جحش بعد أن قضى زيد منها وطرا .

وكان رسول الله ﷺ — قد أرسل زيد بن حارثة يخطبها له — ﷺ — فذهب زيد إليها فجعل ظهره إلى الباب فقال :

— يا زينب بعث رسول الله ﷺ — يذكرك .

— ما كنت لأحدث شيئا حتى أوامرى عز وجل .

فأنزل الله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها »^(١) . فكانت تفتخر على نسائه — ﷺ — وتقول :

— إن الله أنكحنى إياه من فوق سبع سموات .

ونزلت في ذلك اليوم الذى لا تنساه زينب آية الحجاب فإنه — ﷺ — دعا

القوم وطعموا وتهيأ — ﷺ — للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من قام
وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي — ﷺ — ليدخل فإذا القوم جلوس فلم يدخل،
فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى
طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ لَهُ وَإِنَّا إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا
مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ
الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُورَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ
ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا . إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .
لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ
أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نَسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدًا ﴿١﴾ .

وكان الرسول — ﷺ — قد تبني زيد بن حارثة وكان يقال له زيد بن محمد،
فتكلم في ذلك المنافقون وقالوا :

— محمد حرم نساء الأولاد وقد تزوج امرأة ابنه .

فأنزل الله تعالى : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم
النبيين وكان الله بكل شيء عليماً » (٢) . وأنزل سبحانه وتعالى : « ادعوهم
لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ
وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا » (٣) .

(٢) الأحزاب ٤٠ .

(١) الأحزاب ٥٣ — ٥٥

(٣) الأحزاب ٥

— ٩١ —

وكان رسول الله — ﷺ — يقول عنها :
— إنها لأواهة .

فقال رجل :

— يا رسول الله ما الأواه ؟

— الخاشع المتضرع .

. وكانت عائشة تقول في حقها :

— هي التي كانت تساويني في المنزلة عند رسول الله — ﷺ — وما رأيت
قط خيرا في الدين وأتقى الله وأصدق في الحديث وأوصل للرحم وأعظم صدقة
من زينب .

* * *

وذهب إلى دار جويرية بنت الحارث وكانت جويرية عليها ملاحه وحلاوة لا
يكاد يراها أحد إلا وقعت بنفسه ، كانت من سبايا بنى المصطلق وقد وقعت في
السهم لثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسها ورأت أن تستعين برسول الله
صلوات الله وسلامه عليه فجاءت إليه وهو في حجرة عائشة وقالت :
— يا رسول الله أنا بنت الحارث بن ضرار سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء
ما لم يخف عليك ، ف وقعت في السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسي فجئتك
أستعينك على أمرى .

— فهل لك في خير من ذلك ؟

— وما هو يا رسول الله ؟

— أقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

— نعم يا رسول الله .

— قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس فأطلقوا ما كان بأيديهم من الأسرى وقالوا :
— أصهار رسول الله .

ودخلت بيت النبي — صلوات الله وسلامه عليه — وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها ، أعتق بزواجها من الرسول أهل مائة بيت من بيوت بني المصطلق .

* * *

وطاف بريحانة بنت يزيد من بني النضير وكانت قبل رسول الله — ﷺ — عند رجل من بني قريظة يقال له الحكم ، وكانت جميلة وسيمة وقعت في سبي بني قريظة فكانت صفى رسول الله — ﷺ — فعخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام فأعتقها وتزوجها وأصدقها اثنتى عشرة أوقية ونشا .
ودخل بها عليه السلام في بيت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية ، وغارت عليه — ﷺ — غيرة شديدة فطلقها فأكثر البكاء فراجعها عليه السلام .

* * *

ودخل على أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب وهى بنت عمة عثمان بن عفان هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، فولدت له حبيبة ربيبة رسول الله وهى فى حجره عليه السلام .
وتنصر عبيد الله بن جحش هناك وثبتت هى على الإسلام ، وبعث رسول الله — ﷺ — عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فزوجه إياها ، وأصدقها النجاشى عن رسول الله — ﷺ — أربعمائة دينار وجهزها النجاشى من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة .

وكانت أم حبيبة راضية النفس مطمئنة الفؤاد لا تفتأ تشكر الله على أن هدى أبأ سفيان وأهل بيته إلى الإسلام ، فقد كانت قبل فتح مكة ترتجف فرقا أن يموت

— ٩٣ —

شيخ بنى أمية على الكفر كما مات شيوخ بنى مخزوم وبنى وائل وبنى
عبد شمس .

وزار صفية في حجرتها ؛ إنها بنت حبي بن أخطب سيد بنى النضير قتل مع
قريظة ، وكانت عند سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق وقتل عنها
يوم خيبر ، فلما جمع سبى خيبر جاء رسول الله ﷺ — دحية الكلبي فقال :
— يا رسول الله أعطني جارية من السبي .

— اذهب وخذ جارية .

فأخذ صفية فليل :

— يا رسول الله إنها سيدة بنى قريظة والنضير ، لا تصلح إلا لك .

فقال النبي ﷺ :

— خذ جارية من السبي غيرها .

فحججها وجهزتها له أم سليم وأهدتها له من الليل ، فأولم — عليها بتمر

وسويق .

ورأى رسول الله ﷺ — أثرا في وجهها فسألها عن ذلك فقالت :

— رأيت كأن القمر وقع في حجري فذكرت ذلك لزوجي كنانة ، فضرب

وجهي ضربة أثرت في هذا الأثر وقال : إنك تمددين عنقك إلى أن تكوني عند

ملك العرب .

وكانت صفية عاقلة فاضلة ، ودخل عليها — يوم ما وهى تبكي فقال

لها في ذلك فقالت :

— بلغني أن عائشة وحفصة ينالان مني ويقولان نحن خير من صفية ، نحن

بنات عم رسول الله ﷺ .

— قولى لن: كيف تكن خيرا منى وأبى هارون وعمى موسى عليهما الصلاة والسلام وزوجى محمد؟

وطاف — ﷺ — بميمونة بنت الحارث وكان اسمها برة فسمها — ﷺ — ميمونة ، وهى خالة عبد الله بن العباس وأختها أسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس وزينب بنت خزيمة أم المؤمنين ، وخالة خالد بن الوليد ، وكانت فى الجاهلية عند مسعود بن عمر ففارقها فخلف عليها أبو رهم فتوفى عنها ، وقد وهبت نفسها للنبي — ﷺ — عندما كان فى مكة يؤدى العمرة بعد صلح الحديبية وبنى بها بسر ، وقد ظلت سرف أحب أرض الله إلى قلبها حتى إنها أوصت أن تدفن بسر .

وترك — ﷺ — دور نسائه وانطلق إلى مشربة أم إبراهيم . كانت مارية المصرية تنتظره وكان معجبا بها لأنها كانت بيضاء جميلة ، وكانت تذكره بأبيه إبراهيم وهاجر المصرية وإسماعيل الذى كان جسرا بين مصر والعرب .

وكان إبراهيم الحبيب هناك ؛ إن قلبه الشريف يهفو إليه ويخفق بحبه ، وذنه يسترجع صور الماضى التى تشرق فى وجدانه فتبدد أحزانه . إنه يرى أبا رافع مولاه وقد جاء إلى المسجد بإبراهيم فيهرع إليه أسامة بن زيد والحسن والحسين وحبية وأميمة ابنة زينب يحاول كل منهم أن يختطفه لنفسه . هذا يداعبه وذاك يقبله والجميع يناجونه فى حب صادق لا تشوبه غيرة . إنها صور إنسانية تمس وترا حساسا فى قلبه الكبير وتفجر ينابيع الحنان من كنز فؤاده بأنبل المشاعر وأرق الإحساسات .

ورأى فى ظلام الليل أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وكبار الصحابة وقد فتحوا

قلوبهم لإبراهيم وغمروه بحبهم فاستشعر سعادة عارمة ، ولم يكدر صفوه أنه تذكر في تلك اللحظة ما كان من عائشة بنت أبي بكر ؛ إنه جاء به إلى عائشة ذات يوم وقال لها :

— انظري إلى شبهه .

— ما أرى شيئا .

— ألا ترين إلى بياضه ولحمه ؟

أنكرت عائشة كل شبه بينه وبين إبراهيم بوحي من غيرتها ، وإنه ليغفر لبنت الصديق غيرتها . إنه — صلوات الله وسلامه عليه — دفعه لأُم بردة خولة بنت المنذر بن زيد الأنصاري زوجة البراء بن أوس لترضعه وأعطاها قطعة نخل ، فكانت ترضعه في بني مازن وترجع به المدينة ، وكان — ﷺ — ينطلق إليها فيدخل البيت ويأخذه فيقبله ثم يرجع .

إن مارية تعلم مقدار حب رسول الله — ﷺ — لابنه إبراهيم فكانت تحرص على أن يكون عندها كلما جاء — ﷺ — لزيارتها فهو قرّة عينه ومصدر سعادته ، وإنه لما يهبها أن ترى رسول الله — ﷺ — سعيدا .

ولم تعد مارية جارية فقد حررها ولدها ، فالإسلام دين الحرية يلتبس أي سبب لتحرير الرقاب ، فما أن تضع الجارية ما في بطنها حتى تصبح حرة لها حقوق كل الأحرار ، وقد أمسى لمارية ليلة يخصصها بها رسول الله — ﷺ — أسوة بأمهات المؤمنين .

ودخل رسول الله — ﷺ — على المصرية بنت الصعيد فألقى إبراهيم في حجرها فامتد إليه فؤاده قبل أن تمتد إليه يده ، ثم رفعه وراح يقبله في حب وهو يفكر في إسماعيل الجديد الذي سيكون جسر الحب بين مصر والعرب .

٤

كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل فيمن شهد العقبة الأخيرة ، وقد بايعاه — ﷺ — مع من بايعوه من الأنصار على حرب الأحمر والأسود . وكان عمرو بن الجموح من بنى حرام بن كعب بن غانم بن كعب بن سلمة ، وكان معاذ بن جبل من بنى جشم وقد ادعته بنو سلمة لأنه كان أخا سهل السلمى لأمه ، وقد توطدت الصداقة بين معاذ بن عمرو بن الجموح وبين معاذ بن جبل الذى كان فى بنى سلمة .

فلما قدم الذين بايعوا رسول الله — ﷺ — بالمدينة أظهروا الإسلام بها ، وفى قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك منهم عمرو بن الجموح بن سلمة — وكان ابنه معاذ بن عمرو قد أسلم — وكان عمرو بن الجموح سيدا من سادات بنى سلمة وشريفا من أشرفهم ، وكان قد اتخذ فى داره صنما من خشب يقال له مناة ، وكان الأوس والخزرج يعبدون مناة قبل أن يشرح الله صدورهم للإسلام ، فلما أسلم فتيان بنى سلمة معاذ بن جبل وابن معاذ بن عمرو بن الجموح فى فتیان منهم ، كانوا يُدْجَون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة وفيها فضلات الناس منكسا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال : — ويلكم ! من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال :

— أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه .

فإذا أمسى ونام عمرو غدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده فى مثل

ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيقعلون به مثل ذلك ، فلما أكتروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوما فغسله وطرهه وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال :

— إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بجبل ثم ألقوه في بئر من آبار بنى سلمة ، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه وكلمه من أسلم من رجال قومه فشرح الله صدره للإسلام ، فأسلم ليسير في موكب النور .

وآخى رسول الله ﷺ — بين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل ، فكان معاذ في شوق إلى أن يلقي أخاه الذي كان هناك في الحبشة ، وكان يتتبع أخباره في شغف ويرقب ذلك اليوم الذي يهاجر فيه إلى المدينة في لهفة ، فلطالما سمع أن جعفر كان أقرب بنى هاشم شبها برسول الله ﷺ .

وكان معاذ بن جبل يحسب أن اليهود سيسارعون بالتصديق برسول الله عليه السلام ، فقد كانوا إذا ما نشب قتال بينهم وبين الأوس والخزرج يستفتحون عليهم برسول الله ﷺ — قبل مبعثه ، فلما رأى معاذ بن جبل أنهم قد جحدوا ما كانوا يقولون فيه ، سار إليهم هو وبشر بن البراء بن معرور وقال لهم :

— يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفوننا لنا بصفته .

فقال سلام بن مشكم أحد بنى النضير :

— ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكره لكم .

فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ (١)

وعاد معاذ بن جبل إلى نفر من أحبار يهود يسألهم عن بعض ما في التوراة فكتموه إياه وأبوا أن يخبروه عنه، فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ (٢).

ودعا رسول الله — ﷺ — يهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم الله وعقوبته فأبوا عليه وكفروا بما جاءهم به، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عباد وعقبة بن وهب:

— يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته.

فقال يهود:

— ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده، فأنزل الله في ذلك: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾ (٣).

وكانت غزوة بدر فشهدا معاذ بن جبل، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله — ﷺ —، ولم يكتف أن يكون رجل سيف بل أراد أن يكون رجل علم، فكان

يلزم مسجد الرسول يتلقى منه الحكمة ويقرأ عليه القرآن العظيم ويتفقه في الدين . فلما عاد رسول الله ﷺ إلى مكة بعد حرب الطائف استخلف عتاب بن أسيد على مكة وكان عمره إذ ذاك نحو عشرين سنة ، وخلف معه معاذ ابن جبل يفقه الناس .

وقدم على رسول الله ﷺ في عام الوفود رسول ملوك خيبر ، فكتب ﷺ إليهم كتابا جاء فيه : « ... أما بعد فإن رسول الله محمد النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن أن إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرا : معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك ابن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيتكم وأبلغوها رسلى ، وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيا . أما بعد فإن محمدا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله . ثم إن مالك بن مرة الرهاوى قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين فأبشر بخير ، وأمرك بحمير خيرا ولا تخونوا ولا تحاذلوا فإن رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم وأن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته وإنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل .

وأن مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وأمركم به خيرا ، وإنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم وأمركم بهم خيرا فإنهم منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وراج — صلوات الله وسلامه عليه — يوصى معاذا ويعهد إليه ثم قال له : — سر ولا تعسر وبشر ولا تنفر ، وأنت ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة فقل : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . فخرج معاذ حتى إذا قدم اليمن قام بما أمره به رسول الله ﷺ — وكان حُناهر بن التوأم الحميرى كاهنا وكان قد أوتى بسطة في الجسم وسعة المال وكان

عاتيا، فلما وفدت وفود اليمن على النبي ﷺ — وظهر الإسلام أغار على إبل حراء فاكتمسحها وخرج بأهله وماله ولحق بالشحر ونزل بواد من أودية الشحر مخصبا كثير الشجر من الأيك والعرين، وكان يحاول أن يصم أذنيه عن القرآن الذي فتح أفئدة اليمنيين، ولكن القرآن كان على كل لسان فألقى إليه السمع فإذا به ليس بالشعر ولا بالسجع المتكلف، وإذا به فرقان بين الكفر والإيمان، فلما برق له النور امتطى راحلته وأعلم أعبدته واحتمل أهله حتى ورد الجدف فرد الإبل على أربابها وأقبل يريد صنعاء، فأصاب بها معاذ بن جبل أمير الرسول ﷺ — فألقى إليه سمعه فإذا بقلبه يتحرك، وإذا بالدمع يفيض، وإذا به يتعرض لنفحات ربه فتشرق أنوار المعارف في عين ذاته، وإذا به يستشعر أن عالمه أوسع من العالم الأرضي، وأن ملكه أعظم من أعظم ملك بعد أن سلم قلبه من غير الله، فأقبل على معاذ بن جبل يبايعه على الإسلام بعد أن ارتفعت الحجب بين قواده والملوكوت .

كانت وفود اليمن ترد إلى المدينة وتلقى رسول الله ﷺ — يحملون إسلامهم وإسلام من وراءهم ، وكان رسول الله يبعث إليهم من يفقههم في الدين ، فقد أرسل إلى الكورة العليا من جهة عدن معاذ بن جبل ، وبعث أبو موسى الأشعري إلى الكورة السفلى وقال له يوصيه :

— يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر ، إنك ستأتى قوما أهل كتاب فإذا جثتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن أطاعوا بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب .

وانطلق أبو موسى الأشعري إلى اليمن فراح يذكر تلك الأيام التي سبقت هجرته إلى المدينة ، فقد بلغه وهو في اليمن مخرج النبي ﷺ — إلى يثرب ، فخرجوا مهاجرين إليه هو وأخوان له هو أصغرهم ، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم في ثلاثة وخمسين رجلا من قومه ، فركبوا سفينة فألقتهم سفيتهم إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقوا جعفر بن أبي طالب فأقاموا معه حتى قدموا جميعا فوافقوا النبي ﷺ — حين افتتح خيبر .

وكان أناس من الناس يقولون لهم :

— سبقناكم إلى الهجرة .

ودخلت أسماء بنت عميس وكانت تحت جعفر بن أبي طالب وهى ممن قدم

— ١٠٢ —

معهـم على حفصة زوج النبىؐ — زائرة؁ وقد كانت هاجرت إلى الحبشة فيمن هاجر؁ فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء :

— من هذه ؟

— أسماء بنت عميس .

— الحبشية ؟ هذه البحرية هذه ؟

قالت أسماء :

— نعم .

— سبقناكم بالهجرة؁ فنحن أحق برسول اللهؐ — منكم .

فغضبت وقالت :

— كلا والله؁ كنتم مع رسول اللهؐ — يطعم جائعكم ويعط جاهلكم؁ وكنا فى دار البُعداء البُغضاء فى الحبشة وذلك فى الله وفى رسول اللهؐ — وإيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول اللهؐ — ونحن كنا نؤذى ونخاف؁ وسأذكر ذلك للنبي وأسأله؁ والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه .

وانصرف عمر وبقيت أسماء بنت عميس تنتظر رسول اللهؐ — فلما جاء قالت :

— يا نبى الله إن عمر قال كذا وكذا .

— فما قلت له ؟

— قلت له كذا وكذا .

— ليس بأحقى منكم؁ وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

وداع خبر ذلك الحديث فكان أبو موسى وأصحاب السفينة يأتون أسماء بنت

— ١٠٣ —

عميس أرسلوا يسألونها عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي — ﷺ .

وتوجت شفتى أنى موسى بسمة رقيقة وراح يجري وراء أفكاره ، إنه يذكر ما قاله رسول الله — ﷺ — ليلة أن نزلوا المدينة ، قال صلوات الله وسلامه عليه : — إني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار .

وبعث — ﷺ — جرير بن عبد الله البجلي إلى تخريب ذى الخلصة ، إنه قدم على رسول الله — ﷺ — سنة عشر من الهجرة في شهر رمضان فباعه وأسلم ، وكان جرير صبيح الوجه جميلا وقد قال — ﷺ — لما رآه : — كأن على وجهه مسح ملك .

وكان عمر بن الخطاب يقول :

— جرير يوسف هذه الأمة .

وكان طوالا وقد بعثه — ﷺ — ليهدم صنم قومه ، فانطلق جرير والأفكار تنثال على رأسه . إنه يرى ما كان منه في الجاهلية يوم نافر خالد بن أرطاة الكلبى ، إن كلبا أصابت رجلا من بجيلة يقال له ملك بن عتبة من بنى عادية فوافوا به عكاظ ، فمر العادى بابن عم له يقال له القاسم يأكل تمرا ، فتناول من ذلك التمر ليتحرم به فجذبه الكلبى فقال له القاسم :

— إنه رجل من عشيرتى .

— لو كانت له عشيرة منعه .

فانطلق القاسم إلى بنى عمه بنى زيد بن الغوث ليستعين بهم على بنى كلب

فقالوا :

— نحن منقطعون في العرب وليست لنا جماعة نقوى بها .

فانطلق إلى آخر يستعين بهم فقالوا :

— كلما طارت ورقة من بنى زيد في أيدي العرب أردنا أن نتبعها ؟

فانطلق عند ذلك إلى جرير فكلمه والدهش في عينيه ، فذاك كان أول يوم يرى فيه القاسم الثياب المصبغة والقباب الحمر . كان جرير سيد بنى مالك بن سعد بن زيد بن قسر وهم بنو أبيه ، فدعاهم في انتزاع العادى من كلب فتبعوه فخرج يمشى بهم حتى هجم على منازل كلب بعكاظ فانتزع منهم مالك بن عتبة العادى وقامت كلب دونه ، فقال جرير :

— زعمتم أن قومه يمنعونه .

— إن رجالنا خلوف .

— لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئا .

— كأنك تستطيل على قضاة ، إن شئت قايسناكم المجد .

ثم قال زعيم قضاة خالد بن أرطاة بن خشين بن شبت :

— ميعادنا من قابل سوق عكاظ .

فجمعت كلب وجمعت قسر ووافوا عكاظا من قابل وصاحب أمر كلب خالد بن أرطاة ، فحكموا الأقرع بن حابس وكان عالم العرب في زمانه ووضعوا الرهون على يد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس من أشراف قريش ، وكان في الرهن من قشر الأصرم بن عوف ، ومن بنى زيد الغوث بن أثمار ، ثم قام خالد بن أرطاة فقال للجرير :

— ما تجعل ؟

— الحظر (الرهان) في يدك .

— ألف ناقة حمراء في ألف ناقة حمراء .

— ١٠٥ —

فقال جرير :

— ألف قينة عذراء في ألف قينة عذراء ، وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف
أوقية صفراء .

— من لى بالوفاء ؟

— كفيلك اللات والعزى وإساف ونائلة ويعوق وذو الخلصة ونسر . فمن
عليك بالوفاء ؟

— ود ومناة وفلس ورضا .

فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب على أيدي عتبة بن ربيعة ، فقال الأقرع :

— ما عندك يا خالد ؟

فقال خالد في فخر :

— نزل البراح ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتیان الصباح .

فقال الأقرع :

— ما عندك يا جرير ؟

— نحن أهل الذهب الأصفر والأحمر المعتصر . نخيف ولا نخاف : نطعم ولا
نستطعم ، ونحن حى لقاح ، نطعم ما هبت الرياح ، نطعم الشهر ، ونضمن
الدهر ، ونحن الملوك لقسر .

أيام مضت بجهالتها . إن عتبة بن ربيعة قتل يوم بدر وبات بالقلب وقد ذهب
عنه كل مجد ، والأقرع بن حابس عالم العرب في زمانه قد شرح الله صدره
للإسلام لا فضل له على أحد إلا بالتقوى ، واللات والعزى وإساف ونائلة
ويعوق ونسر وود ومناة وفلس ورضا قد تحطمت ، وإنه لذهاب لتحطيم ذى
الخلصة فقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

وانتهى جرير من تقويض ذى الخلصة فبعثه رسول الله ﷺ — إلى ذى

— ١٠٦ —

الكلاع . إنه منشرح الصدر راضى النفس ، فى صحبة رسول الله — ﷺ — منذ أسلم ، ولا رآه إلا تبسم ، ولا غرو فرسول الله — ﷺ — يقول :
— ابتسامتك لصاحبك صدقة .

وبعث رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب إلى اليمن وعقد له لواء وعممه بيده وقال :

— امض لا تلتفت ، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقتلوك .
وبعث خالد بن الوليد فى جند آخر وقال :
— إن التقيتما فالأمير على بن أبى طالب .

فخرج على فى ثلاثمائة فارس وكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد وهى بلاد مذحج ، ففرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء ، وجعل على الغنائم بريدة بن الحصيب الأسلمى فجمع إليه ما أصابوا ، ثم لقى جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورما بالنبل ، ثم حمل عليهم على كرم الله وجهه وأصحابه فقتل منهم عشرين رجلا فتفرقوا وانهمزوا ، فكف عن طلبهم ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا ، وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وقالوا :
— نحن على من وراءنا من قومنا ، من قومنا ، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله .

وأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، فكتب على بذلك إلى رسول الله — ﷺ — فلما قرأ كتابه خر ساجدا ثم جلس فقال :
— السلام على همدان . السلام على همدان .

كان الظلام يحيم على المدينة ولم يكن في السماء نجم يتلأأ ولكن الدور كانت كخلايا النحل الرجال والنساء والولدان يرتلون القرآن في هجعة الليل وقد أضاءت قلوبهم بأنوار اليقين ، ورسول الله ﷺ — يصلى في جوف الليل فهو أشد الناس خشية وخوفا من الله ، وصلى ما شاء الله أن يصلى ثم أتى — ﷺ — عائشة فدخل معها في لحافها وقلبه مشغول بربه ، فقال لبنت الصديق :
— ذرينى أتعبد لربى .

فقام — ﷺ — فتوضأ ثم قام فصلى فبكى حتى سال دمه على صدره ، ثم رجع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاءه بلال فأذنه بالصلاة فقالت عائشة :

— يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟
— أفلا أكون عبدا شكورا ؟ ولم لا أفعل وقد أنزل الله تعالى عليّ في هذه الليلة : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه﴾ ففنا عذاب النار ﴿١﴾ . أوأه من عذاب الله قبل أن لا ينفع أوأه .

وكان رسول الله ﷺ — يعمل عمل البيت وأكثر ما كان يعمل الخياطة ،

(١) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١

ما يرى فار غاقط في بيته إما يخصف نعلال لرجل مسكين أو يخيظ ثوباً لأرملة وإنه لم يذق طعاماً منذ يومين ، وكانت عائشة ترى له من الجوع وتقول :
— نفسي لك الفداء ، لو تبليت من الدنيا بقدر ما يقولك ويمنع عنك الجوع !
فيقول عليه السلام :

— يا عائشة إن إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرمهم وأجزل ثوابهم ، أخشى إن ترفعت في معيشتي أن يقصر بي دونهم ، فأصير أياماً يسيرة أحب إلي من أن ينقص حقي غداً في الأخرى ، وما من شيء أحب إلي من اللحق بإخواني . يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر وقال : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . والله لأصبرن جهدي ولا قوة إلا بالله .

ودخلت امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ — عباءة مثنية . فانطلقت فبعثت إليه بفراش حشوه صوف ، فدخل — صلوات الله وسلامه عليه — على عائشة فقال :

— ما هذا ؟

— يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك ، فذهبت فبعثت هذا .

— رديه .

فلم ترده وأعجبها أن يكون في بيتها حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال :
— والله يا عائشة لو شئت لأجرى الله على جبال الذهب والفضة .

وخرج — ﷺ — ليصلي بالناس فإذا برجل من العرب يرنو إليه في حب شديد . إن الرجل زحم رسول الله ﷺ — يوم حنين وفي رجليه نعل كثيفة

فوطىء بها على رجل رسول الله ﷺ — فبعجه عليه السلام بعجة بسوط في يده وقال :

— بسم الله أوجعتنى .

فبات الرجل لنفسه لائما يقول أوجعت رسول الله ﷺ ، فلما أصبح إذا رجل يقول أين فلان ؟ فانطلق الرجل وهو متخوف فقال له النبى ﷺ : — إنك وطئت بنعلك على رجلى بالأس فأوجعتنى فبعجتك بالسوط ، فهذه ثمانون نعجة فخذها بها .

كان يمر هلال ثم هلال لا يوقد في بيت من بيوت رسول الله ﷺ — نار لا لخبز ولا لطبخ . كانوا يعيشون بالأسودين الماء والتمر ، وكان ﷺ — يعطى ثمانين نعجة لأنه بعج بالسوط رجلا وطىء قدمه . إنه كان يحرم نفسه وأهله لتأسى به أمته ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

وكان للنبى ﷺ — مهابة ، فكان ييسط الناس بالدعاية يضحك مما يضحكون . وكان يحب نعيمان وكان رجلا مضحكا مزاحا ، فقد جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ — فدخل المسجد فأناخ راحلته بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان :

— لو نخرتها فأكلناها فإننا قد اشتقنا إلى اللحم ويغرم النبى ﷺ — حقها .
فنخرها نعيمان . فخرج الأعرابى فرأى راحلته فصاح :

— واعقرا يا محمد .

فخرج النبى ﷺ — فقال :

— من فعل هذا ؟

— نعيمان .

فأتبعه النبى ﷺ — يسأل عنه فوجده في دار ضباعة بنت الزبير بن

عبد المطلب قد اختفى فى خندق وجعل عليه الجريد ، فأشار إليه رجل ورفع
صوته :

— ما رأيته يا رسول الله .

وأشار بأصبعه حيث هو فأخرجه رسول الله — ﷺ — وقد تعفر وجهه
بالتراب ، فقال — ﷺ — :

— ما حملك على ما صنعت ؟

— الذين دلوك على يا رسول الله هم الذين أمرؤى .

فجعل رسول الله — ﷺ — يمسح عن وجهه التراب ويضحك ، ثم غرم
— ﷺ — ثمنها .

وكان نعيمان إذا دخل المدينة طرفه اشتراها فى ذمته ثم جاء بها إلى النبى عليه
الصلاة والسلام ويقول :

— يا رسول الله هذه هدية .

فإذا جاء صاحبها يطلب ثمنها جاء به إلى النبى عليه الصلاة والسلام وقال له :

— أعط هذا ثمن ما جئت به إليك .

— أو لم تهد ذلك لى ؟

— يا رسول الله لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن يكون لك .

فيضحك النبى — ﷺ — ويأمر لصاحبه بثنمه .

وقضيت الصلاة فالتف المسلمون حول النبى — ﷺ — . كان المسجد

جامعهم وكان — صلوات الله وسلامه عليه — معلمهم الأكبر الذى لا ينضب

علمه ، ولا جرم فعلمه من لدن العليم الحكيم . فراح عليه السلام يقول :

— قال الله تبارك وتعالى : يا بن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما

كان منك ولا أبالى . يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت

لك ولا أبالي . يا بن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة .
وقال عليه السلام :

— النادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها . والليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا السير عليها إلى الآخرة واحذروا التسويف ، فإن الموت يأتي بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شرك نعله .
ثم قرأ رسول الله ﷺ : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (١) .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان يصغون إلى رسول الله ﷺ — وكان المسلمون يعرفون مكانتهم في الإسلام فرسول الله ﷺ — قال :
— أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأشدهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أنى بن كعب ؛ ولكل قوم أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح ، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أنى ذر ، أشبه عيسى في ورعه .

وقام الناس إلى الأسواق لما ارتفعت الشمس ، ودخل رسول الله ﷺ — داره ، فجاءت إليه امرأة فقالت :

— يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال فإن
يصبوا أجره وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم
عليهم فما لنا في ذلك ؟

— أبلغني من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك ،
وقليل منكن من يفعله .

وخرج رسول الله ﷺ — عيشي مع أبي ذر الغفاري ، فقال له فيما قال :
— إنكم ستفتحون مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما .

٧

جاء البراء بن أنس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضعة إبراهيم إلى مسجد رسول الله باسر الوجه ثقیل الخطو تكاد نفسه أن تذهب شعاعا ، يلفت دون أن تستقر عيناه على شيء ، يحس كأنما يحمل أثقال الدنيا ، فعلى لسانه يتراقص خبر مفجع أليم ، خبر يود أن لو قدره قد أعفاه من حمله .

ورأى بعينين زائغتين رسول الله ﷺ — جالسا عند الخراب وعنده عبد الرحمن بن عوف ، فاشتد وجيب قلبه واضطربت أنفاسه وشحب لونه وتقدم يترنخ من الألم حتى إذا ما بلغ رسول الله ﷺ — استمسك حتى لا ينهار ، ثم قال في صوت تخنقه العبرات :

— يا رسول الله إبراهيم يموت .

وأجهش الرجل بالبكاء ، وأحس رسول الله ﷺ — أن قلبه يكاد أن يتصدع أسى على ابنه الحبيب ، ونزل بصدرة حزن عميق فلم يستطع أن يقوم ، فاعتمد على يد عبد الرحمن بن عوف حتى نهض ، ثم انطلق معتمدا على يد صديقه من شدة ما به من الألم .

وجاء إلى فاطمة الزهراء نبأ احتضار أخيها وأن أباهما ﷺ — قد ذهب إلى بنى مازن فأحست نارا تتلظى في أحشائها وغصة في حلقها ، فإبراهيم كان سلوى أبيها وعزاءه عن الأحبة الذين دسهم في التراب : زينب ورقية وأم كلثوم . إنها فاجعة تنقض الظهر وتمزق نياط القلب وتشعل الوجدان بنيران الأحران . وراحت تغدو وتروح في الدار وهي فريسة الآلام والأفكار ، فعلى بن أبي

(حجة الوداع)

طالب هناك في اليمن وليس معها إلا الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم . وهى تريد أن تبعث إلى أنى بكر وعمر وصحابة أبيها ليخففوا عنه لوعة المصاب ، ورأت أنس بن مالك فنادته وأخبرته الخبر واتمست منه أن يبلغ الرجال ، فإذا أسامة بن زيد يعدو إلى مشربة أم إبراهيم ، وإذا بالفضل بن العباس يوسع من خطوه ليلحق بابن عمه ، وإذا بأبى بكر وعمر وكبار الصحابة يشتدون إلى العالية وفي قلوبهم حزن وفي حلوقهم غصة وقد لاذوا بالصمت وكان صمتاً أفصح من البيان ، فالأسى الذى ارتسم على الوجوه كان يعكس ما يعتمل في صدورهم من ألم وما يمور في نفوسهم من أحزان .

وبلغ سيرين أخت مارية وزوج حسان بن ثابت أن ابن أختها يجود بأنفاسه فلفها خوف واستولى عليها ذهول ، حتى إذا ما استبان لعقلها هول الفاجعة ندت عنها صرخة عبرت عما تكابد من آلام ، ثم راحت تهرول إلى دار أختها وبين ضلوعها نار .

ولحق أنس بن مالك برسول الله ﷺ — وعبد الرحمن بن عوف والبراء بن أنس وهم يقتربون من دار البراء ، وكان إلى جوار الدار حداد ينفخ الكور فيملأ المكان بالدخان ، فتقدم أنس وهو يقول : رسول الله .. رسول الله .

ودخل رسول الله ﷺ — على أم بردة فإذا الحجرة قد امتلأت بدخان الحداد ، وإذا بأم بردة قد وضعت إبراهيم في حجرها . فمال رسول الله ﷺ — على فلذة كبده ونظر في وجهه فألفاه ذابلاً ذبول الموت ، فنزل به حزن لو نزل على جبل لتصدع ، ثم قبله قبله أو دعها حبه وذوب نفس والهة حزينة لا تملك إلا الامتثال لأمر الله .

وخرجت أم بردة تحمل إبراهيم وخلفها رسول الله ﷺ — فمد إليه عبد الرحمن يده فاعتمد عليها ، وسار الركب الحزين إلى مشربة أم إبراهيم وأنس

والبراء وعبد الرحمن بن عوف يغالبون دموعهم حتى لا يزيدوا أحزان رسول الله
— صلوات الله وسلامه عليه .

ودخلت أم بردة على مارية فهرعت إليها ملهوفة وأخذته منها وقلها يرف
كجناح حمامة بين ضلوعها ، ونظرت في وجهه فإذا بها تنوء بآلامها تكاد أن
تموت كمدا ، فابنها بين ذراعيها يموت . وأى ابن ؟ إنه من رسول رب العالمين ، من
الطاهر الأمين ، الأمل الحلو المرجو الذى أحال حياتها إلى فردوس طوال الستين
اللتين عاشهما فى دارها .

ووضعتة فى حجرها ، وجاءت سيرين تمد إليه عينيها ولكنها لم تقو على أن ترى
الزهرة ذابلة فأشاحت بوجهها تسح دموعها ، واستمرت مارية ترنو إلى نور
حياتها وهو يخبو فسفحت الدمع السخين . وأحس رسول الله — ﷺ — ما
تعانى مارية من عذاب ألم فما بها بعض ما به ، فأخذه — ﷺ — ووضعها فى
حجره .

وراح إبراهيم يلتقط أنفاسا واهية ثم حشرج حشرة الموت ، فتأججت
النيران فى صدر رسول الله — ﷺ — وغص حلقه واغرورت عيناه بالدمع ، ثم
قال :

— يا إبراهيم ، إنا لن نغنى عنك من الله شيئا .

وفاضت الروح الطاهرة فذرفت عينا الرسول ، وصاحت مارية وسيرين
فنهاما — ﷺ — عن الصباح ، ثم التفت إلى إبراهيم المسجى فى حجره وقال :
— إنا بك يا إبراهيم لحزونون . تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسيخط
الرب . ولولا أنه وعد صادق وموعد جامع فإن الآخر منا يتبع الأول ، وجدنا
عليك يا إبراهيم وجدا شديدا ما وجدناه .

وخرج — ﷺ — على أصحابه منكس الرأس يذرف الدمع ، فهرع إليه أبو

بكر وعمر وقال له :

— أنت أحق من علم الله حقه .

— تدمع العين .

وقال له عبد الرحمن بن عوف :

— أولم تكن نبيت عن البكاء ؟

— لا . ولكن نبيت عن صوتين أحققين آخرين : صوت عند مصيبة وخمش

وجوه وشق جيوب ورنه شيطان ، وصوت عند نغمة لهو ، وهذه رحمة . من

لا يرحم لا يُرحم .

وصرخ أسامة بن زيد فنهاه رسول الله — ﷺ — فقال له :

— رأيتك تبكى .

— البكاء من الرحمة ، والصراخ من الشيطان .

إنه — ﷺ — يجد في كبده جمة لا يطفئها إلا عبرة ، فسكبها ، ولم يتحرك

لسانه بما يسخط الرب . وإن مارية تفيض عيناها من الدمع حزنا على إبراهيم ،

وقد استولى عليها جزع فلا جرم فسراج حياتها قد انطفأ ، وحلم يقظتها ومنامها

قد أصبح سرايا . كانت ترجو أن يكون إبراهيم للعرب كما كان إسماعيل ، وأن

تصبح أما للعرب كما صارت هاجر المصرية أما لهم . ولكن الزكى الطاهر ابن

النبي المصطفى قد مات .

مات ! يا لها من كلمة موحشة تجلج بالسواد وجدانها وتقوض كل الآمانى

والآمال ، وأجهشت مارية بالبكاء حتى كادت كبدها تنفطر وروحها تفر من

ذلك الأتون الذى تلظى بين الضلوع . وانكفأت سيرين على أختها تضمها إليها

لتخفف عنها وقع المصاب والدمع مسفوح والقلب مجروح ، والصوت قد

حبس خشية غضب رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

ولم تذهب الدموع بلوعة مارية ، ولم تخفف وطأة الأسى عن رسول الله ﷺ — فإن إبراهيم لما مات كان — ﷺ — مستقبلا للجبل فقال :
— يا جبل لو كان بك مثل ما بى لهدك ، ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون .
وراح الفضل بن العباس يغسل إبراهيم وقد ساد الصمت الحزين ، حتى إذا ما
خرج الناس به مادت الأرض تحت قدمى مارية فانهارت تبكى وتنتحب . ولولا
امتنالها لأوامر رسول الله ﷺ — لصرخت وخمشت وجهها وشقت جيها ؛
فقد خرج بلا عودة من كان وجودها فى وجوده ومكانتها مستمدة من مكانته
وعزها من عزه ، ولا غرو فلم يكن ابنها وحسب ولكنه كان ابنها وابن رسول الله
الذى بعثه ربه رحمة للعباد .

وسارت الجنازة إلى البقيع ، رسول الله ﷺ — بين أبى بكر وعمر ،
والناس يذرفون الدمع حزنا على حزن نبي الإسلام عليه السلام ، وما أكثر ما قطع
رسول الله عليه السلام ذلك الطريق ، فما من جنازة خرجت من المدينة إلا خرج
فيها عليه الصلاة والسلام ، وإن جنازات بناته رقية وزينب وأم كلثوم لتعود إلى
ذاكرته لتزيد فى آلام حليف الأحران . وطافت بذهنه جنازة خديجة أم المؤمنين
وحاضنة الإسلام ؛ إنه ليدكر ذلك اليوم الذى قبرها هناك فى مكة إلى جوار ولديه
القاسم وعبد الله . كان يوما فاجعا مثل ذلك اليوم الذى يقبر فيه آخر أولاده
الذكور الذى اكتحلت به زمنا يسيرا عيناه .

وبلغ الجنان الطاهر البقيع فصلى رسول الله ﷺ — على فلذة الفؤاد وكبر
أربعا ، ثم نزل فى قبره هو وأسامة بن زيد . وجلس رسول الله على شفير القبر ثم
قال :

— الحق بسلفنا الصالح وعثمان بن مظعون .

وكسفت الشمس فقال قائل :

— كسفت لموت إبراهيم .

كان رسول الله — ﷺ — صادقا مع ربه صادقا مع نفسه ومع المؤمنين ، فلم يمنعه حزنه من أن يحتج على ذلك القول الذى يجافى الحقيقة . فقال — ﷺ :
— إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله فلا ينكسفان لموت أحد .

وسوى التراب فرش عليه السلام على القبر ماء وعلم عليه بعلامة ، ووقف يلحن ولده الحبيب فى صوت حزين قال :

— يا بنى إن القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب . إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا بنى قل الله ربى ، والإسلام دينى ، ورسول الله أبى .

فبكت الصحابة ومنهم عمر بكى حتى ارتفع صوته ، فالتفت إليه النبى — ﷺ — فقال :

— ما يبكيك يا عمر ؟

— يا رسول الله هذا ولدك وما بلغ الحلم ، ولا جرى عليه القلم ، ويحتاج إلى تلقين مثلك يلقنه التوحيد فى مثل هذا الوقت ، فما حال عمر وقد بلغ الحلم وجرى عليه القلم وليس له ملقن مثلك .

فبكى النبى — ﷺ — وبكت الصحابة معه ، ونزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (١) . فتلا النبى — ﷺ — الآية فطابت الأنفس وسكنت القلوب وشكروا الله .

وقفل الناس راجعين بعد أن قبروا إبراهيم ، وقال — ﷺ :
— لو عاش مارق له خال .

لوضعت الجزية عن كل قبطنى ، وإن الحسن بن على كلم معاوية فى أيام خلافته
فى أن يضع الخراج عن أهل بلدة مارية ، وهى حفنة من أنصتا فى صعيد مصر ،
ففعل معاوية ذلك رعاية لحرماتهم . ولو عاش إبراهيم لكان فتنة . فسلام على
إبراهيم وسلام على أبى إبراهيم — صلوات الله وسلامه عليه .

٨

كانت قوافل التجارة تخرج من مكة والطائف والمدينة ، وكان بعض الذين يحبون أن يكون لهم نصيب في التجارة ولا مال عندهم يقترضون من الموسرين ، وكان العباس بن عبد المطلب من أثرياء مكة فكان يقرض الناس على أن يأخذوا بقدره على القرض كل شهر ، فإذا كان القرض لعام فعلى المدين أن يسدد القرض كله كاملا في نهاية العام دون أن يقتطع منه ما كان العباس يتقاضاه كل شهر . فإذا كان المدين معسرا وطلب تجديد عقد القرض سنة أخرى فعلى المدين أن يدفع في نهاية السنة التالية ضعف القرض وأن يستمر في دفع الفوائد الشهرية المتفق عليها ، فإذا لم يتمكن المدين من سداد الدين الجديد في نهاية السنة الثالثة فعليه أن يدفع ضعف المبلغ الذى بلغه القرض في نهاية السنة الثانية إذا أراد أن يؤجل الدين سنة أخرى .

وما كان العباس وحده الذى يقرض الناس بالربا . فخالد بن الوليد وأثرياء بنى مخزوم وسادات الطائف وسادات يثرب الأغنياء كانوا يعيرون على الربا ، بل إن بعض متوسطى الحال كانوا إذا أقرضوا مقترضاً ناقه عمرها عامان ، فإذا طلب مهلة ثانية فعليه أن يعيد ناقه تجاوزت عامها الثالث ولكنها لم تبلغ الرابع بعد . وكانت القاعدة ذاتها تطبق على الذهب والفضة ، فإذا اقترض المدين مائة دينار فعليه أن يدفع في العام الثانى إذا طلب مد الأجل مائتى دينار ، وإذا عجز عن الوفاء وطلب مهلة سنة أخرى فعليه أن يدفع في نهاية السنة الثالثة أربع مائة دينار ، وهكذا إلى أن يسدد المدين دينه كاملا . فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴿١﴾ .
 وهاجر خالد بن الوليد إلى المدينة وكان له أموال عظيمة في الربا ، فلما نزلت
 آية تحريم التعامل بالفوائد المركبة راح هو والمسلمون يقرضون الناس بفوائد
 بسيطة ، فكان العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان يقرضون الناس وكانا قد
 أسلفا في التمر ، فلما حضر الحصاد قال لهما صاحب التمر :
 — لا يبقى لى ما يكفي عيالى إذا أنتم أخذتما حظكما كله ، فهل لكما أن تأخذا
 النصف وأضعف لكما ؟

ففعلا .

إن ابتزاز الأغنياء أموال الفقراء لا يتفق مع المجتمع الجديد الذى يكونه
 الإسلام على المحبة والإخاء والإيثار ونجدة الملهوف ، وإن السماح بوجود طبقة
 غنية لا عمل لها إلا إقراض الناس مال الله الذى آتاهم سيكون طبقة من العاطلين
 لا عمل لهم ، مع أن الإسلام يقدر العمل حتى جعله عبادة ، وإنه يبارك الكسب
 الحلال دون عبادة المال أو تأليه المادة .

إن الربا من الخبائث فهو يقتلع جذور الروح الإنسانية ويحرك في النفوس
 الطمع ؛ وما جاء الإسلام إلا للقضاء على الجشع واستئناس الوحش الرابض في
 صدر الإنسان ، وتقوية الروابط بين الطبقات الاجتماعية وعدم إثارة أسباب
 الصراع بينها ، فإن سمح الإسلام بالربا فلنكأتما قد ضم الحيات التى ستقضى عليه
 إلى صدره ، ولكن الإسلام ما دام يقصد الانسجام التام بين طمع الفرد وسلامة
 الجماعة فما كان أمامه إلا أن يحرم الربا الذى يقوض الروابط الاجتماعية الإنسانية
 من أساسها .

إن السماح بالربا ليس له من هدف سوى تكوين رأسمالية مستغلة بغيضة تشيع الفوضى الاجتماعية لتحقيق مآربها من استيلاء على السلطة وتسلط على المجتمع لتحقيق مطامعها . فالإسلام بتحريمه الربا إنما يحكم في أنانية المورسين التي لا ترحم ، وفي جوعهم الدائم للذهب الذى يفسد القلوب ويدنس طهارتها ويهدر الكرامة الإنسانية .

كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله . فكيف يسمح لشخص أن يبتز شخصا آخر مجرد أن عنده مالا يفيض عن حاجته ؟ وأين التكافل في مجتمع تستغل فيه فئة قليلة بيدها مال الله فئة كثيرة في حاجة إلى ذلك المال ؟ إن هدف الإسلام بناء جماعة متوازنة متحابّة قد برئت من أمراض القلوب والأنانية ، جماعة نبيلة تحيا حياة مادية روحية ، تعبد الله وتسعى في مناكب الأرض ، تغذى الروح بغذاء الروح وتغذى الجسد بالطيبات الحلال ، تحب للأغيار ما تحب لنفسها ، وتبارك مكارم الأخلاق وتنطلق في طريق الخير شاكرة لأنعم الله ، سعيدة بما تقدم للآخرين من خير . « وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » ، فما دام هذا بعض أهداف الإسلام ، فلا مكان للربا والاستغلال ولا للبغض والحقد والصراع بين الطبقات .

وحرم الإسلام الربا وارتسمت على بعض الوجوه دهشة ، وقال أناس :
— إنما البيع مثل الربا .

وفتح الله على رسوله ﷺ — مكة فأنزل الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقِهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ

وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يحق الله الربا ويرى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴿١﴾ .

وحاصر — ﷺ — الطائف ولم يفتحها ، ثم رفع الحصار عنها وعاد إلى مكة واستعمل عليها عتاب بن أسيد بن أبي العيص ورزقه كل يوم درهما ، فقام فخطب الناس فقال :

— أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله ﷺ — درهما كل يوم ، فليست بي حاجة إلى أحد .

ووفد على رسول الله ﷺ — في رمضان وفد ثقيف فأعلنوا إسلامهم ، ثم أسلمت ثقيف كلها وكان سادات ثقيف مسعود بن عبد اليل وحبيب وعمرو ابن عمر الثقفي ، وكانوا يقرضون بني المغيرة أموالا برأ الجاهلية ، فلما أسلموا شدوا الرحال إلى مكة وطالبوا بني المغيرة بأصل الدين والربا ، فرفض بنو المغيرة السداد لأن الإسلام حرم الربا .

ونشب خلاف بين بني ثقيف وبين بني المغيرة فاختلفوا إلى عتاب بن أسيد ، وأبرز بنو ثقيف ما كان في حوزتهم من عقود فكتب عتاب بن أسيد بالنزاع إلى رسول الله ﷺ — فراح رسول الله ﷺ — يتدبر الأمر ، وفيما هو في تفكيره إذ أوحى إليه : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رعوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ﴿٢﴾ .

وبلغ بني ثقيف ما أنزل الله في الربا فقالوا لبني المغيرة :
— هاتوا رعوس أموالنا ولكم الربا ندعه لكم .

٢٧٩ ، ٢٧٨ البقرة (٢)

٢٧٦ ، ٢٧٥ البقرة (١)

— نحن اليوم أهل عسرة فأخرونا إلى أن ندرك الثمرة .
ورفع الأمر مرة أخرى إلى رسول الله — ﷺ — لو كان ذلك في الجاهلية
لكان على بنى المغيرة أن يدفعوا ضعف الدين إذا أمهلوا سنة، ولكن ذلك كان في
الإسلام في دين الإنسانية دين الرحمة، فأوحى الله إلى رسوله — ﷺ — : « وإن
كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » (١) .

كان أهل الجاهلية يؤخرون الحج في كل عام أحد عشر يوما، فكان لا يعود إلى وقته إلا بعد ثلاث وثلاثين سنة، وجاءت سنة عشر من الهجرة وكان الزمان قد استدار فعاد الحج إلى وقته الصحيح، فلما دخل على رسول الله ﷺ - ذو القعدة، تجهز للحج وأمر الناس بالجهاز له.

إنه - ﷺ - كان يحج أيام أن كان في مكة، وكان قبل النبوة يقف بعرفات ويفيض منها إلى مزدلفة مخالفا لقريش توفيقا له من الله، فإنهم كانوا لا يخرجون من الحرم فإنهم قالوا غرورا:

— نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاية البيت وعاكفوا مكة، فليس لأحد من العرب منزلتنا، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بجرمكم وقالوا عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فليس لنا أن نخرج من الحرم نحن الخمس.

وطاف - ﷺ - ليلة خروجه للحج على نسائه، ثم اغتسل ثم صلى الصبح والظهر، ثم طيبته عائشة بطيب فيه مسك، ثم اغتسل لإحرامه وصلى ركعتين، ثم أحرم في رداء وإزار، واستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدي، ووضعت أمهات المؤمنين في هودجهن وركب - ﷺ - ناقته القصواء، وكان على راحلته رحل رث يساوي أربعة دراهم.

وأهل - ﷺ - بالحج وسار وسار معه تسعون ألفا من المسلمين لا يذكر ولا يذكر الناس إلا الحج، حتى إذا كان بالعقيق وقد ساق رسول الله ﷺ -

— ١٢٦ —

الهدى أتاه آت من ربه فقال له :

— صل بهذا الوادى المبارك وقل لبيك بحجة وعمرة معا .

فصار قارنا بعد أن كان منفردا ، وراح يقول :

— لبيك عمرة وحجاً .

وولدت أسماء بنت عميس زوج أبى بكر الصديق ولدها محمد بن أبى بكر فى ذى الحليفة ، وأرسلت إليه — ﷺ — فأمرها أن تغتسل وأن تستنفر بخرقه عريضة بعد أن تحشو بنحو قطن وتربط طرفى تلك الخرقه فى شئ تشده فى وسطها تمنع بذلك سيلان الدم كما تفعل الحائض ، وتحرم .

ودخل رسول الله — ﷺ — على عائشة وهى تبكى ، فقال :

— ما يبكيك يا عائشة ؟ لعلك تُفست .

— نعم والله لوددت أنى لم أخرج معكم عامى هذا .

— لا تقولن ، فإنك تقضين كل ما يقضى الحاج إلا أنك لا تطوفين البيت .

وكان جمل أم المؤمنين عائشة سريع المشى مع خفة حمل عائشة ، وكان جمل أم المؤمنين صفية بطيء المشى مع ثقل حملها فصارتا آخر الركب بسبب ذلك . فأمر

— ﷺ — أن يجعل حمل صفية على جمل عائشة وأن يجعل حمل عائشة على جمل صفية ، فجاء — ﷺ — لعائشة رضى الله عنها يستعطف خاطرها فقال لها :

— يا أم عبد الله حملك خفيف وحملك سريع المشى ، وحمل صفية ثقل

وجملها بطيء فأبطأ ذلك بالركب ، فنقلنا حملك على جملها وحملها على حملك ليسير الركب .

فقال عائشة فى غيرة :

— إنك تزعم أنك رسول الله .

— أفى شك أنى رسول الله أنت يا أم عبد الله ؟!

— فما بالك لا تعدل .

فكان أبو بكر فيه جدة فلطمها على وجهها . فلامه رسول الله ﷺ — فقال أبو بكر :

— أما سمعت ما قالت ؟

— دعها فإن المرأة الغيرة لا تعرف أعلى الوادى من أسفله .

ونزلوا بمحل يقال له العرج ، فقد البعير الذى عليه زاملته (زاده) — ﷺ — وزاملة أى بكر ، وكان ذلك البعير مع غلام لآبى بكر فقال أبو بكر للغلام :

— أين بعيرك ؟

— ضللت البارحة .

فقال أبو بكر وقد اعترته حدة :

— بعير واحد تضله !

وأخذ يضربه بالسوط ورسول الله ﷺ — يقول :

— انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع .

ويبتسم ولا يزيد على ذلك ، فكف أبو بكر عن ضرب الغلام والغيط يعتمل فى صدره .

وبلغ بعض الصحابة أن زاملة رسول الله ﷺ — ضلت ، فجاء بحبس ووضع بين يديه ، فقال — ﷺ — لآبى بكر وهو يفتاظ على الغلام :

— هون عليك يا أبا بكر فإن الأمر ليس لك ولا إلينا ، وقد كان الغلام حريصا على ألا يضل بعيره وهذا غذاء طيب قد جاء الله به .

فأكل — ﷺ — وأبو بكر وأمّهات المؤمنين وأهل الصفة ومن كان يأكل مع النبى — ﷺ — وأبى بكر حتى شبعوا . فأقبل صفوان بن المعطل وكان على ساقة القوم والبعير معه وعليه الزاد حتى أنانحه على باب منزله — ﷺ — فقال رسول

— ١٢٨ —

الله ﷺ — لأبي بكر :

— انظر هل تفقد شيئا من متاعك ؟

— ما فقدت شيئا إلا قعبا كنا نشرب فيه .

فقال الغلام :

— هذا القعب معي .

ولما بلغ سعد بن عباد و ابنه قيس أن زاملته — ﷺ — قد ضلت جاءا بزاملة
وقالا :

— يا رسول الله بلغنا أن زاملتك ضلت الغداة وهذه زاملة مكانها .

— قد جاء الله بزاملتنا ، فارجعا بزاملتكما بارك الله لكما .

ثم نزل بنى طوى فبات بها تلك الليلة وصلى بها الصبح وخلفه تسعون ألفا
من الأبرار ثم سار ، فلما استقبل القبلة لبي — ﷺ — فقال :

— لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك
والملك . لا شريك لك .

والتفت — ﷺ — إلى أصحابه وقال :

— أتاني جبريل عليه السلام فقال : مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية
فإنها من شعائر الحج .

ورجع الكون النداء فامتلات صدور المؤمنين نشوة ورجاء ، وترقرقت
العين بالدموع وأشرقت في الأفق أنوار ، فإذا بالأسنة تلبى في حماس خلف
رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه :

— لبيك إله الخلق لبيك . لبيك حقا . تعبدا ورقا .

وسار المسلمون في ملابس الإحرام لافرق بين غنى وفقير ولا سيد ومسود ،
كلهم في الإزار مثلما يوم يبعثون . ونزل — ﷺ — بالمسلمين ظاهر مكة ،

ودخل مكة نهارا والوقت ضحى من ثنية كداء وهى التى ينزل منها إلى المعلاة مقبرة مكة حيث ترقد خديجة أم المؤمنين ، الطاهرة سيدة نساء قریش وحاضنة الإسلام . إنه ليذكرها بالخير ، وما من امرأة من نساءه استطاعت أن تنسيه أيام خديجة النابضة بالكفاح والأمل والحب .

ودخل — ﷺ — المسجد الحرام من باب عبد مناف باب السلام ، فلما أبصر البيت قال :

— اللهم أنت السلام ومنك السلام ، فحينار بنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ومهابة وبراً ، وزد من شرفه وكرمه ممن حججه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً .

وتقدم — ﷺ — فى خشوع فبدأ بالحجر الأسود فاستلمه وفاضت عيناه بالبكاء ، ثم رمل ثلاثاً ومشى أربعاً ، فلما فرغ — ﷺ — قبل الحجر ووضع يديه عليه ومسح بهما وجهه .

ورأى — ﷺ — عمر بن الخطاب يزاحم لتقبيل الحجر الأسود أسوة برسول الله — ﷺ — فقال له :

— إنك رجل قوى لا تزاحم على الحجر تؤذى الضعيف ، إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فاستقبله وهلل وكبر .

وراح عمر يفعل ما فعل رسول الله — ﷺ — قال عندما استلم الحجر الأسود :

— بسم الله والله أكبر .

وقال عندما كان بين الركن اليمانى والحجر كما قال — ﷺ :

— ربنا آتانا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .

ولم يستلم الركنين المقابلين للحجر ، فرسول الله — ﷺ — لم يستلمهما

(حجة الوداع)

لأنهما ليسا على قواعد جدّه إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .
وصلى النبي ﷺ — بعد الطواف ركعتين عند مقام إبراهيم وجعل المقام
بينه وبين الكعبة ، قرأ فيهما مع أم القرآن : قل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد .
ودخل — ﷺ — زمزم فنزع له دلو فشرّب منه ، ثم رجع — ﷺ — إلى الحجر
الأسود فاستلمه ، ثم انطلق إلى الصفا .

كان الأنصار في الجاهلية يهلون لمناة ، وكان من أحرم بمناة لا يطوف بين الصفا
والمروة . وإنهم سألوا رسول الله — ﷺ — عن ذلك حين أسلموا فأنزل الله
تعالى : ﴿ إِنْ الصِّفَا وَالْمَرْوَةُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ
أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .
وارتقى — ﷺ — الصفا وقرأ :

— إن الصفا والمروة من شعائر الله . ابدعوا بما بدأ الله به .
فسعى بين الصفا والمروة يمشى فكثر عليه الناس يقولون :
— هذا محمد .. هذا محمد .

حتى خرجت النسوة من البيوت . وكان رسول الله — ﷺ — لا يضرب
الناس بين يديه ، فلما كثر عليه الناس ركب وصار في السعى يخبث ثلاثا ويمشي
أربعا ويرق الصفا ويستقبل الكعبة ويوحّد الله ويكبره ويقول :
— لا إله إلا الله . الله أكبر . لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ،
وهزم الأحزاب وحده .

ويرق المروة ثم يفعل على المروة مثل ما فعل على الصفا ، فلما انتهى من السعى
والخلق ، أمر — ﷺ — من لا هدى معه بالإحلال ؛ ولم يكن ساق الهدى معه من

أصحابه إلا طلحة بن عبد الله وأبو بكر وعمر والزبير ، وأمر من معه الهدى أن يبقى على إحرامه .

وضاق جمع من الصحابة بهذا الأمر فقد أهلوا بالحج فكيف يجعلونها عمرة ، فدخل — ﷺ — على عائشة وهو غضبان ، فقالت : — من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار .

— أو ما شعرت أني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون .

كان يريد أن يخفف على أصحابه ، فالإحرام بالحج أشق عليهم لأن المتمتع بالعمرة يحل له كل ما حرم على المحرم من وطء النساء والطيب ولبس الخيط ، ويبقى كذلك إلى يوم التروية الذي هو اليوم الثامن من ذي الحجة فيحرم بالحج ، وقيل له يوم التروية لأنهم كانوا يتروون فيه بالماء ويحملونه معهم في ذهابهم من مكة إلى عرفات لعدم وجدان الماء بها .

وخرج — ﷺ — إلى الناس فقام خطيبا فحمد الله تعالى فقال : — أما بعد ، فتعلمون أيها الناس لأننا والله أعلمكم بالله وأتقاكم له ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت هديا ولأحللت .

— كيف نجعلها عمرة وقد سميناه بالحج ؟

— اقبلوا ما أمرتكم به واجعلوا إهلالكم بالحج عمرة ، فلو لأنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم به .

وكان رسول الله — ﷺ — بعث عليا إلى نجران ، فلما بلغ عليا أن رسول الله — ﷺ — قد خرج للحج خرج إلى مكة ، فدخل على فاطمة الزهراء فوجدها قد حلت وتيبأت فقال :

— ما لك يا بنت رسول الله ؟

— أمرنا رسول الله — ﷺ — أن نحل بعمره فحللنا .

— ١٣٢ —

ثم أتى رسول الله ﷺ — فلما فرغ من الخبر عن سفره، وقال له رسول الله ﷺ : —

— انطلق فطف بالبيت وحل كما حل أصحابك .

— يا رسول الله إني أهلت كما أهلت .

— ارجع فاحلل كما حل أصحابك .

— يا رسول الله إني قلت حين أحرمت : اللهم إني أهل بما أهل به نبيك وعبدك

ورسولك محمد — ﷺ :

— فهل معك من هدى ؟

— لا .

فأشركه رسول الله ﷺ — في هديه ، وثبت على إحرامه مع رسول الله ﷺ . —

وقدم أبو موسى الأشعري من اليمن ، فقال له — ﷺ :

— بم أهلت ؟

— لبيت بإهلال كإهلال النبي — ﷺ —

— هل معك من هدى ؟

— لا .

— فطف بالبيت وبالصفاء والمروة وأحل .

وجوز لأبي موسى الفسخ من الحج إلى العمرة كما فعل ذلك مع غيره من

الصحابية الذين أحرموا بالحج ولا هدى معهم .

ولم يسق أمهات المؤمنين معهن الهدى فأحلن إلا عائشة فإنها لم تحل لأنها

أدخلت الحج على العمرة ، وأحلت فاطمة الزهراء وأسماء بنت أبي بكر ، ووجد

على أن فاطمة لبست صبيغا واكتحل فأنكر عليها فقالت :

— ١٣٣ —

— أمرني أبى بذلك .

فذهب إلى النبى — ﷺ — محرشا له عليها ، فقال — ﷺ :

— صدقت صدقت صدقت . أنا أمرتها بذلك يا على .

وسأله سراقه بن مالك الرجل الذى خرج فى أثره لما هاجر — عليه السلام —

من مكة إلى المدينة ، فقال :

— يا رسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟

فشبك — ﷺ — أصابعه فقال :

— دخلت العمرة فى الحج هكذا إلى يوم القيامة .

تعجل على بن أبى طالب إلى رسول الله — ﷺ — واستخلف على جنده

الذين معه رجلا من أصحابه ، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حلة من البز الذى كان مع على رضى الله عنه ، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل قال :

— ويلك ! ما هذا ؟

— كسوت القوم ليتجملوا به إذا ما قدموا فى الناس .

إن البز كان للمسلمين جميعا ولم يكن للجيش وحدهم ، فقال على فى غضب

لصاحبه الذى خلفه على جنده :

— ويلك انزع قبل أن تنتهى به إلى رسول الله — ﷺ .

فانتزع الحلل من الناس فردها فى البز ، وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم ،

فاشتكى الناس عليا ، فقام رسول الله — ﷺ — فى الناس خطيبا ، قال :

— أيها الناس ، لا تشكو عليا ، فوالله إنه لأخشن فى ذات الله من أن يُشكى .

ثم نهض رسول الله — ﷺ — ونهض معه الناس يوم التروية وقد تزودوا

بالماء ، وكان اليوم الثامن من ذى الحجة . إلى منى وأحرم بالحج كل من كان

أحل، فصلى رسول الله ﷺ الظهر بمبنى والعصر والمغرب والعشاء، وبات بها تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة وصلى بها الصبح، ثم نهض بعد طلوع الشمس إلى عرفة، وأمر ﷺ — أن تضرب له قبة من شعر بنمرة، فأق — ﷺ — عرفة ونزل في تلك القبة حتى إذا زالت الشمس أمر بنائقة القصواء فرحلت، ثم أتى بطن الوادي فخطب على راحلته، وأمر ربيعة بن أمية بن خلف أنحاصفوان بن أمية وكان صيتا أن ينادى بكل ما يقول، فوقف ربيعة تحت صدر ناقته يردد في صوت جهورى ما يقول — ﷺ — ليسمعه الناس الذين ملأوا وادي عرفة.

حمد عليه السلام الله وأثنى عليه، ثم راح يعلن حقوق الإنسان :

— أيها الناس اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع. ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب — وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل — فهو أول من أبدا به من دماء الجاهلية. أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس، إن النسوة زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمنه عاما، ليواطئوا عدة ما حرم الله فليحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليه ورجب

مضر^(١) الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساءكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بينا كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بلغت ؟

— اللهم نعم .

— اللهم اشهد . أيها الناس ، إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه ، وإنه لا تجوز وصية لوارث . والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً . اللهم هل بلغت ؟

— اللهم نعم .

— اللهم اشهد .

(١) ورجب مضر : إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجبا فينبى عليه السلام أنه رجب مضر لا رجب ربيعة وأنه الذى بين جمادى وشعبان .

وبعثت إليه أم الفضل زوجة العباس لبنا في قدح شربه أمام الناس ، فعلموا أنه ﷺ — لم يكن صائما ذلك اليوم يوم عرفة . وأمر عليه السلام بلالا فأذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا ، فصلاهما بمجموعتين في وقت الظهر بأذان واحد وإقامتين ، لأنه لم يقم بمكة إقامة تقطع السفر ، لأنه دخلها في اليوم الرابع وخرج يوم الثامن فقد صلى بها إحدى وعشرين صلاة من أول ظهر يوم الرابع إلى عصر الثامن يقصر تلك الصلوات ، فالجمع للسفر . ثم ركب — ﷺ — راحته إلى أن أتى الموقف فاستقبل القبلة ، ولم يزل واقفا للدعاء من الزوال إلى الغروب :

— لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن وسوسة الشيطان ومن وسوسة الصدر ومن شتات الأمر ومن شر ذي شر .

اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، والوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه . أسألك مسألة المسكين ، وأبتل إليك ابتهاال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضريع ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه . اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا ، وكن بي رعوفا رحима ، يا خير المسئولين ، يا خير المعطين .

وجاءه — ﷺ — جماعة من نجد فسألوه :

— كيف الحج ؟

فأمر مناديا ينادي :

— الحج عرفة . من جاء ليلة جمع (أي المزدلفة) قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج . أيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه .

وقال — ﷺ :

— وقفت ههنا وعرفة كلها موقف .

كان رسول الله — ﷺ — واقفا على جبل النور ، وخشى أن يتزاحم الناس في الحج على ذلك الجبل فأعلن أن عرفة كلها موقف . ونزل على رسول الله — ﷺ — وهو على ناقته فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحي : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (١) . فلما قرأها — ﷺ — على الناس بكى عمر ، فقال له النبي — ﷺ :

— ما يبكيك يا عمر ؟

— أبكاني أنا كنا في زيادة . أما إذا كمل فإنه لا يكمل شيء إلا نقص .

— صدقت .

وساد الناس وجوم ، ترى أنزلت هذه الآية لتنعى رسول الله — ﷺ — ؟ ثم أرفد رسول الله — ﷺ — أسامة بن زيد خلفه ودفع إلى مزدلفة وهو يأمر الناس بالسكينة في السير ، فلما كان في الطريق عند الشعب الأبر نزل فيه فتوضأ وضوءا خفيفا ، ثم ركب حتى أتى المزدلفة .

وصلى المغرب والعشاء مجموعتين في وقت العشاء بأذان واحد وإقامتين ، ثم اضطجع وأذن للنساء والصبيان أن يرموا الليلا . فذهبوا من المزدلفة إلى منى بعد نصف الليل بساعة ليرموا جمره العقبة قبل الزحمة ، فأفاضت سودة وأم حبيبة في النصف الأخير من مزدلفة بإذن النبي — ﷺ — وقدم عليه السلام عبد الله بن عباس في ضعفة أهله فقد كان غلاما ، ولم يأذن — ﷺ — للرجال في ذلك لا لضعفائهم ولا لغير ضعفائهم . وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر

— ١٣٨ —

فقام — ﷺ — وصلى بالناس الصبح مغلسا ، ثم أتى المشعر الحرام فوقف به وهو راكب ناقته واستقبل القبلة ودعا الله وكبر وهلل ووحد ، ولم يزل واقفا حتى أسفر جدا . ثم إنه — ﷺ — دفع من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس وأردف خلفه الفضل بن العباس ، وجاءته امرأة تسأله فقالت له :
— يا رسول الله إن فريضة الله على عباده الحج ، أدركت أبى شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الرحلة فأحج عنه ؟
— نعم .

فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل — ﷺ — يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر فقال العباس :

— يا رسول الله لويت عنق ابن عمك .
— رأيت شابا وشابة فلم آمن عليهما الشيطان .
فلما وصل — ﷺ — إلى وادى محسر وهو أول منى قال :
— عليكم بحصى الخذف الذى نرمى به الجمرة .
وسلك — ﷺ — الطريق التى تسلك على جمرة العقبة ، فرمى بها من أسفل سبع حصيات وبلال وأسامة أحدهما أخذ بخطام ناقته والآخر يظله بثوبه . وقطع عليه السلام التلبية عند رمى كل حصاة وهو راكب ناقته .
وخطب — ﷺ — بمنى خطبة قرر فيها تحريم الزنا والأموال والأعراض ، وذكر حرمة يوم النحر وحرمة مكة على جميع البلاد فقال :
— يأبى الناس أى يوم هذا ؟

— يوم حرام .

— فأى بلد هذا ؟

— بلد حرام .

— فأى شهر هذا ؟

— شهر حرام .

— فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا .

ثم رفع رأسه وقال :

— اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .

ثم انصرف — ﷺ — إلى المنحربمبنى فنحرت ثلاثة وستين بدنة وهى التى قدم بها من المدينة ، لكل سنة بدنة . فقد كان عمره — ﷺ — فى ذلك اليوم ثلاثا وستين سنة ، ثم أمر عليا فنحرت مابقى وهو تمام المائة وهو ما أتى به على من اليمن ، جاء بعده مع جيشه الذى لحق به .

وقال — ﷺ — لعلى :

— اقسم لحومها وجلودها وجلالها بين الناس ولا تعط جزارا منها شيئا ، وخذ لنا من كل بعير جذبة من اللحم واجعلها فى قدر واحدة حتى نأكل من لحمها ونحسو من مرقها .

إن الزاهد الكريم الذى كان يمر هلال ثم هلال ولا يوقد فى دار من دوره نار لطبخ قد نحرت مائة بدنة ووزع لحومها على الناس ، إنه غنى ولكنه يتعفف ليكون أسوة لأمتة ، فليس بالخيز وحده يحيا الناس .

وأخبر — ﷺ — أن منى كلها منحرب ، وأن فجاج مكة كلها منحرب . ثم راح معمر بن عبد الله يخلق رأسه عليه السلام ، فطاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا فى يد رجل .

ثم تطيب — ﷺ — طيبته عائشة بطيب فيه مسك قبل أن يطوف طواف

الإفاضة، ثم نهض — ﷺ — راكباً إلى مكة فطاف في يومه ذلك طواف الإفاضة قبل الظهر. ومر على رحلته وخلفه أسامة بن زيد فاستسقى فهرع إليه آل العباس بإناء من سقاية العباس وكانوا يضعون في السقاية التمر والزبيب، فشرب — ﷺ — وسقى فضله لأسامة وقال :

— أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا .

ثم شرب من ماء زمزم بالدلو وقد نزع له الدلو عمه العباس بن عبد المطلب، فقد كانت له السقاية في الجاهلية والإسلام، ثم رجع — ﷺ — إلى منى فصلى بها الظهر وبقي في منى وإن كان يزور البيت كل ليلة، وكان أزواجه — ﷺ — يرمين بالليل، ثم نهض — ﷺ — من منى في اليوم الثالث الذي هو يوم النفر الآخر، ونفر معه المسلمون بعد الزوال. واستأذنه عمه العباس في عدم المبيت بمنى في الليالي الثلاث من أجل السقاية فرخص له في ذلك، وضرب له — ﷺ — أبو رافع قبة في الأبطح فجاء فنزل، وكان عليه السلام قال لأسامة :

— غدا ننزل بالمحصب .

وهو المحل الذي تحالف فيه قريش وكنانة على مباذنة بني هاشم وبني المطلب حتى يسلموا إليهم النبي — ﷺ — ليقتلوه، وكان ذلك سبباً لكتابة صحيفة المقاطعة. ولما نزل — ﷺ — بالمحصب صلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ورقد رقدة ثم أن عائشة قالت :

— يا رسول الله، أرجع بحجة ليس معها عمرة ؟

فدعا عبد الرحمن بن أبي بكر فقال :

— أخرج بأختك من الحرم ثم افرغا من طوافكما حتى تأتياني ههنا

بالمحصب .

فاعتمرا من التمتع مكان عمرة عائشة التي فاتتها، وفرغا من طوافهما في

— ١٤١ —

جوف الليل فأتياه — ﷺ — بالخصب فقال :

— فرغتما من طوافكما ؟

— نعم .

فأذن في الناس بالرحيل ، وأمر — ﷺ — الناس ألا ينصرفوا إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت ، وقالت له صفية أم المؤمنين :

— ما أراى إلا حابستكم لا انتظار طهرى وطواف الوداع .

كانت قد حاضت بعد طواف الإقامة ليلة النفر من منى ، فقال لها — ﷺ :

— أو ما كنت طفت طواف الإفاضة يوم النحر ؟

— بلى .

— يكفيك ذلك .

وجاء بريدة إلى رسول الله — ﷺ — وكان مع على بن أبى طالب فى اليمن وجعل يشكو عليها له — ﷺ — لأنه حصل له منه جفوة ، فجعل يتغير وجه

رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا بريدة لا تقع على على ، فإن عليا منى وأنا منه . أأست أولى بالمؤمنين من

أنفسهم ؟

— نعم يا رسول الله .

— من كنت مولاه فعلى مولاه .

ودخل — ﷺ — مكة فى تلك الليلة وطاف طواف الوداع سحرا قبل صلاة الصبح ، فوقف فى الملتزم بين ركن الحجر وبين باب الكعبة ، فدعا الله وألزم جسده ووجهه بالملتزم وطاف سبعاً ثم خرج من الثنية السفلى ثنية كدى ، فلما وصل — ﷺ — إلى محل بين مكة والمدينة يقال له غدیر خم بقرب رابع جمع الصحابة فقال — ﷺ — :

— أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني
مستول وإنكم مستولون فما أنتم قائلون ؟

— نشهد أنك قد بلغت وجهدت ونصحت فجزاك الله خيرا .

— أليس تشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن جنته
حق ، وناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق بعد الموت ، وأن الساعة آتية
لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ؟
— بلى نشهد بذلك .

— اللهم اشهد .

— إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ولن تنفرا حتى تردا
على الخوض . أأست أولى بكم من أنفسكم ؟
— نعم .

— أأست أولى بكم من أنفسكم ؟

— نعم .

— أأست أولى بكم من أنفسكم ؟

— نعم .

ورفع عليه السلام — يد على كرم الله وجهه وقال :

— من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وأحب
من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، وأعن من أعانه ، واخذل من
خذله ، وأدر الحق معه حيث دار .

ووصل عليه السلام — إلى ذى الحليفة فبات بها . لأنه عليه السلام — كره أن يدخل

المدينة ليلا . ولما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال :

— لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء

— ١٤٣ —

قدير . آيئون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم دخل عليه الصلاة والسلام المدينة نهارا .
وكان أصاب الناس عند خروجه — ﷺ — للحج جدري منعت كثيرا من الناس من الحج معه ، فلما قابل أم سنان الأنصارية بعد عودته قال لها :
— ما منعك أن تكوني حججت معنا ؟

— لنا ناضحان ، حج أبو فلان (زوجها) وولدى على أحدهما ، وكان الآخر نسقى عليه أرضنا .

فقال تطيبوا لخواطركم من تخلف بسبب المرض أو لعدم وجود راحلة :

— عمرة في رمضان تعدل حجة معي .

التذيل

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

خلق الله آدم ليكون خليفته في الأرض ، وكان أمر هذه الخلافة مقررًا قبل خلق آدم ، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . ثم خلق الله زوجه فكانا يأكلان من الجنة رغداً ، ونهاهما ربهما عن شجرة الخلد فوسوس الشيطان لآدم ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ ﴾ (٣) . ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (٤) .

وهبط آدم وحواء إلى الأرض ليكون آدم خليفة لله فيها ، فكانت الأسباب موصولة بينه وبين السماء وإن راح يهيم في وادي الدموع ، فكانا يأكلان من طيبات ما رزقهما الله ويشكران الله ويلتمسان التوبة . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه .

وجعل الله لهما بنين وحفدة فكان الخير للجميع ، وما كان فيهم غنى أو فقير فقد كانت الحياة بسيطة والقلوب عامرة بالإيمان ، فكانت السعادة الحقة ترفرف عليهم . كانوا يمضون بعض الوقت في السعي وراء القوت لإشباع جوع البطون ، وجل الوقت في الابتغال إلى الله والتمسك بمبادئ الخير لإشباع جوع النفس .

(٢) البقرة ٣٠

(٤) طه ١٢١

(١) الحجرات ١٢

(٣) طه ١٢٠

واستأنس الإنسان بعض الحيوان فكان بعض أفراد الأسرة يعملون في الرعي وبعضهم في الصيد وبعضهم في صنع السهام والحراب وأدوات القتل، وأصبح لكل أب أسرة قبيلة، وعرفت كل قبيلة نوعاً من التخصص وتعددت حاجاتها في نفس الوقت فكان لا بد من وجود سوق لتبادل الطيبات، فقد ظهرت حاجة كل فريق إلى ما عند الفريق الآخر، فكان نشأة نظام المقايضة.

وقامت في وجه المقايضة صعوبات، فتبادل الطيبات يتوقف على توافق الرغبات، وإن توافقت الرغبات فقد تتفاوت القيمة بين الطيبات التي يرغب في تبادلها، وقد يصعب تجرئة كثير منها. فكان لا بد من وجود وسيط ثابت تنسب إليه الطيبات، وقد اختلف ذلك الوسيط باختلاف البلاد، ففي بعض البلاد كانت المواشي هي الوسيط الذي ينسب إليه باقي الطيبات، وفي بلاد أخرى كان التبغ أو القماش أو السكر أو الصوف.

ذلت هذه الطريقة بعض الصعوبات ولكنها كانت لا تتمتع بالدقة التي يستريح إليها الطرفان، فاتخذت المعادن وسيطاً تقوم به الطيبات. وقد استخدم الحديد في أول الأمر ولكن نظر الثقل وزنه وصعوبة حمله اتخذ بعض كبار التجار والصيارفة سبائك من النحاس والبرنز تحمل أسماءهم أو ما يدل عليهم، فكانت تلك النقود بضمناً أصحابها.

وانتشرت التجارة واتسعت رقعة التبادل وتنوعت الطيبات واشتد الطلب عليها، فاستعمل الذهب والفضة، وكانت الفضة أكثر النقود استخداماً، ففي بابل استخدمت شواقل الفضة فيسرت حركة التبادل وانتشرت الأسواق بين نهري دجلة والفرات.

واستعمل الإغريق والرومان العملة الذهبية والفضية، فكانت على شكل أقراص مستديرة، وعرفت فارس النقود منذ تاريخها البعيد، ففي عهد الساسانيين ضربت نقود عليها صورة أردشير الأول محفوظة بمتحف (حجة الوداع)

كوبنهاجن .

وكانت إيران تنتج الذهب والفضة والنحاس والبلور الصخرى والجواهر النادرة والمواد الثمينة المختلفة ، وقد قامت فيها صناعة الحرير البرية تتبع طرق القوافل ، فمن المدائن العاصمة على شاطئ دجلة كان الطريق الكبير يؤدي إلى همدان عن طريق حلوان وكنجاور ، وقد تفرعت منه طرق عديدة : طريق ناحية الجنوب يخترق خوزستان وفارس وينتهي عند الخليج الفارسي ، وطريق يذهب إلى الري قرب طهران الحالية يبلغ به السائر بحر قزوين مخترقا منحدرات جبال جيلان وسلسلة البرز ، أو يسير منه إلى خراسان ليستمر في رحلته حتى الهند عن طريق وادي كابل ، أو حتى الصين عن طريق تركستان وحوض طارم .

وكانت إيران على صلة بالدولة الرومانية ، فقد كانت مدينة نصيبين مركزا هاما ونقطة الاتصال بين الإمبراطورية الرومانية والدولة الإيرانية . ولم يقتصر الأمر على الطرق البرية فقد اهتم الأكاسرة والأباطرة بالتجارة البحرية ، فحينما أصبح أردشير الأول إمبراطورا على إيران وسع المرافئ البحرية القديمة ، ولما ازدهرت الدولة الرومانية الشرقية كانت الأساطيل البحرية تخرج من القسطنطينية بالطليبات وتعود إليها بألوان الترف من الشرق ، فكانت القسطنطينية رمزا للثروة ، ومدينة لم يكن لكنوزها نهاية تنتهي إليها ولا معيار تقاس به .

وكانت العرب في الجاهلية يشتغلون بالتجارة ويتأدحون بكسب المال ، ولا سيما قریش . وكان لقریش في السنة رحل أربع ، فإن أصحاب الإبل كانوا أربعة إخوة وهم بنو عبد مناف : أحدهم هاشم وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلا فأمن به تجارتهم إلى الشام ، والثاني عبد شمس وكان يؤالف إلى الحبشة ، والثالث المطلب وكان يرحل إلى اليمن ، والرابع نوفل وكان يرحل إلى فارس . وكان هؤلاء يسمون المتجرين ، فيختلف تجر قریش بخيل هؤلاء الإخوة

فلا يتعرض لهم أحد .

هذا ما كان من أمر قريش وسائر أهل الحجاز ، وأما أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجارتهم كثيرة ومعاشهم وافرة لما في بلادهم من الخصب والرخاء والذخائر المتنوعة والمعادن الجيدة ، ونحو ذلك من أسباب الثروة والغنى .

وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم في الثروة والتجارة لما أن الغالب على أرضهم الرمال . فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب في رفاهية العيش ورواج التجارة .

وكان للعرب أسواق يقيمونها شهور السنة ويتنقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر ، منها « دومة الجندل » كانوا ينزلونها أول يوم من ربيع الأول يجتمعون في أسواقها للبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكانت المبايعة فيه ببيع الحصاة وهو من بيوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام ، وفسر بأن يقول أحد المتبايعين للآخر : ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم ، وفسر بأن يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، وفسر بأن يقبض على كف من حصى ويقول : لى بعدد ما خرج فى القبضة من الشئ المبيع ، أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لى بكل حصاة درهم ، وفسر بأن يمسك أحدهما حصاه فى يده ويقول : أى وقت سقطت الحصاة وجب البيع ، وفسر بأن يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول : أى شاة أصابتها فهى لك بكذا .

وهذه الصور كلها فاسدة لما تتضمن من أكل المال بالباطل ، ومن الغرر والخطر الذى هو شبيه بالقمار ، ولذلك أبطلتها الشريعة ، وكان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم إلى نصف

الشهر ، وربما غلب على السوق بنو كلب فيعشوههم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بنى كلب ، فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر .

ومنها « سوق هجر » اسم لجميع أرض البحرين ، وكانوا ينتقلون إليها في شهر ربيع الآخر فتقوم سوقهم بها ، وكان يعشوههم ويتولى أمرهم المنذر بن ساوى أحد بنى عبد الله بن دارم ، وقد أرسل إليه رسول الله ﷺ — كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، وقد دخل في دين الله .

ومنها سوق عمان وكانوا يرتحلون من سوق هجر فتقوم بها سوقهم إلى أواخر جمادى الأولى .

ومنها « سوق المُشَقَّر » حصن بالبحرين كان فيه سوق للعرب تقوم من أول يوم من جمادى الآخرة ، وكان يبيعهم بالملامسة والإيماء والهمهمة خوف الحلف والكذب ، وبيع الملامسة على أوجه ، وهى أن يأتي بثوب مطوى أو في ظلمة فيلمسه المشتري فيقول له صاحب الثوب : بعته بكذا ، بشرط أن يقوم لمسك مقام نظرك ولا خيار لك إذا رأيته . الوجه الثانى أن يجعل النفس اللبس يبيعا بغير صيغة زائدة ، الوجه الثالث أن يجعل اللبس شرطا في قطع خيار المجلس وغيره ؛ وهو أيضا من البيوع التى أبطلها الإسلام .

ومنها « الشَّحْر » ساحل البحرين عُمان وعدن ، تقوم في النصف من شعبان ، وكان يبيعهم في هذه السوق أيضا برمى الحصاة وإلقاء الحجارة كما في سوق دومة الجندل .

ومنها « سوق عدن » كانوا يرتحلون من الشحر فينزلون هذا الموضع ، فتقوم سوقهم بها إلى أيام من رمضان ، فتشترى التجارات وأنواع الطيب .

ومنها « سوق صنعاء » كانوا إذا ارتحلوا من عدن والشحر تقوم سوقهم بصنعاء في النصف من شهر رمضان إلى آخره . وصنعاء من أطيب بلاد اليمن ،

ومنها كان يجلب الأدم (الجلد المدبوغ) والبرود، وكانت تجلب إليها من معافر وهو بلد كان في اليمن .

ومنها « سوق ذى الحجاز » كانت بناحية عرفة إلى جانبها .
ومنها « سوق مجنة » وهى التى عنها بلال مؤذن الرسول بقوله متشوقا إليها
بعد الهجرة :

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يدون لى شامة وطفيل
وكانت تقوم سوقهم فيها قرب أيام موسم الحج ويحضرها كثير من قبائل
العرب .

ومنها « سوق حُباشة » كانت فى ديار بارق نحو قنونا من مكة إلى جهة اليمن ،
ولم تكن من مواسم الحج وإنما كانت تقام فى شهر رجب .

ومنها « سوق عُكاظ »، وهو موسم معروف للعرب ، بل كان من أعظم
مواسمهم وأسواقهم، وهو نخل فى واد بين نخلة والطائف وهو إلى الطائف أقرب
بينهما عشرة أميال ، وهو وراء « قرن المنازل » بمرحلة من طريق صنعاء، وكان
المكان الذى يجتمعون فيه منه يقال له الابتداء ، وكانت هناك صحور يطوفون
حولها وكانوا يتبايعون فيها ويتفاخرون ويتحاجون وتنشد الشعراء ما تجدد لهم .
وفىها كان يخطب كل خطيب مصنّع ، وفىها علقت القصائد السبع الشهيرة
افتخارا بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل ، وكان كل شريف
إنما يحضر سوق بلده إلا سوق عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون بها من كل جهة ،
فكان يأتيا قريش وهوازن وسليم والأحباش وعقيل والمصطلق وطوائف من
العرب .

وكانت الفوائد على القروض معترفا بها فى بابل وفى الإمبراطورية الرومانية فى
أيام وثنيها وأيام اعتناقها للمسيحية ، وفى إيران وفى بلاد العرب فى الجاهلية ..

وإن الأستاذ أنور إقبال قرشى فى كتابه الإسلام ونظرية الفائدة يقول : « لقد كان إقراض النقود بفائدة عملاً ممنوعاً عند الإغريق ، فأرسطو الذى كانت لأحكامه الفعالة أثرها العظيم على الأجيال التالية ذم الفائدة بكلمات بالغة القوة ، فقد شبه المال بدجاجة عاقر لا تبيض ، والغرض الأوحى من استخدام المال عند أرسطو هو تسهيل التبادل وإشباع الاحتياجات البشرية ، لقد كان هذا عنده هو الغرض الطبيعى الأسمى للمال . فالمال لا يمكن استخدامه مصدراً للترايد ، أى الازدياد بالفائدة ، أى أن تزايد المالك بالفائدة كان أغرب وسائل اكتساب المال ، إن قطعة من النقود لا يمكن أن تلد قطعة أخرى ، تلك كانت عقدة أرسطو ، والنتيجة الواضحة أن الفائدة جائرة ، وقد ذم أفلاطون أيضاً الفائدة » .

ويقول : « حرمت الإمبراطورية الرومانية فى عهودها الأولى تقاضى أية فائدة ، لكن الفائدة جعلت تظهر تدريجياً مع اتساع رقعة الإمبراطورية ونشوء فئات التجار ، غير أن قيوداً شديدة فرضت على معدلات الفائدة وكان تنفيذها يراقب بدقة ، ولقد كان الرومان هم أول أمة شرعت قوانين لحماية المدنيين » (١) .

إن أرسطو قد انتقد الفائدة ، وكذلك فعل أفلاطون ، وليس معنى ذلك أنها كانت محرمة عند الإغريق ، فلو كانت محرمة لما كان هناك من سبب لانتقادها . أما القول بأن الإمبراطورية الرومانية حرمت الفائدة فى عهودها الأولى فقول مردود ، فالفائدة كانت سائدة منذ نشأة الدولة الرومانية ؛ وكذلك القول بأن الرومان هم أول أمة شرعت قوانين لحماية المدنيين بحافى الحقيقة ، فالدولة البابلية هى أول دولة فى التاريخ نظمت الفائدة وعملت على حماية المدنيين قدر المستطاع

(١) الإسلام والربا — تأليف إقبال قرشى — ترجمة فاروق حلمى . (مكتبة مصر) .

من المربين ، وإن قانون حمورابى حدد سعر الفائدة قبل أن تنشأ الدولة الرومانية . أما فى جزيرة العرب فى الجاهلية فقد كانت الفوائد مركبة ، وكانت تتضاعف كل سنة ، وإن الإسلام هو الدين الذى حرم الربا تحريماً قاطعاً ، وسناقش هذا الموضوع فى هذا البحث عندما نتحدث عن المال فى الإسلام .

لم يكن للعرب نقود خاصة بهم قبل الإسلام ، ولا فى زمن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — والخلفاء الراشدين . فقد كانت العملة الرومانية والعملة الفارسية هى العملة السائدة فى مكة والمدينة والطائف وأسواق العرب ، وكان عبد الله بن الزبير أول من استعمل الدراهم المنقوشة أيام منافسته لمعاوية بن أبى سفيان على الخلافة ، فكتب على أحد وجهى الدرهم « محمد رسول الله » وعلى الوجه الآخر « أمر الله بالوفاء والعدل » .

وكان هم الأكاسرة والأباطرة ملء خزائنها بالذهب والفضة للإتفاق على الجيوش وأبهة الملك وعظمته ، فكانت الضرائب الجائرة التى تنقض ظهر الشعب ، فوزير المالية فى فارس يتولى رئاسة الضريبة العقارية ، ويقع عبء هذه الضريبة على الزراعة ، ولما كانت الضريبة تفرض حسب الخصوبة وجودة زراعة القرى أو رداءتها ، فقد أصبح عليه أن يسهر على زراعة الأرض وريها وغير ذلك . ولم يكن اختصاصه يشمل الضريبة العقارية وحدها ، بل وسع الضريبة الشخصية أيضاً ، فكان رئيس كل من يمتن حرفة يدوية — عبيداً أو حراثين أو تجاراً . وكانت المصادر الرئيسية للدخل فى الدولة تتكون من الضريبتين العقارية والشخصية ، وكانت الضريبة الشخصية تحدد مرة واحدة بمبلغ محدد ، وعلى السلطات المختصة أن توزعه بقدر استطاعتها بين دافعى الضرائب . وكذلك كانت الضريبة العقارية تجبى بنفس الطريقة ، فإن التقدير يتم حسب ما تنتجه الأرض من غلات ، وعلى كل قرية أن تدفع من السدس إلى الثلث حسب خصوبة

الأرض .

وكان تحصيل الضرائب وتوزيعها سببا في الجور وسوء الحصلة من ناحية الموظفين ، ولأنه تبعا لهذه الطريقة كانت مبالغ الدخل تتفاوت كثيرا من سنة لأخرى ، فإنه كان من غير الممكن عمل حساب تقريبي مقدما للحالة المالية واستخدام ما يجبي منها ، ومن ناحية أخرى كانت الرقابة على ذلك غاية في الصعوبة وكان ينتج عن ذلك غالبا أن تفاجئ الحرب الدولة فيعوزها المال ، وفي هذه الحالة كان ينبغي فرض ضرائب استثنائية ، وكان عبئها الفادح يقع غالبا على الأقاليم الغربية الغنية ، وخاصة العراق (بلاد بابل) .

ويضاف إلى الضرائب المنظمة الهبات العادية ، والتي يحسب منها التحف التي تقدم للملك — جبراً — في عيدي النوروز والمهرجان ، وكذلك كان دخل الجمارك موردا من موارد الدخل .

وكانت نفقات الدولة أول ما تنصب على الحرب ومصاريف البلاط ورواتب الموظفين ، فإذا قامت الدولة بمشروع عام فالجهة التي ستستفيد منه تتحمل عبء التمويل ، فكانت تفرض ضرائب استثنائية حتى يتيسر التنفيذ . وكان الأمر في الإمبراطورية الرومانية لا يختلف في كثير أو قليل عن الأمر في إيران ، فالضرائب الباهظة تكاد تدفع بالولايات إلى هاوية الإفلاس ، وقيصّر يحتكر صناعة الحرير ليملاً خزائنه بالذهب النضار ، والحرب المشبوبة بين إيران والرومان تلتهم ما في الخزائن ، فتقوم الكنيسة لتمويل الحملات بقروض مقابل فوائد يتفق عليها ، ولا يجد قيصر أمامه إلا الشعب في إمبراطوريته المترامية الأطراف يبتز منه عرق الجبين وما يدخر للأيام .

وجاء الإسلام ولم ينظر إلى المال نظرة الأباطرة والأكاسرة ، فلم يجعله الإله المعبود الذي تعنو له الجباه ، بل جعل له وظيفة اجتماعية هدفها إسعاد الناس .

والإسلام أول نظام في الوجود وضع المال في خدمة الجماهير وأنصف بحق
الفقراء من الأغنياء ، وأرهم حس الجباة فكانوا أمناء رحماء ، فقد بعث الله
رسوله — ﷺ — هاديا ولم يبعثه جابيا .

وذاع أمر الإسلام وعدله وسماحته في الولايات الرومانية والولايات
الفارسية ، فيسر ذلك لجيوش الإسلام فتح الشام ومصر والعراق وشمال أفريقية ،
فأهالى تلك البلاد كانوا يرحبون بالفاحين طلبا للعدل وإن كانوا على دين الرومان
أو الفرس .

واستمر النظام المالى في الإسلام فريدا في بابه تسعد به الدول الإسلامية ، بينما
سارت الدول الأخرى في طريقها ؛ الشعوب تتعارف ، وطرق المواصلات
تتبع ، والتجارة تنشط ، ومعدلات الفوائد تتأرجح بين الزيادة والنقصان
حسب الأحوال الاقتصادية في العالم ، والمديون يثنون تحت وطأة النظم الجائرة
التي تشرع لخدمة الأقوياء ، وعبادة المال تتأصل في النفوس ، وجهود تبذل لجمع
المال وانتهاز الفرص واستغلالها استغلالا أنانيا ، فيشتد عود الرأسمالية ويتكون
نظام رأسمالى يستغل الطبيعة والإنسانية ، ويزعزع الاستقرار الاجتماعى ، ثم
تنطلق نزعاتها المخربة من عقالها لتفتك بالمجتمع .

وقام بعض الاقتصاديين في القرن الثامن عشر ياركون الرأسمالية ويشرعون
أقلامهم للدفاع عنها ، وفلسفوا النظام الرأسمالى الحرفقالوا بوجوب ترك الأفراد
أحرارا لتحقيق مصالحهم الشخصية ؛ فهم يختارون حرفهم أو نشاطهم ولهم
حرية التملك وحرية العمل . ولا يحده من هذه الحرية إلا شرط واحد هو عدم
تعارض سلوكهم مع تحقيق الأفراد الآخرين لمصالحهم الذاتية .

فالتدخل الحكومى يجب أن يكون فى أضيق نظام ممكن سواء فى ميدان
الإنتاج أو فى ميدان التوزيع ، فالإنتاج فى نظرهم ينظم نفسه بنفسه ولا يجب أن

تتدخل الحكومة إلا إذا كان هذا التدخل في صالح المجموع .
والفردية هي أحد أركان هذا النظام الرأسمالى الحر ، فينبغى السعى إلى تحقيق
أقصى سعادة ممكنة للفرد .

ونظريتهم فى التوافق تقول : ليس هناك تعارض بين مصلحة الفرد ومصلحة
المجموع ؛ فالاجتمع فى نظرهم أسرة كبيرة ذات هدف موحد ، وأنه ما دام الفرد
يحقق سعادته فإن سعادة المجموع سوف تتحقق ، فالمنفعة الكلية للجميع تتمشى
مع المنفعة القصوى للفرد ، فالمصلحة العامة يمكن تحقيقها بفحص دقيق للمصالح
الفردية ، ويؤمن أصحاب هذه النظرية بأن هذا التوافق يحدث تلقائيا .

ويؤمنون بأن الثقة فى المنافسة الحرة ، وجهاز الثمن قوة حقيقية موجهة
للحياة الاقتصادية ، وأن الربح هو خير حافز على الإنتاج والتقدم الاقتصادى .
والقوانين التى تحكم هذا النظام إنما تشتق فى نظرهم من نظام طبيعى خير ،
فالإنسان لو ترك وشأنه لن يحقق منفعته ومصلحته الشخصية فحسب ، بل
سوف يعمل على تحقيق الصالح العام ، فحوافز الإنسان على التصرف لا تجعل
مصلحة الفرد تتعارض مع مصلحة المجموع ، فسلوك الإنسان فيه نزعات طبيعية
كحب النفس والأثرة والعطف على الغير والرغبة فى العمل والشعور بالفضيلة
والرغبة فى أن يكون حرا . وهذه الدوافع من التوازن بحيث تجعل الفرد وهو
بسبيل تحقيق مصلحة نفسه إنما يحقق مصلحة الغير ، فالأثرة وشهوة حب النفس
يقابلها الشعور بالعطف . فالنظام الطبيعى بالرغم من بساطته إلا أنه يحقق
مصلحة المجتمع ، فهو صادر عن الميول الطبيعية للإنسان ، وإن تدخل الأنظمة
الوضعية مع النظام الطبيعى تعوق إيجاب هذا النظام لآثاره الحميدة ، وهذا النظام
الطبيعى يفوق أى نظام آخر من عمل الإنسان .

ومن ثم نجد أن الحكومات تخدم المجتمعات على نطاق أكبر لو أنها لم تتدخل فى

حرية الأفراد ، فهذه النظرية لا ترى خيراً في تدخل الدولة في ميادين الأعمال ، وهي لا توافق على القيود والتنظيمات الموضوعة للأجور ، وهي تنادى بالقضاء على جميع مظاهر الاحتكار في شئون العمال أو غيرها ، فالمنافسة غير المقيدة أو المشوبة بأى شائبة هي وحدها القوة الاجتماعية المنظمة للحياة الاقتصادية وتحقيق المنافسة الحرة ، وإعلاء شأنها هو الشرط الرئيسى للتقدم الاقتصادى .

وجاءت الاشتراكية تحاول تضميد ما خلفته الرأسمالية من جراح ، فنادى رسل الاشتراكية بتقويض النظام من الجدران ، وقالوا إن « الأمة » فكرة اخترعها الرأسماليون ، وإن « الوطن » مجرد وسيلة يستغلها البرجوازيون لاستغلال العمال ، أما القانون فهو سلاح يفرض على الطبقة العاملة أن تظل فى بؤسها ، والدين مجرد مخدر للجماهير ، والمدارس حقول لتربية العبيد ؛ فألفت الاشتراكية المادية الملكية الفردية وجعلت العنف قانونها الثورى ! وقد قال مستر تشرشل عن الرأسمالية والاشتراكية : « الرأسمالية توزع الخير على الناس دون مساواة ، وأما الاشتراكية فتوزع البؤس على الناس بالتساوى ، فلنحاول إذن أن نتخذ نظاما يحقق أكبر خير لأكبر عدد من الناس » .

فهل المسيحية تستطيع أن تحقق هذا النظام المنشود ؟ فلنصغ إلى ما قال ماركس وأنجلز عن ذلك : « لقد كان أمام المبادئ المسيحية الاجتماعية فرصة ثمانية عشر قرناً للتطور ، ولن تحتاج إلى تطور آخر على يد القسس والمبشرين . وقد أباحت هذه المبادئ الرق في العالم القديم ، وغطت عبودية الإنسان في الأرض في العصور الوسطى ، وهي على استعداد إذا لزم الأمر للدفاع عن ظلم الطبقات العاملة مهما أطرقت جباهها ، وتعاليم المسيحية الاجتماعية لا تعارض في وجود طبقة حاكمة ذات سلطان ظالم ، وكل ما تقدمه للناس هو أمل المتقين في أن يتحول الحاكمون إلى الخير . والمبادئ الاجتماعية المسيحية تنقل مشكلة علاج

أمراض المجتمع إلى العالم الآخر وتبرر بذلك دوام هذه الأمراض على الأرض ، والمبادئ الاجتماعية المسيحية تعلن أن شرور الظالمين التي تقع على المظلومين إنما هي عقاب لهم عن ذنب أتوه أو متاعب اختارت حكمه الله التي لانعرفها أن تقع على المختارين من عباده ، والمبادئ الاجتماعية المسيحية تبشر بالجن والانحطاط بالنفس وقبول الأمر الواقع والخضوع والذلة وبالاختصار كل الصفات الدنيا ، وطبقة العمال لا ترضى أن تعامل هذه المعاملة .

إننا نحتاج إلى الشجاعة والثقة والكبرياء والاستقلال أكثر مما نحتاج إلى الخبز ، والمبادئ الخلقية المسيحية ملتوية وغير صريحة ، ولكن طبقة العمال ثورية . وجد ماركس وأنجلز وزعماء الشيوعية هذه المثالب في المسيحية فكفروا بها ، فهل يدافع الإسلام عن ظلم الطبقات العاملة ؟ وهل إذا وجد السلطان الظالم يأمر الإسلام أتباعه أن يقفوا مكتوفي الأيدي دون أن يخلعوا طاعته من أعناقهم ؟ وهل ينقل الإسلام مشاكل علاج أمراض المجتمع إلى يوم الحساب ؟ هل يرى في شرور الظالمين للمظلومين عقابا للمظلومين عن ذنب اقترفوه ؟ إن الإسلام يعالج شئون الدنيا مثلما يعالج شئون الآخرة ، فهو دنيا ودين ، يساوى بين الخاضعين لأحكامه في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والملك والسوقة ، والغنى والفقر ، والقوى والضعيف . الناس لآدم والمؤمنون إخوة والناس سواسية أمام الشريعة العادلة ، لصاحب العمل حقوق وعليه واجبات ، وللعمال حقوق وعليهم واجبات ، لا تملق طبقة على حساب طبقة ، بل العدل المطلق للجميع . لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . لا المال يرفع صاحبه ولا الفقر يحط من شأن الفقير . إنه دين تلتقى فيه المثالية بالواقعية ، وتمتزج فيه الروحانية بالمادية ، ويسعى فيه المرء لخير الدنيا والآخرة ، ويحاول أن يضم في إهابه السماء والأرض . إنه دين العقل والحكمة

والفقه، دين الفطرة؛ ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ (١).
 هدم المفكرون المسيحيون الدين لأنه يقف في سبيل التقدم ويقف في سبيل
 التطوير ولا يحقق الخير العام للبشرية. فلماذا يفكر بعض المسلمين في الهجوم على
 الدين دون أن يحاولوا أن يفتحوا أعينهم على ما فيه من هداية وسياسة وسيادة
 ورفعة وما يحقق الخير العام للجميع؟ إنه التقليد والافتنان بكل ما يأتي من الغرب
 وإن كان فيه الدمار والشقاء والضياع والفوضى.

ترك المفكرون المسيحيون الدين ونبدوا الآلهة، ولما كان الإنسان لا يستطيع
 أن يعيش بلا إله معبود فقد عبدوا الذهب وساقوا الناس بأفكارهم إلى عبادة المال
 وتقديسه، وجعلوا الجوع القوة المحركة للنشاط البشرى، والحاجة المادية
 للإنسان القلم الذى يسجل به التاريخ، فانطلقت كفاءات هائلة تستغل الطبيعة
 دون أن تتطور التطور الخلقى والنفسى الذى يتلاءم مع الانطلاقة العظيمة،
 فعجزت النفس الإنسانية عن أن تلحق بالتقدم الجبار الذى حققه الاقتصاد
 والسياسة والعلم، فكان الضياع والشقاء والدموع والقلق والخوف الدائم من
 المستقبل المجهول.

وصل الإنسان إلى القمر ولم يكتشف بعد كيف يقاوم الزكام، وصنع قنابل
 ذرية كافية لدمار العالم ولم يحاول أن يزيد في رقعة الأرض المنزرعة ليوفر القوت
 للذين يموتون جوعاً كل يوم في أرض البؤس والشقاء، وتعددت سبل الاتصال
 بين الشعوب وقربت المسافات ولم تتألف القلوب بل زادت نفورا، ولم يصبح
 البشر أمة واحدة، بنعمة الله إخوانا، بل شعوبا متعادية متصارعة على الحياة، وقد
 خلق الله الأرض وجعلها تكفى الناس جميعا أحياء وأمواتا، ولكن الناس أبوا

إلا الضياع فلا حرية ولا إخاء ولا مساواة .
 إن الرأسمالية ظلم للفقراء وعدوان صارخ على الإنسانية واضطهاد لها وتهديد
 للسلام الاجتماعى ، وإن الاشتراكية العلمية قد جعلت السعادة المادية هدف
 الحياة الأوحد فحولت هى والرأسمالية الناس جميعا إلى عبيد للمال . وقد قال
 نيتشة فى كتاب إرادة القوة : «إننا نحتاج لكى نخل عقدة المال إلى ثورة وتجديد
 كامل للمجتمع ، وقبل أن توضع الحياة الاقتصادية فى مكانها المتواضع الذى
 يناسبها يجب أن تخضع للحياة الخلقية والروحية فى الجماعة ، ويجب أن تكون
 العدالة لا الثروة مقياس المنفعة ، العدالة ؟ إنها على النقيض من روح الرأسمالية
 السائدة ، والاشتراكية ليست سوى تقليد العمال لساداتهم تقليد القردة ، وإذا
 أردنا أن نعالج العمال من داء الاشتراكية فلا بد أن تعالج الطبقات الراقية نفسها
 من داء الرأسمالية » .

هذا ما قاله نيتشه ، وأنا أقول إن الأمر لا يحتاج إلى ثورة بل عودة إلى النظام
 المالى فى الإسلام ، ففيه محاسن الرأسمالية دون عيوبها ومحاسن الاشتراكية دون
 عيوبها ، والمال فى الإسلام ليس معبودا بل إنه فتنة ، ولا يقوم بوظيفة اقتصادية
 وحسب بل إن وظيفته فى المقام الأول وظيفة اجتماعية تستهدف الخير العام
 للجميع .

إذا تركنا تعريف «المال» الاقتصادى أو القانونى يمكننا أن نقول إن المال هو ما
 يستحوذ عليه الإنسان من طيبات الله ، فالهواء وإن كان ذا قيمة لا تقدر لأنه بدونه
 تتوقف الحياة ، فقد قضت حكمة الله أن يكون لمخلوقاته جميعا ، أن يكون للخير
 العام وأن يستحيل على الإنسان أن يستحوذ عليه ، فهو ليس مالا ، أما الأرض وما
 عليها من نباتات وحيوانات ، وما فى بطنها من زيوت ومعادن وأحجار كريمة ،
 وكل الطيبات ، فهى مال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

واشكروا الله ﴿١﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ﴿٢﴾. قال الله قد أحل لنا الطيبات وحرم الخبائث ، نكسب طيبا وننفق طيبا فتطيب أنفسنا وتتآلف قلوبنا ونصبح بنعمة الله إخوانا .

والمال في الإسلام ليس مال أحد من البشر ولكنه مال الله والناس مستخلفون فيه ؛ فلا ينبغي كسب المال إلا من السبل التي يحددها صاحب المال وأن ينفق في السبل التي يحددها للإلتفاق ، فإن أساء المستخلف في مال الله ولم يوفه حقه فللحاكم أن ينزع ذلك المال منه وأن يوجهه للخير العام . فالحكومة هي الساهرة على تنفيذ أوامر الله ونواهيه ، فإن لم تقم بواجبها فعلى الشعب أن ينحيا عن الحكم ، فإن قصر الشعب فإن الله يذهب الجميع ويأتي بخلق جديد .

﴿وليس تعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ ﴿٣﴾ .

﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ ﴿٤﴾ .

قضى الإسلام على عبادة المال وحد من طغيان الثروة ، فالمال فتنة وزينة في الحياة الدنيا واختبار . ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ ﴿٥﴾ ، ﴿أَحْسِبُونَ أَنَّكُمْ تُؤْتَوْنَ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نَسَارِعْ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا

(٢) البقرة ٢٦٧

(١) البقرة ١٧٢

(٤) الحديد ٧

(٣) النور ٣٣

(٦) المؤمنون ٥٥ — ٦١

(٥) الكهف

وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴿١﴾. واعلموا أننا أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴿٢﴾. وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ﴿٣﴾. لتبْلُونَ في أموالكم وأنفسكم ﴿٤﴾. زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴿٥﴾.

إن الإسلام لا يحرم الطيبات : ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ ﴿٦﴾. ولكنه يخضد شوكة المال ويحاول أن يقضى على غروره وأن يقاوم اتجاهه العام للصدع عن الحق والخير : «كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى ﴿٧﴾. ويل لكل همزة لمزة. الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخله ﴿٨﴾. إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ﴿٩﴾».

كان الظلم الاقتصادي هو السم الذي قضى على جميع الحضارات منذ حضارة بابل ومصر القديمة إلى اليوم، وكان طغيان المال وغروره هو المعول الذي قوض الإمبراطوريات القديمة والحديثة على السواء ، فالدولة المصرية القديمة والإغريق والفرس والرومان قد وصلوا إلى قمة النظام الرأسمالي التي وصلنا إليها وإلى الديمقراطية التي نتشدد بها ، وقد اندثرت تلك الحضارات كما ستندثر حضارات الإمبراطوريات الحديثة ، فالمشكلة قديما وحديثا واحدة : انعدام

- | | |
|------------------|----------------------|
| (٢) الأنفال ٢٨ | (١) المؤمنون ٥٥ — ٦١ |
| (٤) آل عمران ١٨٦ | (٣) سبأ ٣٧ |
| (٦) الأعراف ٣٢ | (٥) آل عمران ١٤ |
| (٨) الهمة ١ — ٣ | (٧) العلق ٦ ، ٧ |
| | (٩) الأنفال ٣٦ |

الاستقرار الداخلي وطغيان إله الذهب . إن الكارثة التي تنتظرنا لا مفر منها مادام الناس يشيخون بأوجههم عن الدين ، إنهم كالأطفال الذين يعرضون عن الدواء الذي فيه شفاء أسقامهم ، أو كالظمآن الذي ينطلق في إثر سراب .

إن المادية قد تحدث المسيحية فلم تستطع المسيحية أن تقف في سبيل ذلك . التحدى ، فانهار الحاجز الدينى الذى كان يقف في وجه الجشع والطمع والأثرة وقتل الإنسان لأخيه الإنسان لتحقيق منفعة موقوتة زائلة ، فهل في الإسلام القوة التي تواجه ذلك التحدى وتلوى ذراع المادية لتعيدها إلى الصراط المستقيم ؟ إن الإسلام يمدح المال فهو من نعم الله ، ولكنه يذم طغيانه والبخل به والغطرسة لامتلاكه والرياء في إنفاقه ، فالله يقول في مدح المال : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ (١) . ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ (١) .

فجزاء اتباع هداية الدين في الإسلام الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها ، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها : ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ﴾ (١) . ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ، لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعبا ﴾ (١) . ﴿ وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء الله ﴾ (١) .

(٢) طه ١٢٣ ، ١٢٤

(١) نوح ١٠ — ١٢

(٥) التوبة ١٢٨

(٤) الجن ١٦ ، ١٧

(٣) الجن ١٣

والإسلام يعرف جيدا ضرورة دوران المال وأنه كالدّم لا بد أن يدور دورته الكاملة في الجسم ليظل معافى يؤدي كل عضو فيه وظيفته على خير وجه ، لذلك ذم البخل وحرم الكنز وحض على الإنفاق : ﴿ ولا تحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ (١) . ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرهم بعذاب اليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى به جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ (٢) . ﴿ ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنَى وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (٣) . ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا متّاء ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حلیم . يأياها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير . أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها

الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون . يأيا الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون . ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴿١﴾ .

ولا يقبل الإسلام أن يكون المال في أيدي قلة من الناس لا ينفقونه في الخير العام : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ﴿٢﴾ . ولا يثير طبقة على طبقة ولا يرضى عن حمامات الدم ، فالمؤمنون إخوة : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » ﴿٣﴾ . وهم إخوان في الدين قد ألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا ، يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ، لا يشترون الحياة الدنيا بالآخرة ولا يسفكون دماءهم ودماء الناس بغير حق في سبيل ثورة عارمة قد تكون ظالمة ، ثورة تحركها شهوات الانتقام ونزوات أحقاد قلوب مريضة أعماها الغرض .

والإسلام لا يرضى عن الطغيان فسواء عنده طغيان الرأسماليين أو طغيان العمال ، فهو يقدس العدل ويعطي كل ذي حق حقه ، ويضرب على أيدي العابثين بلا تفریق ، فيقدم للناس حياة أكثر خصبا و غنى ، ويشبع كل نهم الإنسان إلى العدل المطلق والحياة الحرة الكريمة للناس ، كل الناس : ﴿ اعدلوا هو أقرب

(١) البقرة ٢٦١ — ٢٦٨ (٢) الحشر

(٣) الحجرات ١٠

للتقوى ﴿١﴾ . ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ ﴿٢﴾ . ﴿ولا يجر منكم شأن قوم على ألا تعدلوا﴾ ﴿٣﴾ . ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ ﴿٤﴾ . ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى﴾ ﴿٥﴾ .

والمال فى الإسلام عقيم لا يلد وحده ، بل لا بد من أن يتزوج العمل لىأتى بثمره ، وله أن يشترك فى هذه الثمرة سواء أكانت حلوة أم مرة . فإذا كانت الثمرة كسبا شريك فى الكسب ، وإذا كانت خسارة تحمل نصيبه منها ، وحكمة ذلك أننا لو وضعنا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فوق سطح قطعة أرض بور مثلا ، فستظل الأرض بورا مادامت يد البشر لم تتعهدا بالإصلاح . وكذلك الحال إذا وضعناها فى مصنع أو متجر فالمال وحده عاجز عن أن يؤدى وظيفة منتجة ، بينما العمل وحده يستطيع أن يثمر فيستحق مكافأة ، يستحق أجرا . أما المال فهو لا يستحق ربا ، بل يستحق نصيبه من المكسب أو الخسارة إذا ما اشترك مع العمل فى الإنتاج .

والربا لغة الزيادة ، وشرعا عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل فى معيار الشرع حالة العقد ، أو مع تأخير فى البدلين أو أحدهما وهو ثلاثة أنواع : النوع الأول ربا الفضل ، وهو البيع مع زيادة أحد العوضين المتفقى الجنس على الآخر ، كمثقال فضة مثلا بمثقال وربع منها .

والثانى ربا اليد ، وهو البيع مع تأخير قبضها أو قبض أحدهما عند التفرق من المجلس ، أو عند تخاير لزوم العقد فيه ولكن بشرط اتحاد العوضين علة بأن يكون

(١) المائة ٨ (٢) النساء ١٣٥

(٢) المائة ٨ (٤) النساء ٥٨

(٥) النحل ٩٠

كل منهما مطعوماً أو نقداً ، وإن اختلف جنسا كذهب بفضة وبر بشعير .
والثالث ربا النساء ، وهو البيع للمطعومين أو للتقدين المتفقى الجنس أو
المختلفين لأجل كشهر أو لحظة ، وإن استويا وتقايضا في المجلس كبيع صاع بر
بصاع بر أو درهم فضة بدرهم فضة ، لكن مع تأجيل أحد العوضين ولو إلى لحظة
وإن تساويا وتقايضا في المجلس .

وحرم الفلاسفة الأقدمون الربا ولكن ذلك لم يمنع تغلغله في الحياة الاقتصادية
لكل الشعوب . وكان اليهود فرسان الحلبة على الرغم من أن التوراة قد حرمت
الربا ، وكما هي عاداتهم فقد لعبوا بالألفاظ فأطلقوا على الربا اسم الفائدة وحسبوا
أنهم بذلك قد فروا من العقاب في الدنيا ، فما كانت الآخرة تعنيهم في قليل أو
كثير .

لا تؤدي الفائدة أى منفعة عامة ولا تحقق رخاء في الدنيا ، بل إنها تهش بمخالبها
القاتلة أفئدة المدينين ، ومع ذلك وجدت من يدافع عنها ، فقد قال آدم سميث
وريكاردو وهما من أبرز من وضعوا علم الاقتصاد : « الفائدة هي التعويض الذى
يدفعه المقترض عن المربح الذى كان يمكن أن يحققه باستثماره ماله » . وهذان
الكاتبان لا يفصلان بوضوح بين الفائدة والمربح الفاحش لرأس المال . ولنتظر ما
يعنون برأس المال :

لقد استخدم آدم سميث عبارة (رأس المال العامل) وهو يعنى بها ذلك الجزء
من ثروة الفرد الذى يستخدم لا للاستهلاك وإنما لمزيد من الإنتاج ليعود عليه
بالمال كمكافأة أو كربح . وهو يشمل الآلات والمواد الخام والمباني والطعام
والكساء . ويمكن تفسيره بأنه بالرغم من الطعام والكساء ، وليس برأس مال من
وجهة نظر المجتمع إلا أنهما رأس مال من وجهة نظر الفرد . ما دام في وسعه
إعطائه سلفا للعاملين في الإنتاج وتحقيق ربح من ذلك .

وآراء ريكاردو أيضا هي عين هذه الآراء من الوجهة العلمية .
 إن تزايد المال العامل أو رأس المال كان نتيجة للبخل . وما كان البخل يمارس
 لولا توقع مكافأة عن التضحية . لذلك كانت الفائدة حسب رأى هذين الكاتبين
 هي المكافأة أو الإغراء الذى يُدفع عن المدخرات . وأصل الأرباح عند سميث هو
 أن تشغيل رأس المال فى الإنتاج يؤدى إلى قيمة زائدة للمنتج علاوة على قيمة
 العمل ، ولذلك ليس هناك استغلال للعمل . وقد اعتبر ريكاردو كل رأس المال
 عملا مختزنا ونسب كل قيمة إلى العمل . ولقد كان هذا هو الأساس الذى بنى
 عليه كارل ماركس نظرية استغلال العمل فى الاقتصاد الرأسمالى . ويفسر آدم
 سميث وريكاردو معدل الفائدة ببساطة فى تعليقهما بأنه : وقتما يمكن عمل الكثير
 باستخدام المال يمكن إعطاء الكثير من أجل استخدامه ^(١) .

وحرم الإسلام الربا ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا
 يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ
 الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقِهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ
 عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَحْقِ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ :
 وَاللَّهُ لَا يَجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ^(١) . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ
 الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ
 رِءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي
 أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ^(١) . ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِّبَا لِيَرْوَى أَمْوَالُ النَّاسِ فَلَا يَرِيحُوا عِنْدَ اللَّهِ

(١) الإسلام والربا — تأليف أ. إقبال قرشى — ترجمة فاروق حلمى . (مكتبة مصر) .

(٢) البقرة ٢٧٥ ، ٢٧٦ (٣) البقرة ٢٧٨

(٤) آل عمران ١٣٠ ، ١٣١ .

وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴿١﴾ .
 وقال النبي ﷺ : « الربا سبعون حرباً أيسرها أن ينكح الرجل أمه » .
 وقال — عليه الصلاة والسلام : « إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله » ، « وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أخذوا بالرعب » .

وخطب رسول الله ﷺ أصحابه قال : « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وإن أرى الربا عرض الرجل المسلم . ومن نبت لحمه من سحت فالتار أولى به » . وقال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله ما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . وقال — صلوات الله وسلامه عليه : « رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى أرض مقدسة ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد الرجل أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فردّه حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان . فقلت ما هذا ؟ فقال الذي رأيت في النهر آكل الربا » .

وقال — ﷺ : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم ، أشد من ست وثلاثين زنية » . ولعن رسول الله ﷺ — آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده وقال : هم سواء .

إن الإسلام حرم الربا لأنه ابتزاز لأموال المدينين ، ولأنه لا يتفق مع فلسفة الإسلام التي تنادى بالمحبة والعدل وتحريم الظلم ، ولأن الربا يشجع على إيجاد

طبقة من العاطلين الذين يعيشون على إقراض الناس فائض أموالهم أو ما ورثوه عن آباءهم ، بينا الإسلام يقدر العمل ويحترم العاملين ولا يرضى عن أن يكون في مجتمعه مصاصو دماء ، إلى أن الذين هم بالليل ومذلة بالنهار ، وما جاء الإسلام إلا ليحافظ على كرامة الإنسان ، والربا يشجع الناس على الإقراض والاقتراض ولا يرحب الإسلام بأن يزداد عدد المدنين من المسلمين لأن الذين يقضى على شرف الإنسان ويهدر كرامته ويريق ماء وجهه ، والإسلام يريد لأتباعه العزة والكرامة والشرف .

ولا صلة بين تحريم الربا وذم المال ، فالله تعالى قد سمى المال خيرا ، وقد قال — ﷺ : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . وقال — عليه السلام : « كاد الفقر أن يكون كفرا » . والمال في الإسلام خادم ولا خادم له ، فهو ضرورة بقاء البدن الذى هو ضرورة كمال النفس ؛ فالمال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، أما الربا فهو مفسدة ، فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر . ولما كان الربا هو أيسر سبيل لكسب المال فهو غالبا ما يصرف في الشهوات وتحصيل اللذات ، ومن كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلا بد أن يناقشهم ويعصى الله في طلب رضاهم فينطلق في طريق الهلاك .

وأخذ الربا يملأ قلوب المدينين بالعداوة للمرايين والحققد والحسد ، مما يفسد العلائق الطيبة بين أفراد المجتمع الواحد ، بينا أسمى أهداف الإسلام سلامة المجتمع من الحقد والكراهية والبغضاء وسريان الحب والود بين الناس : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

والربا لا يعكر الانسجام الاجتماعى وحسب ، وهو ليس بدخل غير مكتسب فقط ، بل إنه يقضى إلى العدوان الاقتصادى بزيادة ثروة المرائى على

حساب المدينين ؛ لذلك قال الله تعالى في كتابه العزيز : « يمحى الله الربا ويرى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم »^(١) . ولم يقتصر ضرر الربا على سيطرة أفراد على أفراد بل تجاوز ذلك إلى سيطرة دول دائنة على دول مدينة مما يؤدي إلى شعور بالمرارة بين المدينين ، الأمر الذى قد يفضى إلى عداوة مستترة سرعان ما تكشف عن وجهها .

والإقراض فى الإسلام معونة وليس عملية تجارية لأن الإسلام دين الأخلاق قبل كل شئ ، ولأن رسول الإسلام عليه السلام قد بعث ليتمم مكارم الأخلاق . وإنه من مكارم الأخلاق مد يد العون إلى أخ فى البشرية فى ضيق مالى ، وإنه ليس من الأخلاق فى شئ استغلال ضيقه لتحقيق كسب دون مجهود .

ويقول ميرزا محمد حسين فى كتابه « الإسلام والاشتراكية » : « وقبل انحدار الرأسمالية وما وصلت إليه من تدهور ، كان يعتقد أن الربا هو مفتاح الرخاء الاقتصادى ، ولذا قال الجاهلون : إن الإسلام بتحريم الربا بدائى ومتخلف يمنع تابعيه من سلوك الطريق إلى الرخاء ، ونسبوا تخلف الدول الإسلامية فى سيازين الصناعة إلى هذه الثغرة فى النظرية الاجتماعية الإسلامية ، ولكن منطق الإنسان المتهافت لن يصل إلى مستوى القوانين القرآنية فى علاج المشاكل الاجتماعية الاقتصادية ، والعارفين بتعاليم القرآن الكريم حقيقة لن ينخدعوا بالثرورات الطائلة والسيطرة الاقتصادية التى للغرب لأن هذا لن يخفى عن الأنظار الفقر والعوز الذى تعانیه الجماهير الضخمة هناك .

والاستعمار وتشديد الإمبراطوريات بدورها مظهر آخر للفساد والفراغ فى

الحضارة الأوروبية، والإسلام الذى لا يستأنس غريزة الجشع لن يقبل بأى ثمن مثل هذا الأمر الذى يسعد قلة من الناس على حساب الملايين. وقد حاول بعض الناس أن يفرق بين «الربح» و«الربا» وقالوا بأن الربح كسب مباح نظير استعمال المال وحرمان الشخص لنفسه من ذلك أمر لا مبرر له. وهذا نوع من اللجاجة. سمه كما شئت — ربحاً أو ربا — فهو عمل ضار بالجماعة تحت أى اسم كان. وكلمة «ربا» العربية تعنى الزيادة التى تعطى عن المال المقرض؛ وسواء كان «الربح» يعطى نظير خطر ضياع المال المقرض أو نظير حرمان صاحبه منه إلى أن يرد فهو حرام. ولن يغير هذا الاسم المقبول من طبيعة هذا العمل الذى لعنه الإسلام. ويروى فضالة عن النبى — ﷺ — أنه قال بأن كل دين يعطى ربحاً فهو ربا (البیهقی الجزء الخامس)، وفى هذا ما يقطع الجدل ويهدم كل حجة للإبقاء على «الربا» تحت اسم أو آخر^(١).

وأحاديث النبى — ﷺ — توضح أنواع الربا، فقد قال — صلوات الله وسلامه عليه — ينهى عن بيع صاعين من أنواع متفرقة من التمر بصاع من تمر جيد فى حديث عن أبى سعيد الخدرى: «كنا نرزق تمر الجمع وهو الخلط من التمر، وكنا نبيع صاعين بصاع فقال النبى — ﷺ — لا صاعين بصاع ولا درهمين بدرهم».

وقال عليه الصلاة والسلام فى بيع التمر بالتمر والشعير بالشعير والبُرُّ بالبُر: «البر بالبر ربا إلا هاء وهاء^(٢)»، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء. وقد نبى — عليه السلام — عن بيع الرطب بالتمر وبيع الكرم بالزبيب،

(١) الإسلام والاشتراكية — تأليف مبرز أحمد حسين — ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب.

(٢) هاء وهاء معناها خذ وهات يعنى مناولة.

ويسمى هذا البيع مزابنة، والمزابنة أن يبيع التمر بكيال إن زاد فلي وإن نقص فعلى .
 والتمس مالك بن أوس صرفاً بمائة دينار فدعاه طلحة ابن عبيد الله فتراوضا
 حتى اضطرف منه، فأخذ الذهب يقلبها في يده ثم قال حتى يأتي خازني من الغابة .
 وعمر يسمع ذلك فقال : « والله لا تفارقه حتى تأخذ منه . قال رسول الله —
 ﷺ : الذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء، والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء، والشعير
 بالشعير ربا إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء . »

وسبب اعتبار الذهب والبر والشعير ربا إذا أجل التسليم أن لهذه الطيبات
 أسعاراً وقت الأخذ قد تتعرض للارتفاع أو الانخفاض وقت العطاء مما يعود
 بالضرر على أحد طرفي الصفقة، وهذا يتعارض مع المبدأ الإسلامي القائل : لا
 ضرر ولا ضرار، فالإسلام يحافظ على مصالح الناس ويأبى أن يفرط فيها .

وقال — ﷺ — في بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة : « لا تبيعوا
 الذهب بالذهب إلا سواء بسواء، والفضة بالفضة إلا سواء بسواء، وبيعوا الذهب
 بالفضة كيف شئتم . » ونهى — ﷺ — أن تباع بضاعة حاضرة ببضاعة مؤخرة،
 فالبضاعة الحاضرة سعر معلوم بينما البضاعة المؤخرة لا يعلم سعرها، فقد ترتفع
 الأسعار أو تنخفض فيضر أحد طرفي الصفقة : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا
 مثلاً بمثل وتشقوا (تفضلوا) بعضها على بعض، ولا تبيعوا الورق (الفضة)
 بالورق إلا مثلاً بمثل ولا تشقوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها غائباً بناجز . »
 وقال — ﷺ — إن بيع الورق بالذهب ديناً نسيئة، وأنه لا بد من بيع الذهب
 بالورق يدا بيد . ونهى عن بيع الثمر حتى يبدو صلاحه : « لا تبيعوا الثمر حتى
 يبدو صلاحه . »

كان الناس في عهد رسول الله — ﷺ — يتبايعون الثمار، فإذا جَدَّ الناس
 (قطعوا الثمار) وحضر تقاضيهـم قال المبتاع : إنه أصاب الثمر الدُّماه (فساد

الطلع)، أصابه مرض، أصابه قشام (انتفاض ثمر النخل)، عاهات يحتاجون بها، فقال رسول الله ﷺ — لما كثرت عنده الخصومة في ذلك : فإملا ، فلا تبايعوا حتى يبدو صلاح الثمر ». وقال جابر بن عبد الله : « نهى النبي ﷺ — أن تبايع الثمرة حتى تُشقق . فقيل : وما تشقق ؟ قال : تحمارٌ وتصفارٌ ويؤكل منها . واستعمل رسول الله ﷺ — رجلا على خبير فجاءه بثمر جنيب (طيب) ، فقال رسول الله ﷺ — :

— أكل تمر خبير هكذا ؟

— لا والله يا رسول الله ، إنا لناخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة .

كان الرجل يقصد أنه يأخذ صاعا من تمر جيد مقابل صاعين أو ثلاثة من تمر الجمع ، فقال رسول الله ﷺ — :

— لا تفعل ، بع الجمع بالدراهم ، ثم ابتع بالدراهم جنيبا .

وروى أنس أن النبي ﷺ — نهى عن بيع ثمر التمر حتى تزهو ، فقالوا لأنس :

— ما زهوها ؟

— تحمر وتصفر ، رأيت إن منع الله الثمرة بم تستحل مال أخيك ؟

أحل الله البيع وحرم الربا ، فلا غنى لمجتمع عن البيع والتجارة ، وقد نظم الإسلام التجارة فلم يترك للتجار الحبل على الغارب ، بل وضع من الأصول وحض على حسن المعاملة وحسن النية مما جعل المجتمع الإسلامي في المهود التي ساد فيها الإسلام المثل الأعلى للعلاقات الطيبة في المعاملات التجارية ، فقد كانوا يدعون تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام حتى قال بعضهم : « من أنفق الحرام في الطاعة فهو كمن طهر الثوب بالبول » . وقال : « لأن أردّ درهما من شبهة

أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ومائة ألف». وقال ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهة، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصي حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقع». .

لما قدم النبي ﷺ — المدينة كان بها رجل يقال له أبو جهينة، له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فأنزل الله تعالى: «ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين» (١).

كان أهل المدينة أبخس الناس كيلاً، فلما نزلت حرمة التطفيف أحسنوه وأصبحوا إذا كالوا الناس أو وزنوهم يستوفون. .

وأقبل رسول الله ﷺ — على المهاجرين فقال:

— يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركنكم: لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلبوا أنفسهم عدوهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، ولم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم.

وقد أمر القرآن الكريم بتأدية الأمانة: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» (٢). وقال ﷺ:

— الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة ، وأشد ذلك الدوائع .

وكان ابن عمر يمر بالبائع يقول :

— اتق الله وأوف الكيل والوزن ، فإن المطففين يوقفون حتى إن العرق ليلجهم إلى أنصاف آذانهم .

ونهى الإسلام عن الغش وحرمة ، فقد قال — ﷺ : « من حمل السلاح علينا فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » .

ومر عليه السلام على كومة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا ، فقال :

— ما هذا يا صاحب الطعام ؟

— أصابته السماء يا رسول الله .

— أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا .

ونهى عن خلط اللبن بالماء : « لا تشوبوا اللبن للبيع » . وزين إظهار ما في البضاعة من عيب : « المسلم أخو المسلم ، ولا يجل لمسلم إذا باع من أخيه بيعا فيه عيب أن لا يبينه » . وقال : « المؤمنون بعضهم لبعض نصيحة ، وأدون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم ، والفجرة بعضهم لبعض غششة ، متخاونون وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم » .

أحل الله التجارة لتعارف القبائل والشعوب ولقضاء حاجات الناس لتستمر الحياة ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال إن ما عنده خير من اللهو والتجارة حتى لا يغمس الناس في طلب الماديات ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة أو هوا انفضوا إليها وتركوا قائما قل ما عند الله خير من

اللَّهُو ومن التجارة والله خير الرازقين» (١).

كان القوم يتبايعون ويتجرون ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم
تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله. إنهم كانوا يعيشون للعالم والآخرة
وما كانت الدنيا تطفئ على الآخرة وما كانت الآخرة تطفئ على الدنيا، وإن كان
العقلاء يدخرون الطيبات في الدنيا للآخرة. وقد جعل الإسلام طلب الحلال
فريضة فقال نبي الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه : « طلب الحلال فريضة
بعد الفريضة ». وقد مر رسول الله — ﷺ — بابنته الأثيرة عنده فاطمة الزهراء
وهي مضطجعة متصبحة ؛ فحركها برجله ثم قال :

— يا بنية قومي فاشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين ، فإن الله يقسم
أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

إن طلب كسب الرزق الحلال في الإسلام فريضة بعد الفريضة ، فالإسلام
يعمل على إيجاد المجتمع المتوازن ، المجتمع الذي يسلم وجهه لله في الأرض بحثاً عن
رزقه امتثالاً لأوامر الله . إنه الدين والمذهب الاقتصادي الذي يحقق الانسجام
بين أطماع الفرد وسلامة الجماعة : « يأبى الناس كلوا عما في الأرض حلالاً طيباً
ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » (٢) . « ويحل لهم الطيبات ويحرم
عليهم الخبائث » (٣) .

والإسلام يبارك العمل ، فرسول الله — ﷺ — يقول : ما أكل أحد طعاماً قط
خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده .
ويفضل العمل عن سؤال الناس مهما كان نوع العمل : « لأن يحتطب أحدكم
حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه » . ويحض على السهولة
والسماحة في الشراء والبيع : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا

(٣) الأعراف ١٥٧

(٢) البقرة ١٦٨

(١) الجمعة ١٠ ، ١١

اقتضى»، ولم يكتف بأن يعلم الناس طلب الحق في عفاف بل إنه يأمر بأن ييسر على الموسر ويتجاوز عن المعسر. قال — ﷺ — : «كان تاجر يداين الناس، فلما رأى معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا».

والإسلام لا يحل لامرئ يبيع سلعة يعلم أن بها داء إلا أخبره، فقد كتب رسول الله — ﷺ — للعداء بن خالد: «هذا ما اشترى محمد رسول الله — ﷺ — من العداء بن خالد يبيع المسلم المسلم لاء ولا خبيثة ولا غالة». أى أن المسلم لا يبيع من طيبات الله إلا الطيب الذى لا عيب فيه ولا سرقة ولا زنا.

وقال — ﷺ — : «البيعان بالخيار حتى يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما».

إن الإسلام ينشد الطهارة في البدن والنفس وطهارة المعاملات، فلا غش ولا تدليس ولا تطفيف في الميزان، ولا إخفاء ما في البضاعة من عيوب، وقد حض على طلب الحلال وترك الخبائث فأصبح المسلمون ينتزهون من الشبهات حتى إن رسول الله — ﷺ — مر بتمرة مستقطة فقال: «لولا أن تكون صدقة لأكلتها». وكانت صفة المؤمنين البارزة التحرز والخوف من المحرمات، وقد قال رسول الله — ﷺ — : «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أمن حرام أم من حلال».

ويكره الإسلام الحلف في البيع، فقد رُوج رجل سلعة وهو في السوق فحلف بالله لقد أعطى بما لم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت: «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم»^(١).

والإسلام يكره أن يخرج المشترون للقاء قوافل التجارة قبل أن تصل الطيبات إلى الأسواق ، لأن ذلك لا يتيح للجميع تكافؤ الفرص ، فالأقوياء قد يحصلون على حاجاتهم بينما الضعفاء ينتظرون في الأسواق ورود الطيبات . وقد كان الناس على عهد رسول الله ﷺ — يشترون الطعام من الركبان فكان — عليه السلام — يبعث عليهم من يمنهم أن يبيعوه حيث اشتروه حتى ينقلوه حيث يباع الطعام ، فتتاح للناس جميعا فرصة الشراء .

والإسلام يحرم الاحتكار ويعدّه من الكبائر ، وقد قال — ﷺ — : « من احتكر طعاما فهو خاطئ لله » ، وقال — عليه السلام — : « من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برىء من الله وبرىء الله منه . وأياما أهل عريضة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » .

وقال — ﷺ — : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » . وقال — ﷺ — : « ببس العبد المحتكر ، إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح » .

التطفيف حرام ، والغش في البيع والشراء ، والاحتكار ؛ وإن التاجر الأمين مع النبيين . قال — ﷺ — : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » . وقال : « إن أطيّب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا ، وإذا كان عليهم لم يمتطوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا » .

وقال — ﷺ — لأبي ذر :

— ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم .

— خابوا وخسروا ! من هم يا رسول الله ؟

— المُسبِلُ إزاره ، والمُتَنَفِّعُ عطائه ، والمتنفق سلعته بالخلف الكاذب .

أرّهف الإسلام حس المسلمين فكانوا يتبعون أوامر الله ويتجنبون نواهيه ،

(حجة الوداع)

وكانوا ينفذون ما عهدوا عليه رسول الله ﷺ . أتى جرير بن عبد الله البجلي رسول الله ﷺ — فقال :
 — أبايعك على الإسلام .
 فشرط — ﷺ — عليه :
 — والنصح لكل مسلم .
 فبايعه على ذلك . وحدث أن أمر جرير مولاه أن يشتري له فرسا فاشترى له فرسا بثلاثمائة درهم وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس :

— فرسك خير من ذلك ، أتبيعه بخمسمائة درهم ؟
 — ذلك إليك يا أبا عبد الله .
 — فرسك خير من ذلك ، أتبيعه بستمائة درهم ؟
 ثم لم يزل يزيده مائة مائة وصاحبه يرضى وجرير يقول : « فرسك خير » إلى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها ، فقيل له في ذلك فقال :
 — إني بايعت رسول الله ﷺ — على النصح لكل مسلم .
 ونهى الإسلام أن يبيع الرجل على بيع أخيه ، أو أن يزد في الثمن بلا رغبة في الشراء بل ليغير غيره ، أو أن يبيع حاضر الباد ، فقد نهى — ﷺ — أن يبيع حاضرا لباد وقال : لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ، ولا تناجشوا (١) .
 ولا بأس في الإسلام ببيع المزايدة فقد كان الناس لا يزون بأسا ببيع المغنم فيمن يزد .

ولا يقبل في الإسلام اشتراط شروط لا تحل : جاءت بريرة إلى عائشة

(١) المناجشة ، من النجش ، وهو أن يزد في الثمن بلا رغبة بل يعر غيره .

أم المؤمنين فقالت :

— كاتبت أهلى على تسع أواق فى كل عام أوقية فأعينينى .

— إن أحب أهلك أعدها لهم ، ويكون ولاؤك لى فعلت .

فذهبت بريرة إلى أهلها فقالت لهم فأبوا عليها ، فجاءت من عندهم ورسول الله ﷺ — جالس عند عائشة فقالت :

— إنى قد عرضت ذلك عليهم فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم .

فسمع النبى — ﷺ — فأخبرت عائشة النبى — عليه السلام — فقال :

— خذنها واشترطى لهم الولاء فإنما الولاء لمن أعتق .

ففعلت عائشة ، ثم قام رسول الله — ﷺ — فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى

عليه ثم قال :

— أما بعد . ما بال رجال يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟ ما كان من

شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط . قضاء الله أحق وشروط

الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق .

وقضى النبى — ﷺ — بالشفعة فى كل مال لم يُقسم . فإذا وقعت الحدود

وصُرفت الطرق فلا شفعة ، والشفعة فى بيع الأرض والدور والعروض . وصرح

بالشراء والبيع مع المشركين ، وبجلود الميتة قبل أن تدبغ ، فقد مر رسول الله

ﷺ — بشاة ميتة فقال :

— هلا استمتعتم باهابها ؟

— إنها ميتة .

— إنما حُرِّم أكلها .

وحرم الإسلام بيع الحر وجعله إثمًا كبيرا ، قال رسول الله — ﷺ — :

— قال الله ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل

باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا ، فاستوفى منه ولم يعطه أجره .
يأمر الإسلام أن يعطى أجر الأجير قبل أن يجف عرقه ، ليسعد بالأجر
ويستشعر أنه مكافأة عن العمل والجهد والعرق . وكان صحابة رسول الله
— ﷺ — تجار اوزراعا وصناعا ، فأبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف
وخالد بن الوليد والعباس بن عبد المطلب كانوا يشتغلون بالتجارة ، وكان الزبير
ابن العوام وسلمان الفارسي وكثير من الأنصار يشتغلون بالزراعة ، وكان خباب
ابن الأرت حدادا ، وكان كثير من الرجال والنساء يشتغلون بالتجارة ، فقد بعث
رسول الله — ﷺ — إلى امرأة من الأنصار أن مري غلامك النجار يعمل لى
أعوادا أجلس عليهن إذا كلمت الناس ، فعمل له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد
النبي — ﷺ — على المنبر الذى صنع .

« لا ينظر الإسلام كالا اشتراكية بعين الرضا إلى جمع الثروات دون مراعاة
لصالح المجتمع لما لذلك من نتائج مزعجة تلحق بالجماعة ، ولكنه يتخذ لنفسه
أسلوبا آخر ، ونظامه هو التدرج الاقتصادى الاجتماعى الذى لا يتجاهل خير
المجموع .

قال تعالى : ﴿ والله ييسر الرزق لمن يشاء ﴾ (١) .

وهو ييسر للإنسان كسب المال وتملكه ، ولا يعتبر المشاريع الاقتصادية
الفردية حراما ينبغى أن يتجنبه الناس ولكنها إذا ما اتخذت دورا عدوانيا يلحق
الضرر بالجماعة أو يجرم أبناءها من وسيلة كسب العيش فإنه لا يوافق عليها ، وقد
سد الإسلام الطريق فى وجه كل ما قد تنجه إليه التجارات والأعمال من
تطورات ضارة .

وقد سمح الإسلام بالملكية الفردية من أجل تشجيع الابتكار الفردى وإنقاذ الفرد من أن يصبح مجرد آلة مسيرة، كما أعطاه الحق فى أن يتسع نشاطه المالى كما يشاء ما دام غير متجاوز الحدود التى تخل بالتوازن الاجتماعى . ومن أجل ضمان نمو التجارة والصناعة ثموا صحيحا سليما وضع الإسلام قيودا لحرية النشاط الشخصى ، ذلك لما بين الملكية الخاصة والمصلحة العامة من علاقة حيوية تحتم ضرورة الاحتفاظ بالانسجام فيما بينهما»^(١) .

«لن تستطيع الدولة المسلمة تحقيق الرسالة الإلهية التى ألقيت على عاتقها إلا إذا جرد أفرادها أنفسهم من الطمع والبخل وخلصوا عقولهم من الرغبة فى العدوان على بعضهم البعض . والآيات القرآنية تسد الطريق على هؤلاء الذين يكتزون المال ويستغلون الظروف لتحقيق الكسب وتضخم الثروات بحيث يصبح خطرا على الجماعة ، كما نرى أمام أعيننا فى ظل الرأسمالية الفاسدة ، هذا النظام الذى أفسد نشاط الدولة لتحقيق مصالح الناس بشعاره المزيف « حرية العمل وحرية الانتقال » ، والذى يغرى الفرد بالتنافس لتحقيق الربح ولو أصبح جيرانه شحاذين .

ولقد لعن الإسلام كل نظام يقوم على المبدأ الهدام القاتل « كل فرد لنفسه وليذهب الآخرون إلى الجحيم » . وحرم أساليب التنافس الخسيس الذى يشبه تنافس الكلاب على أكل بعضها البعض ، والإسلام لا يسمح بمثل هذا التنافس الاجتماعى الهدام لأن وجود فرد مفرط الغنى يعنى عبودية اقتصادية للكثيرين ، والكسب المفرط الزائد على حاجة الأفراد مزرعة خصبة ينمو فيها الصدام الطبقي . ولن تتحقق أخوة اجتماعية دائمة إذا فصلت بين الطبقات هوات

(١) الاشتراكية والإسلام — ميرزا محمد حسين .

اقتصادية عميقة ، بل سيكون هناك طائفة من السادة في ناحية وطائفة من المستعبدين في ناحية أخرى ، وحرصا من الإسلام على القضاء على هذه التفرقة التي تفضي إلى تحكم طبقة في أخرى ، نهى عن الربح الجشع والتهوس في طلب الثروة ، والآية الكريمة : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ۝ سورة البقرة — مليعة بالدلالة فهي تؤيد أن ما خلقه الله من خير ملك للجماعة الإنسانية في عمومها ، وليس لإنسان كائنا من كان أن يحتفظ لنفسه بنصيب الأسد من هذا الخير المشترك ۝ (١) .

إن الثروة الزائدة أو « العفو » لا يصح أن تبقى في يد مالكها بل عليه أن يتخلى عنها بطريقة تحقق الخير العام : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ۝ (٢) . ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ۝ (٣) .

والإسلام يعمل على إعادة توزيع الثروة تحقيقا للخير العام وذلك بفرض الزكاة على القادرين ، ثم حض الأغنياء على إنفاق فضول أموالهم لما فيه مصلحة الجميع : ﴿ وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ۝ (٤) .

ويروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ — أنه قال : « من كان عنده فضل ظهر فليعده على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعده على من لا زاد له ۝ . قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل ۝ .

وقال د. د. سانتيلانا في كتابه تراث الإسلام : « لكل إنسان الحق في ملكية أى

(١) المصدر السابق . (٢) البقرة ٢١٩

(٣) الأعراف ١٩٩ (٤) البينة ٥

شيء لأن خيرات الدنيا قد خلقت من أجل نفع الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالى بإباحة الملكية قد وضع حدودا تبين لكل فرد نصيبه الذى منحه إياه من هذه الثروة المشتركة ، فوضع بذلك أساسا لتأمين النظام الاجتماعى . ومن الخطأ أن يظن الفرد أنه لا حدود لحق الملكية ، لأن تقرير هذا الحق والغاية التى من أجلها تقرر أن يكون له حدود يقف عندها . وقد منح الله خيرات الأرض للإنسان ليتمكن من الحياة ، أى ليستعملها استعمالا نافعا لا يبعثرها هنا وهناك دون هدف خضوعا للزوات تافهة ، ويعتبر القرآن والحديث الشريف استهلاك المال فى غير حاجة حقيقية استعمالا سيئا غير مباح . والتبذير نوع من الهوس فى نظر الإسلام الذى يصير على التوسط فى إنفاق المال لأن التوسط أمر يتفق مع طبيعة الأشياء ، ومع الغرض الذى من أجله أسبغ الله على الإنسان نعمه .

والزكاة نقيض الربا ، فالربا جشع وطمع واستغلال وضرر بالخير العام ، بينما الزكاة سماحة وجود وإنفاق فى سبيل الخير العام استجابة لأمر الله صاحب المال : « يحق الله الربا ويرى الصدقات » (١) .

جعل الله الزكاة أساسا للدين وإحدى مباني الإسلام وقرنها بالصلاة : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٢) . ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (٣) . ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٤) . ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (٥) ، ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٦) .

(١) البقرة ٢٧٦ (٢) البقرة ٤٣

(٣) البقرة ٨٣ (٤) البقرة ١١٠

(٥) البقرة ٢٧٧ (٦) النساء ١٦٢

وقال — ﷺ : « بنى الإسلام على خمس » : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وشدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ . ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج حق الزكاة .

وقال أبو ذر : « انتهيت إلى رسول الله — ﷺ — وهو جالس في ظل الكعبة ، فلما رآني قال : هم الأنخسرون ورب الكعبة . فقلت : ومن هم ؟ قال : الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم . ما من صاحب إبل ولا بقرة ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطوؤه بأظلافها كلما نفدت أخرها عادت إليه أو لاها حتى يقضى بين الناس .

ولا تجب ^(١) الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم ، ولا يشترط البلوغ بل تجب في مال الصبي والمجنون . هذا شرط من عليه ، وأما المال فشروطه خمسة :

١ — أن يكون نعما فلا زكاة إلا في الإبل والبقر والغنم أما الخيل والبغال والحمير والمتوالد من بين الظباء والغنم فلا زكاة فيها ، وقد وضعت الزكاة عن الخيل لأنها عدة القتال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ^(٢) .

٢ — سائمة ، فلا زكاة في معلوفة ، وإذا أسيمت ^(٣) في وقت وعلفت في وقت تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها .

٣ — حال عليها الحول ، قال — ﷺ : « لا زكاة في مال حتى يحول عليه

(١) كتاب أسرار الزكاة ، لإحياء علوم الدين للغزالي .

(٢) الأنفال ٦٠

(٣) السوم : الرعى بالنفس . أسيمت : رعت بنفسها .

الحول ، ويستثنى من هذا نتاج المال فإنه ينسحب عليه حكم المال وتجب الزكاة فيه لأول الأصول ، ومهما باع المال في أثناء الحول أو وهبه انقطع الحول .
 ٤ — كمال الملك والتصرف : فتجب في الماشية المرهونة لأن صاحبها هو الذى حاجر على نفسه فى ملكيته ، ولا تجب فى الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع نمائه فتجب زكاة ما مضى عند عوده ، ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنيا به ، إذ الغنى ما يفضل عن الحاجة .

٥ — كمال النصاب : أما الإبل فلا شئ فيها حتى تبلغ خمسا ففيها جذعة من الضأن — والجذعة هى التى تكون فى السنة الثانية — أو ثنية من المعز — وهى التى تكون فى السنة الثانية — وفى عشر شاتان ، وفى خمس عشرة ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمس وعشرين بنت مخاض — وهى التى فى السنة الثانية ، فإن لم يكن فى ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر — وهو الذى فى السنة الثانية — يؤخذ وإن كان قادرا على شرائها . وفى ست وثلاثين : ابنة لبون ، ثم إذا بلغت ستا وأربعين ففيها حقة — وهى التى فى السنة الرابعة ، فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة — وهى التى فى السنة الخامسة ، فإذا صارت ستا وستين ففيها بنتا لبون — فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان ، فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون ، فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ففى كل خمسين حقة وفى كل أربعين بنت لبون .

أما البقر فلا شئ فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع — وهو الذى فى السنة الثانية ، ثم فى أربعين مسنة — وهى التى فى السنة الثالثة ، ثم فى ستين تبيعان ، واستقر الحساب بعد ذلك ففى كل أربعين مسنة وفى كل ثلاثين تبيع .
 وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز ، ثم لا شئ فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان ، إلى مائتى شاة

وواحدة ففيها ثلاث شياه ، إلى أربع مائة ففيها أربع شياه ، ثم استقر الحساب في كل مائة شاة .

وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد في النصاب ، فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة ، وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة على جميعهم ، وخلطة الجوار كخلطة الشيوخ ولكن يشترط أن يريحا معا ويسقيا معا ويحلبا معا ويسرحا معا ويكون المرعى معا ويكون إنزاء الفحل معا وأن يكونا جميعا من أهل الزكاة ، ولا حكم للخلطة مع الذمي والمكاتب .
ويجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة من ، ولا شيء فيما دونها ولا في الفواكه والقطن ، ولكن في الحبوب التي تقتات وفي التمر والزبيب ، ويعتبر أن تكون ثمانمائة من تمر أو زبينا لا رطبا وعنبا ، ويخرج ذلك بعد التجفيف .
ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر في خلطة الشيوخ ، كالبلستان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة من من زبيب ، فيجب على جميعهم ثمانون من من زبيب بقدر حصصهم . ولا يعتبر خلطة الجوار فيه ، ولا يكمل نصاب الخلطة بالشعير ، ويكمل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه .

هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسيح أو قناة ، فإن كان يسقى بنضح (جمل السقيا) أو دالية (دلو) فيجب نصف العشر ، ذلك لأن الإسلام لا يحرم العمل من نصيبه ، فإن اجتمع السقاية بالمطر أو القنوات والسقاية بالدلاء أو جمال السقى فالأغلب يعتبر .

أما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية . ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تمام الإدراك ، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ووقت اللجوء أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتد الحب ، ووقت الأداء بعد الجفاف .

وفرضت الزكاة على النقدين ، فإذا تم الحول على وزن مائتي درهم نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم وهو ربع العشر ، ولو زاد فبحسابه ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصا ففيها ربع العشر ، وما زاد فبحسابه وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة . وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . وتجب الزكاة في التبر وفي الحلبي المحظور كأواني الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال ولا تجب في الحلبي المباح ، وتجب في الدين الذي هو على مليء ولكن تجب عند الاستيفاء ، وإن كان مؤجلا فلا تجب إلا عند حلول الأجل .

وفرضت الزكاة على التجارة ، وهي كزكاة النقدين وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقدين الذي بها اشترى البضاعة إن كان النقد نصابا ، فإن كان ناقصا أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء ، وتؤدي الزكاة من نقد البلد وبه يقوم ، فإن كان ما به الشراء نقدا وكان نصابا كاملا كان التقديم به أولى من نقد البلد . ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشتري به شيئا ، ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة ، والأولى أن تؤدي زكاة تلك السنة ، وما كان من ربح في السلعة في آخر الحول وجبت الزكاة فيه محول رأس المال ولم يستأنف له حولا كما في التناج . وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات .

وتجب الزكاة في الركاظ والمعادن ؛ والركاظ مال دفن في الجاهلية ووجد في أرض لم يجر عليها في الإسلام ملك . فعلى واجده في الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر ، والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضا ، لأن إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغنيمة ، واعتباره أيضا ليس ببعيد لأن مصرفه مصرف الزكاة ، لذلك يخصص على الصحيح بالنقدين .

وأما المعادن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب ، وفي الحول قولان ، وفي قول يجب الخمس ، فعلى هذا لا يعتبر ، وفي النصاب قولان ، والأشبه والعلم عند الله تعالى أن يلحق في قدر الواجب بزكاة التجارة فإنه نوع اكتساب ، وفي الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق ، ويعتبر النصاب بالمعشرات . والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ومن عين النقدين أيضا خروجا عن شبهة هذه الاختلافات ، فإنها ظنون قريبة من التعارض ، وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

وصدقة الفطر واجبة على لسان رسول الله ﷺ : « على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقات » ، بصاع رسول الله ﷺ — وهو منوان وثلاثون من يخرج منه من جنس قوته أو من أفضل منه . فإن اقتات بالحنطة لم يجز الشعير ، وإن اقتات حبوا بمختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجزأه . وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ، ولا يجوز إخراج الدقيق والسويق .

ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته وماليكه وأولاده وكل قريب هو في نفقته ، أعنى من تجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد ، قال ﷺ : « أدوا صدقة الفطر عن تمونون » . وتجب صدقة العبد المشترك على الشريكين ولا تجب صدقة العبد الكافر . وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجزأها ، وللزوج الإخراج عنها دون إذنها ، وإن فضل عنه ما يؤدي عن بعضهم أدى عن بعضهم .

ولأداء الزكاة شروط باطنة وظاهرة ، فيجب على مؤدى الزكاة مراعاة خمسة أمور :

١ — النية، وهو أن ينوى بقلبه زكاة الفرض، ويسن عليه تعيين الأموال. فإن كان له مال غائب فقال هذا عن مالى الغائب إن كان سالما وإلا فهو نافلة جاز، لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه. ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي، ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة، ولكن فى ظاهر حكم الدنيا أعنى قطع المطالبة عنه، أما فى الآخرة فلا، بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة.

وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه، لأن توكيله بالنية نية.

٢ — البدار عقيب الحول، وفى زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر، ويدخل يوم وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان، ووقت تعجيلها وقت رمضان كله. ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصي ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق، وإن أخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه.

وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانعقاد الحول، ويجوز تعجيل زكاة حولين. ومهما عجل فمات المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنيا بغير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات فالمدفوع ليس بزكاة واسترجاعه غير ممكن، إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع، فليكن المعجل مراقبا آخر الأمور وسلامة العافية.

٣ — ألا يخرج بدلا باعتبار القيمة، بل يخرج المنصوص عليه، فلا يجزئ ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه فى القيمة. ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعى رضى الله عنه يتساهل فى ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبعده عن التحصيل، فإن سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود، بل

واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تعبد محض لا مدخل للحفظ والأغراض فيه ، وذلك كرمى الجمرات مثلا إذ لا حظ للجمرة في وصول الحصى إليها ، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى ، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمعنى آخر ، وأكثر أعمال الحج كذلك ، ولذلك قال — ﷺ — في إحرامه : لبيك بحجة حقا ، تعبد اورقا . تنبيهها على أن ذلك إظهار للعبودية بالانقياد لجرد الأمر وامثاله ، كما أمر من غير استئناس العقل بما يميل إليه ويحث عليه .

القسم الثانى : من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول وليس يقصد منه التعبد ، كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب ، فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته ، ومهما وصل الحق إلى مستحقه يأخذ المستحق أو يبدل عنه عند رضاه تأدى للوجوب وسقط خطاب الشرع ، فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك فى دركهما جميع الناس .

والقسم الثالث : هو المركب الذى يقصد منه الأمران جميعا ، وهو حظ العباد والامتحان المكلف بالاستعباد . فيجتمع فيه تعبد رمى الجمار وحظ رد الحقوق ، فهذا قسم فى نفسه معقول ، فإن ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ، ولا ينبغي أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلاهما ، ولعل الأدق هو الأهم ؛ والزكاة من هذا القبيل . ولم ينتبه له غير الشافعى رضى الله عنه ، فحظ الفقير مقصود فى سد الخلة وهو جلى سابق إلى الأفهام ، وحق التعبد فى اتباع التفاصيل مقصود للشرع وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج فى كونها من مبادئ الإسلام . ولا شك فى أن على المكلف تعباً فى تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته ، ثم

توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتى ، والتساهل فيه غير قادح في حظ الفقير ولكنه قادح في التعبد ، ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أن الشرع أوجب في خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النقيدين والتقويم ، وإن قدر أن ذلك لقلة النقد في أيدي العرب بطل بذكره عشرين درهما في الجبران مع الشاتين ، فلم لم يذكر في الجبران قدر النقصان من القيمة ؟ ولم قدر بعشرين درهما وشاتين ، وإن كانت الثياب والأمتعة كلها في معناها ؟ فهذا وأمثاله من التخصيصات تدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما في الحج ، ولكن جمع بين المعنيين ، والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه .

الرابع : ألا ينقل الصدقة إلى بلد آخر ، فإن أعين المساكين في كل بلدة تمتد إلى أمواها وفي النقل تخيب للظنون ، فإن فعل ذلك أجزأه في قول ، ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى ؛ فليخرج زكاة كل مال في تلك البلدة ، ثم لا بأس أن يصرف على الغرباء في تلك البلدة .

الخامس : أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين في بلده ، فإن استيعاب الأصناف واجب ، وعليه يدل ظاهر قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) . فإنه يشبه قول المريض إنما ثلث للفقراء والمساكين وذلك يقتضى التشريك في التملك ، والعبادات ينبغى أن يتوقى عن الهجوم فيها على الظواهر ، وقد عدم من الثمانية صنفان في أغلب البلاد وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة ، ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف :

الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون — أعنى أبناء السبيل ، وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض وهم الغزاة والمكاتبون ، فإن وجد خمسة أصناف مثلاً قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسماً ، ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فما فوقه إما متساوية أو متقاربة ، وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد ، وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان ، فلا ينبغي أن ينقص في كل صنف عن ثلاثة إن وجد ثم لم يجب إلا صاع للفطرة ، ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفراً ، ولو نقص منهم واحد مع الإمكان غرم نصيب ذلك الواحد ، فإن عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بما لهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتساهموا فيه ، فإن ذلك لا بد منه .

وليبيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة اعلم أن على مريد طريق الآخرة بركاته وظائف :

الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها وجه الامتحان فيها وأنها لم تجعل من مبادئ الإسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان ، وفيه ثلاثة معان : الأول أن التلفظ بكلمتى الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ، وشرط تمام الوفاء به ألا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فإن المحبة لا تقبل الشراكة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يمتحن به درجة الحب بمفارقته المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتنحوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذى هو مرقهم ومعشوقهم ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ وَارْزُقُوا الْفُقَرَاءَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿١﴾ وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل ، والمسامحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدخروا ديناراً ولا درهما فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا البذل ، ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضي الله عنه بشرط ماله ، فقال — ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال : مثله ، وقال لأبي بكر رضي الله عنه : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : الله ورسوله . فقال — ﷺ : بينكما ما بين كلمتيكما ، فالصديق وفيّ بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده ، وهو الله ورسوله .

القسم الثاني : درجتهم دون درجة هذا ، وهم المسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التمتع وصراف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر ، مهما ظهر وجودها .

وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة ، وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له : هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم ، أما سمعت قوله عز وجل : ﴿ وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ (٢) . واستدلوا بقوله عز وجل : ﴿ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ ﴾ (٣) . وبقوله تعالى : ﴿ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (٤) . وزعموا أن

(٢) البقرة ١٧٧

(١) التوبة ١١١

المنافقون ١٠

(٣) البقرة ٣

ذلك غير منسوخ بآية الزكاة، بل هو داخل في حق المسلم على المسلم، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة، والذي يصح في الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهاقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية، إذ لا يجوز تضييع مسلم، ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا بتسليم ما يزيل الحاجة قرضاً، ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه، ويحتمل أن يقال يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الاقتراض، أى لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف. والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهي درجة القسم الثالث: الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهي أقل الرتب، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة؛ قال تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُحْفَكُمْ تَبْخُلُوا﴾^(١). يحفكم أى يستقصي عليكم، فكهم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة، وبين عبد لا يستقصي عليه لبخله، فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال.

المعنى الثاني: التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات، قال — ﷺ : « ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه ». وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١). وإنما نزول صفة البخل بأن تتعود بذل المال، فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقتها حتى يصير ذلك اعتياداً، فالزكاة بهذا المعنى طهرة، أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى.

المعنى الثالث : شكر النعمة فإن الله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله ، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن ، والمالية شكر لنعمة المال ، وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه ، بربع العشر أو العشر من ماله .

الوظيفة الثانية : في وقت الأداء ، ومن آداب ذوى الدين التعجيل عن وقت الوجوب لإظهار الرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات ، وعلمنا بأن في التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب . ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي أن يغلظ ، وليعين لذكائها إن كان يؤديها جميعا شهرا معلوما ، وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لثمائه قربته وتضاعف زكاته ، وذلك كشهر المحرم فإنه أول السنة وهو من الأشهر الحرم ، أو رمضان فقد كان — ﷺ — أجود الخلق وكان في رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئا ، ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن ، وكان مجاهد يقول : لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان . وذو الحجة أيضا من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام وفيه الحج الأكبر ، وفيه الأيام المعلومات وهي العشر الأول ، والأيام المعلومات وهي أيام التشريق . وأفضل أيام رمضان العشر الآخر ، وأفضل أيام ذى الحجة العشر الأول . الوظيفة الثالثة : الإسرار ، فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة ، قال — ﷺ : أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير معسر . وقال بعض العلماء : ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة ، وقد روى أيضا مسندا .

وقال — ﷺ : « إن العبد ليعمل عملا في السر فيكتبه الله له سرا ، فإن أظهره

نقل من السر وكتب في العلانية ، فإن تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء « وفي الحديث المشهور : «سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله : أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه ، وفي الخبر : « صدقة السر تطفئ غضب الرب » . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَخَفَوْهَا وَتَوْتَوْهَا فَقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرَ لَكُمْ ﴾ (١) . وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة ، فقد قال — ﷺ : « لا يقبل الله من مسمع ولا مرأ ولا منان » . والمتحدث بصدقة يطلب السمعة ، والمعطى في ملأ من الناس يبغي الرياء ، والإخفاء والسكوت هو المخلص منه ، وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى ، فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى ، وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى ، وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم ، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشييه . كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازا من الرياء والسمعة ، ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى ، إذ في معرفة المسكين الرياء والمنة جميعا وليس في معرفة المتوسط إلا الرياء . ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله ، لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال ، وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال ، وكل واحد منهما مهلك في الآخرة .

الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيبا للناس في الاقتداء ، ويحرس سره من داعية الرياء . فقد قال الله عز وجل : « إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنَعَمَا

هي» (١). وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس ، فلا ينبغي أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار ، بل ينبغي أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان . وهذا لأن في الإظهار محذور ثالث سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج . فمن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره ، وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محذور ، والتجسس فيه والاعتیاد بذكره منهى عنه ، فأما من أظهره بإقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها ، وبمثل هذا المعنى قال — ﷺ : « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (٢) . ندب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب ، فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه ، فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل ، ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

الوظيفة الخامسة : ألا يفسد صدقته بالمن والأذى . قال الله تعالى : ﴿ لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ (٣) . واختلفوا في حقيقة المن والأذى ف قيل : المن أن يذكرها ، والأذى أن يظهرها ، وقال سفيان : من منّ فسد صدقته ، ف قيل له : كيف المن ؟ قال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل المن أن يستخدمه بالعتاء ، والأذى أن يعيره بالفقر ، وقيل : المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة ، وقد قال — ﷺ : « لا يقبل الله صدقة منان » .

(١) البقرة ٢٧١ (٢) الرعد ٢٢

(٣) البقرة ٢٦٤

وعندى أن المن له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفاته ، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح ، فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعما عليه . وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته ونجاته من النار ، وأنه لو لم يقبله لبقى مرثنا به ؛ فحقه أن يتقلد منه الفقير إذ جعل كفه نائبا عن الله عز وجل فى قبض حق الله عز وجل . قال رسول الله ﷺ : « إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل » . فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه ، والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صبر ورته إلى الله عز وجل . ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفها وجهلا ، فإن المحسن إليه متكفل برزقه ، أما هو فإنما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه ، فهو ساع فى حق نفسه ، فلم يمن به على غيره ؟ ! ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا فى نفسه ، إما ببذل ماله لإظهار الحب لله تعالى ، أو تطهير النفس عن رذيلة البخل ، أو شكرا على نعمة المال طلبا للمزيد ، وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه ، مهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه تفرع منه على ظاهره ما ذكر فى معنى المن ، وهو التحدث به وإظهاره ، وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم فى المجالس والمتابعة فى الأمور ، فهذه كلها ثمرات المن ، ومعنى المن فى الباطن ما ذكرناه .

أما الأذى فظاهره التوبيخ والتعير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك السر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه وهو منبهه أمران : أحدهما كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه ، فإن ذلك يضيق الخلق لا بحالة ، والثانى رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشأ

الجهل . أما كراهيته تسليم المال فهو حق ، لأن من كره بذل درهم في مقابلة ما يساوي ألفا فهو شديد الحق ، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب في الدار الآخرة وذلك أشرف مما يبذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكر الطلب المزيد ، وكيفما فرض فالكرامية لا وجه لها . وأما الثاني فهو أيضا جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحققر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته ، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بمخمسائة عام ، ولذلك قال — ﷺ : « هم الأخسرون ورب الكعبة . فقال أبو ذر : من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا » . ثم كيف يستحققر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له ، إذ يكتسب المال بمجده ويستكثر منه ويجهد في حفظه بمقدار الحاجة . وقد أُلزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذي يضره لو سلم إليه . فالغنى مستخدم للسعى في رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فإذا مهما انتقلت الكرامة وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له في أداء الواجب وتقبضه الفقير حتى يخلصه عن عهده بقبوله منه انتفى الأذى والتويخ وتقطيب الوجه ، وتبدل بالاستبشار والثناء والقبول والمنة .

فهذا منشأ المن والأذى ، فإن قلت فرؤيته نفسه في درجة المحسن أمر غامض ، فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا ؟ فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة ، وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالا عدوا له عليه مثلا ، هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصديق ؟ فإن زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنه ، لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك . فإن قلت فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه ؟ فاعلم أن له دواء باطنا ودواء ظاهرا . أما الباطن فالمعرفة بالحقائق التي ذكرناها في فهم

الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه في تطهيره بالقبول ، وأما الظاهر فالأعمال التي يتعاطاها متقلد المنة ، فإن الأفعال التي تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق .

ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدي الفقير ويتمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو في صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية رده ، وكان بعضهم يسط كفه ليأخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هي العليا . وكانت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما إذا أرسلتا معروفاً إلى فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعوه . ثم كانتا ترذان عليه مثل قوله وتقولان : هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء بمثله . وهذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يداؤن قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة . ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها ، هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم ، ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل ، وهذه الشريطة من الزكوات تجري مجرى الخشوع من الصلاة . وثبت ذلك بقوله — ﷺ : « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها » . وهذا كقوله — ﷺ : « لا يقبل الله صدقة منان » . وكقوله عز وجل : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » (١) .

الوظيفة السادسة : أن يستصغر العطية ، فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال . قال تعالى : ﴿ ويوم نحنيك إذ أعجبناك كثر تكلم فلم تقن عنك شيئا ﴾ (٢) . ويقال إن الطاعة كلما استصغرت

عظمت عند الله عز وجل ، والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل : لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره ، وتعجيله ، وستره . وليس الاستعظام هو المن والأذى فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى ، بل العجب والاستعظام يجرى في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل . أما العلم فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير ، وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل كما ذكرنا في فهم الوجوب ، فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنّة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله ، فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه ، وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه ؟ ! وأما العمل فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمسك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء كهيئة من يطالب برودة دية فيمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كله لله عز وجل ، وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه ، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال عز وجل : فيحفكم تبخلوا .

الوظيفة السابعة : أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه ، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإذا كان المخرج من شبهة فربما لا يكون ملكاله مطلقاً فلا يقع الموقع ، وفي حديث إبان عن أنس بن مالك : « طوبى لعبد أنفق من ماله اكتسبه من غير معصية » . وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد أثر على الله عز وجل غيره . ولو فعل هذا بضيغه وقدم إليه أبدأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل . وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة فليس بعاقل من

يؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى ،
والذى يأكله قضاء وطرفى الحال ، فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك
الادخار ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا
أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَمَنَّوْا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ
تَغْمُضُوا فِيهِ ﴾ (١) ، أى لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض ،
فلا تؤثروا به ربكم .

وفى الخبر : « سبق درهم مائة ألف درهم » . وذلك بأن يخرج الإنسان وهو
من أحل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبدل ، وقد يخرج مائة
ألف درهم مما يكره من ماله فيدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشيء مما
يحببه ، وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا الله ما يكرهون . فقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ
لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحَسَنَى لَا جُرْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ ﴾ (٢) .
الوظيفة الثامنة : أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة ، ولا يكتفى بأن
يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات ، فليراجع
خصوص تلك الصفات وهى ستة :

الأولى : أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة ،
قال — ﷺ : « لَا تَأْكُلْ إِلَّا طَعَامَ تَقَى وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقَى » . وهذا لأن التقى
يستعين به على التقوى فتكون شريكاً له فى طاعته بإعانتك إياه . وقال
— ﷺ : ﴿ أَطْعَمُوا طَعَامَكُمْ الْأَتْقِيَاءَ وَأُولُوا مَعْرُوفِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وفى لفظ
آخر : « أضف إلى طعامك من تحبه فى الله تعالى » . وكان بعض العلماء يؤثر
بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقليل له : « لو عمت بمعروفك جميع الفقراء

فقال : « لا ، هؤلاء قوم همهم لله سبحانه فإذا طرقتهم فاقه تشتت هم أحدهم ، فلأن أردمة واحد إلى الله عز وجل أحب إلي من أن أعطى ألفا من همته الدنيا . فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه وقال : « هذا ولي من أولياء الله تعالى » وقال : « ما سمعت منذ زمان كلاما أحسن من هذا » . ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الخانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال : « اجعله بضاعتك ولا تترك الخانوت ، فإن التجارة لا تضر مثلك » . وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه .

الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة ، فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية ، وكان ابن المبارك يخصص بمعرفة أهل العلم قليل له : « لو عممت » ، فقال : « إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء ، فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم ، فتفريغهم للعلم أفضل .

الصفة الثالثة : أن يكون صادقا في تقواه وعلمه بالتوحيد ، وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطته ، فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه ، وفي وصية لقمان لابنه : ﴿ لا تجعل بينك وبين الله منعما ، واعدد نعمة غيره عليك مغرما ، ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ، ولم يتيقن أن الوسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل ، إذا سلط الله تعالى عليه دواعي الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل في قلبه أن صلاح دينه ودنياه في فعله ، فمهما قوى الباعث أو جب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ، ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذي لا تردد فيه ، والله عز وجل خالق للبواعث ومهيجه ومزيل للضعف والتردد عنها

ومسخر القدر للانتهاض بمقتضى البواعث ، فمن يتقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب .

وتيقن مثل هذا العبد أنفع للمعطى من ثناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل في الأكثر جدواه ، وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تضيع ، وأما الذى يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة . وقد روى أنه — ﷺ — بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول : « احفظ ما يقول » . فلما أخذ قال : « الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ، ولا يضيع من شكره » ، ثم قال : « اللهم إنك لم تنس فلانا — يعنى نفسه — فاجعل فلانا لا ينساك » . يعنى بفلان نفسه ، فأخبر رسول الله — ﷺ — بذلك فسر ، وقال — ﷺ — : « علمت أنه يقول ذلك » . فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده .

وقال — ﷺ — لرجل : « تب » . فقال : « أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد » . فقال — ﷺ — : « عرف الحق لأهله » ، ولما نزلت براءة عائشة رضى الله عنها فى قصة الإفك قال أبو بكر رضى الله عنه : « قومى فقبلى رأس رسول الله — ﷺ — » . فقالت : « لا والله لا أفعل ولا أحمد إلا الله » . فقال — ﷺ — : « دعها يا أبا بكر » ، وفى لفظ آخر أنها رضى الله عنها قالت لأبى بكر رضى الله عنه : « بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » . فلم ينكر رسول الله — ﷺ — عليها ذلك ، مع أن الوحي وصل إليها على لسان رسول الله — ﷺ — .

ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين ، قال الله تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه

إذا هم يستبشرون»^(١). ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث أنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشر الخفى سره ، فليثق الله سبحانه في تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه .

الصفة الرابعة : أن يكون مستقرا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى ، أو أن يكون من أهل المروءة ممن ذهب نعمته وبقيت عادته ، فهو يتعيش في جلباب التجميل . قال الله تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾^(٢) أى لا يلحون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم ، أعزة بصبرهم ، وهذا ينبغى أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كل محله ، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجميل ، فتواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال .

الصفة الخامسة : أن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو سبب من الأسباب ، فيوجد فيه معنى قوله عز وجل : « الفقراء الذين أحصروا في سبيل الله »^(٣) ، أى حبسوا في طريق الآخرة بعلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب : « لا يستطيعون ضربا في الأرض »^(٤) لأنهم مقصودوا الجناح مقيدوا الأطراف ، فهذه الأسباب كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها ، وكان — ﷺ — يعطى العطاء على مقدار العيلة . وسئل عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال : « كثرة العيال وقلة المال » .

الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم ، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى . قال على رضى الله عنه :

(١) الزمر ٤٥ (٢) البقرة ٢٧٣

(٣) البقرة ٢٧٣ (٤) البقرة ٢٧٣

«لأن أصل أخا من إخواني بدرهم أحب إليّ من أن أتصدق بعشرين درهما، ولأن أصله بعشرين درهما أحب إليّ من أن أعتق رقبة» .

والأصدقاء وإخوان الخير أيضا يتقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب ، فليراع هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة ، وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى ، ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ، فإن أخذ أجره في الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل ، وتأكيد حب الله عز وجل في قلبه واجتهاده في طاعته ، وهذه الصفات هي التي تقوى في قلبه فتشوقه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثاني ما يعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمة ، فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل ، فإن أصاب حصل الأجران ، وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني ، فهذا يضاعف أجر المصيب في الاجتهاد ههنا وفي سائر المواضع والله أعلم .

وقال الغزالي في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضته : اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا حر مسلم ليس بهاشمي ولا مطلبى ، اتصف صفة الأصناف الثمانية^(١) المذكورين في كتاب الله عز وجل ، ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمي ولا إلى مطلبى . أما الصبى والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما ، فلتذكر صفات الأصناف الثمانية :

الصنف الأول : الفقراء . والفقير هو الذى ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين ،

(١) «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل» .

وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير ، وإن كان معه قميص وليس معه منديل ولا خف ولا سروال ولم تكن قيمة القميص بحيث تفي بجميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير ، لأنه في المال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه ، فلا ينبغي أن يشترط في الفقير أن لا يكون له كسوة سوى ساتر العورة فإن هذا غلو ، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرج منه عن الفقر كونه معتادا للسؤال ، فلا يجعل السؤال كسبا بخلاف ما لو قدر على كسب فإن ذلك يخرج منه عن الفقر ، فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشتري له آلة ، وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير ، وإن كان متفقا ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته ، وإن كان متعبدا بمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب ، لأن الكسب أولى من ذلك . قال عليه السلام : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » . وأراد به السعي في الاكتساب . وقال عمر رضي الله عنه : « كسب في شبهة خير من مسألة » . وإن كان مكتفيا بنفقة أبيه أو تجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب ، فليس بفقير .

الصنف الثاني : المساكين . والمساكين هو الذي لا يفي دخله بخرجه ، فقد يملك ألف درهم وهو مسكين ، وقد لا يملك إلا فأسا وحبالا وهو غني . والدورة التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين ، وكذا أثاث البيت أعني ما يحتاج إليه وذلك ما يليق به ، وكذا كتب الفقه لا تخرجه عن المسكنة ، وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه بالكتاب ، فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض ، التعليم والاستفادة والتفرج بالمطالعة ، أما حاجة التفرج فلا تعتبر كافتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع في الآخرة ولا يجري إلا مجرى التفرح والاستئناس ، فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر وتمنع اسم المسكنة ، وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم

والمدرس بأجرة فهذه آتته فلا تباع في الفطرة كأدوات الخياط وسائر المحترفين ، وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة . وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخار كتب طب ليعالج بها نفسه ، أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به ، فإن كان في البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه ، وإن لم يكن فهو محتاج إليه ، ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة ، فينبغي أن يضبط مدة الحاجة ، والأقرب أن يقال ما لا يحتاج إليه في السنة فهو مستغنى عنه ، فإن من فضل من قوت يومه شيء لزمته الفطرة ، فإذا قدرنا القوت باليوم فحاجة أثاث البيت وثياب البدن ينبغي أن تقدر بالسنة ، فلا تباع ثياب الصيف في الشتاء ، والكتب بالثياب والأثاث أشبه ، وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداها ، فإن قال : إحداها أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما . قلنا : اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفع ، وإن كان نسختان من علم واحد إحداها بسيطة والأخرى وجيزة ، فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيط ، وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ في كل واحدة فائدة ليست في الأخرى ، وأمثال هذه الصور لا تنحصر ولم يتعرض له في فن الفقه ، وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبيه بحسن هذا النظر على غيره ، فإن استقصاء هذه الصور غير ممكن ، إذ يتعدى مثل هذا النظر في أثاث البيت في مقدارها وعددها ونوعها ، وفي ثياب البدن وفي الدار وسعتها وضيقها ، وليس لهذه الأمور حدود محدودة ، ولكن الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب في التحديدات بما يراه ويقتحم به فيه خطر الشبهات ، والمتورع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريه إلى ما لا يريه ، والدرجات المتوسطة المشكلة بين الأطراف المتقاربة الجلية كثيرة ولا ينجى منها إلا الاحتياط والله أعلم .

الصنف الثالث : العاملون . وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى

الخليفة والقاضى ، ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوفى والحافظ والنقال . ولا يزداد واحد منهم على أجرة المثل ، فإن فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف ، وإن نقص كمل من مال المصالح .
 الصنف الرابع : المؤلفة قلوبهم على الإسلام . وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون في قومهم ، وفي إعطائهم تفريرهم على الإسلام وترغب نظائرهم وأتباعهم .

الصنف الخامس : المكاتبون . فيدفع إلى السيد سهم المكاتب ، وإن دفع إلى المكاتب جاز ؛ ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعد عبدا له .
 الصنف السادس : الغارمون . والغارم هو الذى استقرض فى طاعة أو مباح وهو فقير ، فإن استقرض فى معصية فلا يعطى إلا إذا تاب ، وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنة .
 الصنف السابع : الغزاة . الذين ليس لهم مرسوم فى ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء ، إعانة لهم على الغزو .

الصنف الثامن : ابن السبيل . وهو الذى شخص من بلده ليسافر فى غير معصية أو اجتاز بها ، فيعطى إن كان فقيرا وإن كان له مال يبلى آخر أعطى بقدر بلغته . فإن قلت فيم تعرف هذه الصفات ؟ قلنا أما الفقر والمسكنة فيقول الآخذ ولا يطالب ببينة ولا بحلف ، بل يجوز اعتداده قوله إذا لم يعلم كذبه ، وأما الغزو والسفر فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله إنى غاز ، فإن لم يف به استرد ، أما بقية الأصناف فلا بد فيها من البينة ، فهذه شروط الاستحقاق وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فسيأتى .

وتكلم الغزالي عن وظائف القابض وهى خمس :
 ١ — أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكفى همهم ويجعل

همومه هما واحداً ، فقد تعبد الله عز وجل الخلق بأن يكون همهم واحداً وهو الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر ، وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (١) .

٢ — أن يشكر المعطى ويدعوله ويشنى عليه ، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من جعله الله طريقاً واسطة وذلك لا ينأى رؤية النعمة من الله سبحانه وتعالى ، فقد قال — ﷺ : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

٣ — أن ينظر فيما يأخذه ، فإن لم يكن من حل تورع عنه ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحاً من الحلال .

٤ — أن يتوقى مواقع الريب والاشتباه في مقدار ما يأخذه ، فلا يأخذ إلا المقدار المباح ، ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق . فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين ، وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجره المثل ، وإن أعطى زيادة أبى وامتنع إذ ليس المال للمعطى حتى يتبرع به ، وإن كان مسافراً لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده ، وإن كان غازياً لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو وخاصة من خيل وسلاح ونفقة وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حد ، وكذا زاد السفر ، والورع ترك ما يريه إلى ما لا يريه . وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أولاً إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه هل فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته فيمكنه أن يبدله بما يكفى ويفضل بعض قيمته و كل ذلك إلى اجتهاده ، وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق ، وطرف آخر مقابل

يتحقق معه أنه غير مستحق ، وبينهما أو ساط مشتبهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والاعتماد في هذا على قول الآخذ ظاهرا ، وللمحتاج في تقدير الحاجات مقامات في التضييق والتوسيع ولا تنحصر مراتبه . وميل الورع إلى التضييق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسع وهو ممقوت في الشرع ، ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيرا بل ما يتم كفايته من وقت أخذه إلى سنة ، فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل ، ومن حيث إن رسول الله ﷺ — ادخر لعياله قوت سنة ، فهذا أقرب ما يحد به حد الفقير والمسكين ، ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى ، ومذاهب العلماء في قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة ، فمن مبالغ في التقليل إلى حد أو جب الاقتصاد على قدر قوت يومه وليلته ، وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية أنه — عليه السلام — نهى عن السؤال مع الغنى ، فسئل من غناه فقال — عليه السلام : « غداؤه وعشاؤه » . وقال آخرون يأخذ إلى حد الغنى وحد الغنى نصاب الزكاة ، إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا : له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الغنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ، لما روى ابن مسعود من أنه — عليه السلام — قال : من سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش . فسئل : وما غناه ؟ قال : خمسون درهما أو قيمتها من الذهب . وقيل رواية ليس بقوى . وقال قوم : أربعون . ولما رواه عطاء بن يسار منقطعاً أنه — عليه السلام — قال : « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال » . وبالحق آخرون في التوسيع فقالوا : له أن يأخذ مقدار ما يشتري به ضيعة فيستغنى به طول عمره ، أو يبيع بضاعة ليتجر بها ويستغنى بها طول عمره ، لأن هذا هو الغنى . وقد قال عمر رضي الله عنه : « إذا أعطيتهم فأغنوا » . حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ

بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم ، إلا إذا خرج عن حد الاعتدال . ولما شغل أبو طلحة بيستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة . قال صلى الله عليه وسلم : « اجعله في قرابتك فهو خير لك » . فأعطاه حسان وأبا قتادة ، فحائط من نخل لرجلين كثير مغن . وأعطى عمر رضى الله عنه أعرابيا ناقة معها ظفر لها . فهذا ما حكى فيه .

فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر ، بل التجويز إلى أن يشتري ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضا مائل إلى الإسراف والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة ، فما وراءه فيه خطر ، وفيما دونه فيه تضيق ، وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له ، ثم يقال للورع : استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، كما قاله صلى الله عليه وسلم — إذ الإثم حزاز القلوب ، فإذا وجد القابض في نفسه شيئا مما يأخذ فليتركه في الله ولا يترخص تعللا بالفتوى من علماء الظاهر ، فإذا الفتواهم قيود ومطلقات من الضرورات ، وفيها تخمينات واقتحام شبهات ، والتوق من الشبهات من شيم قوى الدين وعادات سالكي طريق الآخرة .

الخامسة : أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه ، فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه ، فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن ، فلينقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه . وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق ، فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما للجهل وإما لتساهل ، وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم .

وقال الغزالي في بيان فضيلة صدقة التطوع وآداب أخذها وإعطائها : (من الأخبار) قوله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا ولو بثمره ، فإنها تسد من الجائع وتطفىء الخطيئة

كما يطفىء الماء النار . وقال — ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فكلمة طيبة » . وقال — ﷺ : « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا إلا كان الله آخذها بيمينه فيريها كما يرى أحدكم فسيلة حتى تبلغ التمرة مثل أحد » . وقال — ﷺ : « لأبى الدرداء : « إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف » . وقال — ﷺ : « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته » . وقال — ﷺ : « كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » . وقال — ﷺ : « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر » . وقال — ﷺ : « صدقة السر تطفىء غضب الرب عز وجل » وقال — ﷺ : « ما الذى أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة » ولعل المراد به الذى يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين ، فيكون مساويا للمعطى الذى يقصد بإعطائه عمارة دينه .

وسئل رسول الله — ﷺ : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » . وقد قال — ﷺ : « يوم لأصحابه : « تصدقوا » . فقال رجل : « إن عندى دينار » . قال : « أنفقه على نفسك » . فقال : « إن عندى آخر » . قال : « أنفقه على زوجتك » . قال : « إن عندى آخر » . قال : « أنفقه على خادملك » . قال : « إن عندى آخر » . قال : « أنت أبصر به » . وقال — ﷺ : « لا تحمل الصدقة لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » . وقال : « ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » . وقال — ﷺ : « لو صدق السائل ما أفلح من رده » . وقال عيسى عليه السلام : « من رد سائلا خائبا من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام » . وكان نبينا — ﷺ — لا يكل

خصلتين إلى غيره : كان يضع طهوره بالليل ويجمره ، وكان يناول المسكين بيده ، وقال — ﷺ : « ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، إنما المسكين المتعفف . اقرءوا إن شئتم : « لا يسألون الناس إلحافا » . وقال — ﷺ : « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان في حفظ الله عز وجل ما دامت عليه منه رقعة » .

الإيثار : قال عروة بن الزبير : « لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بخمسين ألفا وإن درعها المرقع » . وقال مجاهد : قوله عز وجل : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » ^(١) . فقال : وهم يشتهونه . وكان عمر يقول : « اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على ذوى الحاجات منا » . وقال عمر ابن عبد العزيز : « الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه » . وقال ابن مسعود : « إن رجلا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط أعماله ، ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة » . وقال لقمان لابنه : « إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة . وقال يحيى بن معاذ : « ما أعرف حبة تزني جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة » . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : « كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة : كتمان المرض ، وكتمان الصدقة ، وكتمان المصائب » . وقال عمر بن الخطاب : « إن الأعمال تباهات فقالت الصدقة : أنا أفضلكن » .

وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول : « سمعت الله يقول : لمن تناول البر حتى تنفقوا مما تحبون . والله يعلم أنى أحب السكر » . وقال النخعي : « إذا كان الشيء لله عز وجل لا يسرني أن يكون فيه عيب » . وقال عبيد الله ابن عمر :

« يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قاط وأعطش ما كانوا قاط وأعرى ما كانوا قاط ، فمن أطعم الله عز وجل أشبعه الله ، ومن سقى الله عز وجل سقاه الله ، ومن كسا الله عز وجل كساه الله . وقال الحسن : « لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقراء فيكم ، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض » . وقال الشعبي : « من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته ، فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه » وقال مالك : « لا نرى بأسا بشرب الموسر من الماء البذي يتصدق به ويسقى في المسجد ، لأنه إنما جعل للعطشان من كان ، لم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص » . ويقال إن الحسن مر به نخاس ومعه جارية فقال النخاس : « أترضى ثمنها الدرهم والدرهمين . قال : لا . قال : فاذهب فإن الله رضى في الحور العين بالفلس والمقمة » .

وقال الغزالي في بيان إخفاء الصدقة وإظهارها : قد اختلف طريق طلاب الإخلاص في ذلك ، فمال قوم إلى أن الإخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل ، ونحن نشير إلى ما في كل واحد من المعاني والآفات ، ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه .

أما الإخفاء ففيه خمسة معان :

الأول : أنه أبقى للستر على الآخذ ، فإن أخذه ظاهرا هتك لستر المروءة ، وكشف عن الحاجة ، وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف .

الثاني : أنه أسلم لقلوب الناس وألستهم ، فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ، ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء ، أو ينسبونه إلى أخذ زيادة . والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر وصياتهم عن هذه الجرائم أولى . وقال أبو أيوب السخيتاني : « إني لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني

حسداً . وقال بعض الزهاد : « ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخواني يقولون : من أين له هذا ؟ » . وعن إبراهيم التيمي أنه رأى عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه : « من أين لك هذا ؟ » فقال : كسانيه أخي خيشمة ، ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته .

الثالث : إعانة المعطى على أسرار العمل ، فإنه فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر ، والإعانة على إتمام المعروف معروف ، والكتان لا يتم إلا باثنين فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى ، ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فردّه إليه ، ودفع إليه آخر شيئاً في السر فقبله ، فقيل له في ذلك فقال : إن هذا عمل بالأدب في خفاء معروفه فقبلته ، وذاك أساء أدهب في عمله فردّته عليه . وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئاً في الملأ فردّه ، فقال له : « لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك ؟ » فقال : « إنك أشرت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ، ولم تقنع بالله عز وجل فردّدت عليك شركك » . وقبل بعض العارفين في السر شيئاً كان رده في العلانية فقيل له في ذلك فقال : « عصيت الله بالجهر فلم أك عوناً لك على المعصية ، وأطلعته بالإخفاء فأعنتك على برك » . وقال الثوري : « لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلت صدقته » .

الرابع : أن في إظهار الأخذ ذلاً وامتناناً ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ في السر ولا يأخذ في العلانية ويقول : « إن في إظهاره إذلالاً للعلم وامتناناً لأهله ، فما كنت بالذي أرفع شيئاً من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله » .

الخامس : الاحتراز عن شبهة الشرقة . قال — ﷺ : « أفضل ما أهدى الرجل إلى أخيه ورقاً وبأن يكون ورقاً أو ذهباً لا يخرج عن كونه هدية . وقال — ﷺ : « أفضل ما أهدى الرجل إلى أخيه ورقاً أو يطعمه خبزاً » . فجعل الورق

(الفضة) هدية بانفراده ، فما يعطى فى الملاء مكروه إلا يرضها جميعهم ولا يخلو عن شبهة ، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة .

أما الإظهار والتحدث ففيه معان أربعة :

الأول : الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس المال والمراعاة .

الثانى : إسقاط الجاه والمنزلة وإظهار العبودية والمسكنة والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : « أظهر الأنخذ على كل حال إن كنت آخذاً ، فإنك لا تخلو عن أحدرجلين : رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك ، فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك ، أو رجل تزداد فى قلبه بإظهارك الصدق ، فذلك الذى يريده أخوك لأنه يزداد ثواباً بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتؤجر أنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه .

الثالث : هو أن العارف لا نظره إلا إلى الله عز وجل والسر والعلانية فى حقه واحدة ، فاختلاف الحال شرك فى التوحيد ، قال بعضهم : « كنا لانعبأ بدعاء من يأخذ فى السر ويرد فى العلانية ، والاتفات للخلق حضروا أم غابوا نقصان فى الحال ، بل ينبغى أن يكون النظر مقصوراً على الواحد الفرد » .

حكى أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين ، فشق على الآخرين ، فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال : « لينفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه أحد » ، فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد ، فإنه رد الدجاجة فسألهم فقالوا : « فعلنا ما أمرنا به الشيخ » . فقال الشيخ للمريد : « مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ » . فقال ذلك المريد : « لم أقدر على مكان لا يراى فيه أحد ، فإن الله يراى فى كل موضع » . فقال الشيخ : « لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل » .

الرابع : أن الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى : « وأما بنعمة ربك

فحدث^(١). والكتمان كفران النعمة. وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل. فقال تعالى: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾^(٢). وقال — ﷺ: «إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن يرى نعمته عليه». وأعطى رجل بعض الصالحين شيئا في السر فرفع به يده وقال: «هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر في أمور الآخرة أفضل»، ولذلك قال بعضهم: «إذا أعطيت في المأثم فخذ ثم اردد في السر». والشكر فيه محث عليه. قال — ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل». والشكر قائم مقام المكافأة، حتى قال — ﷺ: «من أسدى إليكم معروفا فكافوه فإن لم تستطيعوا فأنثوا عليه به خيرا وادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه». ولما قال المهاجرون في الشكر: «يا رسول الله ما رأينا خيرا من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله». فقال — ﷺ: «كل ما شكرتم لهم وأنعم عليهم به فهو مكافأة».

فالآن إذا عرفت هذه المعاني، فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافا في المسألة، بل هو اختلاف حال، فكشف الغطاء في هذا أنا لا نحكم حكما باتا بأن الإخفاء أفضل في كل حال أو الإظهار أفضل، بل يختلف ذلك باختلاف النيات، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص. فينبغي أن يكون المخلص مراقبا لنفسه حتى لا يتدلى بحبل الغرور، ولا يتخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان. والمكر والخداع أغلب في معاني الإخفاء منه في الإظهار، مع أن له دخلا في كل واحد منهما، فأما مدخل الخداع في الإسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من حفظ الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس، ونظر الخلق إليه بعين

الازدراء وإلى المعطى بعين المنعم المحسن . فهذا هو الداء الدفين ويستكن في النفس ، والشيطان بواسطته يظهر معاني الخير حتى يتعلل بالمعاني الخمسة التي ذكرناها . ومعيار كل ذلك ومحكه أمر واحد وهو أن يكون تألمه بانكشاف أخذه الصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله ، فإنه إن كان يبغي صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن ، أو يتقى انتهاك الستر ، أو إعانة المعطى على الأسرار ، أو صيانة العلم عن الابتذال ، فكل ذلك يحصل بانكشاف صدقة أخيه ، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعاني أغاليط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن إذلال العلم محذور من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو ، والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض زيد على الخصوص ، ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ .

وأما جانب الإظهار فميل الطبع إليه من حيث إنه تطيب لقلب المعطى واستحاث له على مثله ، وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين في الشكر حتى يرغبوا في إكرامه وتفقدته ، وهذا داء دفين في الباطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث في معرض السنة ويقول له : الشكر من السنة ، والإخفاء من الرياء . ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ما ذكرناه ، ومعيار ذلك ومحكه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا ينتهي الخير إلى المعطى ولا إلى من يرغب في عطائه ، وبين يدي جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون في إخفائها ، وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفى ولا يشكر . فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعته هو إقامة السنة في الشكر ، والتحدث بالنعمة ، وإلا فهو مغرور . ثم إذا علم أن باعته السنة في

الشكر فلا ينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطى ، فينظر فإن كان هو من يجب
الشكر والنشر فينبغى أن يخفى ولا يشكر ، لأن قضاء حقه أن لا ينصره على
الظلم ، وطلبه الشكر ظلم . وإذا علم من حاله أنه لا يجب الشكر ولا يقصده
فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته ، ولذلك قال — ﷺ — للرجل الذى مدح
بين يديه : « ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح » . مع أنه — ﷺ — كان يثنى على قوم فى
وجوههم لثقتهم وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يزيد فى رغبتهم للخير ، فقال
لواحد : « إنه سيد أهل الوبر » . وقال — ﷺ — فى آخر : « إذا جاءكم كريم قوم
فأكرموه » . وسمع كلام رجل فأعجبه فقال — ﷺ — : « إن من البيان لسحرا » .
وقال — ﷺ — : « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يزداد رغبة فى الخير » ،
وقال — ﷺ — : « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان فى قلبه » . وقال الثورى : « من
عرف نفسه لم يضره مدح الناس » . وقال أيضا ليوסף بن أسباط : « إذا
أوليتك معروفا كنت أنا أسر به منك ، ورأيت فى ذلك نعمة من الله عز وجل
على . واشكر وإلا فلا تشكر » .

ودقائق هذه المعانى ينبغى أن يلحظها من يراعى قلبه فإن إعمال الجوارح مع
إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع . ومثل
هذا العلم هو الذى يقال فيه : إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة ، إذ
بهذا العلم تحيا عبادة العمر ، وبالجهل به تموت عبادة العمر كله وتتعطل . وعلى
الجملة فالأخذ فى الملأ والرد فى السر أحسن المسالك وأسلمها ، فلا ينبغى أن يدفع
بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة بحيث يستوى السر والعلانية وذلك هو
الكبريت الأحمر الذى يتحدث به ولا يرى ، نسأل الله الكريم حسن العون
والتوفيق .

وقال الإمام الغزالى فى بيان الأفضل ، من أخذ الصدقة أو الزكاة : كان إبراهيم

الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل، فإن في أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقا عليهم، ولأنه ربما لا يكمل في أخذه صفة الاستحقاق كما وصف في الكتاب العزيز. وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع. وقال قائلون بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب، ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا، ولأن الزكاة لا منة فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه وتعالى رزقا لعباده المحتاجين، ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعاً، وأخذ الصدقة أخذ بالدين، فإن الغالب أن المتصدق يعطى من يعتقده فيه خيراً، ولأن مرافقة المساكين أدخل في الذل والمسكنة وأبعد من التكبر، إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة في معرض الهدية فلا تتميز عنه، وهذا تنصيص على ذل الآخذ وحاجته. والقول الحق في هذا أن هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية. فإن كان في شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغي أن يأخذ الزكاة، فإذا علم أنه مستحق قطعاً كما إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه في قضائه، فهو مستحق قطعاً، فإذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة، فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة، فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها، ففي ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين. وإن كان المال معرضاً للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير، والأمر فيها يتفاوت، وأخذ الزكاة أشد في كسر النفس وإذلالها في أغلب الأحوال والله أعلم (١).

* * *

(١) انتهى كتاب الزكاة من كتاب إحياء الدين للغزالي .

كانت الدولة قبل الإسلام وبعده مجرد رجل شرطة سلبى كما يقول هيربرت سينسر، فالدولة الإيرانية كانت تفرض ضرائب عقارية وضرائب شخصية، وكانت الضريبة الشخصية تحدد مرة واحدة في السنة. والإمبراطورية الرومانية كانت تعيش على الضرائب، وقد اتبعت نظاما عجيبا يربط بين المقاطعات الغنية والفقيرة، فكانت الأولى تسدد بعض ما على الثانية من ضرائب، فكانت الضرائب في حقيقة الأمر «أجرا ملكيا» ليقوم الملك بحماية الشعب من المجرمين في الداخل والغازين القادمين من الخارج؛ فلم تكن الضرائب سوى نظام سياسى تدخل في الدراسات السياسية أكثر مما تدخل في دراسات الاقتصاد.

وجاء الإسلام بنظام مالى فريد في بابه، فلم يجعلهم الحاكم تكديس الأموال. في بيت المال بل شرع له ما يحقق الخير العام للجميع. فوظيفة المال فيه اجتماعية للناس جميعا حق فيه، فلم تعد الدولة مجرد رجل شرطة سلبى، ولم تعد الضرائب أجرا ملكيا، بل سار الحاكم والمحكوم في مال الله سواء، يأكل الحاكم بالمعروف، ويشكر الغنى الله على أن جعله مستخلفا في ماله، ويعطى للدولة والفقراء والمساكين ما أمر الله به، فأرهف حس المؤمنين، فكان خروج المال من خزائهم أحب إليهم من كسب المال؛ فكسب المال فريضة، وإنفاق المال في وجوهه التي تحقق المصلحة العامة فريضة، وكنز المال محرم، فكان العدل والمساواة والحب النابع من قلوب طهرها الإسلام من الأنانية والأثرة والكبرياء.

نجح الإسلام في أن يجعل أتباعه رقباء على أنفسهم فلم يتهربوا من دفع الزكاة كما يتهرب الممولون من دفع ضرائب الدولة، فأنمحي من نفوسهم الظلم، وقضى على عدم المساواة، وخفقت الأفئدة بمشاعر الأخوة بين الفقراء والأغنياء، وأزيلت الفوارق الاجتماعية بنعمة الله، فلا صراع بين الطبقات، ولا حمامات دم، ولا ظلم طبقة لطبقة، بل محبة منبثقة من قلوب راضية، فدافع الزكاة إنما

يدفع من مال الله الذى آتاه ، وآخذ الزكاة إنما يأخذ حقه من مال الله ، والمعطى والقاطض مبتليان ، فعلى المعطى أن يكون عطاؤه لوجه الله ، وعلى القاطض أن يكون مستحقا لمال الله .

كانت الزكاة محور نظام المالية العامة فى الإسلام ، وهى تختلف عن الضرائب فهى تسمو بالروح وتغمر دافعها بسعادة نفسية لاستجابته لأوامر الله وتطهيرها لأمواله . إنها تقيم صرح البناء الروحى الشاخ للمجتمع الإسلامى ، ذلك الصرح الذى يحا الفقر والعوز من المجتمع ، حتى إنه فى أيام عمر بن عبد العزيز لم تجدد الدولة مستحقا للزكاة فكانت تنفق ما تجمع من مال الأغنياء فى تحرير الرقاب .

فرضت الزكاة للتحكم فى النفس والهوى وحماية المجتمع من آفات الفقر والعوز ، فالغنى يورث الشح والأنانية ويشيع الكراهية بين الناس ، بل وينزل بالمستوى الخلقى لأصحابه ، وخير علاج لذلك أن ينفق الإنسان من مال الله الذى آتاه فى الخير ، فيقطع بذور البخل من نفسه ، ويدرك كراهية الناس له ، فيصبح الأغنياء والفقراء بنعمة الله إخوانا ، فلا إنقسام ولا حقد ولا ثورات هدامة ولا أزمات اقتصادية ، فالزكاة خير منظم لدورة المال .

وإن عجزت الزكاة عن أن تنهض بالتزامات الدولة ومحو الفقر والعوز من المجتمع ، فللدولة الحق فى فرض ضرائب أخرى على الأغنياء تحقيقا للخير العام ، وليس للأغنياء الحق فى أن يتبرموا فما هم إلا مستخلفون فى مال الله ، وأخذ فضول أموالهم إنما هو استجابة لأوامر الله : «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»^(١) . «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو»^(١) . والعفو هو فضل المال ، وواجب الأغنياء أن يردوا وقت الحاجة فضول أموالهم على الفقراء : «لن تنالوا

البر حتى تنفقوا مما تحبون»^(١). وكان عبد الله بن عمر يقول: «في مالك حق سوى الزكاة»، وكان علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يرى أن الله فرض على مال الأغنياء ما يكفي لسد حاجة كل محتاج، ولو وجد في المجتمع جائع أو عار فذلك راجع إلى أن الأغنياء لم ينهضوا بما وجب عليهم.

ويقول ميرزا محمد حسين في كتابه: «الإسلام والاشتراكية»: «... فنجاح الزكاة مرتبط بتهيئة الجو النفسى لحب الخير، والتنفير من الطمع والبخل، ولعل المساواة في درجة إلحاح الإسلام على الصلاة والزكاة تدل على قوة الرابطة النفسية بينهما، هذه الرابطة التي تشبه رابطة الجذور بالثمر.

والزكاة أمر لا روح فيه إن لم تنبع من نفس تهتز بالصلاة وتتخلص من كل آثار الأنانية، والصلاة بدورها لا فائدة منها إن لم تهب نفس المؤمن للاستجابة عن طواعية لما تفرضه المصلحة الحقيقية للمجتمع على الفرد. وإن هذا التفاعل النشيط بين نظام روحي ونظام مادي من نظم المجتمع الإسلامى هو خير مثال على العلاقة العميقة بين الاقتصاد والدين. والدين بدون الاقتصاد كالطفيليات ترتفع على سنادة طويلة من غيرها، والاقتصاد بغير الدين بربرية عارية. والرأسمالية هي القمة في النشاط الاقتصادى الذى لا يخضع للمقاييس الخلقية التي تفرضها الأديان. ولما كان الحافز الخلقى من وراء الزكاة مستمدا من مصدر روحي دائم هو الصلاة، فإن آثارها الاجتماعية والاقتصادية لا بد أن تكون سليمة، كما أنه لا بد أن يكون النظام الاجتماعى الناتج منها نقيا من مساوئ الرأسمالية من ناحية، وغير متورط في روح القسر وفرض أنموذج عام معين على الفرد كما يحدث في المجتمع الشيوعى. وقد كان هذا الانسجام الشامل سببا فيما لاحظته ه. ج. ويلز

من أن : « الإسلام قد خلق مجتمعا أكثر تحررا من القسوة والظلم الاجتماعى فى روسيا أسوأ ما فيه أنه مفروض من الدولة بقوة القانون . ومن هنا فإن إحساس الفرد وملكاته العقلية والخلقية تهبط حتى تصبح مجرد آلات اجتماعية . وليس للفرد حرية الحكم والتصرف باعتباره عنصرا مفكرا يستجيب لنزعات الخير فى نفسه .

ويدعى الشيوعيون أن هذا ليس إخضاع « الفردية الفظة » لخلق الظروف التى تكفل نمو الشخصية الجماعية بمعانيها الكبيرة ، ومن المفهوم أن يفرض على الفرد أن يتنازل عن بعض حريته من أجل مصلحة المجتمع الكبرى ، ولكن هذا التنازل لا بد أن يكون عن طوع واختيار إذا أردنا به أن يحقق ما نرجوه من خير . ويتحقق عنصر الاختيار إذا ما كان الفرد قادرا على تقدير ظروف غيره من الناس ، متأثرا بحب العدالة والرحمة والرفق . وهذه النظرة الإنسانية الشاملة تتأق بال تجديد الروحى لا بإجراء جراحة اجتماعية هى سلاح السوفييت الوحيد لتحقيق الضمان الاجتماعى .

والإسلام — فى كل برامجه للارتقاء بالمجتمع — يفترض أن كل فرد يمثل مركزا فكريا وثقافيا له قيمته ، وله كذلك كرامته الذاتية . ومن ثم فليس من المقبول أن يحرم من الفرص المختلفة لتنمية شخصيته . ووجهة النظر هذه تفترض فى بادئ الأمر أن يكون نشاط الكفايات والطاقات الطبيعية للإنسان نشاطا حراما متناسقا مع نشاط سواه ، ويلقى الإسلام على عاتق الدولة تبعة التخطيط الاجتماعى ، ولكن هذا لا يعنى أنه يؤيد فكرة فرض الانسجام فرضا . والإسلام يغرس فى نفس المرء حب جاره ويتخذ من هذا الحب رابطة اجتماعية قوية . وقد قال — ﷺ : « إن لجارك عليك حقا » .. وحب الجار وما يلقى على المرء من التزام نحوه نواة كل تخطيط اجتماعى فى المجتمع الإسلامى .

النظام الشيوعي للتأمين الاجتماعى نظام طيب من بعض النواحي فحسب ، وقد يكون نظاما ممتازا إذا ما قورن بالفوضى المتفشية فى الجماعات الرأسمالية ، ولكنه أمر تافه إذا ما قورن بالزكاة التى هى نظام يحقق الضمان الاجتماعى دون أن يتجاهل ذاتية الناس . والتخطيط الاجتماعى فى الإسلام يلغى الامتيازات التى تتعارض مع خير الجماعة ، ولكنه لا يلغى حرية الفرد بمختلف مظاهرها إذا لم تتعارض مع الخير العام ، وقد قضى فى روسيا وفى الدول الدكتاتورية على الذاتية الفردية قضاء تاما بعد أن ضغطت ذاتيات الأفراد جميعا لتكون كلا اجتماعيا جامدا لا يتقدم .

جاء فى القرآن العظيم : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ (١) . فلما مات رسول الله ﷺ — وتولى أبو بكر الخلافة من بعده رأى بعض المسلمين ألا يؤدوا إليه الزكاة التى كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ — بحجة أن صلاة رسول الله ﷺ — عليهم كانت سكننا لهم . فقال أبو بكر رضى الله عنه : — الزكاة حق المال . والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها لى رسول الله ﷺ — لقتلتهم على منعها .

وكانت حروب الردة ولم تكن من أجل استرداد الخليفة مكانته ، بل من أجل حق من حقوق الله وركن من أركان الإسلام قرن بالصلاة ، ركن تقوم عليه السياسة المالية فى الدولة الإسلامية ، وترسى عليه أساسات روحية لنظام مادى تحقيقا للخير العام .

كان الناس فى عهد الرسول ﷺ — يسارعون فى الخيرات ويدعون الله رغبا ورهبا وكانوا لله خاشعين ، فكان أناس لا يكتفون بإخراج الزكاة بل كانوا يخرجون عن كل أموالهم أو نصفها ، فلما لحق رسول الله ﷺ — بالرفيق

الأعلى كانت حروب الزكاة بين أبى بكر الصديق والمرتين، ثم جمع الجباة الزكاة وقسمت في وجوهها وتولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبى بكر فكانت الفتوحات وتدقت الأموال على المدينة، فدون عمر الدواوين ولم يقسم بالسوية بين المسلمين كما كان الحال في عهد الرسول — ﷺ — وخليفته الصديق . فعمر وضع الناس على حسب منازلهم في الإسلام ، فالسابقون في الإسلام ميزهم عن الذين تأخر إسلامهم ، ولم يساو بين الذين حاربوا مع الإسلام والذين حاربوا الإسلام . فلما ولى على بن أبى طالب أمر المسلمين سوى بين الجميع . وانتقلت الخلافة في زمن بنى أمية إلى ملك ، فكان الخلفاء يحاولون أن يتبعوا في المال ما جاء في القرآن والسنة واجتهادات الخلفاء الراشدين ، وانقضت الخلافة الأموية وجاء العباسيون ، فلما أصبح هارون الرشيد أمير المؤمنين سأل قاضى القضاء أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبى حنيفة أن يضع له كتابا جامعا يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات ، فوضع أبى يوسف كتاب الخراج وهو أول كتاب يبين موارد الدولة في التاريخ وسبل إنفاقها ، وأول كتاب يهتم بالمالية والاقتصاد قبل أن يهتم آدم سميث بالاقتصاد بأكثر من ألف عام . ولو أنصف الاقتصاديون لقالوا إن أبى يوسف أبى الاقتصاد وأبو المالية العامة . وإن أروع ما كتب للحكام والملوك تلك المقدمة التى قدم بها أبى يوسف كتابه لهارون الرشيد : « ... يا أمير المؤمنين إن الله وله الحمد قد قلّدك أمرا عظيما ، ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب . قلّدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمست وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاهم وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم . وليس يلبث البنيان — إذا أسس على غير التقوى — أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه . فلا تضعين ما قلّدك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة في العمل بإذن الله ... وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر

خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نورا يضيء للرعية ما أظلم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم . وإضاءة نور ولاية الأمر إقامة الحدود ، ورد الحقوق إلى أهلها بالتبثبث والأمر البين ، وإحياء السنن التي سننها القوم الصالحون أعظم موقعا ؛ فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت . وجور الراعي هلاك للرعية ، واستعانت به بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة ، فاستتم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها ، واتمس الزيادة فيها بالشكر عليها ، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » (١) . وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد . والعمل بالمعاصي كفر النعم ، وقل من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفرعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم ، وسلط الله عليهم عدوهم . وإن أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي من عليك بمعرفته فيما ولاك ، ألا يكللك في شيء من أمرك إلى نفسك ، وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه ، فإنه ولي ذلك والمرغوب إليه فيه . واستمر أبو يوسف في كتابة موعظته يسوق أحاديث ترغيب وترهيب ، ثم بدأ كتاب الخراج بباب في قسمة الغنائم قال فيه :

« أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من قسمة الغنائم إذا أصيبت من العدو وكيف يقسم ذلك ، فإن الله تبارك وتعالى قد أنزل بيان ذلك في كتابه ، فقال فيما أنزله على رسوله ﷺ : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ (١) . فهذا والله

أعلم فيما يصيب المسلمون من عساكر أهل الشرك ، وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع ، فإن ذلك الخمس لمن سعى الله عز وجل في كتابه العزيز ، وأربعة أخماسه بين الجند الذين أصابوا ذلك من أهل الديوان وغيرهم ، يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم ، سهمان لفروسه وسهم له ، وللراجل سهم على ما جاء في الأحاديث والآثار ، ولا يفضل الخيل بعضها على بعض لقوله تعالى في كتابه : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ ولقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (١) . والعرب تقول : هذه الخيل وفعلت الخيل . لا يعنون بذلك الفرس دون البرذون ، ولعامة البراذين أقوى من كثير من الخيل وأوفق للفرسان ، ولا يخص منها شيء دون شيء ، ولا يفضل الفرس القوى على الفرس الضعيف ، ولا يفضل الرجل الشجاع التام السلاح على الرجل الجبان الذى لا سلاح معه إلا سيفه .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ — قسم غنائم بدر : للفارس سهمان وللراجل سهم . وقال أبو ذر الغفارى : « شهدت أنا وأخى مع رسول الله ﷺ — حنيناً ومعنا فرسان لنا ، فضرب لنا رسول الله ﷺ — ستة أسهم أربعة لفروسينا وسهمين لنا ، فبعضنا الستة أسهم بيمين بيمين .

وكان الفقيه المقدم أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول : للراجل سهم وللفرس سهم . وقال : لا أفضل بهيمة على رجل مسلم ، ويحتج بأن عاملاً لعمر بن الخطاب قسم في بعض الشام للفرس سهم وللراجل سهم فرفع ذلك إلى عمر فسلمه وأجازه . فكان أبو حنيفة يأخذ بهذا الحديث ويجعل للفرس سهماً وللراجل سهماً . وما جاء من الأحاديث والآثار أن للفرس سهمين وللراجل سهماً أكثر

من ذلك وأوثق والعامه عليه . ليس هذا على وجه التفضيل ولو كان على وجه التفضيل ما كان ينبغي أن يكون للفرس سهم وللرجل سهم ، لأنه قد سوى بهيمة برجل مسلم ، إنما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر وليرغب الناس في ارتباط الخيل في سبيل الله . ألا ترى أن سهم الفرس إنما يرد على صاحب الفرس فلا يكون للفرس دونه ؟ والمتطوع وصاحب الديوان في القسمة سواء . فخذ يا أمير المؤمنين أى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين ، فإن ذلك موسع عليك إن شاء الله تعالى ، ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين . عن الحسن في الرجل يكون في الغزو ومع الأفراس قال : « لا يقسم له من الغنيمة لأكثر من فرسين » .

كان الخمس في عهد رسول الله ﷺ — على خمسة أسهم : ﷺ وللرسول سهم ، ولذى القربى سهم ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم . ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى وقسم على الثلاثة الباقي . ثم قسمه على بن أبى طالب كرم الله وجهه على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان . وقد روى لنا عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال :

— عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيمننا ، ونقضى منه عن مغرنا . فأبيننا إلا أن يسلمه لنا وأبى ذلك علينا .

وكتب الزهرى إلى ابن عباس يسأله عن سهم ذوى القربى لمن هو ؟ فكتب إليه ابن عباس : « كتبت إلى تسألنى عن سهم ذوى القربى لمن هو ؟ وهو لنا وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعانا إلى أن ننكح منه أيمننا ، ونقضى منه عن مغرنا ، ونخدم منه عائلنا ، فأبيننا إلا أن يسلمه لنا وأبى ذلك علينا .

فما كان رأى على كرم الله وجهه في الخمس ؟ كان رأيه فيه رأى أهل بيته ؛

ولكنه لما أصبح أمير المؤمنين كره أن يخالف أبا بكر وعمر . وقد قال على رضى الله عنه : « قلت يا رسول الله إن رأيت أن توليني حقنا في الخمس فأقسمه في حياتك كى لا ينازعنا أحد بعدك فافعل . ففعل فولانيه رسول الله ﷺ — فقسمته في حياته ، ثم ولانيه أبو بكر رضى الله عنه فقسمته في حياته ، ثم ولانيه عمر رضى الله عنه فقسمته في حياته ، حتى إذا كان آخر سنة من سنى عمر فأتاه مال كثير فعزل حقنا ، ثم أرسل إليّ فقال : خذه فأقسمه . فقلت : يا أمير المؤمنين بنا عنه العام غنى وبالمسلمين إليه حاجة ، فرده عليهم تلك السنة ، ثم لم يدعنا إليه أحد بعد عمر حتى قمت مقامى هذا ، فلقينى العباس بن عبد المطلب بعد خروجى من عند عمر رضى الله عنه فقال : يا على لقد حرمتنا الغداة شيئا لا يرد علينا أبدا إلى يوم القيامة .

وقيل : اختلف الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ — في هذين السهمين : سهم الرسول عليه السلام وسهم ذوى القرى ، فقال قوم : سهم الرسول للخليفة من بعده . وقالت طائفة : سهم ذوى القرى لقراة الرسول عليه السلام . فأجمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح . وكان أبو حنيفة رحمه الله وأكثر فقهاء ثنايرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم .

قال أبو يوسف : فعلى هذا تقسم الغنيمة . فلما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع وغير ذلك ، وكذلك كل ما أصيب في المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فإن في ذلك الخمس — في أرض العرب كان أو في أرض العجم — وخمسه الذى يوضع فيه مواضع الصدقات .

وفيما يستخرج من البحر من حلية وعنبر ، فالخمس يوضع في مواضع الغنائم

على ما قال الله عز وجل في كتابه : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

في كل ما أصيب من المعادن في قليل أو كثير الخمس . ولو أن رجلاً أصاب في معدن أقل من وزن مائتي درهم فضة أو أقل من وزن عشرين مثقالاً ذهباً ، فإن فيه الخمس ؛ ليس هذا على موضع الزكاة إنما هو على موضع الغنائم ، وليس في تراب ذلك شيء ، إنما الخمس من الذهب الخالص وفي الفضة الخالصة والحديد والنحاس والرصاص ، ولا يحسب لمن استخرج ذلك من نفقته عليه شيء . وقد تكون النفقة تستغرق ذلك كله فلا يجب إذن فيه خمس عليه ، وفيه الخمس حين يفرغ من تصفيته قليلاً كان أو كثيراً ، ولا يحسب له من نفقته شيء .

وما استخرج من المعادن سوى ذلك من الحجارة مثل الياقوت والفيروزج والكحل والزئبق والكبريت والمغرة فلا خمس في شيء من ذلك ، فإنما ذلك كله بمنزلة الطين والتراب .

ولو أن الذي أصاب شيئاً من الذهب أو الفضة أو الحديد أو الرصاص أو النحاس كان عليه دين فادح لم يبطل ذلك الخمس عنه . ألا ترى لو أن جنداً من الأجناد أصابوا غنيمة من أهل الحرب محسنت ولم ينظر أعليهم دين أم لا ، ولو كان عليهم دين لم يمنع ذلك من الخمس .

وأما الركاز فهو الذهب والفضة الذي خلقه الله عز وجل في الأرض يوم خلقت ، فيه أيضاً الخمس . فمن أصاب كنزاً عادياً في غير ملك أحد — فيه ذهب أو فضة أو ثياب — فإن في ذلك الخمس ، وأربعة أخماس للذي أصابه وهو بمنزلة الغنيمة يغنمها القوم فتحمس وما بقي فلهم .

ولو أن حربياً وجد في دار الإسلام ركازاً وكان قد دخل بأمان ، نزع ذلك كله منه ولا يكون له منه شيء ، وإن كان ذمياً أخذ منه الخمس كما يؤخذ من المسلم

وسلم له أربعة أخماس . وكذلك المكاتب يجد ركازا في دار الإسلام فهو له بعد الخمس ، وكذلك العبد وأم الولد والمدبر .

وإذا وجد المسلم ركازا في دار الحرب ، فإن كان دخل بغير أمان فهو له ولا خمس في ذلك حيثما وجد ، كان في ملك إنسان من أهل الحرب أو لم يكن في ملك إنسان فلا خمس فيه ، لأن المسلمين لم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب . وإن كان إنما دخل بأمان فوجده في ملك إنسان منهم فهو لصاحب الملك ، وإن وجده في غير ملك إنسان منهم فهو للذي وجده .

وقال أبو يوسف في الفیء والخراج : فأما الفیء یا أمیر المؤمنین فهو الخراج عندنا ، خراج الأرض والله أعلم ، لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه : ﴿ وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذی القربی والیتامی والمساکین وابن السبیل کى لا یکون دولة بین الأغنیاء منکم ﴾ (١) . حتى فرغ من هؤلاء ، ثم قال عز وجل : « للفقراء المهاجرین الذین أخرجوا من ديارهم وأموالهم یتبتغون فضلا من الله ورضوانا ینصرون الله ورسوله أولئک هم الصادقون » (٢) . ثم قال تعالى : « والذین تبوءوا الداروالایمان من قبلهم یحبون من هاجر إلیهم ولا یجدون فی صدورهم حاجة مما أوتوا ویؤثرون علی أنفسهم ولو کان بهم خصاصة ومن یوق شح نفسه فأولئک هم المفلحون ﴾ (٣) . ثم قال تعالى : ﴿ والذین جاءوا من بعدهم یقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذین سبقونا بالإیمان ولا تجعل فی قلوبنا غلا للذین آمنوا ربنا إنک رؤوف رحیم ﴾ (٤) . فهذا والله أعلم لمن جاء من بعدهم من المؤمنین إلى يوم القيامة .

(١) الحشر ٧

(٢) الحشر ٨

(٣) الحشر ٩

(٤) الحشر ١٠

وقد سأل بلال وأصحابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام وقالوا :

— قسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر .

فأبى عمر ذلك عليهم وتلا عليهم هذه الآيات وقال :

— قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفىء ، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء ، ولئن بقيت ليلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفىء ودمه في وجهه .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص حين افتتح العراق : « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم مغائهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء . وقد كنت أمرتك أن تدعو من لقيت إلى الإسلام قبل القتال ، فمن أجاب إلى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم وله سهم في الإسلام ، ومن أجاب بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وماله لأهل الإسلام ، لأنهم أحرزوه قبل إسلامه ، فهذا عهدى إليك » .

قال أبو يوسف : وحدثنى غير واحد من علماء أهل المدينة قالوا : لما قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيش العراق من قبل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، شاور أصحاب محمد ﷺ في تدوين الدواوين . وقد كان اتبع رأى أبى بكر في التسوية بين الناس ، فلما فتح العراق شاور الناس في التفضيل ورأى أنه الرأى ، فأشار عليه بذلك من رآه . وشاورهم في قسمة الأرضين التى أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم

— ٢٣٥ —

وما فتحوا ، فقال عمر رضى الله عنه :

— فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت . ما هذا برأى .

فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه :

— فما رأى ؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم .
فقال عمر :

— ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلاً على المسلمين . فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟

فأكثروا على عمر رضى الله عنه وقالوا :

— أتقف ما أفاء الله علينا بأسيا فنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟

فكان عمر رضى الله عنه لا يزيد على أن يقول :

— هذا رأى .

— فاستشر .

فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رضى الله عنهم رأى عمر . فأرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبارهم وأشرفهم ، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

— إني لم أزعجكم إلا لأن تشتتكم في أمانتى فيما حملت من أموركم ، فإني

— ٢٣٦ —

واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هوأى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .

— قل نسمع يا أمير المؤمنين .

— سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما . لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضيهم وعلو جهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فينا للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم .

أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام — كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر — لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدراار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ فقالوا جميعا :

— الرأي رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدتهم . — قد بان لي الأمر ، فمن رجل له جزالة عقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟

فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا :

— تبعته إلى أهم ذلك ، فإن له بصرا وعقلا وتجربة . فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض العراق ، فأدت جباية سواد الكوفة قبل

أن يموت عمر رضى الله تعالى عنه بعام مائة ألف ألف درهم ، والدرهم يومئذ درهم ودانقان ونصف ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المتقال .

وقال أبو يوسف فى كيفية فرض عمر لأصحاب رسول الله ﷺ : قدم على أبى بكر رضى الله عنه مال فقال :

— من كان له عند النبى ﷺ — عدة فليأت .

فجاءه جابر بن عبد الله فقال :

— قال لى رسول الله ﷺ : لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا .

يشير بكفيه : فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه :

— خذ .

فأخذ بكفيه ثم عدّه فوجده خمسمائة ، فقال :

— خذ إليها ألفا .

فأخذ ألفاً ثم أعطى كل إنسان كان رسول الله ﷺ وعده شيئاً ، وبقيت بقية من المال فقسمها بين الناس بالتسوية على الصغير والكبير والحر والمملوك والذكر والأنثى ، فخرج على سبعة دراهم وثلث لكل إنسان . فلما كان العام المقبل جاء مال كثير هو أكثر من ذلك ، فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرين درهما . فجاء ناس من المسلمين فقالوا :

— يا خليفة رسول الله إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، ومن الناس

أناس لهم فضل وسوابق وقدم ، فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم .

— أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفنى بذلك ، وإنما ذلك

شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة .

فلما جاءت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الفتوح وجاءت الأموال

قال :

— إن أبا بكر رضى الله تعالى عنه رأى فى هذا المال رأيا ولى فيه رأى آخر . لا
أجعل من قاتل رسول الله — ﷺ — كمن قاتل معه .
ففرض للمهاجرين والأنصار ممن شهد بدرا خمسة آلاف خمسة آلاف ،
وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدرا أربعة آلاف أربعة
آلاف ، وفرض لأزواج النبى — ﷺ — اثنتى عشر ألفا اثنتى عشر ألفا ، لإصطفية
وجويرية فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف ، فأبتا أن تقبلا فقال لهما :
— إنما فرضت لهن للهجرة .

فقالتا :

— لا . إنما فرضت لهن لمكانهن من رسول الله — ﷺ — وكان لنا مثله .
فعرف ذلك عمر ففرض لهما اثنتى عشر ألفا ، وفرض للعباس عم رسول الله
— ﷺ — اثنتى عشر ألفا ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله
ابن عمر — ابنه — ثلاثة آلاف ، فقال :
— يا أبت لم زدته على ألفا ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبى ، وما كان له
ما لم يكن لى ؟

— إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله — ﷺ — من أبىك ، وكان أسامة
أحب إلى رسول الله منك .

وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف خمسة آلاف ، ألحقهما بأبيهما
لمكانهما من رسول الله — ﷺ . وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين ،
فمر عمر بابن أبى سلمة فقال :
— زيدوه ألفا .

فقال له عمر بن عبد الله بن جحش :

— ٢٣٩ —

— ما كان لأبيه ما لم يكن لأبائنا ، وما كان له ما لم يكن لنا .
 — إني فرضت له بأبيه أى سلمة ألفين ، وزدته بأمه أم سلمة ألفا ، فإن كان لك
 أم مثل أم سلمة زدتك ألفا .
 وفرض لأهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة ، فجاء طلحة بن عبيد الله بأخيه عثمان
 ففرض له ثمانمائة ، فمر به النضر بن أنس فقال عمر :
 — افرضوا له ألفين .
 فقال له طلحة :

— جئتكم بمثله ففرضت له ثمانمائة ، وفرضت لهذا ألفين .
 — إن أباهذا القينى يوم أحد فقال : ما فعل رسول الله ؟ فقلت : ما أراه إلا قد
 قتل ، فسل سيفه وكسر غمده وقال : إن كان رسول الله — ﷺ — قد قتل فإن
 الله حى لا يموت ، فقاتل حتى قتل ، وأبو هذا يرعى الشاة فى مكان كذا وكذا .
 فعمل عمر بهذا خلافته .
 لما فتح الله على عمر وفتح فارس والروم جمع أناسا من أصحاب رسول الله
 — ﷺ — فقال :
 — ماترون ؟ فإنى أرى أن أجعل عطاء الناس فى كل سنة وأجمع المال فإنه أعظم
 للبركة .

— اصنع ما رأيت ، فإنك إن شاء الله موفق .
 ففرض الأعطيات فدعا باللوح فقال :
 — بمن أبدا ؟
 فقال له عبد الرحمن بن عوف :
 — أبدا بنفسك .
 — لا والله ولكن أبدا ببني هاشم رهط النبى — ﷺ — .

— ٢٤٠ —

فبدأ بالأقرب من رسول الله ﷺ — ففرض للعباس ثم لعللى رضى الله
عنهما ، حتى والى بين خمس قبائل حتى انتهى إلى بنى عدى بن كعب (رهطه) .
وقال أبو يوسف عن أبى هريرة : قدمت من البحرين بخمسائة ألف درهم ،
فأتيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممسياً فقلت :

— يا أمير المؤمنين اقبض هذا المال .

— وكم هو ؟

— خمسمائة ألف درهم .

— وتدرى كم خمسمائة ألف ؟

— نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات .

— أنت ناعس ، اذهب فبت الليلة حتى تصبح .

فلما أصبحت أتيت فقلت :

— اقبض منى هذا المال .

— وكم هو ؟

— خمسمائة ألف درهم .

— أمن طيب هو ؟

— لا أعلم إلا ذاك .

فقال عمر رضى الله عنه :

— أيها الناس إنه قد جاء مال كثير ، فإن شئتم أن نكيل لكم كلنا ، وإن شئتم أن

نعد لكم عددنا ، وإن شئتم أن نزن لكم وزننا لكم .

فقال رجل من القوم :

— يا أمير المؤمنين دون للناس دواوين يعطون عليها .

فاشتهى عمر ذلك فرض للمهاجرين ولأنصار ولأزواج النبى ، فلما أتى

زينب بنت جحش مالها قالت :

— غفر الله لأمرير المؤمنين ، لقد كان في صويجباتي من هو أقوى على قسمة هذا

المال منى .

فقليل لها :

— إن هذا كله لك .

فأمرت به فصب وغطته بثوب ، ثم قالت لبعض من عندها :

— أدخل يدك لآل فلان وآل فلان .

فلم تزل تعطى لآل فلان وآل فلان حتى قالت لها التي تدخل يدها :

— لا أراك تذكريني ولى عليك حق .

— لك ما تحت الثوب .

فكشفت الثوب فإذا ثم خمسة وثمانون درهما . ثم رفعت يدها فقالت :

— اللهم لا يدركني عطاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد عامي هذا أبدا .

فكانت رضى الله عنها أول أزواج النبي لحوقا به عليه السلام .

وذكر لنا أنها كانت أسخى أزواج النبي — ﷺ — وأعطاهن .

وجعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى زيد بن ثابت عطاء الأنصار ، فبدأ

بأهل العوالى ، فبدأ ببني عبد الأشهل ثم الأوس لبعده منازلهم ، ثم الخزرج حتى

كان هو آخر الناس وهم بنو مالك بن النجار وهم حول المسجد .

وحمل أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ألف ألف ، فقال

عمر :

— بكم قدمت ؟

— بألف ألف .

فأعظم ذلك عمر وقال :

— هل تدري ما تقول ؟

— نعم . قدمت بمائة ألف ومائة ألف حتى عد عشر مرات .

— إن كنت صادقا لياتين الراعى نصيبه من هذا المال وهو باليمن ودمه في وجهه .

وقال عمر :

— والله الذى لا إله إلا هو ما أحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ — فالرجل وتلاده فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وعناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الإسلام . والله لمن بقيت لياتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه (يعنى فى طلبه) .

قال عمر : الرجل وحاجته ، قبل أن يقولها ماركس بأكثر من ألف عام .
وأسهب أبو يوسف فى خراج الأرض وقال إن القطائع ما كان منها سيحاحا على العشر ، أى ما كانت تسقى بالمطر أو الترع أو الأنهار ، وما سقى منها بالدلو والغرب والساقية فعلى نصف العشر لمؤنة الدالية والغرب والساقية ، فالإسلام يعطى ثمن الجهد ، وليس على الخضر النى لا بقاء لها ولا على الأعلاف ولا على الحطب عشر ، والذى لا يبقى فى أيدي الناس هو مثل البطيخ والقشاء والخيار والقرع والباذنجان والجزر والفول والرياحين وأشباه هذا فليس فى هذا عشر .
وأما ما يبقى فى أيدي الناس مما يكال بالقفيز ويوزن بالأرطال مثل الحنطة والشعير والذرة والأرز والحبوب والسمسم واللوز والبندق والجوز والفستق والزعفران والزيتون والقرطم والكزبرة والكراويا والكمون والبصل والثوم وما أشبه ذلك ، فإذا أخرجت الأرض من ذلك خمسة أو سق أو أكثر ففيه العشر إذا كان فى

أرض تسقى سيحاً أو سقتها السماء، وإذا كانت في أرض تسقى بغرب أو دالية أو ساقية ففيه نصف العشر، وإذا نقص عن خمسة أو سق لم يكن فيه شيء. وإذا أخرجت الأرض نصف خمسة أو سق حنطة ونصف خمسة أو سق شعير كان فيها العشر، وكذلك لو أخرجت قدر وسق من حنطة وقدر وسق من شعير وقدر وسق من أرز وقدر وسق من تمر وقدر وسق من زبيب، وتم ذلك خمسة أو سق كان في ذلك العشر، وإن نقص عن خمسة أو سق وسق أو أقل أو أكثر لم يكن فيه العشر ما خلا الزعفران، فإنه إذا كان في أرض العشر وأخرج الله منه ما يكون قيمته قيمة خمسة أو سق من أدنى ما تخرج الأرض من الحبوب مما عليه العشر ففيه العشر إذا كان يسقى سيحاً أو تسقيه السماء، وإذا سقى بغرب أو دالية فنصف العشر، وإذا كان في أرض الخراج ففيه الخراج على هذه الصفة، وإذا لم تبلغ قيمة ذلك قيمة خمسة أو سق فلا شيء فيه.

وكان أبو حنيفة يقول: إذا كان الزعفران في أرض العشر ففيه العشر وإن لم تخرج الأرض منه إلا رطلاً واحداً، وإن كان في أرض الخراج ففيه الخراج. والوسق ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ — فالخمس أو سق ثلاثمائة صاع، والصاع خمسة أرتال وثلاث.

وقال أبو يوسف في موات الأرض في الصلح والعنوة وغيرهما: وما سألت يا أمير المؤمنين عن الأرضين التي افتتحت عنوة أو صلح عليها أهلها، وفي بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد، ما الصلاح فيها؟ فإذا لم يكن في هذين الأرضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن في أهل القرية ولا مسر حوا ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم وليست بملك لأحد ولا في يد أحد، فهي موات فمن أحيها أو أحيها منها شيئاً فهي له. ولك أن تقطع ذلك من أحببت ورأيت وتؤجره وتعمل فيه بما ترى أنه صلاح.

وكل من أحيا أرضا مواتا فهي له .
وقد كان أبو حنيفة رحمه الله يقول : من أحيا أرضا مواتا فهي له إذا أجازها الإمام ، ومن أحيا أرضا مواتا بغير إذن الإمام فليست له وللإمام أن يخرجها من يده ويصنع فيها ما رأى من الإجارة والإقطاع وغير ذلك .
وقيل لأبي يوسف : ما ينبغي لأبي حنيفة أن يكون قد قال هذا إلا من شيء ، لأن الحديث قد جاء عن النبي ﷺ : « من أحيا أرضا مواتا فهي له » . فبين لنا ذلك الشيء فإننا نرجو أن تكون قد سمعت منه في هذا شيئا يحتاج به .
قال أبو يوسف : حجته في ذلك أن يقول : الإحياء لا يكون إلا بإذن الإمام ، رأيت رجلين أراد كل واحد منهما أن يختار موضعا واحدا وكل واحد منهما منع صاحبه ، أيهما أحق به ؟ رأيت إن أراد رجل أن يحبس أرضا ميتة بفناء رجل وهو مقرر أن لاحق له فيها فقال : لا تحبها فإنها بفنائى وذلك يضرنى ، فإنما جعل أبو حنيفة إذن الإمام في ذلك هاهنا فصلا بين الناس ، فإذا أذن الإمام في ذلك لإنسان كان له أن يحبسها وكان ذلك الإذن جائزا مستقيما . وإذا منع الإمام أحدا كان ذلك المنع جائزا ، ولم يكن بين الناس اتشاح في الموضع الواحد ولا الضرر فيه مع إذن الإمام ومنعه . وليس ما قال أبو حنيفة يرد الأثر ، إنما رد الأثر أن يقول : وإن أحياها بإذن الإمام فليست له ، فأما من يقول : هي له فهذا اتباع الأثر ، ولكن بإذن الإمام ليكون إذنه فصلا فيما بينهم من خصوماتهم وإضرار بعضهم ببعض .
وقال عمر بن الخطاب على المنبر : « من أحيا أرضا ميتة فهي له ، وليس لمحتجر بعد ثلاث سنين » . وذلك لأن رجلا كانوا يحتجرون من الأرض ما لا يعلمون . وقال أبو يوسف في حد أرض العشر من أرض الخراج : فأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من حد أرض العشر من حد أرض الخراج ، فكل أرض أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو أرض العجم فهي لهم وهي أرض عشر ، بمنزلة

المدينة حين أسلم عليها أهلها وبمنزلة اليمن . وكذلك كل من لا تقبل منه الجزية ولا يقبل منه إلا الإسلام أو القتل ومن عبدة الأوثان من العرب فأرضهم أرض عشر وإن ظهر عليها الإمام ، لأن رسول الله ﷺ — قد ظهر على أرضين من أرض العرب وتركها فهي أرض عشر حتى الساعة .

وأما دار من دور الأعاجم قد ظهر عليها الإمام وتركها في أيدي أهلها فهي أرض خراج وإن قسمها بين الذين غنموها فهي أرض عشر . ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ظهر على أرض الأعاجم وتركها في أيديهم فهي أرض خراج ، وكل أرض من أراضي الأعاجم صالح عليها أهلها وصاروا ذمة فهي أرض خراج .

وقال أبو يوسف فيما يخرج من البحر : وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر ، فإن فيما يخرج من البحر من الحلية والعنبر الخمس ، فأما غيرهما فلا شيء فيه . وقد كان أبو حنيفة وابن أبي ليلى رحمهما الله يقولان : ليس في شيء من ذلك شيء لأنه بمنزلة السمك ، وأما أنا فإني أرى في ذلك الخمس وأربعة أخماسه لمن أخرجه ، لأنه قد روينا فيه حديثاً عن عمر رضى الله عنه ووافق عليه عبد الله بن عباس ، فاتبعنا الأثر ولم نر خلافاً . واستعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلى بن أمية على البحر ، فكتب إليه في عنبرة وجدها رجل على الساحل يسأله عنها وعما فيها ، فكتب إليه عمر : « إنه سيب من سيب الله . وفيما أخرج الله جل ثناؤه من البحر الخمس » . وقال عبد الله بن عباس : « وذلك رأيي » . وأما العسل والجوز واللوز وأشباه ذلك ، فإن في العسل العشر إذا كان في أرض العشر ، وإذا كان في أرض الخراج فليس فيه شيء ، وإذا كان في المفاوز والجبال على الأشجار أو في الكهوف فلا شيء فيه ، وهو بمنزلة الثمار تكون في الجبال والأودية لا خراج عليها ولا عشر .

كتب أمير الطائف إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أصحاب النحل لا يؤدون إلينا ما كانوا يؤدون إلى النبی ﷺ — ويسألون مع ذلك أن نحملهم أوديتهم ، فكتب إلى برأيك فى ذلك . فكتب إليه عمر : « إن أدوا إليك ما كانوا يؤدونه إلى النبی ﷺ — فاحم أوديتهم ، وإن لم يؤدوا إليك ما كانوا يؤدونه إلى النبی ﷺ — فلا تحم لهم » . وكانوا يؤدون إلى النبی ﷺ — من كل عشر قرب قربة .

وأما اللوز والجوز والبندق والفسق وأشباه ذلك ففيه العشر إذا كان فى أرض العشر ، والخراج إذا كان فى أرض الخراج لأنه يكال .
وليس فى القصب ولا فى الحطب ولا فى الحشيش ولا فى التبن ولا فى السعف عشر ولا خمس ولا خراج .

وأما قصب السكر ففيه العشر إذا كان فى أرض العشر ، والخراج إذا كان فى أرض الخراج ، لأنه ثمر يؤكل .

وقال أبو يوسف فى الصدقات : وسألت يا أمير المؤمنين عما يجب فى الصدقة فى الإبل والبقر والغنم والخيول ، وكيف ينبغي أن يعامل من وجب عليه شئ من الصدقة فى كل صنف من هذه الأصناف ؟ فمر يا أمير المؤمنين العاملين عليها بأخذ الحق وإعطائه من وجب له وعليه ، والعمل فى ذلك بما سنه رسول الله ﷺ — ثم الخلفاء من بعده ، واعلم أنه من سن سنة حسنة كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شئ ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شئ . هكذا روى لنا عن نبينا ﷺ — وأنا أسأل الله أن يجعلك ممن استن بفعله ورضى عمله وأعظم عليه ثوابه ، وأن يعينك على ما ولاك ويحفظ لك ما استرعاك ، وقد ذكرت ما بلغنا أنه أوجب على كل صنف من هذه الأصناف ، وعليه أدركت فقهاءنا ، وهو المجمع

عليه عندنا، وهو أحسن ما سمعنا في ذلك حديثاً عن الزهري عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً في الصدقة فقرنه بسيفه أو قال بوصيته، فلم يخرج حتى قبض — ﷺ — فعمل به أبو بكر حتى هلك، ثم عمل به عمر، قال فكان فيه: « في كل أربعين شاة شاة، إلى مائة وعشرين، فإذا زادت فشاتان إلى مائتين، فإذا زادت فثلاث شياه إلى ثلاثمائة، فإذا زادت ففئ كل مائة شاة شاة، وليس فيها شيء حتى تبلغ المائة، وفي خمس من الإبل شاة، وفي عشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمسة وعشرين بنت مخاض إلى خمس وثلاثين، فإن زادت ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين، فإن زادت ففيها حقة إلى ستين، فإن زادت ففيها جذعة إلى خمسة وسبعين، فإن زادت ففيها بنتا لبون إلى تسعين، فإن زادت ففيها حقتان إلى عشرين ومائة، فإن زادت على مائة وعشرين ففي كل خمسين حقة وفي كل أربعين بنت لبون، ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بالسوية » .

لما بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل ثلاثين من البقر تبيعاً أو تبيعة، ومن كل أربعين مسنة، وقد بلغنا مثل ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه .

وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ: « تجاوزت لكم عن صدقة الخيل والرقيق » .

فأما الإبل والعوامل والبقر العوامل فليس فيها صدقة، لم يأخذ معاذ منها شيئاً، وهو قول علي رضي الله تعالى عنه قال: « والجواميس والبخت بمنزلة الإبل والبقر، وهي كمعز الشاة وضأنها » .

ولا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر منع الصدقة ولا إخراجها من ملكه إلى

ملك جماعة غيره ليفرقها بذلك فتبطل الصدقة منها ، بأن يصير لكل واحد منهم من الإبل والبقر والغنم ما لا يجب فيه الصدقة ، ولا يحتال في إبطال الصدقة بوجه ولا سبب .

ولا ينبغي أن يدخل مال الصدقة في مال الخراج ، لأن الخراج فيء لجميع المسلمين والصدقات لمن سمى الله عز وجل في كتابه : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ﴾ (١) . فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا ، والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم ، وإن كان أقل من الثمن أو أكثر أعطى الوالي منها ما يسعه ويسع عماله من غير سرف ولا تقتير ، وقسمت بقية الصدقات بينهم للفقراء والمساكين سهم ، وللغارمين — وهم الذين لا يقدرّون على قضاء ديونهم — سهم ، وفي أبناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون ، وفي الرقاب سهم ، وسهم في إصلاح طرق المسلمين ، ولا بأس أن تعطى الصدقة في صنف واحد .

وسألت أمير المؤمنين عن بيع السمك في الآجام ومواضع مستنقع الماء ، فلا يجوز بيع السمك في الماء لأنه غرر وهو للذي يصيده ، فإن كان يؤخذ باليد من غير أن يصاد فلا بأس ببيعه . ومثله إذا كان يؤخذ بغير صيد كمثل سمك في حُب (خاوية) ، وإلا فإذا كان لا يؤخذ إلا بصيد فمثله كمثل ظبي في البرية أو طير في السماء ، ولا يجوز بيع ذلك لأنه غرر وهو للذي صاده ، وقد رخص في بيع السمك في الآجام أقوام ، فكان الصواب عندنا والله أعلم في قول من كرهه . قال عمر بن الخطاب : « لا تباعوا السمك في الماء فإنه غرر » . وكتب أبو زناد إلى عمر بن عبد العزيز في بحيرة يجتمع فيها السمك بأرض العراق : « أنؤاجرها ؟ »

فكتب أن افعلوا . وكتب إلى عمر بن عبد العزيز عن بيع صيد الآجام فكتب أن لا بأس به وسماه الحسن .

وتكلم أبو يوسف في إجارة الأرض البيضاء وذات النخل والمزارعة عنده على وجه : منها عارية ليست فيها إجارة ، وهو الرجل يعير أخاه أرضا يزرعها ولا يشترط عليه إجارة فيزرعها المستعير ببذره وبقره ونفقته فالزرع له والخراج على رب الأرض ، فإن كانت من أرض العشر فالعشر على الزارع وبه يقول أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه .

ووجه آخر : تكون الأرض للرجل ، فيدعو الرجل إلى أن يزرعها جميعا والنفقة والبذرة عليهما نصفان ، فهذا مثل الأول الزرع بينهما والعشر في الزرع إن كانت أرض عشر ، وإن كانت أرض خراج فالخراج على رب الأرض . ووجه آخر : إجارة أرض بيضاء بدراهم مسماة سنة أو سنتين ، والأرض البيضاء هي التي تخلو من النخل والشجر فهذا جائز والخراج على رب الأرض في قول أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ، وإن كانت أرض عشر فالعشر على رب الأرض .

وقال أبو يوسف : المزارعة جائزة على شروطها ، والخراج على رب الأرض ، والعشر عليهما جميعا في الزرع ، فهذا الوجه الرابع .

ووجه آخر : أن يكون للرجل أرض وبقر وبذر فيدعو فلاحا فيدخله فيها فيعمل ذلك ويكون له السدس أو السبع . فهذا فاسد في قول أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ومن وافقه ، والزرع في قولهم لرب الأرض ، وللفلح أجر مثله . والخراج على رب الأرض ، والعشر في الطعام .

وهو عند أبي يوسف جائز على ما اشترط عليه على ما جاءت به الآثار ، قال أبو يوسف : ولو أن رجلا دفع إلى رجل رحي ماء يقوم عليها ويؤجرها ويطحن

للناس فيها بالأجر على النصف فهذا فاسد لا يجوز ، وكذلك الرجل يدفع إلى الرجل بيوت قرية أو دار أو دواب أو سفينة يؤجرها ويكتسب عليها فما أخرج الله من شيء فبينهما نصفان فهذا لا يجوز في قول أبي حنيفة وفي قولى ، وليس هذا بمنزلة ما ذكرنا من المعاملة والمزارعة ، للأجير في هذا الوجه الفاسد أجر مثله على مالك ذلك ، وما كان من غلة الرحى والسفينة فهى لصاحبها . وقال أبو يوسف في الجزر : وسألت يا أمير المؤمنين عن الجزائر التى تكون في دجلة والفرات ينضب عنها الماء ، فجاء رجل وهى جزيرة أرض له فحصنها من الماء وزرع فيها ، أو إذا نضب الماء عن جزيرة دجلة أو الفرات فجاء رجل ملاصق الجزيرة بأرض له فحصنها من الماء وزرع فيها فهى له ، وهذا مثل الأرض الموات إذا كان ذلك لا يضر بأحد ، وإن كان يضر أحدا منع من ذلك ولم يترك يحصنها ولا يزرع فيها ويحدث فيها حدثا إلا بإذن الإمام .

وشرح أبو يوسف رأيه فى القنى والآبار والأنهار والشرب ، فقال إن كان النهر الذى أضر بمنازل قوم قديما فإنه يترك على حاله ، وإن كان محدثا من فعل وال أو غيره نظر فى ذلك إلى منفعته وإلى ضرره ، فإن كانت منفعته أكثر ترك على حاله ، وإن كان ضرره أكثر أمر بهدمه وطمه وتسويته بالأرض .

وكل من له عين أو بئر قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقى دابته وبعيره وغنمه منها ، وليس له أن يبيع من ذلك شيئا للشفة والشفة : الشرب لبنى آدم والبهايم والنعم والدواب ، وله أن يمنع السقى للأرض والزرع والتخل والشجر ، وليس لأحد أن يسقى شيئا من ذلك إلا بإذنه ، فإن أذن له فلا بأس بذلك ، وإن باعه ذلك لم يجر البيع ولم يحل للبائع والمشتري لأنه مجهول غرر لا يعرف . وكذلك إذا كان فى مصنعة يجتمع فيها الماء من السيول فلا خير فى بيعه أيضا ، ولو سعى كيلا معلوما أو عدد أيام

معلومة لم يجوز ذلك أيضا للحديث الذى جاء فى ذلك والسنة .
ولا بأس ببيع الماء إذا كان فى الأوعية ، هذا ماء قد أحرز فإذا أحرزه فى وعائه فلا بأس ببيعه . وإن هيا له مصنعة فاستقى فيها بأوعيته حتى جمع فيها ماء كثيرا ثم باع من ذلك فلا بأس إذا وقع فى الأوعية ، فقد أحرزه وقد طاب بيعه ، فإذا كان يجتمع من السيول فلا خير فى بيعه ، وإن كان فى بئر أو عين يزداد ويكثر أو لا يزداد ولا يكثر فلا خير فى بيعه ولو باعه لم يجوز البيع . ومن استقى منه شيئا فهو له ، ولو كان يجوز بيعه ما طاب للذى يستقيه حتى يستطيع نفس صاحبه ، ألا ترى أنه لا يطيب لرجل أن يأخذ ماء من سقاء صاحبه إلا بإذنه وطيب نفسه إلا أن يكون حال ضرورة يخاف فيها على نفسه .

قال — عليه السلام : « المسلمون شركاء فى ثلاث : الماء والكلا والنار » .
وقال — عليه السلام : « لا تمنعوا كلاً ولا ماء ولا نارا ، فإنه مناع للمقوين وقوة للمستضعفين » .

والمسلمون جميعا شركاء فى كل نهر أو واد يستقون منه ويسقون الشفة والخافر والخف ، وليس لأحد أن يمنع ، ولكل قوم شرب أرضهم ونخلهم وشجرهم لا يحبس الماء عن أحد دون أحد ، وليس النهر الأعظم لعامة المسلمين كنهر خاص لقوم ليس لأحد أن يدخل عليهم ، وأصحاب هذا النهر فيه شفعاء لو باع أحدهم أرضا له ، ولهم أن يمنعوا من أن يسقى أحد من نهرهم أرضه أو شجره أو نخله ، وليس النهر العظيم كذلك فإنه يسقى منه من شاء وتمر فيه السفن ، ولا يكونون فيه شفعاء لشركتهم فى شربه .
لو أن رجلا اتخذ مشرعة فى أرضه على شاطئ النهر يستقى منها السقاعون ويأخذ منهم فيها الأجرة ، فإن ذلك لا يجوز ولا يصلح ، لأنه لم يبيعهم شيئا ولم

يؤاجرهم أرضا .

وإن كانت أرض لرجل وأراد المسلمون أن يروا فيها ليستقوا الماء فمنعهم من ذلك ، فإن الإمام ينظر في ذلك ، فإن لم يكن لهم طريق يستقون منه الماء غيره لم يكن له أن يمنعهم ومروا في أرضه ومشرعته بغير أجر ولا كرى ، لأنه لا يستطيع أن يمنع الشقة ؛ وإن كان لهم طريق غير ذلك كان له أن يمنعهم من الممر .

وقال أبو يوسف في الكلا والمروج : ولو أن أهل قرية لهم مروج يرعون فيها ويحتطبون منها قد عرف أنها لهم فهي لهم على حالها يتباعونها ويتوارثونها ويحدثون فيها ما يحدث الرجل في ملكه ، وليس لهم أن يمنعوا الكلا ولا الماء ، ولأصحاب المواشى أن يرعوا في تلك المروج ويستقوا من تلك المياه ، ولا يجوز لأحد أن يسوق ذلك الماء إلى مزرعة له إلا برضى من أهله ، وليس شرب المواشى والشقة كسقى الحرث . وليس لأحد أن يحدث مرجا في ملك غيره ولا يتخذ فيه نهرا ولا يثرا ولا مزرعة إلا بإذن صاحبه ، ولصاحبه أن يحدث ذلك كله ، فإذا أحدثه لم يكن لأحد أن يزرع فيما زرع ولا يحتجزه ، وإذا كان مرجا فصاحبه وغيره فيه سواء مشتركون في كله ومائه .

وليست الآجام كالمرج ، ليس لأحد أن يحتطب من أجمة أحد إلا بإذنه ، فإن فعل ضمن ، وإن صاد فيها شيئا من السمك أو الطير فهو له من قبل أن رب الأجمة لا يملك ذلك . ألا ترى أن رجلا لو صاد في دار رجل أو بستانه شيئا من الوحش أو الطير أن له ذلك ، وليس لصاحب الدار ملك عليه ، وله أن يمنع من دخول داره وبستانه ، فإن دخل بغير إذنه فقد أساء ، وما صاد فهو له أيضا ، وإذا كان السمك قد حظر عليه فإنه كان لا يؤخذ إلا بصيد فالحظور عليه وغير المحظور سواء لا يجوز بيعه حتى يصاد ، وإن كان يؤخذ

باليد بغير صيد فهو لصاحبه الذى حظر عليه ، وإن صاده غيره ضمن الذى يصيده ، وإن باعه صاحبه قبل أن يأخذه فإن بيعه هذا بمنزلة بيع ما أحرزه فى إنائه .

ولو أن صاحب بقر رعى بقره فى أجمة غيره لم يكن له ذلك ، وضمن مارعى وأفسد ، ألا ترى أنى أبيع قصب الأجمة وأدفعها معاملة فى قصبها ؟ هذا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عامل أهل أجمة بُرّس على أربعة آلاف درهم وكتب لهم كتابا فى قطعة أديم . والكلاؤ يباع ولا يدفع معاملة . ولو لم يكن لأهل هذه القرية الذين تكون لهم هذه المروج وفى ملكهم موضع مسرح ومرعى لدوابهم ومواشيهم غير هذه المروج ، كما لأهل كل قرية من قرى السهل والجبل ، فإن لكل قرية من قرى السهل والجبل موضع مسرح ومرعى ومحتطب فى أيديهم ، وينسب إليهم وترعى فيه مواشيهم ودوابهم ويحتطبون منه ، وكانوا متى أذنوا للناس فى رعى تلك المروج والاحتطاب منها وأضر ذلك بهم ومواشيهم ودوابهم كان لهم أن يمنعوا كل من أراد أن يرعى فيها أو يحتطب منها ، وإن كان لهم مرعى وموضع احتطاب حولهم ليس له مالك فإنه لا ينبغى لهم ، ولا يحل لهم أن يمنعوا الاحتطاب والرعى من الناس .

وإذا كان الحطب فى المروج وهى ملك إنسان فليس لأحد أن يحتطب منها إلا بإذنه ، فإن احتطب منها ضمن قيمة ذلك لصاحبه ، فإن لم يكن فى تلك لأحد ملك فلا بأس أن يحتطب منه جميع الناس ، ولا بأس أن يحتطب ما لم يعلم له مالكا ، وكذلك الثمار فى الجبال والمروج والأودية من الشجر ما لم يفرسه الناس ، ولا بأس يأكل من ثمارها ويتزود ما لم يعلم أن ذلك فى ملك إنسان ، وكذلك العسل يوجد فى الجبال والغياض فلا بأس أن يأكله ، وليس العسل فى الجبال مما

لا يكون في ملك إنسان من قبل أن الذي يتخذہ الناس يكون في الكؤارات (١) فما لم يحرز منها فهو مباح كفراخ الصيد من الطير ، ويبيضه يكون في الغياض . ولو أن رجلاً أحرق كلاً في أرضه فذهبت النار فأحرقت مال غيره لم يضمن رب الأرض لأن له أن يوقد في أرضه ، وكذلك لو أحرق حصائد في أرضه كان مثل ذلك . وكذلك صاحب الأجمة يحرق ما فيها من القصب فتحرق النار مال غيره فلا ضمان عليه ، وهما مثل الذي يسقى أرضه فيغرق الماء أرض رجل إلى جنبه أو تنز فليس عليه في ذلك ضمان ، ولا يحل لمسلم أن يعتمد الإضرار لجاره ولا القصد لتغريق أرضه ، ولا لتحريق زرعه بشيء يحدثه في أرض نفسه .

وقال أبو يوسف في تقبيل (٢) السواد واختيارهم الولاة لهم والتقدم إليهم : ورأيت أن لا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد ، فإن المتقبل (المتعاقداً) على توريد قيمة ثابتة محدودة عن الخراج إذا كان في قبالة فضل عن الخراج عسف (ظلم) أهل الخراج وحملهم عليهم ما لا يجب عليهم : وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه . وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية . والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالة ، ولعله أن يستفضل بعد ما يتقبل به فضلاً كثيراً ، وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية ، وضرب لهم شديد ، وإقامته لهم في الشمس ، وتعليق الحجارة في الأعناق ، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذي نهى الله عنه ، إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو ، وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم .

(١) كؤارة النحل : شيء يتخذ للنحل من القضبان أو الطين ضيق الرأس .

(٢) التقبيل : هو الالتزام بعقد بأن يلتزم أحد الولاة بدفع مبلغ معين للخراج ويطلق يده

في الخراج . .

وإنما أكره القبالة لأني لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم ، فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ، ويدعوه فينكسر الخراج ، وليس يبقى على الفساد شيء ، ولن يقل مع الصلاح شيء . إن الله قد نهى عن الفساد ، قال عز وجل : ﴿ وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (١) . وقال : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ (٢) . وإنما هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشتري منهم ، وإظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم . والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذي لا يحل ولا يسهل .

وإن جاء أهل ناحية أو مصر من الأمصار ومعهم رجل من البلد المعروف موسر فقال : أنا أتضمن عن أهل هذه الناحية أو أهل هذا البلد خراجهم — ورضواهم بذلك فقالوا : هذا أخف علينا — نظر في ذلك ، فإن كان صلاحا لأهل هذا البلد والناحية قبل وضمن وأشهد عليه ، وصير معه أميرا من قبل الإمام يوثق بدينه وأمانته ويمر عليه من بيت المال ، فإن أراد ظلم أحد من أهل الخراج أو الزيادة عليه أو تحميله شيئا لا يجب عليه منعه الأمير من ذلك أشد المنع .

وأمر المؤمنين أعلى عينا بما رأى من ذلك ، وما رأى أنه أصلح لأهل الخراج وأوفر على بيت المال عمل عليه من القبالة والولاية بعد الأعذار والتقدم إلى المتقبل والوالى يرفع الظلم عن الرعية ، والوعيد له إن حملهم ما لا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم . فإن فعل ففداه بما أوعد به ليكون ذلك زاجرا وناهيًا لغيره إن شاء الله .

ورأيت (أبقى الله أمير المؤمنين) أن تتخذ قوما من أهل الصلاح والدين

والأمانة فتوليهم الخراج . ومن وليت منهم فليكن فقها عالما مشاور الأهل الرأى عفيفا ، لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف في الله لومة لائم ، ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة ، وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت . تجوز شهادته إن شهد ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم . فإنك إنما تولية جباية الأموال وأخذها من حلها وتجنب ما حرم منها ، يرفع من ذلك ما يشاء ويحتجن منه ما يشاء ؛ فإذا لم يكن عدلا ثقة أمينا فلا يؤتمن على الأموال ، إلى قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج ، إذ ألزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ، ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناحية ولا بعفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ، وقد يجب الاحتياط فيمن يولى شيئا من أمر الخراج والبحث عن مذاهبهم والسؤال عن طرائقهم كما يجب ذلك فيمن أريد للحكم والقضاء .

وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستخفا بهم ، ولكن يلبس لهم جلبابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا أو يحملوا ما لا يجب عليهم ، واللين للمسلم ، والغلظة على الفاجر ، والعدل على أهل الذمة ، وإنصاف المظلوم ، والشدة على الظالم ، والعفو عن الناس ؛ فإن ذلك يدعوهم إلى الطاعة وأن تكون جبايته للخراج كما يرسم له ، وترك الابتداع فيما يعاملهم به ، والمساواة بينهم في مجلسه ووجهه حتى يكون القريب والبعيد والشريف والوضيع عنده في الحق سواء ، وترك اتباع الهوى فإن الله ميز من إتقاه وآثر طاعته وأمره على من سواه . وإني لأرجو إن أمرت بذلك وعلم الله من قبلك إثراك ذلك على غيره ، ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه الله به دونك ، وأن يكتب لك أجرك وما نويت إن شاء الله .

ولتسير مع الوالى الذى وليته ، قوما من الجند من أهل الديوان فى أعناقهم بيعة على النصيح لك ، فإن من نصحك أن لا تظلم رعيتك ، وتأمر بإجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهرا بشهر ، ولا تجرى عليهم من الخراج درهما فيما سواه ، فإن قال أهل الخراج نحن نجرى على ولينا وحده من عندنا لم يقبل ذلك منهم ولم يحملوه ، فإنه قد بلغنى أنه قد يكون فى حاشية العامل والوالى جماعة ؛ منهم من له به حرمة ، ومنهم من له إليه وسيلة ، ليسوا بأبرار ولا صالحين ، ويستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقضى بذلك الذمامات ، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ، ولا ينصفون من يعاملونه ، إنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان أو أموال الرعية ، ثم إنهم يأخذون ذلك فيما بلغنى بالعسف والظلم والتعدي ، ثم لا يزال الوالى ومن معه قد نزل بقرية يأخذ أهلها من نزل به بما لا يقدرون عليه ولا يجب عليهم حتى يكلفوا ذلك فيجحف بهم ، ثم قد بعث رجلا من هؤلاء الذين وصفت لك أنهم معه إلى رجل ممن له عليه الخراج لىأتى به فيأخذ منه الخراج فيقول له : قد جعلت لك أن تأخذ منه كذا وكذا . حتى لقد بلغنى أنه ربما وظف له أكثر مما يطالب به الرجل من الخراج ، فإذا أتاه الموجه إليه قال له : أعطنى جعلى الذى جعله لى الوالى ، فإن جعلى كذا وكذا . فإن لم يعطه ضربه وعسفه وساق البقر والغنم ، ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين حتى يأخذ ذلك منهم ظلما وعدوانا ، وهذا كله ضرر على أهل الخراج ونقص للفقراء مع ما فيه من الإثم ، فمره بحسم هذا وما أشبهه وترك التعرض لمثله ، حتى لا يكون مع الوالى من هؤلاء الذين سميت أحد ، ويكون ما يؤخذ لك من المال من باب حله ولا يوضع إلا فى حقه . وتقدم فى اختيار هؤلاء الجند الذين تصيرهم مع الوالى وليكونوا من صالحى الجند ومن له الفهم واليسر والنعمة منهم إن شاء الله تعالى .

وتقدم في أن يكون حصاد الطعام ودياسه^(١) من الوسط ، ولا يجبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس ، فإذا ما أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوماً واحداً ، فإنه ما لم يحرز في البيادر تذهب به الأكرة (الحراث) والمارة والطير والدواب ، وإنما يدخل ضرر ذلك على الخراج ، فأما على صاحب الطعام فلا لأن صاحب الطعام يأكل منه فيما بلغنى وهو سنبل قبل الحصاد إلى أن يبلغ المقاسمة ، فحبس الطعام في الصحراء والبيادر ضرر على الخراج ، وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداً أخذ في دياسه .

ولا يجبس الطعام إذا صار في البيادر الشهر والشهرين والثلاثة ولا يداس ، فإن في حبسه في البيادر ضرراً على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحراث ، ولا يحرص عليهم ما في البيادر ولا يحرز عليهم حرزاً ثم يؤخذوا بنقائص الحرز ، فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد .

وليس ينبغي للعامل ولا يسعه أن يدعى على أهل الخراج ضياع غلة فيأخذ بذلك السبب أكثر من الشرط ، وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم ولا يكيله عليهم كيل مفراط ، ثم يدعه في البيادر الشهر والشهرين ثم يقاسمهم فيكيله ثانية ، فإن نقص عن الكيل الأول قال : أوفوني وأخذ منهم ما ليس له ، ولكن إذا ديس الطعام ووضع فيه القفيز قاسمهم وأخذ حقه ولا يجبسه ولا يكيل للسلطان كيل بزيهار وللأكار كيل السرد ، بل يكون كيلاً واحداً بين الفريقين سرداً مرسلًا .

ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجره ولا احتقان ولا نزلة ولا حمولة طعام لسلطان ، ولا يُدعى عليهم بنقيصه فتؤخذ منهم ، ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج (رسل البريد) ولا أجور الكيالين

(١) داس الرجل الخنطة دوسا ودياسا مثل الدراس .

ولا مؤنة عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذين وصفنا من المقاسمة ، ولا يؤخذوا بأثمان الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا ، أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت في القطيعة في المقاسمة .

ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجا لدرهم يؤدونها في الخراج ، فإنه بلغنى أن الرجل منهم يأتي بالدرهم ليؤديها في خراجها فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها .

ولا يضر بن رجل في دراهم خراج ولا يقام على رجله . فإنه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام . ورأيت أن تأمر عمال الخراج إذا أتاهم قوم من أهل خراجهم فذكروا لهم أن في بلادهم أنهارا عادية قديمة وأرضين كثيرة غامرة ، وأنهم إن استخرجوا لهم تلك الأنهار واحتفروها وأجرى الماء فيها عمرت هذه الأرضون الغامرة وزاد في خراجهم ، كتب بذلك إليك فأمرت رجلا من أهل الخير والصلاح يوثق بدينه وأمانته فتوجه في ذلك حتى ينظر فيه ويسأل عنه أهل الخبرة والبصيرة به ، ومن يوثق بدينه وأمانته من أهل ذلك البلد ، ويشاور فيه غير أهل ذلك البلد ممن له بصيرة ومعرفة ، ولا يجر إلى نفسه بذلك منفعة ولا يدفع عنها به مضرة ، فإذا اجتمعوا على أن في ذلك صلاحا وزيادة في الخراج أمرت بحفر تلك الأنهار وجعلت النفقة من بيت المال ، ولا تحمل النفقة على أهل البلد فإنهم إن يعمروا خيرا من أن يخربوا ، وأن يفروا^(١) خير من أن يذهب ما لهم ويعجزوا ، وكل ما فيه مصلحة لأهل الخراج في أرضهم وأنهارهم وطلبوا إصلاح ذلك لهم أجيوا إليه

(١) يفروا من الوفر .

إذا لم يكن فيه ضرر على غيرهم من أهل ناحية أخرى ورستاق^(١) آخر مما حولهم ، فإن كان في ذلك ضرر على غيرهم وذهب بغلاتهم وكسر للخراج لم يجابوا إليه . وإذا احتاج أهل السواد إلى كرى أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ، ولا يحمل كله على أهل الخراج ، وأما الأنهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم وورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء .

فأما البثوق والمسنيات والبريدات^(٢) التي تكون في دجلة والفرات وغيرهما من الأنهار العظام ، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء ، لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين ، فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطب الأرضين من هذا وشبهه ، وإنما يدل الضرر من ذلك على الخراج ، ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله يعمل في ذلك بما يجب عليه لله عرف أمانته وحمد مذهبه ، ولا يولى من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ولمن معه ، أو يدع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرّب منازلهم وقراهم .

قال أبو يوسف : وأنا أرى أن تبعث قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به في البلاد ، وكيف جبوا

(١) الرستاق : (معرب) ويستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم .

(٢) البثوق : جمع بثق وهو ما ينخرقه الماء في جانب النهر . والمسنيات : جمع مسناة وهو

السد يننى في وجه الماء . البريدات : مفاتيح الماء وهي فارسية .

الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤديه بعد العقوبة الموجهة والنكال ، حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به وإلى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل أنه قد أمر به وقد أمر بغيره .

وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجهة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترعوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف وخيانة لك في رعيته واحتجان شيء من الفىء أو خبث طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئاً من أمور رعيته أو تشركه في شيء من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإنها دعوة مجابة .

قال معاذ : « صل ونم واطعم واكسب حلالاً ولا تأثم ولا تموتن إلا وأنت مسلم ، وإياك ودعوات — أو دعوة — المظلوم » .

إن العدل وإنصاف المظلوم وتجنب الظلم مع ما في ذلك من الأجر يزيد به الخراج وتكثر به عمارة البلاد . والبركة مع العدل تكون ، وهى تفقد مع الجور ، والخراج المأخوذ من الجور تنقص البلاد به وتخرب . هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعالى كان يجبى السواد مع عدله في أهل الخراج وإنصافه لهم ورفع الظلم عنهم مائة ألف ألف ، والدرهم إذ ذاك وزنه وزن مثقال . فلو تقربت إلى الله عز وجل يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيته في الشهر أو الشهرين مجلساً واحداً تسمع فيه من المظلوم وتكر على الظالم ، رجوت أن لا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيته ، ولعلك لا تجلس إلا مجلساً أو مجلسين حتى يسير ذلك في الأمصار والمدن فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترئ على الظلم ، ويأمل الضعيف

المقهور جلوسك ونظرك في أمره فيقوى قلبه ويكثر دعاؤه ، فإن لم يمكنك الاستماع في المجلس الذي تجلسه من كل من حضر من المتظلمين نظرت في أمر طائفة منهم في أول مجلس وفي أمر طائفة أخرى في المجلس الثاني وكذلك في المجلس الثالث ، ولا تقدم في ذلك إنسانا على إنسان ، من خرجت قصته أو لا دعى أول ، وكذلك من بعده . مع أنه متى علم العمال والولاة أنك تجلس للنظر في أمور الناس يوما في السنة ليس يوما في الشهر تنهاوا بإذن الله عن الظلم وأنصفوا من أنفسهم ؛ وإني لأرجو لك بذلك أعظم الثواب . إنه من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة . قال ﷺ : من نفس عن مؤمن كربة من نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما في الدنيا ستر الله زلته يوم القيامة . وقال ﷺ : « من بعثنا على عمل فليخ بقليله وبكثيره ، فمن خان خيطا فما سواه فإنما هو غلول يأتي به يوم القيامة » .

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أهل الكوفة يبعثون إليه رجلا من أخيرهم وأصلحهم ، وإلى أهل البصرة كذلك ، وإلى أهل الشام كذلك ، فبعث إليه أهل الكوفة عثمان بن فرقد ، وبعث إليه أهل الشام معن بن يزيد ، وبعث إليه أهل البصرة الحجاج بن علاط ، كلهم سلمييون ، فاستعمل كل واحد منهم على خراج أرضه .

وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : دنست أصحاب رسول الله ﷺ فقال له عمر : يا أبا عبيدة إذا لم أستعن بأهل الدين على سلامة ديني فبمن أستعين ؟ قال : أما إن فعلت فأغنيهم بالعمالة عن الخيانة . يقول : إذا استعملتهم على شيء فأجزل لهم في العطاء والرزق لا يحتاجون . قال عبد الله بن العباس : « بعث إليّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتيته فقال : يا بن عباس ، إن عامل حمص هلك وكان من أهل الخير والخير قليل ، وقد

رجوت أن تكون منهم ف دعوتك لأستعملك عليها وفي نفسي منك شيء أخافه ولم أره منك وأنا أنحشاه عليك . فمارأيك في العمل ؟ قلت : فإنى لا أرى أن أعمل لك عملا حتى تخبرنى بما فى نفسك . قال : وما تريد إلى ذلك ؟ قلت : أريد إن كنت بريئا من مثله عرفت أنى لست من أهله وإن كنت ممن أخشى على نفسى خشيت عليها مثل الذى خشيت على ؛ فقلما رأيته ظننت شيئا إلا جاء عليه الوحي . فقال : يا بن عباس إني أطمع حالك أنك لا تجدنى إلا قريب الجدد ، وإنى خشيت عليك أن تأتى على الفىء الذى هو آت وأنت فى عملك ، فيقال لك هلم إلينا ولا علم إليكم دون غيركم ، إني رأيت رسول الله ﷺ — استعمل الناس وترككم . وقلت : والله لقد رأيت الذى رأيت ، ولم تراه فعل ذلك ؟ قال : والله ما أدرى أصرفكم عن العمل وأرفعكم عنه وأنتم أهل ذلك ، أم خشى أن تعاونوا لمكانكم منه فيتبع العتاب عليكم ولا بد من عقاب ، فقد فرغت لى وفرغت لك فمارأيك ؟ قلت : لا أرى أن أعمل لك . قال : لم ؟ قلت : لأنى إن عملت لك وفى نفسك ما فى نفسك لم أبرح قذاة فى عينك . قال : فأشر على . قلت : أشير عليك أن تستعمل صحيحا منك صحيحا عليك .

وعن أبى هريرة أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه دعا أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إذا لم تعينونى فمن يعيننى ؟ قالوا : نحن نعينك . فقال : يا أبأ هريرة أئت البحرين وهجر أنت العام . قال : فذهبت فجئته فى آخر السنة بغير اثنين فيهما خمسمائة ألف . فقال عمر رضى الله عنه ، ما رأيت مالا يجتمعاقط أكثر من هذا . فيه دعوة مظلوم أو مال يتيم أو أرملة ؟ قلت : لا والله ، بئس والله الرجل أنا إذ أن ذهبت أنت بالمهنا وأنا أذهب بالمؤنة .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل من بقايا أهل الشام قد انقطع إلى الشام يذكر له ما وقع مما ابتلى به من أمر المسلمين وقلة الأعوان على الخير ، ويسأله

المعاونة على ما هو فيه ، فكتب إليه الرجل : بلغنى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما ابتلى به من أمور المسلمين وقلة الأعوان على الخير ، ويطلب منى المعاونة ، واعلم أنك إنما أصبحت فى خلق بال ورسم دارس ، خاف العالم فلم ينطق ، وجهل الجاهل فلم يسأل ، وتسألنى المعاونة فيما أنعم الله على فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

وكان عمر بن الخطاب يجيبى العراق كل سنة مائة ألف ألف ثم يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه من طيب ، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد .

وكتب ميمون بن مهران إلى عمر بن عبد العزيز يشكو شدة الحكم والجبلة ، وكان قاضى الجزيرة وعلى خراجها ، فكتب إليه عمر : إني لم أكلفك ما يعينيك ، اجتن الطيب واقض بما استبان لك من الحق ، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إلى ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا .

وضرب عمر رجلاً فقال له الرجل : إنما كنت أحذر جلين ، رجلاً جهل فعلم أو أخطأ فعفى عنه . فقال له عمر : صدقت ، دونك فامتثل . فعفا الرجل عنه . وضرب عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً ونساء ازدهموا على حوض ، فلقيه على فسأله فقال : إني أخاف أن أكون قد هلكت . فقال على رضى الله عنه : إن كنت ضربتهم على غش وعداوة فقد هلكت . وإن كنت ضربتهم على نصيح وإصلاح فلا بأس . إنما أنت راع . إنما أنت مؤدب .

وكان عمر إذا بعث عماله قال : إني لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثكم أئمة ، فلا تضربوا المسلمين فتذلّوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنّوهم ، ولا تمنعوهم فتظلموهم ، وأدروا القحة المسلمين .

وخطب عمر بن الخطاب الناس فقال : إني والله ما أبعث إليكم عمالاً

ليضر بواأبشاركم ، ولا ليأخذوا من أموالكم ؛ ولكنى أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم . فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرايت إن كان رجل من المسلمين واليا على رعية فأدب بعضهم أنك لتقصه منه ؟ فقال : إى والذى نفسى بيده لأقصنه منه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ — يقص من نفسه . ألا لا تضر بوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوا بهم الغياض فتضيعوهم .

وكتب عمر رضى الله تعالى عنه إلى عماله أن يوافوه بالموسم فوافوه ، فقام فقال : يا أيها الناس إني بعثت عمالي هؤلاء بالحق عليكم ، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دمائكم ولا من أموالكم ، فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم ، فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد فقال : يا أمير المؤمنين عاملك ضربنى مائة سوط . فقال عمر : أتضربه مائة سوط ؟ قم فاستقد منه . فقام إليه عمرو بن العاص فقال له : يا أمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على عمالك كبر عليهم وكانت سنة يأخذ بها من بعدك . فقال عمر : ألا أقيده منه وقد رأيت رسول الله ﷺ — يقيد من نفسه ؟ قم فاستقد . فقال عمرو : دعنا إذا فلنرضه . فقال : دونكم .

فأرضوه بأن اشترت منه بمائتى دينار ، كل سوط بدينارين . وكان عمر رضى الله عنه إذا استعمل رجلا أشهد رهطا من الأنصار وغيرهم واشترط عليه أربعا : أن لا يركب برذونا ، ولا يلبس ثوبا رقيقا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يغلق بابا دون حوائج الناس ولا يتخذ حاجبا . فبينما هو يمشى فى بعض طرق المدينة إذ هتف به رجل : يا عمر أترى هذه الشروط تنجيك من الله تعالى وعاملك عياض بن غنم على مصر وقد لبس الرقيق واتخذ الحاجب ؟

فدعا محمد بن مسلمة ، وكان رسوله إلى العمال ، فبعثه وقال : ائتني به على الحال التي تجده عليها . فأتاه فوجد على بابه حاجبا فإذا عليه قميص رقيق . قال : أجب أمير المؤمنين . فقال : دعني أطرح عليّ قبائي . فقال : لا ، إلا على حالك هذه .

فقدم به عليه . فلما رآه عمر قال : انزع قميصك ، ودعاً بدرعة من صوف وبريضة من غنم وعصا فقال : البس هذه المدرعة وخذ هذه العصا واراع هذه الغنم واشرب واسق من مّربك واحفظ الفضل علينا . أسمعت ؟ قال : نعم والموت خير من هذا . فجعل يرددّها عليه ويردد الموت خير من هذا . فقال عمر : ولم تكره هذا وإنما سمى أبوك غنما لأنه كان يرعى الغنم ؟ أتري يكون عندك خير ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : انزع . ورده إلى عمله فلم يكن له عامل يشبهه . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا بلغه أن عامله لا يعود المريض ولا يدخل عليه الضعيف نزع ، وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعرى أن سوّ بين الناس في مجلسك وجاهك ، حتى لا يياس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع شريف في حيفك .

وخطب عمر رضى الله عنه الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي ﷺ ، وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال : أيها الناس إنه لم يبلغ ذو حق حقه أن يطاع في معصية الله ، وإنى لأجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، ويمنع من الباطل ، وإنما أنا ومالككم كولى اليتيم إن استغنييت استعفت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف . ولست أدع أحدا يظلم أحدا ولا يعتدى عليه ، حتى أضع نعله على الأرض وأضع قدمي على الخلد الآخر حتى يذعن للحق ، ولكم على أيها الناس نحصال أذكرها لكم فخذوني بها ؛ لكم على أن لا أجتبى شيئا من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم

علّى إذا وقع فى يدى أن لا يخرج منى إلا فى حقه ، ولكم علّى أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم ، ولكم علّى أن لا ألقىكم فى المهالك ولا أجركم^(١) فى ثغوركم ، وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير الفراء ، قليل الفقهاء كثير الأمل ، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب . ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتنق الله به وليصبر .
 يأبىها الناس إن الله عظم حقه فوق حق خلقه ، فقال فيما عظم من حقه :
 « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »^(٢) ألا وإلى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم ، فأدروا على المسلمين حقوقهم ، ولا تضربوهم فتذلّوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنّوهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فياكل قلوبهم ضعيفهم ، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم ، ولا تجهلوا عليهم ، وقتلوا بهم الكفار طاعتهم ، فإذا رأيتم بهم كلاله فكفوا عن ذلك فإن ذلك أبلغ فى جهاد عدوكم .

أيها الناس إني أشهدكم على أمراء الأمصار أنى لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس فى دينهم ، ويقسموا عليهم فيهم ، ويحكموا بينهم ، فإن أشكل عليهم شئ رفعوه إلى .

وكان عمر بن الخطاب يقول : لا يصلح هذا الأمر إلا بشدة فى غير تجبر ، ولين فى غير وهن .

وكتب على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى كعب بن مالك وهو عامله : « أما بعد فاستخلف على عملك واخرج فى طائفة من أصحابك تمر بأرض السواد

(١) تجميز الجيش : جمعهم فى الثغور وحبسهم عن العودة إلى أهلهم .

كورة كورة فتسألهم عن أعمالهم وتنظر في سيرتهم ، حتى تمر بمن كان منهم فيما بين دجلة والفرات ، ثم ارجع إلى البهباذات^(١) فتول معونتها واعمل بطاعة الله فيما ولاك منها . واعلم أن الدنيا فانية ، وأن الآخرة آتية ، وأن عمل ابن آدم محفوظ عليه ، وأنك مجزى بما أسلفت ، وقادم على ما قدمت من خير ، فاصنع خيرا تجد خيرا .

وكان على بن أبي طالب كرم الله وجهه إذا بعث سرية ولى أمرها رجلا وأوصاه فقال له : « أوصيك بتقوى الله الذى لا بد لك من لقائه ، وعليك بالذى يقربك إلى الله فإن ما عند الله خلف من الدنيا » .

وكان رباح بن عبيد مع عمر بن عبد العزيز فقال له : إن لى بالعراق ضيعة وولدا ، فائذن لى يا أمير المؤمنين أتعاهدهم ، قال : ليس على ولدك بأس ولا على ضيعتك ضيعة .

فلم يزل به حتى أذن له ، فلما كان يوم ودعه قال : يا أمير المؤمنين حاجتك أوصنى بها . قال : حاجتى أن تسأل عن أهل العراق وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم ؟

فلما قدم العراق سأل الرعية عنهم فأخبر بكل خير عنهم ، فلما قدم على عمر سلم عليه وأخبره بحسن سيرتهم في العراق وثناء الناس عليهم ، فقال عمر بن عبد العزيز : « الحمد لله على ذلك ، لو أخبرتنى عنهم بغير هذا عزلتهم ولم أستعن بهم بعدها أبدا ، إن الراعى مسئول عن رعيته ، فلا بد أن يتعهد رعيته بكل ما ينفعهم الله به ، ويقربه إليه ، فإن من ابتلى بالرعية فقد ابتلى بأمر عظيم .

(١) بهباذ ، اسم لثلاث كور ببغداد من أعمال سقى الفرات منسوبة إلى قباز فيروز والد أنو شروان .

وكتب عدى بن أرطاة — عامل كان لعمر بن عبد العزيز — إليه : « أما بعد فإن
 أنا ساقبلنا لا يؤدون ما عليهم من خراج حتى يمسه شيء من العذاب » . فكتب
 إليه عمر : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر
 كأني جنة لك من عذاب الله ، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله . إذا أتاك
 كتابي هذا فمن أعطاك ما قبله عفوا وإلا فأحلفه ، فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم
 أحب إليّ من أن ألقاه بعذابهم ، والسلام » .

وأقى عمر رجل فقال : يا أمير المؤمنين زرعت زرعاً فمر به جيش من أهل
 الشام فأفسدوه فعوضه عشرة آلاف .

وقال أبو يوسف في الجزية : والجزية واجبة على جميع أهل الذمة من في السواد
 وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان ، من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين
 والسامرة ، ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران خاصة ، وإنما تجب الجزية على
 الرجال منهم دون النساء والصبيان ، على الموسر ثمانية وأربعون درهماً ، وعلى
 الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهماً ،
 يؤخذ ذلك منهم في كل سنة ، وإن جاءوا بعرض قبل منهم من الدواب والمتاع
 وغير ذلك ، ويؤخذ منهم بالقيمة ولا يؤخذ منهم في الجزية ميتة ولا خنزير
 ولا خمر .

وأسهب أبو يوسف فيمن تجب عليه الجزية وكيفية جبايتها والرفق في
 تحصيلها : « فلا يضرب أحد من أهل الجزية في استيذانهم الجزية ، ولا يقاموا في
 الشمس ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكارة ، ولكن يرفق بهم » .
 وقال أبو يوسف في العشور : أما العشور فرأيت أن توليها قوماً من أهل
 الصلاح والدين وتأمرهم أن لا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به ، فلا
 يظلموهم ولا يأخذوا منهم أكثر مما يجب عليهم ، وأن يمتثلوا ما رسمناه لهم ، ثم

تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر بهم ، وهل يجاوزون ما قد أمروا به ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه ، وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك الأمر وأحسن إليهم ، فإنك متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدي لما تأمر به في الرعية ، يزيد المحسن في إحسانه ونصحه ، وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدي ، وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض القيمة ، ثم يؤخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ، من كل ما مر به العاشر وكان للتجارة وبلغ قيمة ذلك مائتي درهم فصاعدا أخذ منه العشر ، وإن كان قيمة ذلك أقل من مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء .

وكذلك إذا بلغت القيمة عشرين مثقالا أخذ منها العشر ، فإن كانت قيمة ذلك أقل لم يؤخذ منها شيء ، وإذا اختلف عليه بذلك مرات كل مرة لا يساوى مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء . وإن أضاف بعض المرات إلى بعض وكانت قيمة ذلك تبلغ ألفا فلا شيء فيه ، ولا يضاف بعض ذلك إلى بعض .

وإذا مر عليه بمائتي درهم بمضروبة ، أو عشرين مثقالا بمضروبة ، أخذ من ذلك ربع العشر من المسلم ، ونصف العشر من الذمي ، والعشر من الحرابي ، ثم لم يؤخذ منها شيء إلى مثل ذلك الوقت من الحول ، وإن مر بها غير مرة .

وكذا إذا مر بمحتاج قد اشتراه للتجارة ، فإن كان المتاع يساوى مائتي درهم أو عشرين مثقالا أخذ منه ، وإن كان لا يساوى وكانت قيمته تنقص عن مائتي درهم أو عشرين مثقالا لم يؤخذ منه شيء ، فأما الحرابي خاصة فإذا أخذ منه العشر ، وعاد ودخل في دار الحرب ثم خرج بعد شهر منذ أخذ منه العشر ، فمر على العاشر فإنه يأخذ منه إذا كان معه ما يساوى مائتي درهم أو عشرين مثقالا ،

من قَبْلَ أنه حيث عاد إلى دار الحرب فقد سقطت عنه أحكام الإسلام، وإن كان معه أقل من مائتي درهم أو عشرين مثقالا لم يؤخذ منه شيء، إنما السنة في المائتي درهم أو عشرين مثقالا، فعلى المسلم في المائتين خمسة دراهم، وعلى الذمي في المائتين عشرة دراهم، وعلى الحرّ في المائتين عشرون درهما، وعلى هذا الحساب الذي وضعت لك يؤخذ في الذهب إذا وجب: على المسلم نصف مثقال، وعلى الذمي مثقال، وعلى الحرّ مثقالان.

والم لا يمكن من مال التجارة ومروا به على العاشر فليس يؤخذ منه شيء، وإذا مر أهل الذمة على العاشر بخمر أو خنازير قوم ذلك على أهل الذمة، يقومه أهل الذمة ثم يؤخذ منهم نصف العشر، وكذلك أهل الحرب إذا مروا بالخنازير والخمور فإن ذلك يُقوم عليهم ثم يؤخذ منهم العشر، وإذا مر المسلم على العاشر بغنم أو بقر أو إبل فقال إن هذه ليست سائمة أحلف على ذلك، فإذا حلف كف عنه. وكذلك كل طعام يمر به عليه فقال: هو من زرعي، وكذلك التمر يمر به فيقول: هو من تمر نخلي، فليس عليه في ذلك عشر، إنما العشر في الذي اشترى للتجارة، وكذلك الذمي، أما الحرّ فلا يقبل منه ذلك.

وإذا مر التاجر على العاشر بمال وبمتاع وقال: قد أديت زكاته. وحلف على ذلك فإن ذلك يقبل منه ويكف عنه. ولا يقبل في هذا من الذمي ولا من الحرّ لأنه لا زكاة عليهما يقولان قد أديناها، ومن مر بمال فادعى أنه مضاربة أو بضاعة لم يعشر بعد أن يحلف على ذلك. وكذلك العبد يمر بمال سيده وبمال نفسه فهو سواء وليس عليه عشر حتى يحضر مولاه، وكذلك المكاتب ليس على ماله العشر.

وإذا مر عليه التاجر بالعنب أو بالرطب أو بالفاكهة الرطبة قد اشتراها للتجارة وهي تساوي مائتي درهم فصاعدا أخذ منه ربع العشر إن كان مسلما.

وإن كان ذميا فنصف العشر، وإن كان حريبا فالعشر، وإن كان قيمة ذلك أقل من مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء. وإن اختلف عليه بذلك مرارا، وكل ذلك لا يساوي مائتي درهم. ولو أضاف بعض المرات إلى بعض فكانت قيمة ذلك إذا جمع تبلغ ألفا فلا زكاة فيه أيضا، ولا ينبغي أن يضاف بعض المرات إلى بعض. وكل ما أخذ من المسلمين من العشور فسيبيله سبيل الصدقة، وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب سبيل الخراج، وكذلك ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا من جزية رعو سهم فإن سبيل ذلك كله سبيل الخراج. ويقسم فيما يقسم فيه الخراج. وليس هو الصدقة، قد حكم الله في الصدقة حكما قد قسمها عليه فهي على ذلك، وحكم في الخمس حكما فهو على ذلك.

قال زياد بن حدير: «أول من بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العشور أنا، فأمرني أن لا أفتش أحدا، وما مر على من شيء أخذت من حساب أربعين درهما واحدا من المسلمين، ومن أهل الذمة من كل عشرين واحدا، ومن لا ذمة له العشر».

وقال أنس بن مالك: «بعثنى عمر رضي الله تعالى عنه على العشور، وكتب لي عهدا أن آخذ من المسلمين مما اختلفوا فيه لتجارهم ربع العشر، ومن أهل الذمة نصف العشر، ومن أهل الحرب العشر».

وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب: «إن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر». فكتب إليه عمر: «خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما، وليس دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، وما زاد فيحسابه».

وكتب أهل نبيج — قوم من أهل الحرب — وراء البحر إلى عمر بن الخطاب:

« دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا » ، فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ — في ذلك ، فأشاروا عليه به ، فكانوا أول من عشر من أهل الحرب .
وبعث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه زياد بن حدير الأسدى على عشور العراق والشام ، وأمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ، فمر عليه رجل من بنى تغلب من نصارى العرب ومعه فرس فقوموها بعشرين ألفا ، فقال حدير : أعطنى الفرس وخذ منى تسعة عشر ألفا أو أمسك الفرس فأعطينى ألفا ، فأعطاه ألفا وأمسك الفرس .

ثم مر عليه راجعا في سنة فقال له : أعطنى ألفا أخرى ، فقال له التغلبى : كلما مررت بك تأخذ منى ألفا ؟ قال : نعم . فرجع التغلبى إلى عمر بن الخطاب فوافاه بمكة وهو في بيت فاستأذن عليه فقال : من أنت ؟ فقال : رجل من نصارى العرب . وقص عليه قصته فقال له عمر : كفيت ، ولم يزد على ذلك .
فرجع التغلبى إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى ، فوجد كتاب عمر قد سبق إليه : من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل ، إلا أن تجد فضلا .

وكان رزيق بن حيان على مكس مصر أيام عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه عمر : « انظر من مر عليك من المسلمين فخذ بما ظهر من أموالهم العين ، ومما ظهر من التجارات من كل أربعين دينارا دينارا ، وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينارا . فإن نقصت تلك الدنانير فدعها ولا تأخذ منها شيئا ، وإذا مر عليك أهل الذمة فخذ مما يدرون من تجارتهم من كل عشرين دينارا دينارا فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ، ثم دعها فلا تأخذ منها شيئا . واكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم إلى مثلها من الحول » .

وإذا مر أهل الذمة بالخمر للتجارة أخذ من قيمتها نصف العشر، ولا يقبل قول الذمى في قيمتها حتى يؤتى برجلين من أهل الذمة يقومانها عليه فيأخذ نصف العشر من قيمتها .

قال أبو يوسف : وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من أمر أهل الدعارة والفسق والتلصص إذا أخذوا في شيء من الجنائيات وحسبوا هل يجرى عليهم ما يقوتهم في الحبس ؟ والذي يجرى عليهم من الصدقة أو من غير الصدقة ؟ وما ينبغي أن يعمل به فيهم ؟

لا بد من كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا وجد شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال ، من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك ، وأحب إلّى أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته ، فإنه لا يحل ولا يسهل إلا ذلك .

والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه ، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب ، يترك يموت جوعاً ؟ وإنما حمّله على ما صار إليه القضاء أو الجهل . ولم تزل الخلفاء يا أمير المؤمنين تجرى على أهل السجون ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف ، وأول من فعل ذلك على ابن أبى طالب كرم الله وجهه بالعراق ، ثم فعله معاوية بالشام ، ثم فعل ذلك الخلفاء من بعده .

كان على بن أبى طالب إذا كان في القبيلة أو القوم الرجل الداعر حبسه ، فإن كان له مال أنفق عليه من ماله ، وإن لم يكن له مال أنفق عليه من بيت مال المسلمين وقال : يحبس عنهم شره ، وينفق عليه من بيت ما لهم .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته : « لا تدعن في سجونكم أحدا من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلى قائما ، ولا تبستن في قيد إلا رجلا مطلوباً

بدم ، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم والسلام .
 فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم ، وصير ذلك دراهم تجرى
 عليهم في كل شهر يدفع ذلك إليهم ، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاية
 السجن والقوام والجلالوزة (الشرطة) . وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح
 يثبت أسماء من في السجن ممن تجرى عليهم الصدقة ، وتكون الأسماء عنده يدفع
 ذلك إليهم شهرا بشهر ، يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه في يده ،
 فمن كان منهم قد أطلق وخلي سبيله رد ما يجرى عليه . ويكون للأجراء عشرة
 دراهم في الشهر لكل واحد ، وليس كل من في السجن يحتاج إلى أن يجرى عليه ،
 وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء ، وفي الصيف قميص وإزار . يجرى على
 النساء مثل ذلك ، وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء ، وفي الصيف
 قميص وإزار ومقنعة ، وأغنهم عن الخروج في السلاسل يتصدق عليهم الناس ،
 فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطئوا وقضى الله عليهم ما
 هم فيه فحبسوا ، يخرجون في السلاسل يتصدقون . وما أظن أهل الشرك يفعلون
 هذا بأسارى المسلمين الذين في أيديهم ، فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل
 الإسلام ؟ وإنما صاروا إلى الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد
 الجوع ، فرمما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا . إن ابن آدم لم يعرف من الذنوب ،
 فتفقد أمرهم ، ومر بالإجراء عليهم مثلما فسر لك . ومن مات منهم ولم يكن له
 ولي ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن ، فإنه بلغني وأخبرني به
 الثقات أنه زبما مات منهم الميت الغريب فيمكث في السجن اليوم واليومين حتى
 يستأمر الوالى في دفنه ، وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون
 ويكثرون من حمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة عليه ، فما
 أعظم هذا في الإسلام وأهله .

ولو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس، ولخاف الفساق وأهل الدعارة ولتناهوا عما هم عليه، وإنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر في أمرهم، وإنما هو حبس وليس فيه نظر. فمرولاتك جميعا بالنظر في أمر أهل الحبوس في كل الأيام، فمن كان عليه أدب أدب وأطلق، ومن لم يكن له قضية خلى عنه.

وتقدم إليهم أن لا يسرفوا في الأدب ولا يتجاوزوا بذلك إلى ما لا يحل ولا يسع، فإنه بلغنى أنهم يضربون الرجل — في التهمة وفي الخيانة — الثلاثمائة والمائتين وأكثر وأقل، وهذا مما لا يحل ولا يسع، ظهر المؤمن حمى إلا من حق يجب بفجور أو قذف أو سكر أو تعزير. لأمراته لا يجب فيه حد، وليس يضرب في شيء من ذلك، كما بلغنى أن ولاتك يضربون، وأن رسول الله — ﷺ — قد نهى عن ضرب المصلين.

قال أبو بكر رضى الله عنه: «نهى رسول الله — ﷺ — عن ضرب المصلين». ومعنى هذا الحديث عندنا والله أعلم أنه نهى عن ضربهم من غير أن يجب عليهم حد يستحقون به الضرب. وهذا الذى يأتينى أن ولاتك يفعلونه ليس من الحكم والحدود فى شيء، ليس يجب هذا على جاني الجناية صغيرة ولا كبيرة. من كان منهم أتى ما يجب عليه فيه قود أو حد أو تعزير أقيم عليه ذلك، وكذلك من جرح منهم جراحة فى مثلها قصاص وقامت عليه البينة بذلك قيس جرحه واقتص منه، إلا أن يعفو المجنى عليه. فإن لم يكن يستطاع فى مثلها قصاص حكم عليه بالأرث وعوقب وأطيل حبسه حتى يحدث توبة ثم يخلى عنه، وكذلك من كان منهم سرق ما يجب فيه القطع قطع، إن الأجر فى إقامة الحدود عظيم، والصالح فيه لأهل الأرض كثير.

قال رسول الله — ﷺ —: «حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمحطوا ثلاثين صباحا».

ولا يحل للإمام أن يحاكي في الحد أحدا، ولا تزيله عنه شفاعه، ولا ينبغي له أن يخاف في ذلك لومة لائم إلا أن يكون حدا فيه شبهة، فإذا كان في الحد شبهة درأه لما جاء في ذلك من الآثار عن أصحاب رسول الله ﷺ — والتابعين وقولهم: « ادرعوا الحدود بالشبهات ما استطعتم . والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة »، ولا يحل إقامة حد على من لم يستوجب غير شبهة فيه، ولا يحل لمسلم أن يشفع إلى إمام في حد قد وجب وتبين . فأما قبل أن يرفع ذلك إلى الإمام فقد رخص فيه أكثر الفقهاء، ولم يختلفوا في التوق للشفاعة فيه بعد رفعه إلى الإمام فيما علمنا والله أعلم .

مروا على الزبير بسارق فشفع فيه فقالوا له: « أتشفع في حد؟ » قال: « نعم، ما لم يؤت به الإمام، فإن أتى الإمام فلا عفا الله عنه إن عفا عنه » .
وشفع على رضى الله عنه في سارق، فقبل له: « أتشفع في سارق؟ » قال: نعم، ما لم يبلغ به الإمام، فإذا بلغ به الإمام فلا أعفاه الله إن عفا عنه » .
وقد رأيت غير واحد من فقهاءنا يكره الشفاعه في الحد البتة، ويتوقاه ويحتج في ذلك بما قال ابن عمر: « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد حاد الله في خلقه » .

سرت امرأة من قريش قطيفة من بيت رسول الله ﷺ — فتحدث أن رسول الله ﷺ — عزم على قطع يدها، فأعظم الناس ذلك . فجاءوا النبي ﷺ — يكلمونه وقالوا: نحن نقديها بأربعين أوقية . فقال: « تطهر خير لها » فلما سمعوا لين قول النبي ﷺ — أتوا أسامة فقالوا: « كلم رسول الله ﷺ — فكلمه . فقام رسول الله ﷺ — خطيبا فقال: ما إكثاركم على في حد من حدود الله وقع على أمة من إماء الله؟ والذي نفسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد نزلت بمثل الذى نزلت به لقطع محمد يدها . يا أسامة لا تشفع في حد » .

وتكلم أبو يوسف في الحدود على أهل الجنائيات وعن الأموال التي تصاب مع اللصوص ثم قال : وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين مما بلغك واستقر عندك وكتب به إليك صاحب البريد في يد قاضي البصرة أرضين كثيرة فيها نخل وشجر ومزارع ، وأن غلة ذلك تبلغ شيئا كثيرا في السنة ، وقد صبرها في أيدي وكلاء من قبله يجر على الواحد منهم ألفا وألفين وأكثر وأقل وليس أحد يدعى فيها دعوى ، وأن القاضي ووكلاءه يأكلون ذلك ، فهذا وشبهه من الواجب عليك النظر فيه إذا استقر عندك ، فما كان في يد القاضي مما ليس يدعى فيه أحد دعوى وقد استغله وكلاء القاضي وأخذوا غلة ذلك وطالت به المدة ولم يأت أحد يطلب فيه حقا ، وقد أمسك القاضي عن الكتابة إليك بذلك لترى فيه رأيك . فقاضي سوء صبر هذا وشبهه مأكلة له ولمن معه ، وهو آثم في ذلك . فتقدم إلى ولاتك في محاسبة القاضي على ما جرى على يديه وأيدي وكلائه حتى يخرجوا منه ، ويصير ما كان من غلات ذلك إلى بيت مال المسلمين بعد أن لا يكون لوارث ولا أحد فيها شيء يدعى ، وإذا صبح مثل هذا على القاضي حتى تبين امتناعه من الكتابة إلى الإمام بذلك ، فقاضي سوء غاش لنفسه وللإمام وللمسلمين ، ولا ينبغي أن يستعان به على شيء من أمور المسلمين .

وقد رأيت أن تأمر بإخراج تلك الأرضين من أيدي القضاة الذين يأكلونها ويؤكلونها ، وأن تختار لها رجلا ثقة . أمينا عدلا ، وأن تأمر أن يختار لها الثقات فيتولوا أمرها ، وتأمر بأن تحمل غلاتها إلى بيت مال المسلمين إلى أن يأتي مستحق لشيء منها ، فإن كل من مات من المسلمين لا وارث له فماله لبيت المال ، إلا أن يدعى مدع منها شيئا بميراث يرثه عن بعض من مات وتركها ويأتي على ذلك ببرهان وبينة ، فيعطى منها ما يجب له ، ورأيك بعد ذلك .

وسألت من أي وجه تجرى على القضاة وأعمال الأرزاق ؟ فأجعل — أعز الله

أمير المؤمنين بطاعته — ما يجري على القضاة والولاة من بيت مال المسلمين : من جباية الأرض ، أو من خراج الأرض والجزية لأنهم في عمل المسلمين ، فيجرى عليهم من بيت مالهم ، ويجرى على كل والى مدينة وقاضيا بقدر ما يحتمل ، وكل رجل تصيره في عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ، ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا ، إلا والى الصدقة فإنه يجري عليه منها كما قال الله تعالى : « والعاملين عليها » . فأما الزيادة في أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجري عليهم فذلك إليك ، من رأيت أن تزيده في رزقه منهم زدت ، ومن رأيت أن تحط من رزقه حطت ، أرجو أن يكون ذلك موسعا عليك ، وكل ما رأيت أن الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره ، فإنى أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب ، وأما قولك يجري على القاضى إذا صار إليه ميراث من موارث الخلفاء وبنى هاشم وغيرهم ، من الذى يصير إليه ويوكل من قلبه من يقوم بضياعهم ومالهم فلا . إنما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قima للفقير والغنى ، والصغير والكبير ، ولا يؤخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه موارثه رزقا ، ولم تزل الخلفاء تجرى للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين ، فأما من يوكل بالقيام بتلك الموارث في حفظها والقيام بما يجري عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه لا يجحف بمال الوارث فيذهب به ، ويأكله الوكلاء والأمناء ، ويبقى الوارث هالكا . وما أظن كثيرا من القضاة والله أعلم بىالى بما صنع وكيفما عمل ، ولا بىالى أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث ، إلا من وفقه الله تعالى منهم .

وسألت يا أمير المؤمنين عن رجل الحرب يخرج من بلاده يريد الدخول إلى دار الإسلام فيمر على مسلحة من مسالح المسلمين عن طريق أو غير طريق فيؤخذ فيقول : خرجت وأنا أريد أن أصير إلى بلاد الإسلام أطلب أمانا على نفسى وأهلى

وولدى . أو يقول : إني رسول . يصدق أو لا يصدق ؟ وما الذى ينبغي أن يعمل به فى أمره . فإن كان هذا الرجل الحربى إذا مر بمسلحة مر ممتنعا منهم ، لم يصدق ولم يقبل قوله ، وإن لم يكن ممتنعا منهم ، صدق وقبل قوله ، فإن قال : أنا رسول الملك بعثنى إلى ملك العرب ، وهذا كتابه معى ، وما معى من الدواب والمتاع والريق فهدية إليه فإنه يصدق ويقبل قوله ، إذا كان أمرا معروفا . فإن مثل ما معه لا يكون إلا على مثل ما ذكر من قوله إنها هدية من الملك إلى ملك العرب ، ولا سبيل عليه ، ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والريق والمال ، إلا أن يكون معه شيء له خاصة حملة للتجارة ، فإنه إذا مر به على العاشر عشرة ، ولا يؤخذ من الرسول الذى بعث به ملك الروم ولا من الذى قد أعطى أمانا عشر إلا ما كان معهما من متاع التجارة ، فأما غير ذلك من متاعهم فلا عشر عليهم فيه .

وإذا قال هذا الحربى المأخوذ إنما خرجت من بلادى وجئت مسلما ، فإن هذا لا يصدق وهو فع للمسلمين إن لم يسلم ، والمسلمون فيه بالخيار إن شاءوا قتلوه وإن شاءوا استرقوه ، وإن قدم لتضرب عنقه فقال : آمنت بدينكم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله — ﷺ — فإن هذا إسلام يحقن به دمه ، ويكون ماله فيما ولا يقتل ، قال رسول الله — ﷺ — : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها منعوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . فإذا أراد هذا الرسول رسول الملك أو الذى أعطى الأمان أن يرجع إلى دار الحرب فإنهم لا يتركون أن يخرجوا معهم بسلاح ولا كراع ولا رقيق مما أسر من أهل الحرب ، فإن اشتروا من ذلك شيئا يرد على الذى باعه منهم ، ورد أولئك الثمن إليهم . فإن كان مع هذا الرسول أو الذى أعطى الأمان سلاح جيد فأبدله بسلاح أشر منه ، أو دابة فأبدلها بأشر منها ، فذلك جائز ولا بأس بأن يترك يخرج بذلك . وإن كان أبدله بخير منه رد عليه سلاحه ودابته ، ورد ذلك على صاحبه

الذى أبدله ، ولا ينبغي للإمام أن يترك أحدا من أهل الحرب يدخل بأمان ، أو رسولا من ملكهم يخرج بشيء من الرقيق والسلاح أو بشيء مما يكون قوة لهم على المسلمين . فأما الثياب والمتاع فهذا وما أشبهه لا يمنعون منه . ولا ينبغي أن يبايع الرسول ولا الداخل معه بأمان بشيء من الخير والخنزير ولا الربا وما أشبه ذلك ، لأن حكمه حكم الإسلام وأهله ، ولا يحل أن يبايع في دار الإسلام ما حرم الله تعالى . ولو أن هذا الداخل إلينا بأمان أو الرسول زنى أو سرق فإن بعض فقهاءنا قال : لا أقیم عليه الحد . فإن كان استهلك المتاع في السرقة ضمنته . وقال إنه لم يدخل إلينا ليكون ذميا تجرى عليه أحكامنا ، قال : ولو قذف رجلا حددته ، وكذلك لو شتم رجلا عزرته ، لأن هذا حق من حقوق الناس .

وقال بعضهم : إن سرق قطعته ، وإن زنى حددته ، وكان أحسن ما سمعنا في ذلك والله أعلم أن تأخذه بالحدود كلها حتى تقام عليه . وإن أقام هذا المستأمن فأطال المقام أمر بالخروج ، فإن أقام بعد ذلك حولا وضعت عليهم الجزية ، ولو أن مركبا من مراكب المشركين من أهل الحرب حملته الريح بمن فيه حتى ألقته على ساحل مدينة من مدائن المسلمين ، فأخذوا المركب ومن فيه فقالوا : نحن رسل بعثنا الملك ، وهذا كتابه معنا إلى ملك العرب ، وهذا المتاع الذي في المركب هدية إليه . فينبغي للوالى الذى يأخذهم أن يبعث بهم وما معهم إلى الإمام ، فإن كان الأمر على خلاف ما ذكرنا كانوا فينا لجميع المسلمين وما معهم ، والأمر فيهم إلى الإمام إن رأى أن يستبقهم فعل ، وإن رأى قتلهم فعل ، والإمام في ذلك موسع عليه .

وإن كان أهل المركب إنما قالوا نحن تجار حملنا معنا تجارة لندخلها بلادكم لم يقبل ذلك منهم وصيروا ما معهم فينا للمسلمين ، ولم يقبل قولهم إنا تجار . وسألت يا أمير المؤمنين عن الجواسيس يوجدون وهم من أهل الذمة أو أهل

الحرب أو من المسلمين ، فإن كانوا من أهل الحرب أو من أهل الذمة ممن يؤدى الجزية من اليهود والنصارى والمجوس فاضرب أعناقهم ، وإن كانوا من أهل الإسلام معروفين فأوجعهم عقوبة وأطل حبسهم حتى يحدثوا توبة .
وينبغى للإمام أن تكون له مسالخ على المواضع التى تنفذ إلى بلاد أهل الشرك من الطرق ، فيفتشون من مر بهم من التجار فمن كان معه سلاح أخذ منه ورد ، ومن كان معه رقيق رد ، ومن كانت معه كتب قرئت كتبه ، فما كان من خبر من أنخبار المسلمين قد كتب به أخذ الذى أصيب معه الكتاب وبعث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه ، ولا ينبغى للإمام أن يدع أحدا ممن أسر من أهل الحرب فى أيدى المسلمين يخرج إلى دار الحرب راجعا إلا أن ينادى به ، فأما على غير الفدا فلا .
ولو أن الإمام بعث سرية فأغاروا على قرية من قرى أهل الحرب فأخذوا من فيها من الرجال والنساء والصبيان فأمر بهم الإمام إلى دار الإسلام ، فقسّمهم الإمام واشتراهم من القسم وصاروا له فأعتقهم جميعا ، ثم أرادوا الرجوع إلى دار الحرب — الرجال والنساء — فلا ينبغى أن يتركهم وذاك ، ولا يدع أحدا منهم يعود إلى دار الحرب بعد أن يصيروا فى دار الإسلام إلا على ما وضعت لك من الفداء يفادى بهم .

قال الحسن : « لا يحمل لمسلم أن يحمل إلى عدو المسلمين سلاحا يقوهم به على المسلمين ، ولا كراعا ولا ما يستعان به على السلاح والكراع » .
وقد ترجم كتاب الخراج إلى الألمانية وإلى لغات أخرى ، وعكف عليه رجال الاقتصاد ورجال القانون الأجانب وأخذوا عنه الكثير ، فهل آن الأوان ليدرسه رجال القانون ورجال الاقتصاد عندنا دراسة مقارنة مستفيضة ؟ إنهم لو فعلوا لخرجوا بحقيقة لا تقبل الجدل ، وهى أن أغلب النظريات الاقتصادية المعاصرة ، وأغلب القوانين والشروح الفقهية الأجنبية ، إنما هى بضاعتنا قد ردت إلينا .

المراجع

- القرآن الكريم — الكتاب المقدس — صحيح البخارى
 السيرة النبوية لابن هشام
 إنسان العيون (السيرة الحلبية) لعلى بن برهان الدين الحلبي
 بلوغ الأرب للألوسي
 نهاية الأرب للنويري
 إيران في عهد الساسانيين لكريستينسن — ترجمة د . يحيى الخشاب
 نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشيخ الشبلنجي
 إحياء علوم الدين للغزالي
 شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسي
 حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافي
 محمد رسول الله لمولاي محمد على
 الرسول . حياة محمد ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار
 الإسلام والنظام العالمى الجديد لمولاي محمد على — ترجمة أحمد جوده السحار
 الدين القيم لأبى الأعلى المودودي
 المستشرقون والإسلام للمهندس زكريا هاشم زكريا
 نساء النبي للدكتورة بنت الشاطئ
 عبقرية محمد لعباس محمود العقاد
 الروض الآنف للسهيلى
 تاريخ الطبرى

مشكلة الحرية	للدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون	لعباس محمود العقاد
أسباب النزول	للواحدى
شرح نهج البلاغة	لابن أبى الحديد
الملل والنحل	للشهرستانى
فجر الضمير	جيمس هنرى پرستد — ترجمة الدكتور سليم حسن
تفصيل آيات القرآن الحكيم	جول لابوم — ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي
الوحى الحمدي	السيد محمد رشيد رضا
سلم الواعظين	عبد الله بن الشيخ حسن الفارسي الكوهجي
الحضارة البيزنطية	ستيفن رنسيمن
كتاب الخراج	لأبى يوسف
الإسلام والاشتراكية	ميرزا محمد حسين
النظرية العامة لكينز بين الرأسمالية والاشتراكية	ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب
رأس المال	دكتور جمال الدين محمد سعيد
الربا في الإسلام	كارل ماركس — ترجمة دكتور راشد البراوى
	ترجمة فاروق حلمي

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحسن بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفارى
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة
- سعد بن أبى وقاص
- همزات الشياطين
- أبناء أبى بكر الصديق
- فى قافلة الزمان
- أميرة قرطبة
- النقاب الأزرق
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله

- تأليف : مولاى محمد على
- ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى
- قصص من الكتب المقدسة
- صدى السنين
- حياة الحسين

— ٢٨٦ —

- الشارع الجديد (رواية)
- وكان مساء (قصة)
- أذرع وسيقان (قصة)
- المستنقع (قصة)
- ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)
- الحصاد (رواية)
- جسر الشيطان (قصة)
- النصف الآخر (قصة)
- السهول البيض (رواية)
- أم العروسة (قصة)
- قلعة الأبطال (قصة)
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتي
- الحفيد
- ذكريات سينائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسرائء والمعراج
- القصة من خلال تجاربي الذاتية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- النمر

- الله اكبر
- ثلاثة رجال في حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب في أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

— ٢٨٨ —

السيرة النبوية في ٢٠ جزءاً

- | | |
|-------------------|---------------------------|
| ١١ — الهجرة | ١ — إبراهيم أبو الأنبياء |
| ١٢ — غزوة بدر | ٢ — هاجر المصرية أم العرب |
| ١٣ — غزوة أحد | ٣ — بنو إسماعيل |
| ١٤ — غزوة الخندق | ٤ — العدنانيون |
| ١٥ — صلح الحديبية | ٥ — قريش |
| ١٦ — فتح مكة | ٦ — مولد الرسول |
| ١٧ — غزوة تبوك | ٧ — اليتيم |
| ١٨ — عام الوفود | ٨ — خديجة بنت خويلد |
| ١٩ — حجة الوداع | ٩ — دعوة إبراهيم |
| ٢٠ — وفاة الرسول | ١٠ — عام الحزن |

ثمن الجزء الواحد عادى جنهان

ثمن الجزء الواحد ممتاز ثلاثة جنهات ونصف

ثمن المجموعة المجلدة تجليداً فآخر في ٢٠ مجلداً ٩٥ جنهها

رقم الإيداع : ٥٩٥٩

الترقيم الدولي : ١ — ٣٢٦ — ٣١٦ — ٩٧٧

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي نفعه

وفاته رسول

عبد محمد جوده النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل
انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا
وسيجزي الله الشاكرين ﴾ * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن
الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب
الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ﴿
(قرآن كريم)

عاد رسول الله ﷺ — إلى المدينة بعد أداء فريضة الحج ، وانطلق
أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل وجريير بن عبد الله البجلي إلى اليمن
ومعهم الناس ، وصورة رسول الله ﷺ — تملأ رءوسهم وصوته
يسرى كالنسيم في أغوارهم . كان أبو موسى يسترجع ما كان بينه وبين نبيه
عليه السلام في الحج ، بعثه — صلوات الله وسلامه عليه — إلى أرض
قومه قبل الحج ، فلما علم بخروجه إلى مكة وافاه وهو نازل بالأبطح ،
فقال — ﷺ :

— أحججت يا عبد الله بن قيس ؟

— نعم يا رسول الله .

— كيف قلت ؟

— قلت لبيك إهلالا كاملا لك .

— فهل سقت معك هديا ؟

— لم أسق .

— فطف بالبيت واسع بين الصفا والمروة ثم حل .

وكان أبو موسى الأشعري يصغى إلى رسول الله ﷺ — هادئ

النفس مطمئن الفؤاد ، وما دار بخلده أن ذلك كان آخر لقاء بينه وبين

رسول الله ﷺ — .

وأطرق معاذ بن جبل فراحت الذكريات تتدفق إلى رأسه ؛ إنه يرى نفسه يوم بعثه — ﷺ — وأبا موسى الأشعري إلى اليمن ، بعث كل واحد منهما على خلاف (١) ، واليمن مغلغان ، وراح صوت رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يسرى في عين ذاته :

— يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاولا .

وتذكر معاذ ما قال أبو موسى في ذلك اليوم :

— يا نبي الله إن أرضنا بها شراب من الشعير المزر ، وشراب من العسل البتع (٢) .

— كل مسكر حرام .

ورن في جوف معاذ وصية نبي الله — صلوات الله وسلامه عليه :

— إنك ستأتى قوما من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليكم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأياك وكرائم أموالهم (٣) ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب .

ورأى معاذ نفسه وهو في أرضه . كان قريبا من صاحبه أى موسى فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه ، وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس ،

(١) هو لليمن كالريف للعراق .

(٢) المزر : نبيذ الشعير . والبتع : نبيذ العسل .

(٣) كرائم جمع كريمة وهى النفيسة .

— ٦ —

وإذا رجل عنده قد جمعت يدها إلى عنقه فقال له :

— يا عبد الله بن قيس ، ما هذا ؟

— يهودى أسلم ثم ارتد .

— لا أنزل حتى يقتل .

— إنما جىء به لذلك ، فانزل .

— ما أنزل حتى يقتل .

فأمر به فقتل ، ثم نزل فقال :

— يا عبد الله كيف تقرأ القرآن ؟

— أتفوقه تفوقاً (١) .

— فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟

— أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئاً من النوم ، فأقرأ ما كتب الله

لى فأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى (٢) .

وطاف بذهن معاذ ذلك اليوم الذى قدم فيه اليمن ، إنه صلى بالناس

الصبح فقرأ سورة النساء فلما قال : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ قال

رجل خلفه : قرأت عين أم إبراهيم . واستمرت الأفكار تتثال على رأس

معاذ ولم يخطر له على قلب أن لقاء رسول الله ﷺ — فى موسم الحج

هو آخر لقاء بينهما إلى يوم الدين .

وانطلق جرير بن عبد الله البجلي على ظهر جواده ثابتاً ، وكان لا يثبت

على الخيل . إنه يذكر ذلك اليوم الذى قال له فيه نبي الإسلام عليه

السلام : إلا تريحنى من ذى الخلصة ؟ إنه الكعبة اليمانية ، إنه بيت شعثم

(٢) أى أأزى قراءته ليلاً ونهاراً شيئاً بعد شيء . (٢) أى أطلب الثواب من نومتى .

بيت قومه، وإن قومه أصحاب خيل وهو لا يثبت على الخيل. فذكر ذلك للنبي — ﷺ — فضرب يده على صدره وقال: اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا. فما وقع عن فرس بعد.

ورأى جرير نفسه وهو ينطلق مسرعا في مائة وخمسين راكبا، حتى إذا ما بلغوا الكعبة الجمانية دخلوا على ذى الخلصة فكسروه وقتلوا من وجدوا عنده، ورأى جرير أن يزف البشري إلى نبي الإسلام، عليه السلام فبعث إليه رسولا من أحسن يكنى أبا أرطأة، فجاء رسول جرير إلى المدينة وقال لرسول الله ﷺ:

— والذي بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب. فقال رسول الله — ﷺ —:

— اللهم بارك في خيل أحسن ورجالها.

ولما قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقيم بالأزلام، ف قيل له :

— إن رسول الله — ﷺ — ههنا، فإن قدر عليك ضرب عنقك.

فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال:

— لتكسرنها ولتشهدن أن لا إله إلا الله، أو لأضربن عنقك.

فكسرها وشهد.

كانت اليمن في ملك الحبشة اثنتين وسبعين سنة، إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة، فأقامت الفرس في اليمن. وكان باذان عامل الفرس عليها لما أرسل رسول الله — ﷺ — كتابه إلى كسرى يطلب منه فيه أن يسلم، فكتب كسرى إلى باذان : أنه بلغني أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي، فسر إليه فاستبته، فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله — ﷺ، فكتب إليه رسول الله — ﷺ — إن الله قد وعدني أن يقتل

كسرى فى يوم كذا وكذا من شهر كذا .
فلما أتى باذان الكتاب توقف لينظر ، وقال : إن كان نبيا فسيكون ما
قال . فقتل الله كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله ﷺ — قتل على
يدى ابنه شيرويه . فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من
الفرس إلى رسول الله ﷺ ، وكان ذلك سنة عشر من هجرته عليه
السلام .

وجمع رسول الله ﷺ — لباذان عمل اليمن كلها وأمره على جميع
مخالفها ، فلم يزل عامل رسول الله ﷺ — أيام حياته ، فلم يعزله
عنها ولا عن شيء منها ولا أشرك معه فيها شريكا ، حتى مات باذان ففرق
عملها بين شهر بن باذان وعامر بن شهر الهمداني وعبد الله بن قيس أبى
موسى الأشعري وخالد بن سعيد بن العاص والطاهر بن أبى هالة ويعلى بن
أمية وعمرو بن حزم ، وعلى بلاد حضر موت زياد بن ليلى البياضى
وعكاشة بن ثور . وبعث معاذ بن جبل ، أعلم أصحابه — ﷺ —
بالحلل والحرام ، معلما لأهل البلدين اليمن وحضر موت .

استعمل — عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن
العاص على ما بين نجران ورمع ، وزبيد وعامر بن شهر على همدان ، وعلى
صنعاء ابن باذان ، وعلى عك والأشعرين الطاهر بن أبى هالة ، وعلى
مأرب أبى موسى الأشعري ، وعلى الجند يعلى بن أبى أمية . وما كاد عمال
رسول الله ﷺ — يستقرون باليمن حتى هبت عواصف الفتن ، فاليمن
كانت آخر بلاد العرب إسلاما وأول من ظهر فيها الكذبة والمردون .

وهبت خديجة أم المؤمنين وحاضنة الإسلام لمحمد بن عبد الله قبل النبوة ، زيد بن حارثة فتنهه — ﷺ — وكان يقال له زيد بن محمد . فلما نزل ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ ^(١) قيل له زيد بن حارثة ، وكان حب رسول الله — ﷺ .

وتزوج زيد أم أيمن فكان أسامة بن زيد ثمرة ذلك الزواج ، فأحب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أسامة حبا عظيما ، فكان الحب ابن الحب . وقد أوغر ذلك صدور بعض المنافقين فزعموا أن أسامة ليس ابن زيد ، وبلغ ذلك الحديث المفتري مسامع رسول الله — ﷺ — فأذاه .

وحدث أن مجزز الأسلمي وكان قيافا ممن يستدلون بهيئة الإنسان وشكله على نسبته ، دخل فرأى أسامة بن زيد وزيدا وعليهما قطيفة قد غطيا رأسيهما وبدت أقدامهما ، فنظر إليهما مجزز الأسلمي وقال :

— إن هذه الأقدام بعضها من بعض .
فسر بذلك النبي — صلى الله تعالى عليه وسلم .

(١) الأحزاب ٥ .

— ١٠ —

وشب أسامة في بيت النبوة مع أولاد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وبناته ، فكان من أهل البيت . فلما مرضت رقية بنت رسول الله — ﷺ — وكانت عند عثمان بن عفان ، خلفه عليه السلام عليها مع عثمان وخرج إلى ماء بدر ليعترض قافلة قريش .

وعندما خاض الناس في حديث الإفك ورموا عائشة بالبهتان ، دعا — صلوات الله وسلامه عليه — علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وأسامه بن زيد فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى على عائشة خيرا ثم قال : — يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .

وأما عليّ فإنه قال :

— يا رسول الله إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها تصدقك .

ونزلت براءة عائشة من فوق سبع سموات ولم تنس عائشة قول أسامة ولا قول علي بن أبي طالب .

ويوم حنين يوم انتشر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد . ثبت أسامة بن زيد مع رسول الله — ﷺ — فيمن ثبت من المهاجرين وأهل البيت ، وراح يدافع عن نبيه وحبيبه والعباس بن عبد المطلب يصرخ : — يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السُّمرة .

والأصوات تأتي من كل جانب كأنها البشري : — لبيك ، لبيك .

إن أسامة قد أبلى ذلك اليوم بلاء حسنا ، حتى جاء الله بالنصر .. وخرج أسامة في غزوة غالب بن عبد الله أرض بنى مرة ، قرأى مرداس

بن نهيك فأدركه هو ورجل من الأنصار ، فلما شهرا عليه السلاح قال :
— أشهد أن لا إله إلا الله .

فلم يتركا حتى قتلاه ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ — أخبراه
خبره فقال :

— يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟

— يا رسول الله إنه إنما قالها تعوذا بها من القتل .

— فممن لك بها يا أسامة ؟

فو الذى بعثه بالحق ما زال يردها على أسامة حتى لود أن ما مضى من
إسلامه لم يكن ، وأنه كان أسلم يومئذ وأنه لم يقتله ، قال :

— أنظرنى يا رسول الله ، إني أعاهد الله ألا أقتل رجلا يقول لا إله إلا
الله أبدا .

وكان رسول الله ﷺ — يرى أن وجود الروم بالشام يهدد
الإسلام فى جزيرة العرب ، فهرقل بعد أن أعطى من طرف لسانه حلاوة
لما بعث إليه — صلوات الله وسلامه عليه — كتابه مع دحية الكلبي ، عاد
وجمع الجموع ليغزو المسلمين . فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ — عليه صلوات
الله وسلامه — لم ينتظر حتى يفجأه الروم فى المدينة . بل بعث جيشه إلى
مؤتة واستعمل على المسلمين زيد بن حارثة ، وقال :

— إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر
فعبد الله بن رواحة على الناس .

ونزل المسلمون معان من أرض الشام وكانوا ثلاثة الآلاف ، ونزل
هرقل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لحم
وجذام والفين وبهراء وبللى مائة ألف . لم تكن القوى متكافئة . ورأى

— ١٢ —

أناس أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ ، ولكن عبد الله بن رواحة شجع الناس وقال :

— يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة . فقال الناس :

— قد والله صدق ابن رواحة .

فمضى الناس حتى إذا كانوا يتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب ، بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف . ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ، ثم التقى الناس واقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ — حتى شاط في رماح القوم . ثم أخذها جعفر فقاتل بها ، حتى إذا ألجمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها . ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام .

وأخذ عبد الله بن رواحة الراية فقاتل حتى قتل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد . فلما أخذ الراية دافع القوم ، ونحش على المسلمين قلة عددهم فانسحب بهم في أمان .

وعاد الجيش إلى المدينة فجعل الناس يحشون على الجيش التراب ويقولون :

— يا فرار ، فررتم في سبيل الله .

فيقول رسول الله ﷺ :

— ليسوا بالفرار . ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

ولم ينس رسول الله ﷺ — يوم مؤتة ولا الخطر الذى يهدد الإسلام فى الشام . فرأى أن يوجه أنظار المسلمين إلى ذلك الخطر . فلما قفل من حجة البلاغ أقام بالمدينة بقية ذى الحجة والحرم وصفر . وضرب على الناس بعثا إلى الشام ، ولما كان زيد بن حارثة أمير المسلمين فى مؤتة ، فقد رأى رسول الله ﷺ — أن يكرمه فى ولده فدعا — ﷺ — أسامة بن زيد فقال :

— سر إلى موضع قتل إبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فاغز صباحا وأسرع السير لتسبق الأخبار ، فإن ظفرك الله عليهم ، فأقل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك . وعقد — ﷺ — لأسامة لواء بيده ثم قال :

— اغز بسم الله وفى سبيل الله ، وقاتل من كفر بالله . فخرج أسامة بلوائه معقودا ، فدفعه إلى بريدة وعسكر بالجرف ، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا اشتد لذلك ، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص . وفى جوف الليل قال رسول الله ﷺ — لمولاه أبى مويهبة : — إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معى .

فانطلق معه إلى حيث ترقد زينب ورقية وأم كلثوم وإبراهيم والمسلمون الأحبة الأعزاء ، فلما وقف بين أظهرهم قال :

— السلام عليكم يأهل المقابر ، لئن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، لو تعلمون ما نجاكم الله منه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الأخيرة شر من الأولى .

ثم أقبل على أبى مويهبة وقال :

— يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ،
 خيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة ، فاخترت لقاء ربي والجنة .
 — بأبي أنت وأمي ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .
 — لا والله يا أبا مويهبة . لقد اخترت لقاء ربي والجنة .
 ثم استغفر لأهل البقيع ثم رجع إلى أهله ، فوجد عائشة وهي تجدد
 صداعا في رأسها وهي تقول :
 — وارأساه .

— وما يضررك لو مت قبل فقمت عليك وكففتك وصليت عليك
 ودفنتك .

— واثكلناه ، والله إنك لتحب موتي ، فلو كان ذلك لظلمت يومك
 معرسا ببعض أزواجك .
 فتبسم رسول الله ﷺ — وقال :
 — بل أنا وارأساه .

وراح أناس يتكلمون في إمارة أسامة ويقولون :
 — يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين والأنصار ؟
 كان سن أسامة سبع عشرة سنة ، ولما بلغ رسول الله ﷺ —
 مقاتلهم وطعنهم في ولايته مع حداثة سنة غضب — غضبا
 شديدا ، وقد عصب رأسه عصابة وعليه قطيفة وصعد المنبر ، فحمد الله
 وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد أيها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟
 ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله . وإيم الله إن
 كان خليقا بالإمارة ، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة ، وإن كان من أحب
 الناس إلي ، وإنهما مظنة لكل خير ، فأستوصوا به خيرا فإنه من خياركم .

كان عمرو بن حزم عامل رسول الله ﷺ — على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص عامله على ما بين نجران ورمع وزبيد ، وكان معاذ بن جبل يطوف باليمن ويأتى إلى نجران يعلم الناس دينهم ، فيينا كان الولاية يقومون بتوزيع الجند و يقيمونهم على ما ينبغي ويكتبون بينهم الكتب ، إذ جاء كتاب من الأسود : « أيها المتوردون علينا ، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه » .
فقالوا للرسول :

— من أين جئت ؟

— من كهف جُثَّان .

كان عبهلة بن كعب وهو الأسود كاهنا ولد في كهف جُثَّان ، وكانت داره ، وكان يرى قومه الأعاجيب ويسبى قلوب من سمع منطقته . فلما جاء الخبر بعد حجة الإسلام أن رسول الله ﷺ — مريض ، ادعى الأسود النبوة . فكاثبته مذحج وواعده نجران ، فجمع الجموع فكان معه سبعمائة فارس سوى الركبان ، وكان قواده قيس بن عبد يغوث المرادى ومعاوية بن قيس الجنبي ويزيد بن محرم ويزيد بن حصن الحارثي ويزيد بن الأفلح الأزدي .

وانطلق الأسود إلى نجران ، وما انقضى عشرة أيام مذ ادعى النبوة حتى

كان قد استولى عليها وأخرج عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص ونزل منزلهما ، ووثب قائده قيس بن يغوث على فروة بن مُسيك وهو على مراد فأجلاه ونزل منزله ، فلم يترث عبهة بنجران بل سار إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذان وإلى رسول الله ﷺ — عليها ، فكان بين المسلمين وبين المرتدين قتال ، وقتل الأسود شهرا وهزم المسلمين ، وغلب على صنعاء لخمس وعشرين ليلة من خروجه .

وكتب فروة بن مُسيك إلى نبي الإسلام ﷺ — برِدة الأسود ومذحج ، وكان عليه السلام في بدء مرضه ، فلم يشغله المرض عن ذلك الخطر الذي يهدد الإسلام في الجنوب ، فأرسل إلى نفر من المسلمين رسولا وكتب إليهم أن يحاولوه وأمرهم أن يستجدوا رجلا قد سماهم من بنى تميم وقيس ، وأرسل إلى أولئك النفر أن ينجدوهم .

وخرج معاذ هاربا حتى مر بأبي موسى وهو بمأرب فاقترحا حضر موت ، فأما معاذ فإنه نزل بالسكون ، وأما أبو موسى فإنه نزل في السكاسك مما يلي المغور والمقازة بينهم وبين مأرب ، وانحاز سائر أمراء اليمن إلى الطاهر وكان على عك والأشعرين ، إلا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص فإنهما رجعا إلى المدينة .

وغلب الأسود على ما بين صهيد مفازة حضر موت إلى عمل الطائف إلى البحرين قبل عدن ، وجعل يستطير استطارة الحريق حتى صفاه ملك اليمن ، وكان خليفته على مذحج عمرو بن معديكرب ، وأسند أمره إلى نفر ، فأما أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث ، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز ودازويه . فلما أثخن في الأرض استخف بقيس وبفيروز ودازويه وتزوج امرأة شهر بن باذان وهي ابنة عم فيروز ، وقد كرهته امرأة شهر

كراهية شديدة .

وكان المسلمون وأمرء المسلمين في حضر موت لا يأمنون أن يسير إليهم الأسود أو يبعث إليهم جيشاً أو يخرج بحضر موت خارج يدعى بمثل ما ادعى به الأسود ، وتزوج معاذ إلى بنى بكرة ، حتى من السكون ، امرأة أخوالها بنو زنكبييل يقال لها رملة ، فحذبوا لصهره على أمرء المسلمين . وإذا برسل رسول الله ﷺ — يقبلون ، إنه عليه السلام بعث وبر بن يُحنس إلى فيروز وجشيش الديلمي وداذويه ، وبعث جرير بن عبد الله إلى ذى الكلاع وذى ظليم ، وبعث الأقرع بن عبد الله الحميري إلى ذى زود وذى مران ، وبعث فرات بن حيان العجلي إلى ثمامة بن أثال ، وبعث زياد ابن حنظلة التميمي ثم العمرى إلى قيس بن عاصم والزرقان بن بدر ، وبعث صلصل بن شرحبيل إلى سبرة العنبري ووكيع الدارمي وإلى عمرو بن المحجوب العامري وإلى عمرو بن الحفاجي من بنى عامر ، وبعث ضرار بن الأزور الأسدي إلى عوف الزرقاني من بنى الصيذاء وسانان الأسدي ثم الغنمي وقضاعي الديلمي ، وبعث نعيم بن مسعود الأشجعي إلى ابن ذى اللحية وابن مشيمصة الجبيري .

وقدم وبر بن يحنس بكتاب النبي ﷺ — على جشيش بن الديلمي يأمر المسلمين فيه بالقيام على دينهم والنهوض في الحرب والعمل في الأسود إما غيلة وإما مصادمة ، وأن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة ودينا . فراح المسلمون يدبرون أمرهم فوجدوا أن الأسود قد تغير لقائده قيس بن عبد يغوث ، فرأوا فيه العون ، فدعوه وأنباؤه الشأن وأبلغوه عن النبي ﷺ — فكأنما وقعوا عليه من السماء ، كان يخاف على دمه وكان في غم وضيق بأمره ، فأجابهم إلى ما أحبوا من ذلك .

(وفاة الرسول)

وراح وبر بن يحنس يكاتب الناس ويدعوهم لنصرة دينهم ، ودخل على
الأسود رجل وأفضى إليه بمخاونه من قيس ، فأرسل الأسود إلى قيس
وقال :

— ما يقول هذا ؟

— وما يقول ؟

— يقول عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل
وصار في العز مثلك ، مال ميل عدوك وحاول ملكك وأضمر على الغدر .
إنه يقول يا أسود يا أسود يا سوءة يا سوءة اقطف قُتته وخذ من قيس أعلاه،
ولا سلبك أو قطف قُتتك .

وحلف به قيس وقال :

— لأنت أعظم في نفسي وأجل عندي من أن أحدث بك نفسي .

— ما أحفاك ! أتكذب الملك ؟ قد صدق الملك الآن أنك تائب بما
اطلع عليه منك .

ثم خرج قيس وأتى جشيش وفيروز وداذويه وقص عليهم ما كان بينه
وبين الأسود ، ثم قال :

— فما الرأي ؟

— نحن على حذر .

وبينا هم يتحاورون أرسل إليهم الأسود فقال :

— ألم أشرفكم على قومكم ؟ ألم يبلغني عنكم ؟

فقالوا في رجاء :

— أقلنا مررتنا هذه .

— لا يبلغني عنكم فأقبلكم .

فنجوا ولم يكادوا وهو في ارتياب من أمرهم وأمر قيس ، وهم في ارتياب وخطر عظيم .

كان معاذ لما جاء إليه رسل النبي — صلوات الله وسلامه عليه — قد قام ليجمع الناس لمصادمة الأسود ، فاعترض عامر بن شهر وذو زود وذو مران وذو الكلاع وذو ظليم على الأسود ، وكاتبوا قيس وجشيش وفيروز وداذويه وبذلوا لهم النصر ، فكاتبوهم وأمروهم أن لا يحرکوا شيئا حتى يبرموا الأمر .

وكتب النبي — صلوات الله وسلامه عليه — إلى أهل نجران ، إلى عربهم وساكني الأرض من غير العرب ، فثبتوا وشقوا عصا الطاعة وانضموا إلى مكان واحد ، فأحس الأسود أن الأرض لم تعد ثابتة تحت قدميه .

وانسل فيروز إلى آزاد ابنة عمه وزوجة الأسود فقال :
— يا ابنة عم ، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك ، قتل زوجك وطأ طأ في قومك القتل وسفل بمن بقي منهم وفضح النساء ، فهل عندك من مبالاة عليه ؟

— على أى أمره ؟

— إخراجهم أو قتلهم .

فشردت آزاد برهة ثم قالت :
— أو قتلهم . نعم والله ما خلق الله شخصا أبغض إلى منه . ما يقول الله على حق ولا ينتهي له عن حرمة ، فإذا عزمتم فأعلموني بمأق هذا الأمر فأخرج .

وأخرج الأسود على قيس وفيروز وداذويه في جمع فقاموا مثولا له ،

— ٢٠ —

وبالباب مائة ما بين بقرة وبعير . وخط خطأ فأقيمت من ورائه وقام من دونها فنحراها غير محبسة ولا معلقة ما يقتحم الخط منها شيء ، ثم خلاها فجالت والدماء تسيل منها حتى فاضت روحها ، فما روى أمر كان أقطع منه ولا يوم أوحش منه .

والتفت الأسود إلى فيروز ثم قال :

— أحق ما يلغنى عنك يا فيروز ؟

وبوأ له الحرية وقال :

— لقد هممت أن أتحرّك فأتابعك هذه البهيمة .

— اخترتنا لصهرك وفضلتنا على الأبناء ، فلو لم تكن نبيا ما بعنا نصيبنا منك بشيء ، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر آخرة ودنيا ؟! لا تقبلن علينا أمثال ما يبلغك ، فإننا بحيث تحب .

ونظر الأسود إلى البقر والبعير التي نحرها وقال داؤويه :

— اقسم هذه فأنت أعلم بمن ها هنا .

فاجتمع إلى داؤويه أهل صنعاء وجعل يأمر للرھط بالجزور ، ولأهل البيت بالبقرة ، ولأهل الخلة بعة ، حتى أخذ أهل كل ناحية بقسطهم . واجتمع قيس وفيروز وداؤويه يديرون قدام الرأي بينهم . إنهم في خطر والأسود في ارتياب من أمرهم فهو قاتلهم إن لم يقتلوه ، فأجمع ملؤهم أن يعود داؤويه إلى ابنة عمه آزاد فيخبرها بعزيمتهم لتخبرهم بما تأمر ، فأتى داؤويه آزاد وقال :

— ما عندك ؟

— هو متحرز متحرس وليس من القصر شيء إلا والحرس محيطون به ؛ غير هذا البيت فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق ، فإذا أمسيت

— ٢١ —

فانقبوا عليه فإنكم من دون الحرس وليس دون قتله شيء .
والتقطت آزاد نفسا طويلا ثم قالت :
— إنكم ستجدون فيه سراجا وسلاحا .
فخرج داذويه فتلقاه الأسود خارجا من بعض منازلها فقال له :
— ما أدخلك عليّ ؟
ووجأ رأسه حتى سقط وكان شديدا ، وصاحت آزاد فأدهشته عنه
ولولا ذلك لقتله ، وقالت :
— ابن عمي جاءني زائرا فقصرت بي .
— اسكتي لا أبا لك فقد وهبت لك .
وانسحب داذويه ترتعد فرائصه رعبا ، فأقى أصحابه فقال :
— النجاة .. الهرب .
وأخبرهم الخبر وإنهم على ذلك خيارى إذ جاء داذويه رسولها : لا تدعن
ما فارقتك عليه ، فإنى لم أزل به حتى اطمأن .
قال داذويه لفيروز :
— اثبتا فتثبت منها ، فأما أنا فلا سبيل لى إلى الدخول بعد النهى .
فانسل فيروز إلى القصر وراحت آزاد توضح له ما ينبغي عليهم فعله ،
كان فيروز أفطن من داذويه ، فلما أخبرته قال :
— وكيف ينبغي لنا أن ننقب على بيوت مبطنة ، ينبغي لنا أن نطلع بطانة
البيت .
فدخل البيت فاقتلعا البطانة ثم أغلقاه وجلس عندها كالزائر . فدخل
عليها الأسود فاستخفته غيرة ، وأخبرته برضاع وقرابة منها عنده محرم ،
فصاح به وأخرجه .

— ٢٢ —

وانطلق فيروز إلى أصحابه وراح يقص عليهم ما كان منه ومن آزاد، فلما أمسوا عملوا في أمرهم وقد أبلغوا أشياعهم وعجلوا عن مراسلة الهمدانين والحميريين ، فنقبوا البيت من خارج ثم دخلوا وفيه سراج تحت جفنة ، واتقوا بفيزوز وكان أنجدهم وأشدهم فقالوا له :

— انظر ماذا ترى ؟

فخرج وأصحابه بينه وبين الحرس معه في مقصورة ، فلما دنا من باب البيت سمع غطيظا شديدا . وإذا آزاد جالسة فانقض فيروز عليه فعاجله فخالطه وهو مثل الجمل ، فأخذ برأسه فقتله فدفق عنقه ووضع ركبته في ظهره فدفقه ، ثم قام ليخرج فأخذت آزاد بثوبه وهي ترى أنه لم يقتله ، فقالت في فرع :

— أين تدعني ؟

— أخبر أصحابي بمقتله .

وأق قيس وداذويه فقاما معه ، فأرادوا حزر رأسه فجلسوا على صدره وأخذت آزاد بشعره وسمعوا بربرة فأمر فيروز الشفرة على حلقه ، فخار أشد خوار ثور سمع قط ، فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة . فقالوا :

— ما هذا ؟ ما هذا ؟

فقالت آزاد :

— النبي يوحى إليه .

ونحمد الأسود ، ثم سمر قيس وفيزوز وداذويه ليلتهم وهم يأتمرون كيف يخبرون أشياعهم ، فاجتمعوا على النداء بشعارهم الذي بينهم وبين أشياعهم ثم ينادى بالأذان . فلما طلع الفجر نادى داذويه بالشعار ففرع

المسلمون والكافرون ، وتجمع الحرس فأحاطوا بقيس وفيروز وداذويه ، ثم نادى فيروز بالأذان فإذا بأشياعهم يقبلون على ظهور الجياد وإذا بالحرس يتأهبون للقتال ، فنادى فيروز :

— أشهد أن محمدا رسول الله ، وأن عبه كذاب .

وألحقوا إلى أتباع الأسود برأسه فانخلعت قلوبهم رعبا ، وأقام وبر بن يُحنس الصلاة ، وشنها القوم غارة ونادى فيروز وأصحابه :

— يا أهل صنعاء من دخل عليه داخل فتعلقوا به ، ومن كان عنده منهم أحد فتعلقوا به .

ونادو بمن في الطريق :

— تعلقوا بمن استطعتم .

فاختطف أتباع الأسود صبيانا كثيرين وانهبوا ما انتهبوا ثم مضوا خارجين ، فلما برزوا فقدوا منهم سبعين فارسا وركبانا ، وإذا أهل الدور والطرق وقد وافوا فيروز وصحبه بهم ، وفقد المسلمون سبعمائة غيل ، فتراسلوا على أن يترك أصحاب الأسود ما في أيديهم وأن يترك أصحاب محمد ﷺ — ما في أيديهم ، ففعلوا . وخرج أصحاب الأسود العنسى يترددون فيما بين صنعاء ونجران ، وخلصت صنعاء والجند ، وأعز الله الإسلام وأهله وتنافسوا الإمارة ، وتراجع أصحاب النبی — ﷺ إلى أعمالهم فاصطلحوا على معاذ بن جبل فكان يصلي بهم .

وقتل الأسود العنسى ولكن استتب الأمر لمسيمة في اليمامة ، ووثب طليحة في بلاد أسد وادعى النبوة وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الأخيرة شر من الأولى .

كان طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الأسدي يعد بألف فارس ، وكان كاهنا فكانت نفسه مستعدة للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها . وكانت قوته العقلية تتحرك حركتها الفكرية بالإرادة عندما يعيشها النزاع لذلك ، فكان يتشبث بأمر جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنع من طير أو حيوان ، فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعينا به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده .

وكانت نفس طليحة مفعورة على النقص والقصور عن الكمال ، فكان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكليات ، لذلك كانت الخيلة فيه في غاية القوة لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاتما في نوم أو يقظة ، وكان يفرع إلى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالإدراك وتمويها على السائلين .

لم يكن هناك اتصال من ذاته بالملأ الأعلى ، ولم يكن قادرا على الانسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمخ البصر كما هو شأن الأنبياء ، ولكنه استطاع بسجعه وظنونه وتخميناته أن يستولى على أفئدة قومه .

رأى طليحة أن الإمامة قد دانت لمسيلمة ، وأن اليمن أسلمت قيادها

للأسود العنسى ، وعلم أن رسول الله — ﷺ — مريض فتحركت مطامعه وراح يقتع نفسه أن كهاته إن هي إلا نبوة ، فأعلن على الملأ نبوته .

وفتن طليحة عوام وقومه فأمنوا به وصار له جيش من المخدوعين فعسكر بسميراء واستكثف أمره . وكان سنان بن أبي سنان عامل رسول الله — ﷺ — على بنى مالك ، فكتب إلى النبي — صلوات الله وسلامه عليه — بخبر ذلك الكذاب الجديد .

وبلغ كتاب سنان رسول الله — ﷺ — وهو مريض ، فلم يشغله ما كان فيه من الوجد عن أمر الله عز وجل والذب عن دينه ، فبعث الرسل إلى أنصار الإسلام في اليمن ليصاولوا الكذاب ويقضوا على فتنه ، ووجه ضرار بن الأزور إلى عماله على بنى أسد في ذلك وأمرهم بالقيام في ذلك على كل من ارتد فأشجعوا طليحة وأخافوه . ونزل المسلمون بواردات ونزل المشركون بسميراء ، فما زال المسلمون في نماء والمشركون في نقصان حتى هم ضرار بالسير إلى طليحة ، فلم يبق إلا أخذه سلماً ، إلا ضربة كان ضربها بالجرار فبأ عنه فشاعت في الناس . وقال ناس من الناس لتلك الضربة :

— إن السلاح لا يحيك في طليحة .

وارفض الناس إلى طليحة واستطار أمره ، وأقبل ذو الخمار ابن عوف الجذمي حتى نزل بإزاء المسلمين . وأرسل إليه ثمامة بن أوس بن لام الطائي :

— إن معي من جديلة خمسمائة ، فإن دهمكم أمر فنحن بالقردورة والأنسر دؤين الرمل :

وأرسل إليه مهلهل بن زيدان :

— معى حد الغوث ، فإن دهمكم أمر فنحن بالأكتاف بجبال قيد ،
وإنما تحذبت طيئ على ذى الخمار بن عوف أنه كان بين أسد وغطفان
وطيئ حلف فى الجاهلية ، فلما كان قبل مبعث النبى — ﷺ —
اجتمعت غطفان وأسد على طيئ فأزاحوها عن دارها فى الجاهلية : غوثها
وجديلتها ، فكرة ذلك عوف فقطع ما بينه وبين غطفان وتتابع الحيان على
الجللاء ، وأرسل عوف إلى الحيين من طيئ فأعاد حلفهم وقام بنصرتهم
فرجعوا إلى دورهم .

كان جيش أسامة قد اجتمع بالجرف ، وكان رسول الله — ﷺ —
قد قال : أنفلوا بعث أسامة . ولكن ظهور طليحة وادعاءه النبوة ،
واشتداد المرض برسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — جعل الناس
يتمهلون .

وكان طليحة فى قرارة نفسه يؤمن أن محمد — ﷺ — رسول الله ،
ولكن قوة مطامعه فى النبوة جعلته يرجو أن يكون شريكا فى الأمر مثله مثل
مسيلمة ، فرأى أن يبعث حبال ابن أخيه إلى نبي الإسلام عليه السلام
يدعوه إلى المودعة ويخبره خبره .

واجتمع عند رسول الله — ﷺ — رجال ، فقال — ﷺ — :
— هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده .

فقال عمر بن الخطاب :

— إن رسول الله — ﷺ — غلبه الوجع وعندكم القرآن . وإنما قال
ذلك تخفيفا على رسول الله — ﷺ — ، فارتفعت أصواتهم ، فأمرهم
بالخروج من عنده . وخرج على بن أبى طالب كرم الله وجهه ،

فقال الناس :

— يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله — ﷺ ؟

— أصبح بحمد الله بارئاً .

فأخذ العباس بيده وقال له :

— والله أنت بعد ثلاث عبد العصي ، وإنى لا أرى رسول الله —

ﷺ — من وجعه هذا بعد ثلاث إلا ميتاً ، فإنى رأيت في وجهه ما كنت

أعرفه في وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، فاذهب بنا إلى رسول الله —

ﷺ — فنسأله فيمن هذا الأمر ، فإذا كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في

غيرنا كلمناه فأوصى بنا .

فقال على كرم الله وجهه :

— لا أسأله رسول الله — ﷺ .

وبلغ حبال رسول طليحة وابن أخيه إلى المدينة ، فألقى الناس واجمين

لمرض رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، فراح يتقدم من المسجد

وهو مضطرب يخفق قلبه رهبة . وأراد أن يسكن روعه فراح يعيد في

ذاكرته ما كان بين رسول الله — ﷺ — ورسولى مسيلمة الخنقى .

كان مسيلمة قد ادعى النبوة في اليمامة قبل أن يدعيها عمه طليحة ، وقد

كتب إلى رسول الله — ﷺ : أما بعد فإنى قد أشركت في الأمر معك ،

وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قریشا قوم يعتلون .

وقدم عليه رسولان لمسيلمة بهذا الكتاب ، فقال رسول الله — ﷺ —

لهما حين قرأ كتابه :

— فما تقولان أنتما ؟

— نقول كما قال .

— أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .
 وراح حبال يردد في عين ذاته : إن محمدا لا يضرب أعناق الرسل .
 لعل ذلك الخوف الذي استبد به ينقشع . ولكن فرائصه كانت ترتعد وإن
 بذل غاية الجهد ليليدو هادئا تطوف به سكيمة .
 واستأذن حبال في الدخول على رسول الله — ﷺ — فأذن له ،
 فدخل مضطرب الخطو زائغ البصر تسرى في بدنه قشعريرة وهو يحاول أن
 يجمع شتات نفسه التي ذهبت شعاعا ، فإنه مقبل على نبي أقر بنبوته
 مسيلمة وعمه طليحة ، وقد زعما أنهما أشركا في الأمر معه .
 وألقى حبال السلام على رسول الله — ﷺ — وقال :
 — أنا ابن خويلد .
 وأفرخ روعه ، فراح يقص على رسول الله — ﷺ — ما كان من أمر
 عمه طليحة وكيف أن الناس اتبعوه وكيف استكنف أمره ، وطفق يدعو
 رسول الله — ﷺ — إلى المودعة ، فقال النبي — ﷺ :
 — قتلك الله وحرملك الشهادة .
 فقام حبال بن خويلد من عنده يضطرب كريحشة في مهب رياح عاتية ،
 يحس ضيقا في صدره كأنما قد خرت عليه جبال المدينة .

جاء رسول الله ﷺ — ابن عمه الفضل بن العباس ، فخرج إليه فوجده موعوكا قد عصب رأسه ، فقال عليه السلام :
— خذ بيدي يا فضل .

فأخذ بيده حتى جلس — ﷺ — على المنبر ، ثم قال :
— ناد في الناس .
فاجتمعوا إليه فقال :

— أما بعد ، أيها الناس فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه . ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه . ألا وإن الشحشاء ليس من طبعي ولا من شأني . ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقا إن كان له أو حللني فلقيت الله وأنا أطيب النفس . وقد أرى أن هذا غير مُغن عني حتى أقوم فيكم مرارا .

ثم نزل فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقاتته الأولى في الشحشاء وغيرها ، فقام رجل فقال :

— يا رسول الله إن لي عندك ثلاثة دراهم .
— أعطه يا فضل .

فأمره الفضل فجلس ، ثم قال — ﷺ :

— ٣٠ —

— أيها الناس ، من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فُضُوح الدنيا ، ألا وإن فُضُوح الدنيا أيسر من فُضُوح الآخرة .

فقام رجل فقال :

— يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله .

— ولم غللتها ؟

— كنت إليها محتاجا .

— خذها منه يا فضل .

ثم قال :

— يا أيها الناس ، من خشي من نفسه شيئا فليقم أَدْع له .

فقام رجل فقال :

— يا رسول الله إني لكذاب .. إني لفاحش وإني لعوم .

— اللهم ارزقه صدقا وإيمانا ، وأذهب عنه النوم إذا أراد .

ثم قام رجل فقال :

— والله يا رسول الله إني لكذاب وإني لمنافق وما شيء إلا قد جنيته .

فقام عمر بن الخطاب فقال :

— فضحت نفسك أيها الرجل .

فقال النبي ﷺ :

— يا ابن الخطاب فُضُوح الدنيا أهون من فُضُوح الآخرة . اللهم ارزقه

صدقا وإيمانا . وصير أمره إلى خير .

وصار — ﷺ — يدور على نسائه واشتد به المرض عند ميمونة ،

فصار يقول :

— أين أنا اليوم . أين أنا غدا ؟

استبطاء ليوم عائشة . وبعث إلى نسائه فاجتمعن فقال :
— إني لا أستطيع أن أدور بينكن ، فإن رأيتم أن تأذن لي فأكون في
بيت عائشة فعلتن .

فأذن له ، فخرج رسول الله — ﷺ — يمشى بين علي بن أبي طالب
والفضل بن العباس معتمدا عليهما عاصبا رأسه ، تخط قدماه الأرض حتى
دخل بيت عائشة .

واشتد برسول الله — ﷺ — وجعه فقال :
— هريقوا علي من سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس .
فأقعده — ﷺ — في مخضب — إناء من حجر — ثم صبوا عليه
الماء حتى طفق يقول :

— حسبكم . حسبكم .
فخرج رسول الله — ﷺ — عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، ثم
كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد ، فأكثر الدعاء لهم
واستغفر لهم ثم قال :
— إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله ، فاختار
ذلك العبد ما عند الله .

ففهمها أبو بكر وعرف أن نفسه يريد ، فبكى وقال :
— بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .
— علي رسلك يا أبا بكر .
ثم قال :

— انظروا هذه الأبواب الالافظة في المسجد فسدوها إلا بيت أبي بكر ،
فإني لا أعلم أحدا كان أفضل في الصحبة عندي يدا منه .

فقال عمر :

— يا رسول الله دعنى أفتح كوة أنظر إليك حيث تخرج إلى الصلاة .
— لا .

وكان لكل بيت بابان ، باب يفتح للمسجد وباب يفتح خارجه ،
فسدت جميع الأبواب إلا باب أبى بكر .
ثم قال رسول الله — ﷺ :

— يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا ، إنهم كانوا عييتى التى
أويت إليهم ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم .
ونزل — ﷺ — ودخل بيت عائشة ، وغشى الليل وقام بلال يؤذن
بالعشاء ، ومس الأذان أذن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه —
فأراد أن يذهب فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال :

— أصلى الناس ؟

— لا ، هم ينتظرونك .

— ضعوا لى ماء فى الخضب فأغتسل .

ثم أراد أن يذهب فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال :

— أصلى الناس ؟

— لا ، هم ينتظرونك .

وأراد أن يذهب ، فأغمى عليه ثم أفاق فقال :

— أصلى الناس ؟

— لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله .

ثم أراد أن يذهب فأغمى عليه والناس ملمومة فى المسجد ينتظرون
النبي — ﷺ — لصلاة العشاء الآخرة ، ودخل بلال عليه — ﷺ —

فقال:

— الصلاة يا رسول الله .

— لا أستطيع الصلاة خارجا ، مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فقال عائشة :

— إن أبا بكر رجل أسيف (رقيق القلب) ، إذا قام مقامك لم يسمع

الناس من البكاء .

فقال — ﷺ :

— مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وكأنما أرادت عائشة أن تؤكد إمامة أبيها فعادت تقول :

— إنه رجل أسيف .

— مروا أبا بكر فليصل بالناس .

فقال عائشة لحفصة :

— قولي له إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء ، فمر

عمر فليصل بالناس .

ففعلت حفصة فقال رسول الله — ﷺ — لحفصة :

— مه ، إنكن صواحب يوسف .

كانت عائشة في قرارة نفسها تحب أن يقوم أبوها مقام رسول الله —

ﷺ ، ولكنها أخفت ما في سريرتها كما فعلت النسوة اللاتي رأين يوسف

لما دعتن امرأة العزيز لينظرن إلى جمال يوسف فيعذرنها في حبه ، وإن قالت

عائشة بعد ذلك : ما حملني على كثرة مراجعتي له — ﷺ — إلا أنه لم

يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا ، ولا كنت أرى أنه

يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس منه .

(وفاة الرسول)

وقالت حفصة لعائشة :

— ما كنت أصيب منك خيرا ، مروا أبا بكر فليصل بالناس .
وخرج بلال وهو يبكي فانتحلت أفدة الناس وهرعوا إليه ملهوفين
وقالوا في خوف :

— ما وراءك يا بلال ؟

— إن رسول الله ﷺ لا يستطيع الصلاة خارجا .
فبكوا بكاء شديدا ، وتلفت عبد الله بن زمعة يبحث عن أبي بكر فلم
يجد بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر ، فقال :
— قم يا عمر فصل بالناس .

وكبر عمر وكان صيتا ، فسمع رسول الله ﷺ — صوته بالتكبير
فقال :

— أين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك
والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون . مروا أبا بكر فليصل بالناس .
وجاء أبو بكر وصلى بالناس ، وقال عمر لعبد الله بن زمعة :
— وبمك ! ماذا صنعت بي ؟ والله لولا أني ظننت أن رسول الله ﷺ
أمرك ما فعلت .

— إني لم أر أحدا أولى بذلك منك .

كان أبو بكر من جملة جيش أسامة ، وإن الجيش قد عسكر بالجرف
خارج المدينة لينطلق إلى الشام ، فكان على أبي بكر أن يتخلف لما أمره —
ﷺ — بالصلاة — بالناس ، وما تخلف أبو بكر من قبل عن غزوة أمره
رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يخرج فيها ، سواء أكان أمير
القوم أم جنديا من جنود الإسلام .

— ٣٥ —

ودخل أسامة ليزور رسول الله ﷺ — فوجده مريضا فقال :
 — بأني أنت وأمي ! أتأذن لي أن أمكث أياما حتى يشفيك الله تعالى ؟
 — اخرج وسر على بركة الله .
 — يا رسول الله إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفي قلبي
 قرحة منك .

— سر على النصر والعافية .
 — يا رسول الله إني أكره أن أسأل عنك الركبان .
 — انفذ لما أمرتك به .
 ثم أغمى على رسول الله ﷺ ، وقام أسامة فتجهز للخروج ،
 فجعل رسول الله يقول :

— أنفذوا بعث أسامة ، لعن الله من تخلف عنه .
 وطاف الأنصار بالمسجد لما رأوا رسول الله ﷺ — يزداد وجعا ،
 وأشفقوا من موته — ﷺ ، فدخل عليه الفضل فأخبره بذلك ، ثم دخل
 عليه على كرم الله وجهه فأخبره بذلك ، ثم دخل عليه العباس فأخبره
 بذلك ، فخرج النبي ﷺ — متوكئا على علي والفضل والعباس
 أمامه ، والنبي ﷺ — معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على
 أسفل مرقاة من المنبر ، وثار الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال :
 — أيها الناس ، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد نبي قبلي
 فيمن بعث إليه فأخلد فيكم ؟ ألا وإني لآحق بربي وإنكم لآحقون به ،
 فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير ،
 فإن الله يقول : ﴿ والعصر ﴾ * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴿١﴾. وإن الأمور تجري بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم !؟ وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم في الثار ؟ ألم يوسعوا لكم في الدار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم . ألا ولا تستأثروا عليهم . ألا فإني فرطكم وأنتم لاحقون لي . ألا وإن موعدكم الحوض . ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغي .

يأياها الناس ، إن الذنوب تغير النعم ، فاذا بر الناس برتهم أثمتهم ، وإذا فجر الناس عقوا أثمتهم .

ودخل رسول الله ﷺ — دار عائشة ، فخفت إليه فاطمة الزهراء ، واجتمع إليه نساء من نسائه أم سلمة وميمونة ، ونساء من نساء المسلمين منهن أسماء بنت عميس ، وعنده العباس عمه . وتنام برسول الله ﷺ — وجعه وأغمى عليه حتى ظنوا أنه قد هلك ، فأجمعوا أن يلدوه (٢) ، فلددته أسماء بنت عميس ، وجعل يشير إليهم وهو مغمى عليه ألا يفعلوا به وهم يظنون أن ذلك كراهة المريض للدواء ، فلما أفاق رسول الله ﷺ — قال :

(١) سورة العصر .

(٢) أن يلدوه : أن يجعلوا الدواء في شق فمه .

- من صنع هذا بي ؟
- يا رسول الله عمك .
- ولم يكن للعباس في ذلك رأى إنما قالوا ذلك تعللا وخوفا منه —
- ﷺ ، فقال عليه السلام :
- هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض .
- وأشار نحو أرض الحبشة ، قال :
- ولم فعلتم ذلك ؟
- قالت أسماء بنت عميس زوج أبى بكر :
- خشنا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب .
- إن ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقدفنى به . لا يبق في البيت أحد إلا لدَّ إلا عمى العباس .
- فلدوا حتى ميمونة وكانت صائمة عقوبة لهم على ما صنعوا .
- ونظر العباس إلى وجه ابن أخيه — عليه صلاة الله وسلامه — فتذكر أنه قبل ذلك ييسر رأى في المنام أن القمر قد رفع من الأرض إلى السماء فقصها على النبي — ﷺ — فقال له النبي : هو ابن أخيك . فأحس العباس كأن يدا قوية تعتصر فؤاده وأن الدموع تكاد أن تطفر من مآقيه . فأشاح بوجهه حتى لا يقرأ رسول الله — ﷺ — فيه ما يعتمل في جوفه من أحزان .
- وكان عنده — ﷺ — سبعة دنانير قد وضعها في كفه وقال :
- ما ظن محمد بربه أن لو لقي الله وهذه عنده ؟
- فأمر عائشة أن تتصدق بها .
- واشتد على رسول الله — ﷺ — وجعه ، فدخل أسامة من عسكره

— ٣٨ —

والنبي — ﷺ — مغمور فطأ طأ رأسه فقبله ، وهو — ﷺ —
لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة ، فعرف
أسامة أنه — ﷺ — يدعو له . ورجع أسامة إلى عسكره .
ودخل سلمان الفارسي على رسول الله — ﷺ — ، فقال له :
— ألا تسأل عما كابדתه الليلة من الألم والسهر أنا وعلى !
— يا رسول الله ، ألا أسهر الليلة معك بدله ؟
— لا ، هو أحق بذلك منك .

وأذن بلال بصلاة الصبح فاجتمع الناس بمسجد الرسول وأمهم أبو
بكر ، وخرج — ﷺ — إلى الناس وهم يصلون فرفع الستر وفتح الباب
فخرج فقام على باب عائشة ، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم برسول
الله — ﷺ — حين رأوه فرحاً به ، وتفرج الناس فعرف أبو بكر أن
الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله — ﷺ — فنكص عن مصلاه ،
فدفع رسول الله — ﷺ — في ظهره وقال :
— صل بالناس .

وجلس رسول الله — ﷺ — إلى جنبه فصلى قاعداً عن يمين أبي
بكر ، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلهم رافعا صوته حتى
خرج صوته من باب المسجد ، يقول :
— أيها الناس سُعِرَت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم . وإني والله
ما أتمسكون عليّ بشيء . إني لم أحلّ إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ما حرم
القرآن .

فلما فرغ رسول الله — ﷺ — من كلامه قال له أبو بكر :
— يا نبي الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب ،

واليوم يوم بنت خارجة أفاتها ؟

— نعم .

ثم دخل رسول الله ﷺ — إلى داره وهو معصوب الرأس ،
وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح . دخل عليه السلام بيت عائشة وانقلبت
كل امرأة من نسائه — إلى بيتها ، فلما دخل — اشتد
عليه الوجع فرجع إليه من كان ذهب من نسائه ، وأخذ في الموت فصار
يغمى عليه ثم يفيق ، وكان عنده وقد اشتد به الأمر قدح فيه ماء فصار
يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول :

— اللهم أعنني على سكرات الموت .

ورنت فاطمة الزهراء إلى أبيها فرأته يتألم أشد الألم فأحست ناراً تشوى
كبدها ، فراحت تقول :

— واكرب أبتاه !

فيقول — في صوت خافت :

— ليس على أهلك كرب بعد اليوم .

كان — صلوات الله وسلامه عليه — مزهف الحس فكان شعوره
بالألم أكثر من غيره ، ولم يدع بالشفاء بل طفق يقول :

— يا نفس مالك تلوذين كل ملاذ ؟

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستن به ، فنظر إليه رسول
الله ﷺ — فعرفت عائشة أنه يريد به لأنه كان يحب السواك ،
فقال :

— آخذه لك ؟

فأشار برأسه أن نعم فتناولته وناولته إياه ، فاشتد عليه فقالت :

— ٤٠ —

— ألينه لك ؟

فأشار برأسه أن نعم .

فليته فأعطته رسول الله ﷺ — فاستن به وهو مستند إلى صدرها .

وكان رسول الله ﷺ — قال لأسامة بن زيد بعد صلاة الصبح :
— اغد على بركة الله .

فودعه أسامة وخرج إلى معسكره وأمر الناس بالرحيل ، فبينما هو يريد
الركوب إذا رسول أمه أم أيمن قد جاء يقول :
— إن رسول الله ﷺ — يموت .

فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح فجعلوا يشدون إلى
مسجد الرسول .

وأرسلت عائشة خلف أبي بكر ، وأرسلت حفصة خلف عمر ،
وأرسلت الزهراء خلف علي ، ووجدت عائشة رسول الله ﷺ —
يئن في حجرها ، فذهبت تنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو
يقول :

— بل الرفيق الأعلى والجنة .

وندت من دور الرسول صرخة ، فابتدر المسلمون الباب فسبقهم
العباس فدخل العباس فدخل وأغلق الباب دونهم ، فإذا عائشة تقول :
— خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق .

ومات رسول الله ﷺ — بين سحر عائشة ونحرها ، فمن حداثة
سنها وضعت رأسه الشريف على وسادة وقامت تلتدم مع النساء وتضرب
وجهها ، فلم يلبث أن خرج العباس إلى الناس فنعى رسول الله ﷺ —

ﷺ — فقالوا :

— يا عباس ما أدركت منه — ﷺ ؟

— أدركته وهو يقول : جلال ربي الرفيع قد بلغت .

ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة ، ودخل بريدة بلواء أسامة حتى أتى به إلى رسول الله — ﷺ — فغزاه عند بابه والباب مغلق .

وجاء عمر وعثمان وعلي ، وصك العويل أسماهم ، فأما عمر فخبيل ، وأما عثمان فأخرس ، وأما علي فأقعد لم تستطع قدماه أن يحملاه فانهار ، وصار عمر في ناحية المسجد يقول :

— إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله — ﷺ — مات ، ولكن ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام ، ثم رجع إلى قومه بعد أربعين ليلة بعد أن قيل قد مات .
والله ليرجعن رسول الله — ﷺ — كما رجع موسى بن عمران عليه السلام ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم .

وما زال عمر يتوعد المنافقين حتى أزيد شذقه . ودهش الناس وطاشت عقولهم فما كانوا قادرين على أن يصدقوا أن خليل الله وحبيه ونبيه وصفيه ورسوله ونبيه يموت ، أحقا قد انقطع عن الأرض وحي السماء ؟

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله — ﷺ — في بيت عائشة وعيناه تهملان ورسول الله مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم أقبل عليه فقبله ثم قال :

— ٤٢ —

— بأبى أنت وأمى ، طبت حيا وميتا . أما الموتة التى كتب الله عليك
فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موة أبدا .

ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال :
— على رسلك يا عمر ، فأنصت .

فأبى إلا أن يتكلم . فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما
سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
— أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان
يعبد الله فإن الله حى لا يموت .

ثم تلا :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل
انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله
الشاكرين ﴾ (١) .

فما إن سمع عمر أبا بكر حتى دهش ووقع إلى الأرض ما تحمله قدماه ،
وعرف أن رسول الله قد مات فقال ودموعه تهطل حتى تبل لحيته :

— إنا لله وإنا إليه راجعون، صلوات الله وسلامه على رسول الله ﷺ .
وظل عمر فى حزنه العميق وقد أطرق وكأنه لم يسمع بالآية التى تلاها
أبو بكر فى كتاب الله قبل الآن لما نزل به .
وقال أبو بكر :

— وقال الله تعالى لمحمد — ﷺ : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (٢)

(١) آل عمران ١٤٤ .

(٢) الزمر ٣٠ .

— ٤٣ —

وقال تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾
(١) . وقال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم
القيامة ﴾ (٢) .

وارتفع صوت الزهراء تبكى أباهـا وحبـيـبـهـا الـذـى غـمـرـهـا بـالـحـب
والحنان ، فقالت فى صوت واله حزين :
— وأبتاه .. أبتاه .

أجاب ربا دعاه .. يا أبتاه .
الفردوس مأواه . أبتاه .
إلى جبريل ننعاه .

ونزل بقلوب الناس حزن ثـقـيـل وخـيـم الأـسـى عـلـى مـدـيـنـة الرـسـول . و حـان
أذان المغرب فسار بلال بخطى ثقيلة ، وانطلق بنفس شفهـا الحـزـن حـتـى إـذا
بلغ المسجد انسكب الدمع من عينيه ، ودخل وهو يترنح فوقـع بصره على
باب الرسول مقفلا فاستشعر كأن خنـجـرا مزق نياط قلبه ، فلن يخرج
الرسول إليهم منه أبدا ، ولن يتوجه إليه بلال ليخبره أن الناس فى المسجد
ينتظرونه ليؤمهم ، فلن ينتظروه بعد اليوم ، ولن يأتى من السماء خبر .
واعـتـلى بلال المسجد وقد ناله منه الحزن ، وراح يؤذن بصوت فيه رنة
أسى عميق :

(١) القصص ٨٨ .

(٢) آل عمران ١٨٥ .

— ٤٤ —

الله أكبر ! الله أكبر !
الله أكبر ! الله أكبر !
أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن

وخنقت بلال العبرات فما استطاع أن يذكر اسم الرسول الحبيب
والرسول مسجى في سريرته فأجهش بالبكاء . وسمع الناس انقطاع الأذان
وبكاء بلال فتجددت الأحزان فبكوا . وراح بلال يغالب نفسه ويتحكم
في عواطفه ليتم الأذان ، وأخيرا ردد بصوت كله دموع :

أشهد أن محمدا رسول الله
أشهد أن محمدا رسول الله
حى على الصلاة ، حى على الصلاة
حى على الفلاح ، حى على الفلاح
الله أكبر ، الله أكبر
لا إله إلا الله

٦

بكى الناس على رسول الله ﷺ — وقالوا :
 — والله لوددنا أنا متنا قبله ، إنا نخشى أن نفتن بعده .
 قال معن بن عدى :
 — ولكنى والله ما أحب أنى مت قبله ، حتى أصدقه ميتا كما صدقته
 حيا .
 وذهب معن إلى سقيفة بنى ساعدة حيث اجتمع الأنصار فقالوا :
 — إن رسول الله ﷺ قد قبض .
 فقال سعد بن عبادَةَ لابنه قيس :
 — إني لا أستطيع أن أسمع الناس كلامى لمرضى ، ولكن تلق منى قولى
 فأسمعهم ..
 فكان سعد يتكلم ويستمع ابنه ويرفع به صوته ليسمع قومه ، فحمد
 سعد الله وأثنى عليه ثم قال :
 — إن لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من
 العرب . إن رسول الله ﷺ — لبث فى قومه بضع عشرة سنة
 يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان ، فما آمن من قومه إلا قليل .
 والله ما كانوا يقدرُونَ أن يمنعوا رسول الله ولا يعزّوا دينه ولا يدفعوا
 عنه عِداء ، حتى أراد الله بكم خير الفضيلة وساق إليكم الكرامة

وخصكم بدينه ورزقكم الإيمان به وبرسوله والإعزاز لدينه والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم ، حتى استقاموا لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داحضا ، حتى أنجز الله لنبيكم الوعد ، ودانت لأسيافكم العرب ، ثم توفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين . فشدوا يديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس وأولاهم به .

فأجابوا جميعا :

— أنت وفقت في الرأي وأصببت في القول ، ولن نعدو ما أمرت .
نوليك هذا الأمر فانت لنا مقتنع ولصالح المؤمنين رضا .

فقال عويم بن ساعدة :

— يا معشر الخزرج إن كان هذا الأمر فيكم دون قريش فعفرونا ذلك وبرهنوا حتى نبايعكم عليه . وإن كان لهم دونكم فسلموا إليهم ، فوالله ما هلك رسول الله — ﷺ — حتى عرفنا أن أبا بكر خليفته حين أمره أن يصلى بالناس .

فشتمه الأنصار وأخرجوه ، فانطلق هو ومعن بن عدى مسرعين إلى أبى بكر .

وفت ذلك في عضد الأنصار فقال قائل منهم :

— فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشرته وأولياؤه ، فعلام تنازعونا هذا الأمر بعده ؟

فقال طائفة منهم :

— فإننا نقول إذا : منا أمير ومنكم أمير . ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا .

فقال سعد بن عبادة حين سمعها :

— هذا أول الوهن .

وجاء عويم بن ساعدة ومعن بن عدى أخو بنى العجلان إلى عمر بن الخطاب وقالوا :

— هاتيك الأنصار قد اجتمعت في ظُلة بنى ساعدة يبايعون سعد بن

عبادة .

إنهما رجلان صالحان قد شهدا بدرا . فأما عويم بن ساعدة فقد شهد له رسول الله ﷺ — أنه ممن يحبون أن يتطهروا ، فقد قيل لرسول الله ﷺ — صلى الله عليه وسلم : من الذين قال الله فيهم : ﴿ هُوَ فِيهِمْ ﴾ أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴿ (١) ؟ فقال رسول الله ﷺ — نعم المرء منهم عويم بن ساعدة . أما معن فقد قال بعد موت الرسول — صلوات الله وسلامه عليه : والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقه ميتا كما صدقته حيا .

ونخاف عمر من وقوع فتنة في الإمارة ونخاف من حدوث ردة ، فمسيئمة الكذاب قد دانت له الإمامة وطليحة العنسي قد غلظ أمره ، ومن يدرى من يخرج غدا على الإسلام لما يبلغ القبائل موت رسول الله ﷺ — ، فانطلق إلى منزل النبی ﷺ — وقد استبد به القلق فأرسل إلى أبى بكر ، وأبو بكر في الدار وعلى بن أبى طالب دائب في جهاز رسول الله ﷺ — ، فأرسل إلى أبى بكر أن اخرج إلى . فأرسل إليه :

— إلى مشغول .

(١) التوبة ١٠٨ .

فأرسل إليه :

— إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره .

فخرج إليه فقال عمر :

— أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عباد ؟ وأحسنهم من يقول منا أمير ومن قریش أمير .

فمضيا مسرعين نحوهم فلقيأبا عبيدة بن الجراح فتأشوا إليهم ثلاثتهم : وأحس العباس لما خرج أبو بكر أن في الأمر شيئا وأن الناس يفكرون فيمن يخلف رسول الله ﷺ ، فقال لعلى بن أبى طالب :

— امدد يديك بأبيك ، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان .

— أو يطمع يا عم فيها طامع غيرى ؟

— ستسمع .

وبلغ أبو بكر وعمر وأبو عبيدة سقيفة بنى ساعدة ، فإذا بالأنصار يدورون حول سعد بن عباد ويقولون :

— أنت المرجى ونجلك المرجى .

لقد فتح باب فتنة الساعة إلا أن يخلقه الله وكان عمر قد زوى كلاما أراد أن يقوم به فيهم ، فلما تقدم إليهم ذهب ليتدعى المنطق فقال له أبو بكر :

— رويدا أتكلم ، ثم انطق بعدما أحببت .

فبدأ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه وشهيدا على أمته ليعبدوا الله

ويوحده ، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة ، وإنما هي من حجر منحوت ، وخشب منجور .

ثم قرأ : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (١) . وقالوا : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (٢) . فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس مخالف زار عليهم ، فلم يستوحشوا القلة عددهم وشنف الناس لهم وإجماعهم عليهم ، فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور .

فقام الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال :

— يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم ، فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم . أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد

عليكم رأيكم ، ويتنقض عليكم أمركم . فإن أئى عليكم إلا ما سمعتم ، فمننا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر :

— هيهات لا يجتمع سيفان فى غمد . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم . ولنا بذلك على من أئى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين .

من ذا يئازعنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مذل بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورط فى هلكة ؟

فقال الحباب بن المنذر :

— يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتهم فاجلوه من هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين . أنا جُذِّلها المحكك ، وعذيقها المرجب ^(١) ، أما والله لئن شعثم لنعيدنها جذعة .

(١) الجدل : عود ينصب للإبل الجرى تحتك به فتستشفى . المحكك : الذى كثر به الاحتكاك حتى صار ممسسا . والعذق : النخلة . المرجب : المدعوم بالرجبة وهى نخشة ذات شعبتين ، وذلك إذا طال وكثر حمله . والمعنى : لئى ذو رأى يشفى بالاستئضاء به كثيرا فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها كالنخلة الكثيرة الحمل .

فقال عمر :

— إذن يقتلك الله .

— بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة :

— يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من

بدّل وغير .

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير ، وكان خزرجيا مثل سعد بن

عبادة فقال :

— يا معشر الأنصار إنا والله لعن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين ،

وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكذب

لأنفسنا . فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من

الدنيا عرضا ، فإن الله ولى المنّة علينا بذلك . ألا إن محمدا — ﷺ — من

قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وإيم الله لا يراى الله أنازعهم هذا الأمر

أبدا ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر الصديق :

— هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا .

فقال عمر :

— والله لأن أقدم فأنحر كما يُنحر البعير ، أحب إلّى من أن أتقدم على أبى

بكر .

وقال أبو عبيدة :

— لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين ، وثانى

الثنين إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله — ﷺ — على الصلاة ،

والصلاة أفضل دين المسلمين . فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ ابسط يديك نبايعك .

وقال عمر :

— أيكم يطيب نفسا أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله ﷺ ؟
رضيك رسول الله ﷺ — لدينا ، أفلا نرضاك لدينا ؟

كان أبو بكر أحب إلى الناس من ضياء أبصارهم ، فأقبلوا بوجوههم عليه ، وارتفع نداؤهم من كل ناحية :
— لا نريد سواك يا أبا بكر ، أنت لها .

وبسط أبو بكر يده وبايعه عمر ثم أبو عبيدة ، وخف إليه بشير بن سعد فبايعه ، فناداه الحباب بن المنذر :

— يا بشير بن سعد عقت عقاق ، ما أحوجك إلى ما صنعت ؟
أنفست على ابن عمك الإمارة ؟

— لا والله ، ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم .
ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء :

— والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا ، فقوموا فبايعوا أبا بكر .
فقاموا إليه فبايعوه ، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم :

فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه فأخذه فبادروا إليه فأخذوا سيفه منه ، فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة ، فقال :

— ٥٣ —

— فعلتموها يا معشر الأنصار ، أما والله لكأني بأبنائكم على أبواب
أبنائهم قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء .
قال أبو بكر :

— أمنا تخاف يا حباب ؟

— ليس منك أخاف ولكن ممن يجي بعدك .

— فإذا كان ذلك فالأمر إليك وإلى أصحابك : ليس لنا عليكم طاعة .

— هيهات يا أبا بكر ، إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا

الضيم .

وأقبلت قبيلة أسلم يجماعتها حتى تضايق بهم السكك فبايعوا أبا بكر .

فما هو إلا أن رأى عمر أسلم فأيقن بالنصر ، فأقبل الناس من كل جانب

يبايعون أبا بكر ، وكادوا يطفون سعد بن عباد ، فقال ناس من أصحاب

سعد :

— اتقوا سعدا لا تطفوه .

فقال عمر :

— اقتلوه قتله الله .

ثم قام على رأسه فقال :

— لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك .

فأخذ سعد بلحية عمر فقال :

— والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة .

فقال أبو بكر :

— مهلا يا عمر ، الرفق ههنا أبلغ .

فأعرض عنه عمر . وقال سعد :

— ٥٤ —

— أما والله لو أن بى قوة ما أقوى على النهوض لسمعت منى فى أقطارها
وسككها زئيرا يَجْجرك وأصحابك ، أما والله إذا لألحقنك بقوم كنت
فيهم تابعا غير متبوع . احملونى من هذا المكان .
فحملوه فأدخلوه داره ، وكبر الناس لبيعة أبى بكر فى سقيفة بنى
ساعدة ، فراح التكبير يتجاوب فى أرجاء المدينة .

راح عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد والعباس بن عبد المطلب وولداه الفضل وقثم يشتغلون بجهاز رسول الله ﷺ ، واختلفوا هل يغسل في ثيابه أو يجرد منها كما تجرد الموتى ، فأروا أن يغسلوه وعليه ثيابه ، فأخذ عليّ يغسله وعليه قميصه ؛ ولف كرم الله وجهه على يده خرقة وأدخلها تحت القميص يغسل بها الجسد الشريف . وغسل عليه السلام في المرة الأولى بالماء القراح ، وفي الثانية بالماء والسدر ، وفي الثالثة بالماء والكافور ، وكفن في ثلاثة أثواب بيض يمانية .

وظفّق عليّ يقول :

— بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء ، وخصصت حتى صرت مسليا عمن سواك ، وعممت حتى صار الناس فيك سواء . ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشغون ، ولكان الداء مماطلا ، والكمد مخالفا ، وقلا لك . ولكنه ما لا يملك رده ، ولا يستطيع دفعه . بأبي أنت وأمي ، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك .

وكان النبي ﷺ — قد بعث أبا سفيان بن حرب على الصدقات ، فرجع من سعيته وقد مات رسول الله ﷺ — فلقيه قوم فسألهم فقالوا :

— مات رسول الله ﷺ .

— من ولى من بعده ؟

— أبو بكر .

— أبو فضيل ؟^(١) فما فعل المستضعفان على والعباس ! أما والذى
نفسى بيده لأرفعن لهما من أعضادهما .

وأق أبو سفيان علّى بن أبى طالب والعباس ، والعباس يفكر فيما كان
بينه وبين على . أشار عليه فى مرض رسول الله ﷺ وآله — أن يسأله
فإن كان الأمر فيهم أعطاه إياهم ، وإن كان فى غيرهم أوصى بهم . فقال
على : أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد بعده .

إن العباس ليحس مذخرج أبو بكر لما دعاه عمر ، أن الأمر يوشك أن
يفلت من يد ابن أخيه ، وما هو ذا أبو سفيان بن حرب يأق ليباع ابن أبى
طالب ، فقال العباس لعلّى :

— أبسط يدك أبايك وبياييك هذا الشيخ ، فإننا إن بايعناك لم يختلف
عليك أحد من بنى عبد مناف ، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك
أحد من قريش ، وإذا بايعك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب .
فقال علّى عليه السلام :

— لنا بجهاز رسول الله شغل ، وهذا الأمر فليس يخشى عليه .

فلم يلبثوا أن سمعوا التكبير من سقيفة بنى ساعدة ، فقال علّى :

— يا عم ما هذا ؟

— ما دعوناك إليه فأبيت .

(١) سمى بذلك لضعف بيته والفصيل ولد الناقة وقد انفصل عنها .

— ٥٧ —

— سبحان الله ! أياكون هذا ؟

— نعم .

— أفلا يرد ؟

— وهل رُدُّ مثل هذا قط .

وقال أبو سفيان بن حرب :

— وليتم على هذا الأمر أذل بيت في قريش ، أما والله لئن شئت لأملأنها

على أبي فصيل خيلاً ورجلاً .

فقال على كرم الله وجهه :

— طالما غششت الإسلام وأهله فما ضررتهم شيئاً ! لا حاجة لنا إلى

خيلك ورجلك .

وأقبلت الجماعة التي بايعت أبا بكر تزفه زفاً إلى مسجد رسول الله —

ﷺ ، واجتمعت بنو هاشم إلى بيت على بن أبي طالب ومعهم الزبير ،

واجتمعت بنو أمية إلى عثمان بن عفان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد

وعبد الرحمن بن عوف ، فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة فقال :

— ما لي أراكم ملتاتين ؟ قوموا فبايعوا أبا بكر ، فقد بايع له الناس وبايعه

الأنصار .

فقام عثمان ومن معه وقام سعد وعبد الرحمن ومن معهما ، فبايعوا أبا

بكر .

وكان البراء بن عازب لبنى هاشم محباً ، فلما قبض رسول الله —

ﷺ — خاف أن تتألاً قريش على إخراج هذا الأمر عنهم ، فأخذ ما

يأخذ الوالدة العجول مع ما في نفسه من الحزن لوفاة رسول الله — ﷺ

وآله ، فكان يتردد إلى بنى هاشم وهم عند النبي — ﷺ — في الحجرة ،

ويتفقد وجوه قریش ، فإنه كذلك إذ فقد أبا بكر وعمر ، وإذا قاتل يقول :

— القوم في سقيفة بنى ساعدة .

وإذا قاتل آخر يقول :

— قد بويع أبو بكر .

فلم يلبث وإذا هو بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة ، والناس يبائعون أبا بكر ، فخرج البراء يشتد حتى انتهى إلى بنى هاشم والباب مغلق ، فضرب عليهم الباب ضربا عنيفا قال :

— قد بايع الناس لأبي بكر بن أبي قحافة .

فقال العباس :

— تربت أيديكم إلى آخر الدهر . أما إلى قد أمرتكم فعصيتموني .

فمكث البراء يكابد ما في نفسه ، فلما كان ليل خرج إلى المسجد ، فلما صار فيه تذكر أنه كان يسمع مهمة رسول الله ﷺ — بالقرآن فامتنع من مكانه . فخرج إلى الفضاء فضاء بنى بياضة ووجد نفرا يتناجون ، فلما دنا منهم سكتوا فأنصرف عنهم فعرفوه وما عرفهم ، فدعوه إليهم فأتاهم فوجد المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري وحذيفة وأبا الهيثم بن التيهان ، وإذا حذيفة يقول لهم :

— والله ليكونن ما أخبرتكم به ، والله ما كذبت ولا كذبت .

وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين .

ثم قال البراء :

— اتوا أبي بن كعب فقد علم كما علمت .

فانطلقوا إلى أبي فضربوا عليه بابيه ، حتى صار خلف الباب فقال :

— من أنتم ؟

فكلمه المقداد فقال :

— ما حاجتكم ؟

— افتح عليك بابك ، فإن الأمر أعظم من أن يجرى من وراء حجاب .

— ما أنا بقاتح بابي وقد عرفت ما جئتم له ، كأنكم أردتم النظر في هذا

العقد .

— نعم .

— أفياكم حذيفة ؟

— نعم .

— فالقول ما قال ، وبالله ما أفتح غني بابي حتى تجرى على ماهي

جارية ، ولما يكون بعدها شر منها ، وإلى الله المشتكى .

وذهب عمر إلى علي بن أبي طالب والعباس والزبير بن العوام ، في

عصاة فذهب أسيد بن حضير وسلمة بن أشيم ، فقالوا :

— انطلقوا فبايعوا أبا بكر .

فأبوا ، فخرج الزبير بن العوام بالسيف فقال عمر :

— عليكم بالرجل فخذوه .

فوثب عليه سلمة بن أشيم فأخذ السيف من يده فضرب به الجدار ،

فانطلقوا به فبايع ، وذهب بنو هاشم أيضا فبايعوا . ولم يبق من بني هاشم

إلا على كرم الله وجهه وعمه العباس .

كان على يرى أن يؤخر عقد البيعة إلى أن يحضر ويتشاور ويقع الوفاق

بينه وبينهم ، على أن يكون العقد لواحد من المسلمين بموجبه ، إما له

أو لأبى بكر أو لغيرهما ، ولم يكن ليليق أن يرم وهو غير حاضر له مع جلالاته فى الإسلام وعظيم أثره وما ورد فى حقه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله ، فهذا هو الذى كان ينقم ومنه كان يتألم .
وأرسل عمر وأبو بكر إلى أبى عبيدة وإلى المغيرة بن شعبة فسألاهما عن الرأى ، فقال المغيرة :

— الرأى أن تلقوا العباس فتجعلوا له ولولده فى هذه الإمرة نصيبا .
فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة حتى دخلوا على العباس ، وذلك فى الليلة الثانية من وفاة رسول الله — ﷺ وآله ، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وقال :

— إن الله ابتعث لكم محمدا — ﷺ — نبيا ، وللمؤمنين ولها ، فمن الله عليهم بكونه بين ظهرانيهم ، حتى اختار له ما عنده فخلّى على الناس أمورهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين ، فاختروني عليهم واليا ، ولأموهم راعيا ، فتوليت ذلك وما أخاف بعون الله وتسديده وهنا ولا حيرة وجبنا ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . وما أنفكُ يبلغنى عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ، يتخذكم لجأ فتكونوا حصنه المنيع ، وخطبه البديع . فإما دخلتم فيما دخل فيه الناس أو صرفتموهم عما مالوا إليه ، فقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك فى هذا الأمر نصيبا ، ولن بعدك من عقبك ، وإذ كنت عم رسول الله — ﷺ — وإن كان المسلمون قد رأوا مكانك من رسول الله — ﷺ — ومكان أهلِكَ ثم عدلوا بهذا الأمر عنكم ، وعلى رسلكم بنى هاشم فإن رسول الله — ﷺ — منا ومنكم .

فاعترض كلامه عمر . وخرج إلى مذهبه فى الخشونة والوعيد وإتيان

الأمر من أصعب جهاته فقال :

— إى والله ، وأخرى إنا لم نأتكم حاجة إليكم ولكن كرها أن يكون
الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم ، فيتفاقم الخطب بكم وبهم .
فانظروا لأنفسكم ولعامتهم .

ثم سكت فتكلم العباس شيخ بنى هاشم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم
قال :

— إن الله ابتعث محمدا نبيا كما وصفت . ووليا للمؤمنين ، فمن الله به
على أمته حتى اختار له ما عنده . فخلئى الناس على أمرهم ليختاروا
لأنفسهم مصيبين للحق مائلين عن زيغ الهوى . فإن كنت برسول الله
طلبت فحقنا أخذت . وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم ، ما تقدمنا فى أمركم
قرطا ، ولا حللنا وسطا ، ولا نرحنا شخطا . فإن كان هذا الأمر يجب لك
بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين ، وما أبعد قولك إنهم طعنوا من قولك
أنهم مالوا إليك . وأما ما بذلت لنا فإن يكن حقا أعطيتناه فأمسكه
عليك ، وإن يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه . وإن يكن حقنا لم
نرض لك ببعضه دون بعض . وما أقول هذا أروم صرفك عما دخلت
فيه ، ولكن للحجة نصيبها من البيان .

وأما قولك إن رسول الله ﷺ — منا ومنكم ، فإن رسول الله —
ﷺ من شجرة نحن أغصانها وأنتم جيرانها . وأما قولك يا عمر إنك
تخاف الناس علينا ، فهذا الذى قدمتموه أول ذلك ، والله المستعان .
ونخرج أبو بكر وعمر من عند شيخ بنى هاشم ولم يستطيعا أن يقنعا
ببيعة ابن أبى قحافة . وبقي شيخ بنى أمية ، إنه قدم إلى المدينة وإنه ليقول :
إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ، فكلم عمر أبا بكر فقال :

— إن أبا سفيان قد قدم وإنما لا نأمن شره .
فدفع له أبو بكر ما كان في يده ، ما كان قد جمعه من الصدقات ،
فأخذ المال ثورة شيخ بنى أمية .
وراح الناس يتحدثون عن بيعة أبي بكر ، فقال لهم سلمان الفارسي :
— أصبتم ذا السن منكم وأخطأتم أهل بيت نبيكم ، لو جعلتموها فيهم
ما اختلف عليكم اثنان ولا كلمتموها رغدا .
وكان أبو ذر الغفاري غائبا لما مات رسول الله ﷺ ، وقدم وقد
بايع الناس أبا بكر فقال :
— أصبتم قناعة ، وتركتهم قرابة ، لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم
لما اختلف عليكم اثنان .
 واجتمع قوم من الأنصار وقوم من المهاجرين فتعابوا فيما بينهم ، فقال
عبد الرحمن بن عوف :
— يا معشر الأنصار إنكم وإن كنتم أولى فضل ونصر وسابقة ، ولكن
ليس فيكم مثل أبي بكر ولا عمر ولا علي ولا أبي عبيدة .
فقال زيد بن أرقم :
— إنما لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن ، وإن منا لسيد الأنصار
سعد بن عباد ، ومن أمر الله رسوله أن يقرئه السلام وأن يأخذ عنه القرآن
أبى بن كعب ، ومن يجئ يوم القيامة إمام العلماء معاذ بن جبل ،
ومن أمضى رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن
ثابت . وإنما نعلم أن ممن سميت من قريش من لو طلب هذا الأمر لم ينزعه
فيه أحد : علي بن أبي طالب .

— ٦٣ —

وقيل لأبي قحافة :

— قد ولي ابنك الخلافة .

فقرأ :

— ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾

ثم قال :

— لم ولوه ؟

— لسنه .

— أنا أسن منه .

٨

أدرج — ﷺ — في أكفانه ووضع على سريره ثم وضع على شفير
حفرته ، ثم صار الناس يدخلون عليه رفقاء رفقاء . دخل عليه —
ﷺ — أبو بكر وعمر ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار بقدر ما يسع
البيت ، فقالوا :

— السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .
وسلم المهاجرون والأنصار كما سلم أبو بكر وعمر ، ثم صفوا صفوفاً
لا يؤمهم أحد وكان أبو بكر في الصف الأول الذي حيال الرسول —
ﷺ — فقال أبو بكر :

— اللهم إنا نشهد أنه — ﷺ — قد بلغ ما أنزل إليه .

— آمين .

— ونصح لأمته .

— آمين .

— وجاهد في سبيلك حتى أعز الله دينه وتمت كلمته .

— آمين .

— فاجعلنا إلهنا من أتبع القول الذي أنزل معه ، واجمع بيننا وبينه حتى
تعرفه بنا وتعرفنا به فإنه كان بالمؤمنين رعوفاً رحيماً . لا نبتغي بالإيمان به
بدلاً ، ولا نشترى به ثمناً أبداً .

— آمين .

واختلفوا في الموضع الذى يدفن فيه فمن قائل :

— يدفن في البقيع .

ومن قائل :

— ينقل ويدفن عند إبراهيم الخليل .

فقال أبو بكر :

— إن عندى في هذا خيرا . سمعت رسول الله — ﷺ — يقول :

« لا يدفن نبي إلا حيث قبض » .

والحدوا له — ﷺ — لحداً لقوله — ﷺ — : « ألدوا ولا تشقوا ،

فإن اللحد لنا والشق لغيرنا » .

ودخل قبره — ﷺ — العباس وعلى والفضل بن العباس بين النشيج

والنحيب ، وأخذ شقران مولاه قطيفة كان رسول الله — ﷺ — يلبسها

ويفترشها فقفدها إلى القبر وقال :

— والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً .

وكان أهل بيت النبى — ﷺ — مجتمعين يكون تلك الليلة لم يناموا ،

فسمعوا صوت المساحى فصاحوا وصاح أهل المسجد فارتجت المدينة

صيحة واحدة . ودخل على بن أبى طالب على فاطمة الزهراء وهو واله

حزين فقالت له :

— دفنتم رسول الله — ﷺ — ؟

— نعم .

— كيف طابت قلوبكم أن تحنوا التراب عليه ؟ كان نبى الرحمة .

— نعم ولكن لا راد لأمر الله .

(وفاة الرسول)

وأذن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبي ﷺ — بكى وانتحب فزاد المسلمين حزنا .

وأشرقت الشمس فجلس أبو بكر على منبر الرسول ﷺ — فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :
— أيها الناس ، إني قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأيي وما وجدت في كتاب الله ولا كانت عهدا عهدا إلى رسول الله ﷺ —
ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا ، وأن الله قد أبقي فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه .

فبايع الناس أبا بكر ببيعة العامة بعد بيعة السقيفة ، ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس إن الله الجليل الكريم العليم الحكيم الرحيم الخليم بعث محمدا بالحق ، وأنتم معشر العرب كما قد علمتم من الضلالة والفرقة ، ألف بين قلوبكم ، ونصركم به ، وأيدكم ، ومكن لكم دينكم ، وأورثكم سيرته الراشدة المهدية ، فعليكم بحسن الهدى ولزوم الطاعة .

وقد استخلف الله عليكم خليفة ليجمع به ألفتكم ، ويقيم به كلمتكم ، فأعينوني على ذلك بخير . ولم أكن لأبسط يداي لسانا على من لم يستحل ذلك إن شاء الله .

وايم الله ما حرصت عليها ليلا ولا نهارا ، ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية . ولقد قلدت أمرا عظيما ما لي به طاقة ولا يد ، ولوددت أني وجدت أقوى الناس عليه مكاني ، فأطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت

الله فلا طاعة لي عليكم .

ثم بكى وقال :

— اعلّموا أيها الناس أني لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ،
ولوددت أن بعضكم كفانيه . ولئن أخذتموني بما كان الله يقيم به رسوله من
الوحي ما كان ذلك عندي وما أنا إلا كأحدكم ، فإذا رأيتموني قد
استقممت فاتبعوني ، وإن زغت فقوموني .

واعلموا أن لي شيطانا يعتريني أحيانا ، فإذا رأيتموني غضبت
فاجتنبوني ، لا أؤثر بأشعاركم وأبشاركم .

ثم نزل . وكان عليّ بن أبي طالب والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي
وأبو ذر الغفاري والبراء في بيت فاطمة ، فجاءهم عمر ثم قال لعليّ :

— قم فبايع لأبي بكر .

فتلكأ واحتبس ، فأخذ بيده فقال :

— قم .

فأبى عليّ أن يقوم ، فحمله ودفعه فأخرجه ، ورأت فاطمة ما صنع
بزوجها فقامت على باب الحجرة وقالت :

— يا أبا بكر ، ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله ، والله لا
أكمل عمر حتى ألقى الله .

وجيء بعليّ بن أبي طالب إلى أبي بكر وهو يقول :

— أنا عبد الله ، أخو رسول الله .

فقليل له :

— بايع .

— أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايكم وأنتم أولى بالبيعة لي . أخذتم

هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي — ﷺ — وتأخذونه منا أهل البيت غصبا . أستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة وسلموا إليكم الإمارة ؟ فإذا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ؛ نحن أولى برسول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون .

فقال له عمر :

— إنك لست متروكا حتى تبائع .

فقال له علي :

— احلب له حلبا لك شطره ، وشد له اليوم يردده عليك غدا .

ثم قال :

— والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايه .

فقال له أبو بكر :

— إن لم تبائع فلا أكرهك .

فقال أبو عبيدة بن الجراح :

— يا بن عم إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمر . ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالا واستطلاعا ، فسلم لأبي بكر هذا الأمر فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليف وحقيق ، في فضلك ودينك ، وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

فقال علي كرم الله وجهه :

— الله الله يا معشر المهاجرين ! لا تخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم ، وتدفعون أهله عن مقامه في

الناس وحقه . فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المتطلع لأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية . والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدا .

وقال بشير بن سعد الأنصارى :

— لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علىّ قبل بيعتها لأبى بكر ، ما اختلف عليك .

وكان خالد بن الوليد شيعة لأبى بكر ومن المنحرفين عن علىّ ، فقام خطيبا فقال :

— أيها الناس إنا رُمينا في بدء هذا الدين بأمر ثقل علينا والله محمله ، وصعب علينا مرتقاه ، وكنا كأننا فيه على أوتار . ثم والله ما لبثنا أن خف علينا ثقله ، وأذل لنا صعبه ، وعجبنا ممن شك فيه بعد عجبنا ممن آمن به ، حتى أمرنا بما كنا ننهى عنه ، ونهينا عما كنا نأمر به ، ولا والله ما سبقنا إليه بالعقول ، ولكنه التوفيق .

ألا وإن الوحي لم ينقطع حتى أحكم ، ولم يذهب النبي — ﷺ —
فستبدل بعده نبيا ولا بعد الوحي وحيا . ونحن اليوم أكثر منا أمس ،
ونحن أمس خير منا اليوم . من دخل في هذا الدين كان ثوابه على
حسب عمله ، ومن تركه رددناه إليه . وإنه والله ما صاحب الأمر —
يعنى أبابكر — بالمسئول عنه ولا المختلف فيه ، ولا الخفى الشخص
ولا المغموز القناة .

وندم قوم كثير من الأنصار على بيعه أبى بكر ولام بعضهم بعضا ،

وذكروا عليّ بن أبي طالب وهتفوا باسمه وإنه في داره لم يخرج إليهم .
وجزع لذلك المهاجرون وكثر في ذلك الكلام ، وكان أشد قريش على
الأنصار سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل .

فلما اعتزلت الأنصار تجمع المهاجرون ، فقام سهيل بن عمرو فقال :
— يا معشر قريش إن هؤلاء القوم قد سماهم الله الأنصار وأثنى عليهم
في القرآن ، فلهم بذلك حظ عظيم وشأن غالب . وقد دَعُوا إلى أنفسهم
وإلى عليّ بن أبي طالب وعليّ في بيته لو شاء لردهم ، فادعوهم إلى
صاحبكم وإلى تجديد بيعته ، فإن أجابوكم وإلا فقاتلوهم ، فوالله إني
لأرجو الله أن ينصركم عليهم كما نُصِرتم بهم .

ثم قام الحارث بن هشام فقال :

— إن يكن الأنصار تبوأ الدار والإيمان من قبل ونقلوا رسول الله —
ﷺ — إلى دورهم من دورنا ، فأووا ونصروا ، ثم مارضوا حتى قاسمونا
الأموال وكفونا العمل ، فإنهم قد لهجوا بأمر إن ثبتوا عليه فإنهم قد
خرجوا مما وسما به ، وليس بيننا وبينهم معاتبة إلا السيف ، وإن نزعوا عنه
فقد فعلوا الأولى بهم والمظنون معهم .

ثم قام عكرمة بن أبي جهل فقال :

— والله لو لا قول رسول الله — ﷺ : « الأئمة من قريش » ما أنكرنا
إمرة الأنصار ، ولكانوا لها أهلا ؛ ولكنه قول لا شك فيه ولا خيار . وقد
عجلت الأنصار علينا . والله ما قبضنا عليهم الأمر ولا أخرجناهم من
الشورى ، وإن الذى هم فيه من فلتات الأمور ونزعات الشيطان وما
لا يبلغه المنى ولا يحمله الأمل .

اعذروا إلى القوم ، فإن أبوا فقاتلوهم ، فوالله لو لم يبق من قريش

— ٧١ —

كلها إلا رجل واحد لصير الله هذا الأمر فيه .

وحضر أبو سفيان بن حرب فقال :

— يا معشر قريش إنه ليس للأنصار أن يتفضلوا على الناس حتى يقرأوا بفضلنا عليهم ، فإن تفضلوا فحسبنا حيث انتهى بها ، وإلا فحسبهم حيث انتهى بهم . وإيم الله لئن بطروا المعيشة وكفروا النعمة لنضربنهم على الإسلام كما ضربوا عليه ، فأما علي بن أبي طالب فأهل والله أن يسود على قريش وتطيعه الأنصار .

فلما بلغ الأنصار قول هؤلاء الرهط قام خطيبهم ثابت بن قيس بن شماس فقال :

— يا معشر الأنصار إنما يكبر عليكم هذا القول لو قاله أهل الدين من قريش ، فأما إذا كان من أهل الدنيا لا سيما من أقوام كلهم موتور ، فلا يكبرن عليكم . إنما الرأي والقول مع الأخيار المهاجرين ، فإن تكلمت رجال قريش الذين هم أهل الآخرة مثل كلام هؤلاء ، فعند ذلك قولوا ما أحببتم وإلا فأمسكوا .

وقال حسان بن ثابت :

تنادى سهيل وابن حرب وحارث -

وعكرمة الشاني لنا ابن أبي جهل

قتلنا أباه وانتزعنا سلاحه

فأصبح بالبطخا أذل من النعل

فأما سهيل فاحتواه ابن دحشم

أسيرا ذليلا لا يمر ولا يُحلى

وضخر بن حرب قد قتلنا رجاله

غداة لوا بدر فمرجله يُغلى

— ٧٢ —

وراكضنا تحت العجاجة حارث
على ظهر جرداء كباسقة النحل
يقبّلها طورا وطورا يحثها
ويعدها بالنفس والمال والأهل
أولئك رهط من قريش تبايعوا
على خطة ليست من الخطط الفضل
فبلغ شعر حسان قريشا فغضبوا وأمروا ابن أبي عزة شاعرهم أن يجيبه ،
فقال :

معشر الأنصار خافوا ربكم
واستجبروا الله من شر الفتن
إنسى أرهب حربا لأقحبا
يشرق الموضع فيها باللبس
جرها سعد وسعد فتنة
ليت سعد بن عباد لم يكن
ليس ما قدر سعد كائنا
ما جرى البحر وما دام حزن
ليس بالقاطع منا شعرة
كيف يُرجى خير أمر لم يحن
ليس بالمدرّك منها أبدا
غير أضعاث أمانى الوسن
وقسم أبو بكر العطاء بين نساء المهاجرين والأنصار فبعث إلى امرأة من
بنى عدى بن النجار قسمها مع زيد بن ثابت ، فقالت :
— ما هذا ؟

— ٧٣ —

— قسم قسمه أبو بكر للنساء .

— أتراشوننى على دينى ! والله لا أقبل منه شيئا !
فردته عليه .

وأكرمت قريش معن بن عدى وعويم بن ساعدة ، فاجتمعت الأنصار
لهما فى مجلس ودعوهما . فلما أحضرا أقبلت الأنصار عليهما فغيروهما
بانطلاقهما إلى المهاجرين ، وأكبروا فعلهما فى ذلك ، فتكلم معن فقال :
— يا معشر الأنصار إن الذى أراد الله بكم خير مما أردتم بأنفسكم ،
وقد كان منكم أمر عظيم البلاء وصغرت العافية ، فلو كان لكم على قريش
ما لقريش عليكم ثم أردتموهم لما أرادوكم به ، لم آمن عليهم منكم مثل
ما آمن عليكم منهم ، فإن تعرفوا الخطأ فقد خرجتم منه وإلا فأنتم فيه .
وتكلم عويم بن ساعدة ، فقال :

— يا معشر الأنصار إن من نعم الله عليكم أنه تعالى لم يرد بكم ما أردتم
بأنفسكم ، فاحمدوا الله على حسن البلاء وطول العافية وصرف هذه البلية
عنكم . وقد نظرت فى أول فتنتكم وآخرها فوجدتها جاءت من الأمانى
والحسد . واحذروا النقم فوددت أن الله صير إليكم هذا الأمر بحقه فكنا
نعيش فيه .

فوثبت عليهما الأنصار فأغلظوا لهما وفحشوا عليهما وانبرى لهما فروة
ابن عمرو فقال :

— أنسيتم قولكما لقريش : « إنا قد خلفنا وراءنا قوما قد حلت
دماؤهم بفتنتهم » ؟ هذا والله ما لا يغفر ولا ينسى . قد تصرف الحية عن
وجهها وسمها فى نابها .

كان على بن أبى طالب فى داره وكان أصحابه يمضون إليه بما يدور بين

الأنصار والمهاجرين فكان يستشعر خوفا على الإسلام وأهله . وارتفع صوت بلال بالأذان فخطر لعلّي خاطر : إن ذلك الأذان سيرفع من الأرض لو أن المهاجرين مشوا إلى الأنصار وكان بينهم قتال ، إنها الفتنة . وجاء إليه رسول خليفة رسول الله ﷺ — يسأله الخروج لبيعة أبي بكر ويخوفه الفتنة لو أخر ، فخرج عليّ بن أبي طالب إلى أبي بكر ، فلما رآه الصديق قال :

— أيها الناس هذا عليّ بن أبي طالب ، لا بيعة لي في عنقه وهو بالخيار من أمره ، ألا وأنتم بالخيار جميعا في بيعتكم ، فإن رأيتم لها غيري فأنا أول من يبايعه .

فقال عليّ :

— ما غضبنا إلا في المشورة ، وإننا لنرى أبا بكر أحق الناس بها . إنه لصاحب الغار ، وإننا لنعرف له سنه ، ولقد أمره رسول الله ﷺ — بالصلاة وهو حي . لا نرى غيرك ؛ امدد يدك .

وبايع عليّ بن أبي طالب أبا بكر ، فأقبل الناس على عليّ فقالوا :

— أصبت يا أبا الحسن وأحسن .

وبعث إلى سعد بن عبيدة :

— أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك .

فقال سعد في غضب :

— أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبلي وأخضب سنان رنحي وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي . فلا أفعل وإيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلم ما حسبي .

— ٧٥ —

فلما أوتى أبو بكر بذلك قال له عمر :

— لا تدعه حتى يبايع .

فقال له بشير بن سعد :

— إنه قد لج وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه فليس تركه بضاركم وإنما هو رجل واحد .

فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد؛ ثم إن الأنصار أصلحوا بين معن وعويم بن ساعدة وبين أصحابهما. ثم اجتمعت جماعة من قريش يوما وفيهم ناس من الأنصار وأخلاط من المهاجرين وذلك بعد انصراف الأنصار عن رأيها وسكون الفتنة، فاتفق ذلك عند قدوم عمرو بن العاص من سفر كان فيه، فجاء إليهم فأفاضوا في ذكر يوم السقيفة وسعد ودعواه الأمر، فقال عمرو بن العاص :

— والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عظيمة ولما دفع عنهم أعظم ، كادوا والله أن يحلوا جبل الإسلام كما قاتلوا عليه ويخرجوا منه من أدخلوا فيه . والله لئن كانوا سمعوا قول رسول الله — ﷺ : « الأئمة من قريش » ثم ادعوا لها لقد هلكوا وأهلكوا ؛ وإن كانوا لم يسمعوها فلما هم كالمهاجرين ولا سعد كأبى بكر ولا المدينة كمكة . ولقد قاتلونا أس فغلبونا على البدء ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة .

فلم يجبه أحد وانصرف إلى منزله وقد ظفر ، فقال :

ألا قل لأوس إذا جيئها وقل إذا جيئت للخزرج
تمنئتم الملك في يثرب فأنزلت القدر لم تنضج

وأخذ جثم الأمر قبل التما م وأعجب بهذا المعجل المخدج^(١)
 تريدون نتج الحيال العسا ر ولم تلقحوه فلم ينتج
 عجبت لسعد وأصحابه ولو لم يهيجوه لم ينتج
 رجا الخزر جى رجاء السراب وقد يخلف المرء ما يرتجى
 فكان كمنح على كفه بكف يقطعها أهوج

فلما بلغ الأنصار مقالته وشعره بعثوا إليه لسانهم وشاعرهم النعمان بن العجلان وكان رجلاً أحمر قصيراً تزدرية العيون ، وكان سيداً فخماً ، فأتى عمرا وهو في جماعة من قريش فقال :

— والله يا عمرو ما كرهتم من حربنا إلا ما كرهنا من حربكم . وما كان الله ليخرجكم من الإسلام بمن أدخلكم فيه .

إن كان النبي — ﷺ — قال : « الأئمة من قريش » فقد قال : « لو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلك شعب الأنصار » . والله ما أخرجناكم من الأمر إذ قلنا : منا أمير ومنكم أمير . وأما من ذكرت فأبو بكر لعمرى خير من سعد ، ولكن سعدا في الأنصار أطوع من أبى بكر في قريش . فأما المهاجرون والأنصار فلا فرق بينهم أبدا ، ولكنك يا بن العاص وثرت بنى عبد مناف بمسيرك إلى الحبشة لقتل جعفر وأصحابه ، ووثرت بنى مخزوم بإهلاك عمارة بن الوليد . ثم انصرف فقال :

فقل لقريش نحن أصحاب مكة

ويوم حنين والفوارس في بدر

(١) المخدج : الناقص ويقال أخذج الأمر : اذا لم يحكمه .

— ٧٧ —

وأصحاب أحد والنضير وخير
 ونحن رجعنا من قريظة بالذكر
 ويوم بأرض الشام أدخل جعفر
 وزيد وعبد الله في علق يجري
 وفي كل يوم ينكر الكلب أهله
 نطاعن فيه بالثقفة السمر
 ونضرب في نقع العجاجة رؤسا
 يبيض كأمثال البروق إذا تسرى
 نصرنا وآوينا النبي ولم نخف
 صروف الليالي والعظيم من الأمر
 وقلنا لقوم هاجروا قبل : مرحبا
 وأهلا وسهلا قد أمنتم من الفقر
 نقاسمكم أموالنا وبيوتنا
 كقسمة أيسار الجزور على الشطر
 ونكفيكم الأمر الذي تكرهونه
 وكنا أناسا نذهب العسر باليسر
 وقلم : حرام نصب سعد ونصبكم
 عتيق بن عثمان حلال أبا بكر
 وأهل أبو بكر لها خير قائم
 وإن عليا كان أخلق بالأمر
 وكان هوانا في علي وإنه
 لأهل لها يا عمرو من حيث لا تدري

— ٧٨ —

فذاك بعون الله يدعسو إلى الهدى
وينهى عن الفحشاء والبغى والنكر
وصى النبي المصطفى وابن عمه
وقاتل فرسان الضلالة والكفر
وهذا بحمد الله يهدي من العمى
ويفتح آذاننا ثقلن من الوقس
نجي رسول الله في الفسار وحده
وصاحبه الصديق في سالف الدهر
فلولا اتقاء الله لم تذهبوا بها
ولكن هذا الخير أجمع للصبر
ولم نرض إلا بالرضا ولسرهما
ضربنا بأيدينا إلى أسفل القدر

فلما انتهى شعر النعمان وكلامه إلى قريش غضب كثير منها ، وألقى
ذلك قدوم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن ، وكان رسول الله —
ﷺ — استعمله عليها ، وكان هوى خالد مع علي بن أبي طالب ،
فغضب للأنصار وشتم عمرو بن العاص وقال :

— يا معشر قريش إن عمرا دخل في الإسلام حين لم يجد بدا من
الدخول فيه ، فلما لم يستطع أن يكيده بيده كاده بلسانه ، وإن من كيده
الإسلام تفريقه وقطعه بين المهاجرين والأنصار . والله ما حاربنا للدين ولا
للدنيا . لقد بذلوا دماءهم لله تعالى فينا وما بذلنا دماءنا لله فيهم ، وقاسمونا
ديارهم وأموالهم وما فعلنا مثل ذلك بهم ، وآثرونا على الفقر وحرمانهم ،
ولقد وصى رسول الله بهم وعزاهم عن جفوة السلطان ، فأعوذ بالله أن

أكون وإياكم الخلف المضيع والسلطان الجانى .

ثم إن رجالا من سفهاء قريش ومثيرى الفتن منهم اجتمعوا إلى عمرو بن العاص فقالوا له :

— إنك لسان قريش ورجلها فى الجاهلية والإسلام ، فلا تدع الأنصار وما قالت .

وأكثروا عليه فى ذلك فراح إلى المسجد وفيه ناس من قريش وغيرهم ، فتكلم وقال :

— إن الأنصار ترى لنفسها ما ليس لها ، وإيم الله لوددت أن الله خلّى عنا وعنهم وقضى فيهم وفينا بما أحب ، ونحن الذين أفسدنا على أنفسنا ، أخرناهم عن كل مكروه ، وقدمناهم إلى كل محبوب ، حتى أمتوا الخوف ، فلما جاز لهم ذلك صغروا حقنا ، ولم يراعوا ما أعظمنا من حقوقهم .

ثم التفت فرأى الفضل بن العباس بن عبد المطلب وندم على قوله للخبثولة التى بين ولد عبد المطلب وبين الأنصار ، ولأن الأنصار كانت تعظم عليا وتهتف باسمه حينئذ ، فقال الفضل :

— يا عمرو إنه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة ، إلا أن يأمرنا فنفعل .

ثم رجع الفضل إلى عليّ فحدثه ، فغضب وشم عمرا وقال :

— أذى الله ورسوله .

ثم قام فأتى المسجد فاجتمع إليه كثير من قريش ، وتكلم مغضبا فقال :

— يا معشر قريش إن حب الأنصار إيمان وبغضهم نفاق ، ولقد قضا ما علمهم وبقي ما عليكم . واذكروا أن الله رغب لبيكم عن مكة فنقله إلى

المدينة ، وكره له قريشا فنقله إلى الأنصار . ثم قدمنا عليهم دارهم فقاسمونا الأموال وكفونا العمل ، فصرنا منهم بين بذل الغنى وإيثار الفقر . ثم حاربنا الناس فوقونا بأنفسهم . وقد أنزل الله تعالى فيهم آية من القرآن جمع لهم فيها بين خمس نعم ، فقال ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١)

ألا وإن عمرو بن العاص قد قام مقاماً آذى فيه الميت والحى ، ساء به الواتر وسر به الموتور ، فاستحق من المستمع الجواب ومن الغائب المقت . وإنه من أحب الله ورسوله أحب الأنصار ، فليكف عمرو عنا نفسه . فمشت قريش عند ذلك إلى عمرو بن العاص فقالوا :
— أيها الرجل أما إذا غضب على فاكف .
وقال على للفضل :

— يا فضل انصر الأنصار بلسانك ويدك ، فإنهم منك وإنك منهم .
فقال الفضل :

قلت يا عمرو مقالا فاحشا	إن تعد يا عمرو والله فلك
إنما الأنصار سيف قاطع	من تصبه طبة السيف هلك
وسيوف قاطع مضر بها	وسهام الله في يوم الحلك
نصروا الدين وأووا أهله	منزل رحب ورزق مشترك
وإذا الحرب تلسظت نارها	بركوا فيها إذا الموت برك

ودخل الفضل على عليّ فأسمعه شعره ففرح به وقال :
 — وريت بك زنادى يا فضل ، أنت شاعر قریش وفتاها ، فأظهر
 شعرك وابعث به إلى الأنصار .
 فلما بلغ ذلك الأنصار قالت :
 — لا أحد يجيب إلا حسان الحسام .
 فبعثوا إلى حسان بن ثابت فعرضوا عليه شعر الفضل ، فقال :
 — كيف أصنع بجوابه ! إن لم أتحر قوافيه فضحني ، فرويدا حتى أقفوا
 أثره في القوافي .

فقال له خزيمة بن ثابت :
 — اذكر عليا وآله يكفيك كل شيء .
 فقال حسان بن ثابت :
 جزى الله عنا والجزاء بكفه
 أبأ حسن عتّا ومن كأى حسن
 سبقت قریشا بالذى أنت أهله
 فصدرك مشروح وقلبك ممتحن
 تمت رجال من قریش أعزة
 مكانك ، هيات الهزال من السمن
 وأنت من الإسلام في كل موطن
 بمنزلة الدلو البطين من الرسن
 غضبت لنا إذ قام عمرو بخطبة
 أمات بها التقوى وأحيا بها الإحن
 (وفاة الرسول)

— ٨٢ —

فكنت المرجى من لؤى بن غالب
 لما كان منهم والذي كان لم يكن
 حفظت رسول الله فينا وعهده
 إليك ومن أولى به منك ومن ومن !
 ألت أخاه في الهدى ووصيه
 وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن
 فحقك ما دامت بنجد وشيعة
 عظيم علينا ثم بعد على اليمن
 وبعث الأنصار بهذا الشعر إلى علي بن أبي طالب فخرج إلى المسجد ،
 وقال لمن به من قريش وغيرهم :
 — يا معشر قريش إن الله جعل الأنصار أنصاراً فائتني عليهم في
 الكتاب ، فلا خير فيكم بعدهم . إنه لا يزال سفيه من سفهاء قريش رتره
 الإسلام ودفعه عن الحق وأطفأ شرفه وفضل غيره عليه ، يقوم مقاماً فاحشاً
 فيذكر الأنصار . فاتقوا الله وارعوا حقهم ، فوالله لو زالوا لزلت معهم ،
 لأن رسول الله — ﷺ — قال لهم : « أزول معكم حيثما زلت » .
 فقال المسلمون جميعاً :
 — رحلك الله يا أبا الحسن ! قلت قولاً صادقاً .
 ولم يرض عقلاء المهاجرين عن فتنة عمرو بن العاص ، فترك عمرو
 المدينة وخرج عنها حتى رضى عنه على والمهاجرون .
 وقام الوليد بن عقبة بن أبي معيط يشتم الأنصار فقال :
 — إن الأنصار لترى لها من الحق علينا ما لا نراه . والله لئن كانوا آووا
 لقد عزوا بنا ، ولئن كانوا آسوا لقد منوا علينا . والله ما نستطيع مودتهم

لأنه لا يزال قاتل منهم يذكر ذلنا بمكة وعزنا بالمدينة ، ولا ينفكون يعيرون موتانا ويغيظون أحياءنا ، فإن أجبناهم قالوا غضبت قریش على غاربها . ولكن قد هوّن على ذلك منهم حرصهم على الدين أمس . واعتذارهم من الذنب اليوم .

ثم قال :

وتسبّئها في الأزد عمرو بن عامر	تباذخت الأنصار في الناس باسمها
على كل باد من معدّ وحاضر	وقالوا لنا حق عظيم ومنّة
بحرمته الأنصار فضل المهاجر	فإن يك للأنصار فضل فلم تنل
معاشها من جاء قسمة جازر	وإن تكن الأنصار آوت وقاسمت
وما ذاك فعل الأكرمين الأكابر	فقد أفسدت ما كان منها بمنّها
بشتم قریش غنيت في المعاصر	إذا قال حسان وكعب قصيدة
وأعمل فيها كل خف وحافر	وسار بها الركبان في كل وجهة
يقوم بها منكم ومن كل شاعر	فهذا لنا من كل صاحب خطبة
وأهل بأن يرموا بنبل فواقر	وأهل بأن يهجوا بكل قصيدة

ففشا شعره في الناس فغضبت الأنصار ، وغضب لها من قریش قوم منهم ضرار بن الخطاب الفهري وزيد بن الخطاب ويزيد بن أبى سفيان ، فبعثوا إلى الوليد فجاء ، فتكلم زيد بن الخطاب فقال :

— يا بن عقبة بن أبى معيط ، أما والله لو كنت من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا لأحببت الأنصار ، ولكنك من الجفافة في الإسلام البطاء عنه الذين دخلوا فيه بعد أن ظهر أمر الله وهم كارهون ، إنا نعلم أنا أتيناهم ونحن فقراء فأغنوننا ، ثم أصبنا الغنى فكفوا عنا ولم يرزعونا شيئا .

فأما ذكرهم ذلة قريش بمكة وعزها بالمدينة فكذلك كنا وكذلك قال الله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ (١) . فنصرنا الله تعالى بهم وآوانا إلى مدينتهم .
وأما غضبك لقريش فإننا لا ننصر كافرا ولا نواد ملحدا ولا فاسقا ، وقد قلت وقالوا فقطعك الخطيب وألجمك الشاعر .

وأما ذكرك الذى كان فدع المهاجرين والأنصار فإنك لست من ألسنتهم فى الرضا ، ولا نحن من أيديهم فى الغضب .

وتكلم يزيد بن أبى سفيان فقال :
— يا بن عقبة . الأنصار أحق بالغضب لقتلى أحد ، فاكفف لسانك فإن من قتله الحق لا يغضب له .

وتكلم ضرار بن الخطاب فقال :
— أما والله لولا أن رسول الله — ﷺ — قال « الأئمة من قريش » لقلنا الأئمة من الأنصار . ولكن جاء أمر غلب رأى ، فأقمع شرتك أيها الرجل ولا تكن امرأ سوء ، فإن الله لم يفرق بين الأنصار والمهاجرين فى الدنيا ، وكذلك الله لا يفرق بينهم فى الآخرة .

وأقبل حسان بن ثابت مغضبا من كلام الوليد بن عقبة وشعره ، فدخل المسجد وفيه قوم من قريش فقال :

— يا معشر قريش إن أعظم ذنبا إليكم قتلنا كفاركم وحمايتنا رسول الله — ﷺ . وإن كنتم تنقمون منا مئة كانت بالأمن فقد كفى الله

(١) الأنفال ٢٦ .

شرها ، فما لنا وما لكم ؟ والله ما يمنعنا من قتالكم الجبن ولا من جوابكم العي . إنا لحى فعال ومقال ، ولكننا قلنا إنها حرب أولها عار وآخرها ذل ، فأغضينا عليها عيوننا وسحبنا ذيلنا حتى نرى وتروا ، فإن قلتم قلنا وإن سكتم سكتنا .

فلم يبيح أحد من قريش ، ثم سكت كل من الفريقين عن صاحبه ورضى القوم أجمعون وقطعوا الخلاف والعصية .

واحتبس خالد بن سعيد بن العاص عن أبى بكر فلم يبايعه أياما وقد بايع الناس ، وأتى بنى هاشم فقال :

— أنتم الظهر والبطن ، والشعار^(١) دون الدثار ، والعصا دون اللحا ، فإذا رصيتم رصينا وإذا سخطتم سخطنا ، حدثوني إن كنتم قد بايعتم هذا الرجل .

— نعم .

— على برد ورضا من جماعتكم ؟

— نعم .

— فأنا أرضى وأبايع إذا بايعتم : أما والله يا بنى هاشم إنكم الطوال الشجر ، الطيب الثمر .

ثم إنه بايع أبى بكر . وبلغت أبى بكر فلم يحفل بها واضططعتها عليه عمر . واستقرت الخلافة لأبى بكر فافتخرت تيم بنى مرة رهط الصديق ، فقال الفضل بن العباس :

— يا معشر قريش وخصوصا يا بنى تيم ، إنكم إنما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دونكم . ولو طلبنا هذا الأمر الذى نحن أهله لكانت كراهة

(١) الشعار : ما يقى الشعر وهو تحت الدثار .

الناس لنا أعظم من كراهمهم لغيرنا ، حسدا منهم لنا وحقدا علينا . وإنا لنعلم أن عند صاحبنا عهدا هو ينتهي إليه .

وقال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم :
ما كنت أحسب أن الأمر منصرف

. عن هاشم ثم منها عن أبي حسن
أليس أول من صلى لقبلكم

وأعلم الناس بالقرآن والسنن
وأقرب الناس عهدا بالنبي ومن

جبريل عون له في الغسل والكفن
ما فيه ما فيهم لا يمترون به

وليس في القوم ما فيه من الحسن
ماذا الذي ردهم عنه فنعلمه

ها إن ذا عجبنا من أعظم العجب
فبعث إليه على فنهاه وأمره ألا يعود وقال :

— سلامة الدين أحب إلينا من غيره .

* * *

وصعد أبو بكر المنبر ليخطب الناس فقام له الحسن بن علي فقال :
— انزل عن منبر أبي .

فقال أبو بكر في هدوء :

— صدقت والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبي .

فبعث علي إلى أبي بكر :

— إنه غلام حدث وإنا لم نأمره .

فقال أبو بكر :

— صدقت ، إنا لم نتهمك .

ببيع لأبي بكر بالخلافة فأمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ،
وأن يمضى أسامة لما أمر به . ولكنه لم اشتهرت وفاة النبي ﷺ — ظهر
النفاق وقويت نفوس أهل النصرانية واليهودية ، وصارت المسلمون
كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية ، وارتدت طوائف من العرب وقالوا :
— نصلى ولا ندفع الزكاة .

وكلم الناس أبا بكر فقالوا :

— كيف يتوجه هذا الجيش إلى الروم وقد ارتدت العرب حول

المدينة ؟

— والله الذى لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله —
ﷺ — ما أرد جيشا وجهه رسول الله — ﷺ — ولا حلت لواء
عقده . والله لأن تخطفنى الطير أحب إلى من أن أبدا بشيء قبل أمر رسول
الله — ﷺ .

ووقف أسامة بالناس عند الخندق وقال لعمر :

— ارجع إلى خليفة رسول الله — ﷺ — فاستأذنه أن يأذن لى أن
أرجع بالناس ، فإن معى وجوه الناس ولا آمن على خليفة رسول الله —
ﷺ — وثقله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون .

وانطلق عمر ولحقت به الأنصار فقالوا :

— فإن أبى أبو بكر إلا أن يمضى فأبلغه منا السلام ، واطلب منه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة .

فقدم عمر على أبى بكر وأخبره بما قال أسامة ، فقال أبو بكر :
— والله لو تخطفنى الذئاب والكلاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ .

— فإن الأنصار أمرونى أن أبلغك أنهم يطلبون أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة .

فوثب أبو بكر وكان جالسا وأخذ بلحية عمر وقال :
— ثكلتك أمك وعمتك يا بن الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ — وتأمرنى أن أنزعه !

فخرج عمر إلى الناس فقال :
— امضوا ثكلتكم أمهاتكم ، ما لقيت اليوم بسبيكم من خليفة رسول الله ﷺ — خيرا .

فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة ، خرج أسامة فى ثلاثة آلاف فيهم ألف فارس ، ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامه راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبى بكر ، فقال له أسامة :

— يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن .
— والله لا تنزل والله لا أركب . وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة .
حتى إذا انتهى قال :

— ٨٩ —

— إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل .
 فأذن له ، ثم قال أبو بكر لأسامة :
 — اصنع ما أمرك به نبي الله — ﷺ ؛ ابدأ ببلاد قضاة ثم ائت آبل ،
 ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله — ﷺ — ولا تعجلن لما خلقت
 من عهده .

ثم التفت إلى الناس وقال :
 — يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ،
 ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً
 كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ،
 ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما أكله ، وسوف تمرن بأقوام قد
 فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف
 تقدمون على قوم يأتونكم بانية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد
 شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم
 وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خففاً . اندفعوا باسم
 الله .

وانطلق الجيش إلى الشام ، وخرج أبو بكر على ساعده قماش وهو
 ذاهب به إلى السوق فقال له عمر :

— أين تريد ؟

— السوق .

— تصنع هذا وقد وليت أمر المسلمين ؟!

— فمن أين أطعم عيالي ؟

— انطلق يفرض لك أبو عبيدة .

كان بلال خازن الرسول ﷺ — وكان مؤذنه ، وقد اعتزل عمله وامتنع عن الأذان بعد أن قبر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وأصبح أبو عبيدة على بيت مال المسلمين . فانطلق إليه أبو بكر وعمر فقال :

— أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا بأوكسهم ، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف . وإذا أبليت شيئا رددته وأخذت غيره .

ففرض له كل يوم نصف شاة .

وكانت العداوة ناشبة بين غطفان وأسد ، فلما بلغ الحين موت رسول الله ﷺ — قام عيينة بن حصن في غطفان فقال :

— ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد ، وإني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة . والله لأن نتبع نبيا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش . وقد مات محمد وبقي طليحة فطابقوه على رأيه .

ففعل وفعلوا ، فلما اجتمعت غطفان على المطابقة لطليحة هرب ضرار بن الأزور وقضاعي وسان ومن كان قام بشيء من أمر النبي ﷺ — في بني أسد إلى أبي بكر ، ورفض من كان معهم .

وبلغت وفاة رسول الله ﷺ — القبائل العربية من المدينة ، وكان رافع بن أبي رافع الطائي في مجلس مع أصحابه ، فلما سمع بموت الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال :

— من وليه ؟

— أبو بكر .

فشرد رافع بن أبى رافع يتذكر ذلك اليوم الذى بعث رسول الله — ﷺ — جيشا فأمر عليهم عمرو بن العاص وفيهم أبو بكر وعمر أن يستنفروا من مروا به ، فمروا على طئ فاستنفروهم فنفروا معهم فى غزاة ذات السلاسل ، فقال رافع فى نفسه :

— والله لأختارن فى هذه الغزاة لنفسى رجلا من أصحاب رسول الله — ﷺ — أستهديه ، فإنى لست أستطيع إتيان المدينة .

فاختار أبا بكر وكان له كساء فدكى يجمع بين طرفيه بخلال من عود أو حديد إذا ركب ، ويلبسه إذا نزل ، فلما قضوا غزاتهم قال :
— يا أبا بكر إني قد صحبتك وإن لى عليك حقا ، فعلمنى شيئا أنتفع به .

— قد كنت أريد ذلك لو لم تقل لى : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتحتج البيت ، وتصوم شهر رمضان ، ولا تتأمر على رجلين .

— أما العبادات فقد عرفتها . أرايت نبيك لى عن الإمارة ! وهل يصيب الناس الخير والشر إلا بالأمانة ؟!

— إنك استجهدتنى فجهدت لك . إن الناس دخلوا فى الإسلام طوعا وكرها فأجارهم الله من الظلم ، فهم جيران الله وعواد الله وفى ذمة الله ، فمن يظلم منكم إنما يحقر ربه . والله إن أحدكم لياخذ شوية جاره أو بعيره فيظلل عمله بأسا بجاره ، والله ومن وراء جاره .

فشد رافع بن أبى رافع الطائى على راحلته وهو يعجب فى نفسه كيف رضى أبو بكر أن يستخلف بعد رسول الله — ﷺ — ، وكان ينهائهم عن الإمارة ! فأتى المدينة فجعل يطلب خلوة الصديق حتى قدر عليها فقال :

— ٩٢ —

— أتعرفني ؟ أنا رافع بن أبي رافع الطائي . أتعرف وصية أوصيتني

بها ؟

— نعم . إن رسول الله ﷺ — قبض والناس حديثو عهد بالجاهلية ، فخشيت أن يفتنوا وإن أصحابي حملونيها .

فما زال أبو بكر يعتذر إليه حتى عذره .

وأنت فاطمة الزهراء والعباس بن عبد المطلب أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ ، كانا يطلبان أرض فذك وسهمه من خير ، فقالت فاطمة :

— أنت ورثت رسول الله أم أهله ؟

— لا ، بل أهله .

— من يرثك إذا مت ؟

— ولدي وأهلي .

— فما لنا لا نرث رسول الله ﷺ ؟

— سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن النبي لا يورث » . ولكني أعول من كان رسول الله يعول ، وأنفق على من كان رسول الله ينفق .

وفكرت فاطمة فهي لم تسمع ذلك من أبيها ، وقد علمت أن أزواج النبي ﷺ — أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر ليسألنه ميراثهن ، فقالت عائشة : « أليس قد قال رسول الله ﷺ » « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ؟ إنها لو كانت قد سمعت ذلك من أبيها — صلوات الله وسلامه عليه — ما طالبت بميراثه ، ولكنها كانت تقرأ في كتاب الله : ﴿ وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا

منطق الطير ﴿١﴾ . ﴿كهيصص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإني خفت الموالى من ورائى وكانت امرأى عاقرا فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا﴾ ﴿٢﴾ .

وسأله فاطمة أن ينتظر علي بن أبى طالب على تلك الأرض وذلك السهم ، فقال :

— لست بالذى أقسم من ذلك شيئا ، ولست تاركا شيئا كان رسول الله ﷺ — يعمل به فيها إلا عملته .

وإني أخشى إن تركت أمره أو شيئا من أمره أن أزيغ .
فقامت فاطمة مغضبة وساء أبا بكر غضبها . إنها غضبت من قبل على عمر وقالت إنها لن تكلمه حتى تلقى ربه ، والتقى الصاحبان فقال عمر لأبى بكر :

— انطلق بنا إلى فاطمة فإننا قد أغضبناها .
فانطلقا جميعا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما عليها . فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال .
— يا حبيبة رسول الله . والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتي ، وإنك أحب إلي من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك أنى مت لا أبقى بعده . أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك

وميراثك من رسول الله ؟ ألا إني سمعت أباك رسول الله — ﷺ — يقول : « لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » .
— أرايتكما إن حدثكما عن رسول الله — ﷺ — تعرفانه وتفعلان به ؟

— نعم .
— نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني .
— نعم ، سمعناه من رسول الله — ﷺ — .
— فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتاني وما أرضيتاني ، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه .
فقال أبو بكر :

— أنا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة .
ثم انتحب يبكي وخرج باكيا ، فاجتمع إليه الناس فقال لهم :
— يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله ، وتركتموني وما أنا فيه . لا حاجة لي في بيعتكم ، أقبلوني بيعتكم .
— يا خليفة رسول الله إن هذا الأمر لا يستقيم وأنت أعلمنا بذلك ، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين .
— والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة ، ما بت ليلة ولي في عنق مسلم بيعة بعدما سمعت من فاطمة .

وودت عائشة أن تعلم السر الذي أفضى به النبي — ﷺ — إلى فاطمة قبل موته . إن فاطمة جاءت إليه — صلوات الله وسلامه عليه — لما دخل بيت عائشة وقد اجتمع نساؤه عنده ، تمشي لا تخطي مشيتها مشية

— ٩٥ —

أيها ، فلما رآها — ﷺ قال :

— مرحبا يا بنتي .

فأقعدها عن يمينه ثم سارها بشيء فبكّت ، ثم سارها فضحكت ،
فقال لها عائشة :

— خصك رسول الله بالسرار وأنت تبكين ؟

وقامت فاطمة فهرعت عائشة إليها وقالت :

— أخبريني ما سارك ؟

— ما كنت لأفشي سر رسول الله .

* * *

وأّت فاطمة بالحسن والحسين إليه فقالت :

— يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئا .

— أما الحسن فإن له هيبتي وسؤددى ، وأما الحسين فإن له جرأتى

وجودى .

* * *

إن عائشة لم تنس ذلك اليوم ، وقد لحق صلوات الله وسلامه بالرفيق
الأعلى فلن يعد هناك ما يوجب أن تكتم فاطمة ذلك السر الذى كان بينها
وبين أبيها — صلوات الله وسلامه عليه . فذهبت عائشة إلى فاطمة الزهراء
وقالت :

— أسألك لما لى عليك من الحق لما أخبرتنى ما سارك ؟

— أما الآن فنعم! سارنى فى أول الأمر قال لى: إن جبريل كان يعارضنى

فى القرآن كل سنة مرة وقد عارضنى فى هذا العام مرتين .

ولا أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى ، فاتقى الله واصبرى فنعم السلف أنا لك .

فبكيت . ثم سارنى فقال: أما ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين؟

ذاع خبر موت رسول الله ﷺ في القبائل القريبة من المدينة، فجاء رجال من عبس وذيبيان وكلموا أبا بكر في أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة، فراح أصحاب رسول الله ﷺ — يتشاورون في الأمر، فقال أبو بكر في حزم :

— والله لو منعوني عناقاً (عتزا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلهم على منعه .

وكان رجال من الصحابة يرون موادعة القوم . فأسامه بن زيد وجلة الأنصار والمهاجرين قد انطلقوا إلى الشام لقتال الروم انتقاماً لمقتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رواحة يوم مؤتة . وكان عمر بن الخطاب من مؤيدي ذلك الرأي فقال لخليفة رسول الله :

— كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحبها وحسابهم على الله .

فقال أبو بكر لعمر في شدة :

— أجبّار في الجاهلية خوّار في الإسلام ! والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال . وقد قال : إلا بحبها .

وما هو إلا أن رأى عمر الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرف أنه

الحق ، ورجع وفد عيس وذيان إلى عشائريهم وأخبروهم بقلة أهل المدينة وأطمعوهم فيها ، وقال شاعرهم :
 أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأنى بكر
 أيورثنا بكرا إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
 فهلا رددتم وفدنا بزمانه وهلا حشيتم حساً راعية السكر
 وإن التى سألوكم فمنعتم لكناتمر أو أحلى إلى من التمر
 ودعا أبو بكر كبار الصحابة : على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ،
 وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، فقال
 الصديق :

— إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلا
 تؤتون أم نهارا ، وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يأملون أن نقبل
 منهم ونوادعهم وقد أئبنا عليهم ونبذنا عهدهم ، فاستعدوا وأعدوا .
 وخرج المسلمون يستعدون للدفاع عن مدينة الرسول فلبسوا عدة
 القتال ، وخرج على والزبير وسعد وطلحة وعبد الله بن مسعود ونفر من
 المسلمين لحماية مشارف المدينة ، وبقي باقى المسلمين فى المسجد
 مدججين بالسلاح على استعداد للقتال ، وإن كانوا فى قرارة أنفسهم
 يمتنون ألا يدهم أحد المدينة حتى يعود جيش أسامة من الشام .
 وانقضت ثلاثة أيام وصحابة رسول الله — صلوات الله وسلامه
 عليه — عند مداخل المدينة ساهرون ، يرسلون العسس مستطلعين .
 وما كادت الشمس تغيب حتى أقبل بعض العسس مهطعين معلنين أن
 القبائل المجاورة قد تحركت قاصدة المدينة ، فبعث صحابة الرسول —
 صلوات الله وسلامه عليه — إلى أبى بكر رسولا ينبئة الخبر ، فأجابهم أن
 (وفاة الرسول)

الزموا أماكنكم .

وجاء أبو بكر في أهل المسجد على الإبل ، ورأى مفاجأة الأعداء في جوف الليل ، فانطلق المسلمون حتى بلغوا معسكر الأعداء فما سمعوا لهم همسا ولا حسا ، وانقض المسلمون على أعدائهم فأخذوا وولوا الأدبار . فاقتفى المسلمون أثرهم حتى ذا حسا ، وكان الأعداء قد تركوا هناك مددا من الرجال ليشدوا أزرهم عند الحاجة ، فانضم المدد إلى فلول الفارين ووقفوا في وجه المسلمين المغيرين ، ودار قتال رهيب وإذا برواحل المسلمين تحفل ، ترى ما دهاها !

جاء الأعداء بأوعية من جلود نفخوها وربطوها بالحبال وضربوها بأرجلهم في وجوه إبل أهل المدينة ، فنفرت الإبل واستمرت في ارتدادها حتى دخلت مدينة الرسول .

ولاح للأعداء النصر ، فما إن تبرغ الشمس حتى يميلوا على المدينة بأسيا فهم ويرغموا أهلها على التسليم لهم بعدم إيتاء الزكاة . إنهم كانوا يؤدونها لرسول الله — ﷺ — لأن صلاته كانت سكنا لهم ، فما بال أبى بكر يصبر على جمعها ؟

وراح المسلمون يتأهبون لمعاودة الهجوم قبل أن يتنفس الصبح ، فلما كان الثلث الأخير من الليل خرجوا متسللين دون أن يسمع لهم ركز ، وبلغوا الأعداء مع الفجر ، فذاهم وهم وأعملوا سيوفهم فيهم . فهبوا من نومهم مذعورين يدافعون عن أنفسهم ، ولكن المنايا أطلت من أسياف أهل المدينة فراحت تحصدهم حصدا ، فلم يسع القوم إلا الفرار مدحورين مهزومين .

وراح صحابة رسول الله — ﷺ — يحرسون المدينة ويرقبون عودة

جيش أسامة في لهفة وقلق ، فقد انقضى ستون يوما على خروج الجيش ولم يأت لخليفة رسول الله ﷺ — من يبشره بعودة الجيش ظافرا سالما ، وكانت تلك العودة أمنية تداعب أخيلة أهل المدينة أجمعين .

كان أهل المدينة في انتظار أخبار سارة مشجعة ، فبعد موت رسول الله ﷺ — عاد رسل رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إلى مسيلمة وطليحة ، عادوا إلى أبي بكر وأخبروه بما كان من أمر الأنبياء الكذبة ، فقال أبو بكر :

— لا تبرحوا حتى تجيء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمر ، وانتقاض الأمور .

فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبي ﷺ — من كل مكان بانتقاضة عامة أو خاصة ، فلم يكن أبو بكر بقادر على محاربة المرتدين ما دام جيش أسامة لم يعد بعد ، فحاربهم بما كان رسول الله ﷺ — يحاربهم بالرسول ، فرد رسلهم بأمره ، وأتبع الرسل رسلا وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة .

وكان أول خبر سار جاء إلى المدينة بعد موت رسول الله ﷺ — خبر مقتل الأسود العنسي النبي الكذاب ، فانشرح صدر أبي بكر بذلك الخبر وكبر المسلمون سرورا .

وكانت أعين صحابة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ساهرة . فسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وعلى بن أبي طالب والزبير بن العوام وأبو قتادة في رجال من المسلمين يجرسون مشارف المدينة . وسقط الليل فأرهفت الحواس ، ونظر عبد الله بن مسعود فرأى أناسا على رواحلهم يندفعون إلى المدينة ، فأمر رجاله أن

يستعدوا للقتال . وإذا بفارس يقدم بالبشرى ويقول إن عدى بن صفوان قد أقبل بالصدقات .

كان رسول الله ﷺ — قد أرسل عماله ليجمعوا الصدقات من القبائل ، وكان عدى بن حاتم فيمن أرسل . فلما سمع عبد الله بن مسعود الخبر لم ينتظر حتى يقبل عدى والذين معه بل انطلق إلى المسجد ليعلن على الملأ قدوم عدى ليحيى في الناس موات الأمل .

وفي وسط الليل جاء صفوان وبشر بمقدمه سعد بن أبى وقاص ، فلم ينم الناس من شدة الفرح . وكان رسول الله ﷺ — قد ولى الزبرقان بن بدر التميمي على صدقات قومه . فجاءها في آخر الليل وبشر به عبد الرحمن ابن عوف ونادى بالخبر . فقال الناس :

— طالما بشرت بالخير .

وترقب المسلمون عودة جيش أسامة ليقاتلوا ذبيان وعبس . والقبائل التي بخلت بالصدقات ، وليحاربوا مسيلمة وطليحة وكل من شق عصا الطاعة من الخارجين عن الإسلام .

* * *

انطلق جيش أسامة إلى أهل أبنى فشن عليهم الغارة ، وارتفع شعار المسلمين يزلزل الأرض تحت أعداء المسلمين :

— يا منصور أمت .. يا منصور أمت .

وارتفعت السيوف المؤمنة لتطيح بالرعوس الكافرة ، وجعل أسامة يرقب قاتل أبيه ، ثم انقض عليه كوحش كاسر وطعنه طعنة تركته كأمس الدابر . وأنزل الله الرعب بقلوب الأعداء فساروا كالغنم الشاردة في الليلة الشاتية ، فقتل من قتل وأسر من أسر ولم يقتل من المسلمين أحد .

كان أسامة يصول ويجول على فرس أبيه ، فلما انقشع غبار المعركة راح يقسم الغنائم فأقسم للفرس سهمين وللفراس سهما وأخذ لنفسه مثل ذلك .

وكان عمال رسول الله ﷺ — على قضاة وعلى كلب امرؤ القيس بن الأصبع الكلبى ، وعلى القين عمرو بن الحكم ، وعلى سعد هذيم معاوية بن فلان الوائلى ، فارتد وديعة الكلبى فيمن آزره من كلب وبقي امرؤ القيس على دينه ، وارتد زميل بن قطبة القينى فيمن آزره من بنى القين وبقي عمرو على دينه ، وارتد معاوية بن فلان فيمن آزره من سعد هذيم ، فكتب أبو بكر إلى امرئ القيس بن فلان فسار لقتال وديعة والذين معه ، وإلى عمرو بن الحكم فسار لقتال زميل ومعاوية العذرى ، فلما توسط أسامة بلاد قضاة بعث فرسانه لقتال المرتدين وشد أزر المسلمين ، ففر المرتدون واجتمعوا إلى وديعة ، فلما رجعت خيول أسامة إليه أغار على الحمقتين فأصاب فى بنى الضبيب وجدام وفى بنى خليل من لخم . وكانت فكرة الردة قد راودت أخيلة بعض قبائل العرب ، فلما رأوا خيل أسامة قالوا :

— لولا قوة أصحاب محمد ﷺ — ما خرج مثل هؤلاء من عندهم .

فثبتوا على الإسلام .

وجاء المساء فأمر أسامة الناس بالرحيل ، وأسرع السير وبعث مبشرا إلى المدينة بسلامتهم ، فخرج أبو بكر فى المهاجرين والأنصار يلقون أسامة ومن معه فرحين مستبشرين ، وعانق أبو بكر أسامة وهناه بسلامته وسلامه جيشه ، وقال له عمر :

— ١٠٢ —

— السلام عليك أيها الأمير .

فقال له أسامة :

— غفر الله لك ، تقول لي هذا ؟

— لا أزال أدعوك ما عشت : الأمير . مات رسول الله ﷺ —

وأنت على أمير .

وسار أسامة واللواء بين يده حتى انتهى إلى باب المسجد ، ثم انصرف

إلى بيته وهو شارد يتمنى لو أن حبيبه رسول الله ﷺ — كان قد تلقاه

بابتسامته الآسرة التي كانت تنير له الطريق .

مات رسول الله ﷺ - واجتمعت أسد وغطفان وطبئ على طليحة الذى ادعى النبوة ، إلا ما كان من خواص أقوام فى القبائل الثلاث قد بقوا على دينهم . فاجتمعت أسد بسميراء وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة وطبئ على حدود أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعيس بالأبرق من الربذة ، وانضم إليهم ناس من بنى كنانة . وضاعت بهم الأرض فافترقوا فرقتين ، فأقامت فرقة منهم بالأبرق ، وسارت الأخرى إلى ذى القصة ، وأمدهم طليحة بحبال ، فكان حبال على أهل ذى القصة من بنى أسد ومن انضم إليهم من ليث والديل ومذلج . وبعث المرتدون وفودا فقدموا المدينة فنزلوا على وجوه الناس ، ما خلا العباس فقد أبى أن ينزلوا عليه ، فأخذوهم إلى أبى بكر فطلبوا منه أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة ، فأبى أبو بكر ورد وفود المرتدين خائبين . وكان قتال بين أسد وغطفان وطبئ والفتنة القليلة التى كانت بالمدينة بعد خروج جيش أسامة ، فعبا أبو بكر الناس ، ثم خرج على تعبئة يمشى فى سواد الليل وعلى ميمنته النعمان بن مقرن وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الفرسان . فما طلع الفجر إلا وهم والعدو فى صعيد واحد ، فما سمعوا للمسلمين همسا ولا حسا حتى وضعوا فيهم

السيوف ، فاقتتلوا ما بقي من الليل فما أشرقت الشمس حتى ولى المرتدون الأدبار ، وقد قتل حبال ذراع طليحة الأيمن .

وعاد جيش أسامة إلى المدينة والمرتدون لا يزالون بذى القصة ، فاستخلف أبو بكر أسامة على المدينة وقال له ولجنده :

— أريحوا وأريحوا ظهركم (رواحلكم) .

ثم خرج أبو بكر في رجال من المسلمين إلى ذى القصة لقتال أسد وغطفان والمرتدين الذين يريدون أى يمنعوا حق المال ، فقال له المسلمون :

— نشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرض نفسك ، فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب أمرت آخر .

— لا والله ولا أواسينكم بنفسى .

فخرج في تبعته إلى ذى حسي وذى القصة ، والنعمان وعبد الله وسويد على ما كانوا عليه حتى نزلوا على أهل الربرة بالأبرق ، فهزم الله المرتدين وأخذ الحطيئة أسيرا ، فطارت عبس وبنو بكر ، وأقام أبو بكر على الأبرق أياما وقد غلب بنى ذبيان على البلاد وقال :

— حرام على بنى ذبيان أن يملكوا هذه البلاد إذ غَتَمَها الله . وأجلاها .

وانضمت عبس وذبيان إلى طليحة وكان قد ارتحل عن سميراء ونزل على بُزَاخَة وأقام عليها ، وأراح أسامة وجنوده ظهرهم والتقطوا أنفاسهم ، وقد جاءت صدقات كثيرة إلى المدينة تفضل عنهم فشد ذلك أزر المسلمين ، فراح أبو بكر يعقد الألوية وهو بذى القصة . عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطحاء إن أقام له . وعقد لعكرمة بن أبى جهل وأمره بمسيلمة الكذاب ،

وعقد للمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود العنسي فالأسود العنسي قد قتل ،
وأمره بمعونة الأنباء على قيس بن المكشوح ومن أعانته من أهل اليمن عليهم ،
ثم يمضى إلى كندة بحضور موت ، وعقد لخالد بن سعيد بن العاص وكان
عمر بن الخطاب كارها لذلك ، فخالد بن سعيد أبى مبايعة أبى بكر لما عاد
من اليمن ولم يبايع إلا بعد أن أستاذ بنى هاشم ، وبعث أبو بكر خالد بن
سعيد إلى الحمقتين من مشارف الشام ، وعقد لعمر بن العاص إلى جماعة
قضاة ووديعه والحارث ، وعقد لحذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل
دبا ، ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة وأمرها أن يجتمعا وكل واحد منهما
في عمله على صاحبه ، وبعث شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة بن أبي
جهل وقال :

— إذا فرغ من الإمامة فالحق بقضاة وأنت على خيلك ، تقاتل أهل
الردة .

وعقد لطريفة بن حاجز وأمره ببنى سليم ومن معهم من هوازن ،
ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة واليمن ، وللعلاء الحضرمي وأمره
بالبحرين ، فعقد أحد عشر لواء وراح يوصي الأمراء ، وكتب إلى من بعث
إليه من جميع المرتدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم » من أبى بكر خليفة رسول الله — ﷺ —
إلى من بلغه كتابى هذا من عامة وخاصة ، أقام على الإسلام أو رجع عنه .
سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى . فإنى
أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، نُقِرَ بما جاء به ونكفر من أبى ونجاهده . أما
بعد فإن الله تعالى أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا ،
وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، لينذر من كان حيا ويحق القول على

الكافرين ، فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله — ﷺ — بإذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طوعا وكرها . ثم توفي رسول الله — ﷺ — . وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمنه وقضى الذى عليه ، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزل ، فقال ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ ^(١) . وقال ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفانٍ ميت فهم الخالدون ﴾ ^(٢) . وقال للمؤمنين : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفانٍ مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ ^(٣) . فمن كان إنما يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له ، فإن الله له بالمرصاد حتى قيوم لا يموت . ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه ويجزيه . وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصييكم من الله ، وما جاءكم به نبيكم — ﷺ — ، وأن تهتدوا بهداه وأن تعصموا بدين الله ، فإن كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم يعنه الله مخدول ، فمن هداه الله كان مهتديا ، ومن أضله كان ضالا . قال الله تعالى : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ ^(٤) . ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقر به ، ولم يقبل منه فى الآخرة صرف ولا عدل . وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال الله تعالى :

(١) الزمر ٣٠ (٢) الأنبياء ٣٤

(٣) آل عمران ١٤٤ (٤) الكهف ١٧

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾^(١) . وقال : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾^(٢) . وإني بعثت إليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قبر عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة ، وأن يسبى النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله .

وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان ، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم ، وإن أذنوا أسألوهم ما عليهم فإن أبوا فعاجلوهم ، وإن أقرؤا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم » .

وكتب العهود للأمرء : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ — لفلان ، حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع في أمره كله ، سره وعلايته ، وأمره بالحد في أمر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان . بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرؤا له ، ثم ينبعثهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم . لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم . فمن أجاب إلى أمر الله عز

وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله . فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استقر به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه ، لا يقبل من أحد شيئا أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أرى قاتله ، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يدخل فيهم حشدا حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيوننا ولثلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ، يتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول .»

وانطلق الأمراء بجيوشهم لقتال أهل الردة الذين أقروا بالإسلام وعملوا به ثم نكصوا على أعقابهم بخلا بالأموال ، وحرمانا للفقراء والمساكين من حق فرضه الله في أموال الأغنياء ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذی القرى والیتامی والمساكين وابن السبیل کیلا يكون دولة بین الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (١)

قتل جعفر بن أبي طالب في مؤتة فترك زوجته عاتكة بنت زيد ، وكانت عاتكة شابة رائعة الحسن رضية الخلق ، فخطبها عبد الله بن أبي بكر وهام بها حبا ، فلما تأهب المسلمون لقتال هوازن خرج عبد الله مع الخارجين وخاض القتال حتى خلصت إليه الجراح وكان جرحه خطيرا ، فلما عاد إلى المدينة عكفت عاتكة على العناية به حتى اندمل جرحه .

وتفتتح قلبه لعاتكة زوجته ، ففى عبد الله رقة آل أبي بكر ، فعشقتها وهام بها حتى أصبح لا يطيق البعد عنها ، فكان إذا خرج عنها الحاجة أحس حنيننا إليها فيسرع بالعودة إليها ، لا يحس ان هناك دنيا غير دنياها .

وبادلتها عاتكة حبا بحب ، وعلمت مكانتها من نفسه فغلبته في كثير من أمره ، فصار الرأي لها والتدبير تدبيرها . ولم تكتف بأنها سلبته قلبه بل راحت تسلبه لبه ، ففنى عبد الله فيها ، فساء ذلك أبا بكر خليفة رسول الله . إنه يرى ابنه يتلاشى في زوجته ويقبع في داره لا يخرج للجهاد ، فعبد الرحمن بن أبي بكر خرج في جيش خالد بن الوليد ، أما عبد الله فهو إلى جوار عاتكة ينظر في عينيها الساحرتين الأخاذتين ، فعزم أبو بكر على أن يعاتبه لعله يرعوى ويثوب إلى رشده .

ونقابل الأب والابن وتعاتبا ، وخرج عبد الله وقد وعد أباه أن يختلف إلى الأسواق كما كان يختلف ، وأن يسير إلى المسجد كما كان يسير . وما إن

عاد إلى الدار ، وما إن تطلع إلى عاتكة حتى نسي كل شيء ، نسي ما دار بينه وبين أبيه ، بل نسي أباه ، بل نسي نفسه ، ولم يعد يذكر إلا عاتكة حبيبة الفؤاد .

ومكث عبد الله معها فلم يختلف إلى الأسواق ولم يبادر إلى الغزوات ولم ينطلق إلى المسجد ، بل انطلق يخلق في عوالم الحب والخيال . وانتظر أبو بكر لعل حب ابنه لوجه يبلى على الأيام ، ولعل جذوته تخبو ، ولكن ما كان كر الأيام إلا ليزيد ذلك الحب لهيبا ، وما كان عتاب أبي بكر إلا ليؤجج ناره في صدره .

إن عبد الله ليحاول مخلصا أن يبرأ من ذلك الحب الذي جر عليه عتاب أبيه ، ولكن متى كان للمرء سلطان على فؤاده ؟ حاول عبد الله أن يكبح جماح قلبه ولكنه أخفق ، وانطلق قلبه بلا جماح على هواه .

وخرج أبو بكر في يوم الجمعة للصلاة فمر على عبد الله وهو يناغى عاتكة في عليه له . فلم يكلمه بل سار في طريقه ، فما زال أمام عبد الله فسحة من الوقت قبل الصلاة . ثم أذن المؤذن وصلى الناس وعاد أبو بكر وقد انقضت الصلاة ، فألقى عبد الله لا يزال يناغى عاتكة ويداعبها . فغضب أبو بكر أشد الغضب فابنه يبيع آخرته بدنياه ، فناداه وقال له :

— يا عبد الله أجمعت ؟

فقال عبد الله في ارتباك :

— أوصلى الناس ؟

فقال أبو بكر في حدة :

— نعم .

ثم قال لابنه في حزم :

— لقد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة وقد ألهتك عن فرائض الصلاة .

وانصرف أبو بكر وقلبه يدمى ، إنه يعلم مقدار شغف ابنه بزوجه ولكنها ستفسد عليه دينه . وبقي عبد الله شارد اللب مطأطئ الرأس ، ثم سار يجر رجله جرا وقد ارتسم على وجهه الألم الشديد يكاد فؤاده ينفطر وكبده تنصدع . إن نفسه لتدمى وإن كلمة أبيه الأخيرة لتدوى في أذنيه فتزلزل كيانه ، فيالها من كلمة قوضت هناءه : « طلقها » . هذا ما هتف به الشيخ ، ولخروج روحه أهون عليه من خروج عاتكة من بين يديه . لطالما وعد أباه أن يرعوى في حبه ولكن حبه قد غلبه . فما من الفراق بد . ليته مات يوم الطائف يوم رمى بسهم ! ليته قضى قبل أن يحل به هذا العذاب ! كان وقع السهم يومذاك أخف من وقع ما سمعه اليوم على نفسه . أصاب السهم جسمه فأدماه ، وأصابت الكلمة روحه وما لجرح الروح من دواء .

واستمر عبد الله باسر الوجه حزين الفؤاد حتى أقبلت عليه عاتكة ، فحاول أن يخفى عنها ما ألم به ولكن هيات ! فما كان المحب بقادر على أن يخفى ما به عن محب ، وما كان المحبوب بحاجة إلى أن يفصح اللسان عما يخفى المحب ، فإن روجيهما لتتاجيان وإن قصر البيان .

وتكلف عبد الله الهدوء والاطمئنان وفتح لها ذراعيه وقد ارتسم على وجهه الابتسام ، فلم ترم في أحضانه كما اعتادت أن تفعل ، ولم ترن إليه في حنان بل قالت في قلق :

— ما هناك ؟

— لا شيء .

— ١١٢ —

— وحيى يا عبد الله أصدقنى القول .

فجرت دموعه على خديه ولم ينبس ، وأرخى ذراعيه الممدودتين
وأطرق وقد غلبته دموعه ، فقالت فى دهشه :

— أتبيكم ؟

— إنه الفراق .

وراح عبد الله يهيم على وجهه وصورة عاتكة تتمثل له أنى صرف
البصر . إنه ليهفو إليها ، ولكن عز الوصول وتقطعت الأسباب وأصبحت
عاتكة ذكرى وصارت له خيالاً بعد أن كانت شيئاً ينال . وذات ليلة
حاول عبد الله النوم ولكن لم تغمض له عين ، فصعد إلى سطح له يرقب
النجوم التى شهدت حبه وهناءه ليشهدها سهده وشقاءه . وتلفت عبد
الله فعادت إليه ذكريات سعادته تتزاحم فى رأسه فهاجت نفسه فقال فى
لوعة :

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق وما ناح قمرى الحمام المطوق
أعاتك قلبى كل يوم وليلة لديك لما تخفى النفوس معلق
لها خلق جزل ورأى ومنطق وخلق مصون فى حياء ومصداق
فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ولا مثلها فى غير شئ تطلق
وكان أبو بكر فى سطح له يصلى فمس أذنيه صوت ابنه الشاكى ، فهز
أوتار قلبه ورق له ولم يستطع أن يصبر على عذاب ابنه فأشرف عليه وقال :
— يا عبد الله راجع عاتكة .

فأحس عبد الله نشوة الغريق غب انتشاله من اليم ، وصاح قائلاً فى
فرح :

— أشهدك أنى راجعتها .

ولحه أبو بكر وهو يهرول في غبطة وانشراح ، ثم يشرف على غلامه أيمن
ويقول في سرور :

— يا أيمن أنت حر لوجه الله تعالى ، أشهدك أنى راجعت عاتكة .
فاطمأنت نفس الشيخ ، وأخذ عبد الله يجرى إلى مؤخر الدار حيث
اعتكفت عاتكة وراح يقول :

أعاتك قد طلقت في غير ريبة وروجعت للأمر الذى هو كائن
كذلك أمر الله غاد ورائح على الناس فيه ألفة وتباين
وما زال قلبى للتفرق طائرا وقلبي لما قد قرب الله ساكن
ليهنك أنى لا أرى فيك سخطة وأنتك قد تمت عليك المحاسن
فإنك ممن زين الله وجهه وليس لوجه زانه الله شائن
عادت السعادة ترفرف على العش الصغير ، ولكن جرح عبد الله الذى
أصيب به يوم الطائف تحرك فلزم الدار ، وجعلت عاتكة تعمل جاهدة على
تمريضه ، إلا أن جهودها ذهبت أدراج الرياح فقد ثقلت عليه وطأة
المرض . ومرت الأيام فكانت حالته تزداد سوءا ، وراحت عجلة الزمن
تدور لتسرع بيوم طيه .

ودنا يوم الرحيل فتطلع إلى عاتكة وحاول أن ييش لها ولكن خائنه
ملاحه فظل وجهه شاحبا لا يوحى إلا بقرب الفراق ، فقامت عينا عاتكة
بالدمع فأشاحت بوجهها حتى لا يرى عبراتها المترقرة في مقلتيها .
وتذكر عبد الله أنه كان قد ابتاع الحلة التى أرادوا دفن رسول الله —
ﷺ فيها بتسعة دنانير ليكفن فيها فطلبها . فجاءوا له بها . وحضرته
الوفاة فنظر في الحلة وقال :

— لا تكفنونى فيها، فلو كان فيها خير كفن فيها رسول الله — ﷺ .
(وفاة الرسول)

وانطلقت روح عبد الله من سجنها لتهم طليقة في السماوات ،
وأحست عاتكة حزنا ثقلا ولوعة وأسى فراحت تبكى حتى لكاد قلبها
ينفطر ، وأنشأت تقول :

فلله عينا من رأى مثله فتسى أكر وأحمى في الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها إلى الموت حتى يترك الرحم أحرا
فآليت لا تنفك عيني بسخينة عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
مدى الدهر ما غنت حمامة أبكة وما طرد الليل الصباح المنورا
وجهز الجسد القانى ، ووقف أبو بكر يصلى عليه فى خشوع وفى
القلب لوعة وفى النفس حسرة وفى العينين دموع ، ثم حمل ليقر وانطلق
الناس به حتى بلغوا البقيع ، فنزل فى قبره عمر وطلحة ، وغيب عبد الله فى
التراب فانقضى كما ينقضى اللحن الجميل .

كان طليحة بن خويلد في قومه بنى أسد وفي غطفان ، وانضم إليهم بنو عبس وذبيان ، وبعث إلى بنى جديلة والغوث وطئ يستدعيهم إليه فبعثوا أقواما منهم بين أيديهم ليلحقوهم على أثرهم سرعيا ، فبعث الصديق عدى بن حاتم إلى قومه طئ وقال له :

— أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم .

فذهب عدى إلى قومه بنى طئ فأمرهم أن يبايعوا الصديق وأن يراجعوا أمر الله . فقالوا :

— لا نبايع أبا الفصيل أبدا .

وعقد أبو بكر لخالد بن الوليد سيد الأمراء ورأس الشجعان الصناديد ، وقال :

— سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : نعم عبد الله وأخو العشيرة

خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سله على الكفار والمنافقين .

وأمره أبو بكر أن يبدأ بطئ على الأكناف . ثم يكون وجهه إلى البزاحة ، ثم يثلث بالبطاح ، ولا يريم إذا فرغ من قوم حتى يحدث إليه ويأمره بذلك . وظهر أبو بكر أنه خارج إلى خيبر ومنصب عليه منها حتى يلاقيه بالأكناف ، أكناف سلمى .

وانطلق خالد وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن

شماس . إنه خطيب الأنصار وخطيب النبي — ﷺ — وقال عنه —
 ﷺ : نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس . ولما أنزل على رسول الله —
 ﷺ : ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ ^(١) . اشتدت على ثابت
 وغلق عليه يابه وطفق يبكي ، فأخبر رسول الله — ﷺ — فسأله
 فأخبره بما كبر عليه منها وقال :

— أنا رجل أحب الجمال وأنا أسود قومي .

— إنك لست منهم ، بل تعيش بخير وتموت بخير ويدخلك الله الجنة .
 ولما أنزل على رسول الله : ﴿ يأيتها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق
 صوت النبي ولا تجهروا له بالقول ﴾ ^(٢) فعل مثل ذلك فأخبره النبي —
 ﷺ — فأرسل إليه فأخبره بما كبر عليه منها وأنه جهير الصوت وأنه
 يتخوف من حبط عمله ، فقال — ﷺ :

— إنك لست منهم ، بل تعيش حميدا وتقتل شهيدا ويدخلك الله
 الجنة .

وبعث خالد بن يديه ثابت بن أقرم وعكاشة بن محصن طليعة ، وكان
 ثابت حليف الأنصار شهد بدرا وما بعدها ، وكان ممن حضر مؤتة ، فلما
 قتل عبد الله بن رواحة دُفعت الراية إليه فسلمها لخالد بن الوليد وقال :
 — أنت أعلم بالقتال مني .

أما عكاشة بن محصن فكان من سادات الصحابة وفضلائهم ، هاجر
 وشهد بدرا وأبلى يومئذ بلاء حسنا ، وانكسر سيفه فأعطاه رسول الله
 يومئذ سيفاً شديداً المتن وكان ذلك السيف يسمى العون ، وشهد أحداً

(١) النساء ٣٦ (٢) الحجرات ٢

— ١١٧ —

والخندق وما بعدهما ، ولما ذكر رسول الله ﷺ — السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب فقال عكاشة :

— يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم .

— اللهم اجعله منهم .

ثم قام رجل آخر فقال :

— يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم .

— سبقك بها عكاشة .

كان عمر عكاشة أربعاً وأربعين سنة وكان من أجمل الناس ، فانطلقت ثابت وعكاشة طليعة .

وقام طليحة فيمن معه فقال :

— أمرت أن تصنعوا رحي ذات عرى ، يرمى الله بها من رمى ، يهوى عليها من هوى .

ثم عبي جنوده ثم قال :

— ابعثوا فارسين ، على فرسين أدهمين ، من بنى نصر بن قعين ،

يأتياكم بعين .

وخرج طليحة وأخوه سلمة طليعتين ينظران ويسألان ، فلما وجدا ثابتاً وعكاشة تبارزوا ، فأما سلمة فلم يمهل ثابتاً أن قتله ، ونادى طليحة أخاه حين رأى أن قد فرغ من صاحبه أن أعنى على الرجل ، فإنه آكل ، فاعتونا عليه فقتلاه ، ثم رجعا وقد أثلج صدر طليحة فقد انتقم لمقتل ابن أخيه حبال بذى القصة ، فقال :

عكاشة العمى تحت مجال
عشية غادرت ابن أقرم ثاويها
مُعَوَّذة قَبْل الكَماة نزال
أقمت له صدر الحماله إنها

فيوم تراها في الحلال مصونةً ويوم تراها في ظلال عوال
وإن يك أولاد أصبسن ونسوة فلم يذهبوا فرغا بقتل حبال
وكان أبو بكر قد اتفق مع خالد على أن يذهب أبو بكر إلى خير بمن معه
مكيدة ليلبغ ذلك عدوه فيرعبهم ، فخرج أبو بكر إلى خير فقعدت طئ
عن نصره طليحة واللقوق بمن خرج منها إليه ، وخرج خالد إلى طليحة
وكان في جيشه كبار صحابة الرسول :

عمار بن ياسر ، وزيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، وكان
زيد أكبر من عمر أسلم قديما وشهد بدرا وما بعدها وقد آخى رسول
الله ﷺ — بينه وبين معن بن عدى الأنصارى ، وكانت راية
المهاجرين بيده .

وسالم مولى أى حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وقد تبناه أبو حذيفة وزوجه
بابة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة ، فلما أنزل الله : ﴿ ادعوههم
لآبائهم ﴾ (١) دعوه سالم بن عبيد ، وكان من سادات المسلمين أسلم
قديما وهاجر إلى المدينة قبل رسول الله ﷺ — فكان يصلى بمن بها من
المهاجرين وفيهم عمر بن الخطاب لكثرة حفظه القرآن ، وشهد بدرا وما
بعدها . وهو أحد الأربعة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : استقرئوا
القرآن من أربعة ، فذكر منهم سالما مولى أى حذيفة .

وأبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى الخزرجى ، شهد بدرا وأبلى يوم
أحد وقاتل قتالا شديدا . وأعطاه رسول الله ﷺ — يومئذ سيفا

(١) الأحزاب ٥٢

فأعطاه حقه . وكان يتبختر عند الحرب فقال — صلوات الله وسلامه عليه : إن هذه لمشية يبغضها الله إلا في هذه المواطن . وكان يعصب رأسه بعصابة حمراء ، شعارا له بالشجاعة .

والطفيل بن عمرو الدوسي ، أسلم قبل الهجرة وذهب إلى قومه فدعاهم إلى الله فهداهم الله على يديه فلما هاجر النبي — ﷺ — إلى المدينة جاءه بتسعين أهل بيت من دوس مسلمين . إنه خرج في جيش خالد ومعه ابنه عمرو ، فرأى الطفيل في المنام كأن رأسه قد حلق وكان امرأة أدخلته في فرجها وكان ابنه يجتهد أن يلحقه فلم يصل ، فأولها بأنه سيقتل ويدفن وأن ابنه يحرص على الشهادة فلا ينالها عامه ذلك .

وعباد بن بشر بن وقش الأنصاري، أسلم على يد مصعب بن عمير قبل الهجرة، قبل إسلام معاذ وأسيد بن الحضير. وشهد بدرًا وما بعدها، وكان ممن قتل كعب بن الأشرف ، وكان يوم خرج جيش خالد ابن خمس وأربعين سنة . وكان له بلاء وعناء ، وتجدد رسول الله — ﷺ — ذات ليلة فسمع صوت عباد فقال :

— اللهم اغفر له .

وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ، كان من سادات الصحابة وفضلائهم ، شهد بدرًا وما بعدها ، وكان أبوه رأس المنافقين وكان أشد الناس على أبيه ، ولو أذن له رسول الله — ﷺ — لضرب عنقه ، وكان اسمه الحباب فسماه رسول الله — ﷺ — عبد الله .

ومع بن عدى ، وهو أخو عاصم بن عدى ، شهد العقبة وبدرًا وأحد والخندق وسائر المشاهد ، وكان قد آخى رسول الله — ﷺ — بينه وبين زيد بن الخطاب ، وحين مات رسول الله عليه السلام بكى الناس عليه

وقالوا : والله وددنا أنا متنا قبله ونخشى أن نفتن بعده . قال معن بن عدى : ولكنى والله ما أحب أن أموت قبله لأصدقه ميتا كما صدقته حيا . وكان الذى أخبر عمر بمحدث السقيفة واجتماع الأنصار لمبايعة سعد بن عباد . وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، أخوهند زوجة أبي سفيان ، أسلم قبل أن يدخل المسلمون دار الأرقم ، وهاجروا إلى الحبشة وإلى المدينة وشهد بدرا وما بعدها ، وآخى رسول الله ﷺ — بينه وبين عباد بن بشر ، وكان عمره يوم خرج لقتال المرتدين ثلاثا وخمسين سنة ، وكان طويلا حسن الوجه له سن زائدة .

كانوا فرسانا لا يرهبون الموت وكانوا من حملة القرآن . وأقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلاً فلم يفتنوا له حتى وطئته الإبل بأخفافها ، فكبر ذلك على المسلمين . ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن محصن صريعا فجزع لذلك المسلمون وقالوا : — قتل سيدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم . ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع عند مقتل ثابت وعكاشة فقال لهم :

— هل لكم إلى أن أميل بكم إلى حى من أحياء العرب كثير عددهم ، شديدة شوكتهم ، لم يرتد منهم عن الإسلام أحد ؟ فقال له الناس :

— ومن هذا الحى الذى تعنى ؟ فنعم والله الحى هو . — طئ .

— نعم الرأى ما رأيت .

كان عدى بن حاتم الطائى بفاوض بنى قومه بعد أن قالوا لا نبايع

أبا فضيل ، فقال :

— والله ليأتينكم جيش فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو
الفضل الأكبر .

ولم يزل عدى يزين لهم مبايعة الصديق حتى لا نوا ، فلما مال خالد إلى
بنى طيء خرج إليه عدى فقال :

— أنظرنى ثلاثة أيام فإنهم قد استنظرونى حتى يبعثوا إلى من تعجل
منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم ، فإنهم يخشون إن تابعوك أن يقتل
طليحة من سار إليه منهم ، وهذا أحب إليك من أن يجعلهم إلى النار .

فلما كان بعد ثلاث جاءه عدى فى خمسمائة مقاتل ممن راجع الحق
فانضافوا إلى جيش خالد . وارتحل خالد نحو الأنسر يريد جديلة ، فقال له
عدى :

— إن طيما كالطائر ، وإن جديلة أحد جناحي طيء ، فأجلنى أياما لعل
الله أن ينتقد جديلة كما انتقد الغوث .

ففعل فأتاهم عدى ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاءه بإسلامهم ،
ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب ، فكان خير مولود ولد فى أرض طيء
وأعظمه عليهم بركة .

وسار خالد حتى نزل بأجا وسلمى وعبى جيشه هناك ، والتقى مع
طليحة الأسدى بمكان يقال له براخة ، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب
ينظرون على من تكون الدائرة . وجاء طليحة فيمن معه من قومه ومن
التف معهم وانضاف إليهم ، وقد حضر معه عيينة بن حصن المطاع الخليلع
فى سبعمائى من قومه بنى فزارة . واصطف الناس وجلس طليحة ملتفا فى
كساء له يتنبأ لهم ينظر ما يوحى إليه فيما يزعم .

— ١٢٢ —

ودار القتال وجعل عينة يقاتل ما يقاتل ، حتى إذا ضجر من القتال
يجئ إلى طليحة وهو ملتف في كسائه فيقول :

— أجماءك جبريل ؟

— لا .

فيرجع فيقاتل ثم يرجع فيقول له :

— أجماءك جبريل ؟

— لا .

فيرجع فيقاتل ثم يرجع فيقول له :

— أجماءك جبريل ؟

— نعم .

— فما قال لك ؟

— قال لي إن لي رجاء كرجاءه ، وحديثا لا تنساه .

فقال عينة بن حصن في سخرية :

— أظن أن قد علم الله سيكون لك حديث لا تنساه .

ثم التفت إلى قومه وقال :

— يا بني فزارة انصرفوا .

— وانهمز وانهمز الناس عن طليحة ، فلما جاءه المسلمون ركب على

فرس كان قد أعدها لنفسه وأركب امرأته النوار على بعير له ، ثم انهمز بها

إلى الشام وتفرق جمعه ، وقد قتل الله طائفة ممن كان معه . فلما أوقع الله

بطليحة وفزارة ما أوقع ، قالت بنو عامر وسليم وهوازن :

— ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه في أموالنا

وأنفسنا .

— ١٢٣ —

وأسر خالد عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة — وكان أحد الأمراء مع طليحة — وبعث بهما إلى المدينة ، فدخل عيينة المدينة مجموعة يدها إلى عنقه ، فجعل الولدان والغلمان يطعنونه بأيديهم ويقولون :
— أى عدو الله ، ارتددت عن الإسلام ؟
— والله ما كنت آمنت قط .

وقدم عيينة وقرة بن هبيرة على أبى بكر ، فقال له قرة :
— يا خليفة رسول الله ، إني قد كنت مسلماً ولى من ذلك على إسلامي عند عمرو بن العاص شهادة ، قد مرى فأكرمته وقربته ومنعته .
فدعا أبو بكر عمرو بن العاص فقال :

— ما تعلم من أمر هذا ؟
كان رسول الله — ﷺ — قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر منصرفه من حجة الوداع ، فمات رسول الله — ﷺ — وعمرو بعمان ، فأقبل حتى إذا انتهى إلى البحرين وجد المنذر بن ساوى فى الموت فقال له المنذر :

— أشتر على فى مالى بأمرلى ولا على .
— صدق بعقار صدقة تجرى من بعدك .

ففعل .

ثم خرج من عنده فسار فى بنى تميم ، ثم خرج منها إلى بلاد بنى عامر فنزل على قرة بن هبيرة ، وقرة يقدم رجلاً ويؤخر رجلاً . إنه يتأرجح بين الإسلام والردة وعلى ذلك بنو عامر كلهم إلا خواص ، فذبح قرة لعمرو وأكرم مثواه ، فلما أراد الرحلة خلا به قرة فقال :
— يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة ، فإن أنتم أعفيتها

من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم .

— أكفرت يا قرّة ؟

— اجعلوا بيننا وبينكم موعدا .

— أتواعدنا بالعرب وتخوفنا بها ؟ موعداك جفش أمك ، والله لأوطئنه عليك الخيل .

وراح عمرو يقص على أبي بكر الخبر حتى انتهى إلى ما قال له من أمر الصدقة ، قال له قرّة :

— حسبك ، رحمك الله .

— لا والله حتى أبلغ له كل ما قلت ؟

فبلغ له فتهجّز عنه أبو بكر وحقن دمه ودم عيينة بن حصن .
وأخذ المسلمون رجلا من بني أسد فألق به خالد بالغمر ، وكان عالما بأمر طليحة ، فقال له خالد :

— حدثنا عنه عن ما يقول لكم .

— والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قد هُمن قبلكم بأعوام ، ليلغن ملكنا العراق والشام .

واجتمعت طائفة كثيرة من الفلال يوم بزاعة من أصحاب طليحة من بني غطفان ، فاجتمعوا إلى امرأة يقال لها أم زمل — سلمى بنت ملك بن حذيفة — وكانت من سيدات العرب كأُمها أم قرفة ، وكان يضرب بأُمها المثل في الشرف لكثرة أولادها وعزة قبيلتها وبيتها . فلما اجتمعوا إليها ذمّتهم لقتال خالد ، فهاجوا لذلك ، وناشب إليهم آخرون من بني سليم وطئ وهوازن وأسد فصاروا جيشا كثيفا . وتفحل أمر هذه المرأة ، فلما

— ١٢٥ —

سمع بهم خالد بن الوليد سار إليهم واقتتلوا قتالا شديدا وهي راكبة على جمل
أمها الذي يقال له : من يمس جملها فله مائة من الإبل ، وذلك لعزها ،
فهمزهم خالد وعقر جملها ، وبعث بالفتح إلى الصديق فكتب أبو بكر إلى
خالد :

— « ليزدك ما أنعم الله به خيرا ، واتق الله في أمرك ، فإن الله مع الذين
اتقوا والذين هم محسنون . جد في أمرك ولا تلن ولا تظفر بأحد من
المشركين قتل من المسلمين إلا نكلت به » .

توفي رسول الله ﷺ — وقد فرق في بنى تميم عماله ، فكان الزبرقان بن بدر على الرّباب وعوف والأبناء ، وسهم بن منجاب وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، وصفوان بن صفوان وسيرة بن عمرو على بنى عمرو — هذا على يَهْدَى وهذا على خَضَمَ قبيلتين من بنى تميم ، ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة على بنى حنظلة — هذا على بنى مالك وهذا على بنى يربوع .

وجاء الخبر بموت رسول الله ﷺ — فخرج صفوان إلى أبى بكر بصدقات بنى عمرو وما ولى منها وبما ولى سيرة ، وبقي سيرة في قومه . وانتظر قيس ما يفعل الزبرقان فقد كانت بينهما جفوة ومنافسة ، وقد قال قيس وهو ينتظر لينظر ما يصنع ليخالفه :

— واويلنا من ابن العُكْلِيَّة^(١) ! والله لقد مزقنى فما أدرى ما أصنع ؟
لئن أنا تابعت أبأ بكر وأتيت بالصدقة لينحرئها في بنى سعد فليسودنى فيهم ، ولئن نحرئها في بنى سعد ليأتين أبأ بكر فليسودنى عنده .

كان قيس في حيرة : إنه يخشى أن ينطلق بصدقات قومه إلى أبى بكر فينحر الزبرقان ما معه من الصدقات في قومه فينال عندهم الحظوة ويصبح

(١) العكل بالكسر والضم : اللئيم .

السيد المطاع فيهم . وإنه يخشى أن ينحر الصدقات في قومه فيذهب الزبرقان بما معه إلى خليفة رسول الله فينال عنده الحظوة . وأخيراً عزم قيس على قسمها في قومه ففعل ، وعزم الزبرقان بن بدر على الوفاء فاتبع صفوان بصدقات الرباب وعوف والأبناء حتى قدم بها المدينة ، وهو يقول يُعرض بقيس :

وفيت بأذواد (١) الرسول وقد أبت

سعاة فلم يردد بعيراً مُجيرها

ونشب الشر بين أحياء بنى تميم وتشاغلو واشغل بعضهم بعضاً ، ثم ندم قيس بعد ذلك فلما أظله العلاء بن الحضرمي أخرج الصدقات ، ثم خرج معه إلى المدينة وقال :

ألا بلغنا عسى قريشا رسالة إذا ما أتها بينات الودائع
ولم تهدأ قبائل بنى تميم ؛ بقى أناس على الإسلام وارتد أناس عنه فقامت
بينهم حروب ، وكانت الإمدادات تأتي من بنى تميم إلى ثمامة بن أثال وهو
يحارب مسيلمة الكذاب ، فلما حدث ذلك الشقاق عاد بنو تميم إلى
عشائهم فأضر ذلك ثمامة ، فراح ينتظر وفود عكرمة بن أبي جهل لينهض
مرة أخرى لقتال المرتدين .

وراح مسلمو بنى تميم يحاربون المرتدين منهم ، وفيما هم يقتلون
فجأتهم سجاح بنت الحارس قد أقبلت من الجزيرة وكانت ورهطها في بنى
تغلب تقود أفناء ربعة ، معها الهذيل بن عمران في بنى تغلب ، وعقة بن
هلال في الثمر ، وزباد بن هلال في أياد ، والسليل بن قيس في شيان ، فأتاهم

(١) الذود : ثلاثة أبخرة إلى العشرة .

أمر أدهى مما كانوا فيه .

كانت سجاح من نصارى العرب وقد ادعت النبوة بعد موت رسول الله ﷺ — وخرجت لقتال أبي بكر ، فلما انتهت إلى الحِزْن راسلت مالك بن نويرة ودعته إلى المودعة فأجابها ، ولوaha عن غزو أبي بكر وحملها على غزو أحياء من بني تميم فقالت :

— نعم فشأنك بمن رأيت ، فإنى إنما امرأة من بني يربوع ، فإن كان ملك فالملك ملككم .

فأرسلت إلى بني مالك بن حنظلة تدعوهم إلى المودعة. فأجابها إلى ذلك وكيع ، فخرج عطار د بن حاجب وسروات مالك حتى نزلوا فى بني العنبر على سيرة بن عمرو هرابا قد كرهوا ما صنع وكيع .

واجتمع وكيع ومالك وسجاح وقد وادع بعضهم بعضا ، واجتمعوا على قتال الناس وقالوا :

— بمن نبدأ ؟ بخصم أم بيهدى أم بعوف والأبناء أم بالرباب ؟

فقالت :

— أعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم أغيروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب .

ودارت معركة رهية قتلت فيها قتلى كثيرة ، وانتصرت سجاح فانضم إليها الزبرقان بن بدر وعطار د بن حاجب ، واجتمع إليها رؤساء أهل الجزيرة فقالوا لها :

— ما تأمرينا ؟ فقد صالح مالك وو كيع قومهما فلا ينصروننا ولا يريدوننا على أن نجوز فى أرضهم ، وقد عاهدنا هؤلاء القوم .

— الإمامة .

— إن شوكة أهل اليمامة شديدة ، وقد غلظ أمر مسيلمة .

فقالت في إصرار :

— عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ،
لا يلحقكم بعدها ملامة .

وخرجت لبنى حنيفة ، وبلغ ذلك مسيلمة فهابها وخاف إن هو شغل
بها أن يغلبه ثمامة على حجر أو شرحبيل بن حسنة أو القبائل التي حولهم ،
فأهدى لها ، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتيها ، فنزلت الجنود
على الأمواه وأذنت له وآمنته ، فجاءها وافدا في أربعين من بنى حنيفة
وكانت راسخة في النصرانية قد علمت من علم نصارى تغلب ، فقال
مسيلمة :

— لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله
عليك النصف الذي ردت قريش ، فحياك به وكان لها لو قبلت .

— لا يرد النصف إلا من حنف ، فاحمل النصف إلى خيل تراها
كالسيف .

— سمع الله لمن سمع ، وأطعمه بالخير إذ طمع ، ولا زال أمره في كل ما
سر نفسه يجتمع ؛ رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دنية
أنجأكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ،
يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكبار ، رب الغيوم والأمطار .
وراح مسيلمة يدارسها فقال :

— ما أوحى إليك ؟

— هل تكون النساء يبتدئن ؟ ولكن أنت ما أوحى إليك ؟

— ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحيلي ، أخرج منها نسمة تسعى ، من
(وفاة الرسول)

— ١٣٠ —

بين صفاق وحشى .

— وماذا أيضا ؟

— أوحى إلى أن الله خلق النساء أفراجا ، وجعل الرجال لمن أزواجا ،
فنولج فيهن قعسا إيلاجا ، ثم نخرجها إذا نشاء إخراجا ، فينتجن لنا سخالا
إنتاجا .

— أشهد أنك نبى .

— هل لك أن أتزوجك ، فأكل بقومى وقومك العزب ؟

— نعم .

فأقاما فى القبة التى ضربت لهما ثلاثا ، ثم انصرفتا إلى قومها فقالوا :

— ما عندك ؟

— كان على الحق فاتبعته فتزوجته .

— فهل أصدقك شيئا ؟

— لا .

— ارجعى إليه فقيبح بمثلك أن ترجع بغير صداق .

فرجعت ، فلما رآها مسيلمة قال :

— مالك ؟

— أصدقنى صداقا .

— من مؤذلك ؟

— شبت بن ربعى الرباعى .

— على به .

فجاء فقال :

— ناد فى أصحابك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم

— ١٣١ —

صلاتين مما أتاكم به محمد ، صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر .
وانصرفت سجاج إلى بنى تغلب ومعها أصحابها فيهم الزبرقان
ابن بدر ، وعطار بن حاجب ، وعمرو بن الأهم ، وغيلان بن خرشة ،
وشبث بن ربعي ، وقد حملت نصف غلات اليمامة . وخرج الزبرقان
والأقرع بن حابس إلى أبي بكر وقالوا :

— اجعل لنا خراج البحرين ونضمن لك ألا يرجع من قومنا أحد .
كان بنو تميم يدينون بالجوسية في الجاهلية ، وكانوا يعتقدون أنهم أكثر
حضارة من فريش ، وقد دخلوا في الإسلام بعد فتح مكة وما كان الإسلام
قد استقر في أقدتهم بعد . فرأى أبو بكر أن يتألفهم بالمال فقبل أن يجعل
لهم خراج البحرين ، وكان الذي يمشى بينهم وبين أبي بكر طلحة بن عبيد
الله . وكتب الكتاب وبعث إلى شهود ليشهدوا منهم عمر ، فلما أتى عمر
بالكتاب فنظر فيه لم يشهد ، ثم قال :

— لا والله ولا كرامة .

ثم مزق الكتاب ومحاه ، فغضب طلحة فأتى أبا بكر فقال :

— أأنت الأمير أم عمر ؟

— عمر ، غير أن الطاعة لي .

— فسكت ، وندم الزبرقان والأقرع بن حابس فخرجا ليشهدا مع
خالد المشاهد كلها ، وليحاربا الذين باعوا دينهم بدينهم تكفيرا عن
رديهما لعل الله يرحمهما برحمته ويدخلهما جناته ، ذلك هو الفوز العظيم .

خرج خالد بن الوليد من ظفر وقد استبرأ أسدا و غطفان وطيثا ، وأراد السير فصار يريد البطاح دون الحزن وعليها مالك بن نويرة ، فترددت الأنصار عليه وقالوا :

— ما هذا بعهد الخليفة إلينا . إن الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من البزاحة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا .

— إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إلّي أن أمضي ، وأنا الأمير وإلّي تنتهى الأخبار . ولو أنه لم يأتنى له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه حتى أتتهزها ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرتنا ثم نعمل به . وهذا مالك بن نويرة بجبالنا وأنا قاصد إليه ومن معى من المهاجرين والتابعين بإحسان ولست أكرههم .

ومضى خالد ، وندمت الأنصار ودار بينهم الحوار وقالوا :
— إن أصاب القوم خيرا إنه خير حرمتموه ، وإن أصابتهم مصيبة ليجتنبكم الناس .

فأجمعوا اللحاق بخالد وبعثوا إليه رسولا . فلحقه الرسول بعد يومين من مسيره واتمس منه الانتظار حتى يلحقوا به ، فانتظر فلما لحقوا به انطلق بالأنصار والمهاجرين إلى مالك بن نويرة .

— ١٣٣ —

كان مالك قد ارعوى وندم بعد انصراف سجاح إلى الجزيرة وتخير في أمره ، ففرق قومه في أموالهم ونهاهم عن الاجتماع وقال :
— يا بنى يربوع إنا قد كنا عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين ، وبطأنا الناس عنه فلم نُفلح ولمْ ننجح . وإني قد نظرت في هذا الأمر فوجدت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة ، وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإياكم ومناوأة قوم صنع لهم ، فتفرقوا إلى دياركم وادخلوا في هذا الأمر .
فتفرقوا على ذلك إلى أموالهم ، وخرج مالك حتى رجع إلى منزله .
وعرف وكيع وسماعة قُبْح ما أتيا يوم وادعا سجاح ، واجتمعوا على قتال الناس فلم يتجبرا بل أخرجا الصدقات ، فاستقبلا بها خالدا فقال خالد :

— ما حملكما على موادة هؤلاء القوم ؟

فقالا :

— ثأر كنا نطلبه في بنى ضبة . وكانت أيام تشاغل وفرص .
وقدم خالد البطاح فلم يجد به أحدا ، فبعث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب وإن امتنع أن يقتلوه .
وانطلقت السرايا ووصية أبي بكر ترن في ضمائرهم : « إذا نزلتم منزلا فأذنوا وأقيموا ، فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم ، وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ثم تقتلوا كل قتلة الحرق فما سواه ، وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم ، فإن أقرؤا بالزكاة فاقبلوا منهم ، وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة ولا كلمة .

وراح المسلمون يؤذنون في أحياء بنى تميم فيؤذن الناس ويقيمون الصلاة ، فكان المسلمون يكفون عنهم ، ثم يسألونهم الزكاة فكانوا

يخرجونها طائعين . وجاءت الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بنى ثعلبة وقد ارتفعت الأصوات ، فقد اختلفت السرية فيهم ، وكان أبو قتادة الحارث بن ربيع أخو بنى سلمة في السرية ، فشهد أن مالك بن نويرة قد أذن لما سمع أذان المسلمين وقال :

— لما غشنا القوم أخفناهم تحت الليل ، فأخذ القوم السلاح فقلنا : إنا المسلمون . فقالوا : ونحن المسلمون . قلنا فما بال السلاح معكم ؟ قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ قلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح . فوضعوها ثم صلبنا وصلوا .

وقال ناس من الناس إن مالك بن نويرة والذين معه لم يؤذونا ، فلما اختلفوا فيهم أمر خالد بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء ، وجعلت تزداد بردا ، فأمر خالد مناديا فنادى :

— أذفوا أسراكم .

وكانت في لغة كنانة إذا قالوا : دثروا الرجل فأذفوه دفأة قتله . فظن القوم أنه أراد القتل فقتلوهم ، فقتل ضرار بن الأزور مالكا . وسمع خالد ما أثاره القتل من ضجة فخرج وقد فرغوا منهم : فقال :

— إذا أراد الله أمرا أصابه .

فقال له أبو قتادة في ثورة :

— هذا عملك .

فنهز خالد في شدة ، فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر . وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال امرأة مالك بن نويرة ، فراح الناس يهيمسون أنه كان يحبها في الجاهلية ، وأنه ما قتل زوجها إلا لينالها .

وأتى أبو قتادة أبا بكر وراح يقص عليه ما كان من فعل خالد ، فقال

عمر لأبي بكر :

— إن في سيف خالد رَهِقاً ، فإن لم يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده .
وأكثر عليه في ذلك ، وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته
فقال :

— هيه يا عمر ! تأول فأخطأ فأرفع لسانك عن خالد .
وجاء متمم بن نويرة إلى المدينة ، فجعل يشكو إلى الصديق خالدًا
وعمر يساعده ، وينشد الصديق ما قال في أخيه من المراثي :
وكنّا كندمانى جُذيمة برهة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير ما حيننا وقبلنا أباد المنايا قوم كسرى وتبعنا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
وراح عمر يزين لأبي بكر عزل خالد وأبو بكر لا يلقي إليه سمعه ، وقال
متمم :

لقد لامننى عند العبور على البكى
رفيقى لتذراف الدموع السوافك
وقال أتبكى كل قبر رأيتـه
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى
فدعنى فهذا كله قبر مالك
وراح متمم بن نويرة ينشد أبا بكر دم أخيه ويطلب إليه في سبيهم ،
فكتب له برد السبى . وألح عليه عمر في خالد أن يعزله فقال أبو بكر :
— لا يا عمر ، لم أكن لأشيم سيفاً سله الله على الكافرين .
ولم يسكت عمر بل ظلّ يحرض الصديق ويذمره على عزل خالد عن

الإمرة ، ويقول :

— عدو الله عدا على امرئ مسلم فقتله ، ثم نزا على امرأته .
وبعث الصديق إلى خالد فأقبل خالد قافلا حتى دخل المسجد وعليه
قباء له عليه صدا الحديد ، معتجرا بعمامة له قد غرز في عمامته أسهما .
فلما أن دخل المسجد قام إليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها ، ثم
قال :

— أرتاء ١٩ قتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك
بأحجارك .

وسار خالد لا يكلمه ولا يظن إلا أن رأى أبى بكر على مثل رأى عمر
فيه ، حتى دخل على أبى بكر . فلما أن دخل عليه أخبره الخبر واعتذر إليه
فعذره أبو بكر وتجاوز عنه ما كان في حربه تلك . فخرج خالد حين رضى
عنه أبو بكر وعمر جالس في المسجد فقال :

— هلم إلى يا بن أم شلمة .

فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه فلم يكلمه ، ودخل بيته وفكرة
عزل خالد عن قيادة الجيش تراوده ، فلما سار إليه الأمر كان أول ما فعله
أن عزل خالدا عن إمرة الجيش .

وصفح أبو بكر عن خالد ، فساء ذلك أبا قتادة ، وعاهد الله ألا يشهد
مع خالد بن الوليد حربا أبدا .

بعث أبو بكر عكرمة بن أبى جهل إلى مسيلمة وأتبعه شرحبيل بن حسنة ، وأراد عكرمة أن يكون له فخر هزيمة بنى حنيفة وحده ، فلم ينتظر وصول شرحبيل بل عجل بالهجوم على مسيلمة ، فدارت معركة بين المسلمين والمرتدين فهزم عكرمة ، وكتب إلى الصديق بالذى كان من أمره ، فكتب إليه أبو بكر :

— « يا بن أم عكرمة لا أرينك ولا ترانى على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس ، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان ومهرة ، وإن شغلا فامض أنت ثم تسير وتسير جندك يستبرئون مما مررت به حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أمية باليمن وحضر موت » .

وكان شرحبيل قد قام بالطريق حين أدركه خبر هزيمة عكرمة ، فكتب إليه أبو بكر يأمره بالمقام حتى يأتيه أمره . فلما قدم خالد على أبى بكر من البطاح بعد مقتل مالك بن نويرة رضى أبو بكر عن خالد وسمع عذره وقبل منه وصدقه ورضى عنه ، ووجهه إلى مسيلمة فكتب إلى شرحبيل : « إذا قدم عليك خالد ثم فرغتم إن شاء الله فالحق بقضاعة حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالف » .

وخرج الناس مع خالد بن الوليد — على الأنصار ثابت بن قيس والبراء ابن فلان ، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب ، وعلى القبائل

على كل قبيلة رجل — وتعجل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبطاح ، وانتظر البعث الذى ضرب بالمدينة ، فلما قدم عليه نهض حتى أتى الإمامة لقتال بنى حنيفة .

كان عدد بنى حنيفة أربعين ألف مقاتل فى قراها وحجرها ، فسار خالد حتى إذا أظلم عليهم وجد خيولا لعقة ، والهديل ، وزباد وقد كانوا أقاموا على خرج أخرجه لهم مسيلمة ليلحقوا به سجاح ، فلما شعروا بجيش خالد انطلقوا بالخراج هرابا إلى الجزيرة ليقدموا ما حملوا إلى سجاح .

ولم ينتظر شرحبيل مقدم خالد وجنده بل فعل فعل عكرمة وبرز لقتال مسيلمة ، فلحقت الهزيمة بالمسلمين ، فاضطر شرحبيل إلى الانسحاب بعد أن خلف على أرض المعركة شهداء ، فلما قدم عليه خالد لأمه ، وأمد أبو بكر خالدًا بسليط ليكون ردًا له من أن يأتيه أحد من خلفه .

وكان مسيلمة يصانع كل أحد ويتألفه ولا يبالى أن يطلع الناس منه على قبيح ، وكان معه نهار الرّجال بن عُنفوة وكان قد هاجر إلى النّبي — ﷺ — وقرأ القرآن وفقه فى الدين ، فبعثه معلما لأهل الإمامة وليشغب على مسيلمة وليشدّد من أمر المسلمين ، فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة ، شهد له أنه سمع محمداً — ﷺ — يقول إنه قد أشرك معه ، فصدموه واستجابوا له .

وبلغ مسيلمة دنو خالد ف ضرب عسكره بعقرباء ، واستنفر الناس فجعل الناس يخرجون إليه . وخرج مجاعة بن مرارة فى سرية يطلب بثأر له فى بنى عامر وبنى تميم وقد خاف قواته ، وكان ثأرهم فى بنى عامر أن خولة بنت جعفر فيهم فمنعوهم منها ، وأما ثأرهم فى بنى تميم فنعمّ مجاعة أخذها بنو تميم .

واستقبل خالد شرحبيل بن حسنة فقدمه ، وأمر على المقدمة خالد بن فلان المخزومي ، وجعل على المجنبتين زيدا وأبا حذيفة ، وجعل مسيلمة على مجنبتيه المحكم بن الطفيل والرجال بن عنقوة ، فسار خالد ومعه شرحبيل حتى إذا كان من عسكر مسيلمة على ليلة وجد أناسا نائمين . إنهم ما بين أربعين وستين ، ترى أهم مقدمة مسيلمة ؟

هجم شرحبيل عليهم فإذا هم جماعة وأصحابه وقد غلبهم الكرى وكانوا راجعين من بلاد بني عامر بعد أن استخرجوا خولة بنت جعفر فهي معهم . كانوا نياما وأرسان خيولهم بأيديهم تحت خلدودهم وهم لا يشعرون بقرب الجيش ، فأنبهوهم وقالوا .
— من أنتم ؟

— هذا جماعة وهذه حنيفة .

فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالد بن الوليد فأتوه بهم فظن خالد أنهم جاءوا ليستقبلوه وليتقوه بمحاجته فقال :
— متى سمعتم بنا ؟

— ما شعرنا بك ، إنما خرجنا لئلا نلنا فيمن حولنا من بني عامر وتميم .
ولو فطنوا لقالوا : تلقيناك حين سمعنا بك . فلو فعلوا لأتوا ببرهان أنهم سامعون مطيعون ، ولكنهم أقروا أنهم لا يزالون في ردتهم سادرين . فأمر بهم أن يقتلوا ، فجادوا كلهم بأنفسهم دون جماعة بن مرارة وقالوا :
— إن كنت تريد بأهل البمامة غدا خيرا أو شرا ، فاستبق هذا ولا تقتله .

كان جماعة سيذا في بني حنيفة شريفا مطاعا ، فقيدته خالد وجعله في الخيمة مع امرأته أم تميم ابنة المنهال التي كانت تحت مالك بن نويرة .

وسار خالد بالمسلمين حتى تواجه الجيشان ، فقال مسيلمة لقومه :
— اليوم يوم الغيرة ، اليوم إن هزمتم تستردف النساء سبيات ،
وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم .

وتقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كتيب يشرف على الإمامة ،
فضرب عسكره وراية المهاجرين مع سالم مولى أوى حذيفة ، وراية
الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس ، والعرب على راياتها ، ومجاعة بن
مرارة مقيد فى الخيمة مع أم تميم امرأة خالد ، فاصطدم المسلمون والكفار
وكان الرّجال يحال زيد بن الخطاب ، فلما دنا صقّاهما قال زيد :

— يا رّجال ، الله الله ! فوالله لقد تركت الدين وإن الذى أدعوك إليه
لأشرف لك وأكثر لديناك .

فأبى فاجتلدا فقتل الرّجال : فكانت جولة وانهمزت الأعراب ، حتى
دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد ، فأرادوا قتل أم تميم فمنعها مجاعة
وقال :

— أنا لها جار ، فنعمت الحرة هى .

فدفعهم عنها لما قال :

— عليكم بالرّجال .

فراحوا يضربون الفسطاط بالسيوف . ثم إن المسلمين تداعوا فقال
ثابت بن قيس :

— بئسما عدّدتم أنفسكم يا معشر المسلمين .

والتفت إلى أهل الإمامة فقال :

— اللهم إنى أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء .

ثم التفت ناحية المسلمين وقال :

— ١٤١ —

— وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء .
وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله ، وجعلت الصحابة يتواصون
بينهم ويقولون :
— يا أصحاب سورة البقرة ، بطل السحر اليوم .
وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حامل
لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن ، فلم يزل ثابتا وهو ينادى بشعار
المسلمين .

— يا محمداه ! يا محمداه !
وقال المهاجرون لسالم مولى أبنى حذيفة لما أعطى الراية بعد أن قتل
صاحبها عبد الله بن حفص بن غانم :
— أنخشي أن نوثي من قبلك ؟
فقال سالم في انفعال :
— بئس حامل القرآن أنا إذا .
وانقطعت يده اليمنى فأخذ الراية بيساره فقطعت ، فاحتضنها وهو
يقول :

— ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ ^(١) .
﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ﴾ ^(٢) .
وقال أبو حذيفة :
— يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال .
وحمل على بنى حنيفة حملة صادقة حتى أبعدهم عن خيام المسلمين ،

(١) آل عمران ١٤٤ (٢) آل عمران ١٤٦

— ١٤٢ —

وخلصت إليه الجراح فراح يجود بأنفاسه الطاهرة .

وقال زيد بن الخطاب :

— أيها الناس عضوا على أضراسكم ، واضربوا في عدوكم وامضوا
قدما .

وراح يتقدم كأسد جسور يلعب بسيفه ويقط الرعوس ؟ ودنا منه
بعض المسلمين يحدثه فقال :

— والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتي .
وطلق يقاتل ويغوص في صفوف الأعداء حتى بلغ قُبْنه الجهد ، فدنا
منه أبو مريم الحنفى فضربه ضربة كانت القاضية .

وصرَّع سالم مولى أبي حذيفة أحد الأربعة الذين قال فيهم رسول
الله ﷺ : « واستقرئوا القرآن من أربعة » . وقال لأصحابه وهو في
الرمق الأخير :

— ما فعل أبو حذيفة ؟

— قتل .

— فما فعل فلان ؟

— قتل .

— فأضجعوني بينهما .

وجيئ المهاجرون والأنصار أهل البوادي ، وجيئهم أهل البوادي ،
فقال بعضهم لبعض :

— امتازوا كي نستحيا من الفرار اليوم ، ونعرف اليوم من أين نؤتى .

ففعّلوا وقال أهل القرى :

— نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم .

— ١٤٣ —

فقال لهم أهل البادية :

— إن أهل القرى لا يحسنون القتال وما يدرون ما الحرب ، فسترون إذا امتزما من أين يجيء الخلل .

فامتازوا واشتد القتال ، وراح الرجال من الجانبين يسقطون صرعى :
استشهد شجاع بن وهب رسول رسول الله إلى الحارث بن متمر
الغساني ، والطفيل بن عمرو الدوسي ، وعياد بن بشر ، وعبد الله بن
سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ؛ وكانت المصيبة
في المهاجرين والأنصار أكثر منها في أهل البادية .

وقام البراء بن مالك أخو أنس بن مالك ، فلما رأى ما صنع الناس
أخذته العرواء فوثب فقال :

— أين يا معشر المسلمين ؟ أنا البراء بن مالك ، هلم إلّى .

وفاءت فئة من الناس فقاتلوا القوم حتى قتلهم الله ، وخلصوا إلى محكم
اليمامة وهو محكم بن طفيل ، فقال حين بلغه القتال :

— يا معشر بني حنيفة والله تستقبح الكرائم غير رضيات ، وينكحن
غير حظيات ، فما عندكم من حسب فأخرجوه .

وثبت مسيلمة فعرف خالد أن الحرب لا تركد إلا بقتل مسيلمة ، ولم
تحفل بنو حنيفة بقتل من قتل منهم . ثم برز خالد حتى إذا كان أمام الصف

دعا إلى البراز وانتمى وقال :

— أنا ابن الوليد العدد . أنا ابن عامر وزيد .

ونادى بشعار المسلمين :

— يا محمداه !

فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله وهو يرتجز :

— ١٤٤ —

أنا ابن أسياف وسيفى السحت (١)

أعظم شئ حين يأتىك النفت (٢)

ودارت رضى المسلمين وطحنت ، ودنا خالد من مسيلمة فأدبر ،
وشد المسلمون على الكافرين فنادى المحكم :
— الحديقة . الحديقة .

فتدفق بنو حنيفة إلى حديقة كانت لمسيلمة ، وقبل أن يدخل محكم
الجماعة مع الناس رماه عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق بسهم فوضعه فى نحره
فقتله . وأغلق بنو حنيفة الحديقة عليهم وأحاط المسلمون بهم . وصرخ
البراء بن مالك فقال :

— يا معشر المسلمين احملونى على الجدار حتى تطرحونى عليه .
ففعلوا حتى إذا وضعوه على الجدار وأرعد فنادى :
— أنزلونى .

ثم قال :

— احملونى .

ففعل ذلك مرارا ثم قال :
— أف لهذا خشعا .

ثم قال :

— احملونى .

فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم فقاتلهم على الباب حتى فتحه

(١) السحت : القطع والاستئصال

(٢) النفت : الغضب .

للمسلمين وهم على الباب من خارج، فدخلوا فأغلق الباب عليهم، ثم رمى بالفتاح من وراء الجدران فلم يبق أمام المسلمين إلا أن يفنوا أو يفنوا بنى حنيفة .

وكان أبو دجانة ممن اقتحم على بنى حنيفة الحديقة فانكسرت رجله ، ولكنه استمر يقاتل في شجاعة مع إخوانه ، وانتثرت الجثث تغطي أرض الحديقة ، وتطاير أنصار مسيلمة عنه وقال له بعضهم :

— فأين ما كنت تعدنا ؟

— قاتلوا عن أحسابكم .

وكان وحشى يحمل حربته . إنه قتل بها خير الناس بعد رسول الله ﷺ — يوم أحد : قتل حمزة بن عبد المطلب وإنه ليرجو أن يقتل بها مسيلمة الكذاب شر الناس على وجه الأرض .

وأتيحت له الفرصة فهز حربته ثم أطلقها لتستقر بين رجله ، فسقط مسيلمة وعلاه أبو دجانة بالسيف فتركه كأمس الدابر .

وقتل مسيلمة وغطت حديقة الموت الجثث ، فقد قتل في المعركة وفيها عشرة آلاف مقاتل . وصرخ صارخ : — إن العبد الأسود قتل مسيلمة .

فخرج خالد بمجاعة يرسف في الحديد ليريه مسيلمة وأعلام جنده ، فجعل يكشف له القتلى حتى مر بمحكم بن الطفيل وكان رجلا جسيما وسيما . فلما رآه خالد قال :

— هذا صاحبكم ؟

— لا، هذا والله خير منه وأكرم ، هذا محكم الإمامة .

ثم مضى خالد يكشف له القتلى حتى دخل الحديقة فقلب له القتلى ، (وفاة الرسول)

— ١٤٦ —

فاذا رُوِجِلَ أَصْفَرُ أَحِينَسَ فَقَالَ مَجَاعَةٌ :

— هذا صاحبكم قد فرغتم منه .

فَقَالَ خَالِدٌ لِمَجَاعَةٍ :

— هذا صاحبكم الذى فعل بكم ما فعل ؟

— قد كان ذلك يا خالدا .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَخَالِدٍ :

— ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون .

— دعاني أبث الخيل فألقط من ليس فى الحصون ثم أرى رأيي ، فبعث

الخيول فحوروا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان فضموا هذا إلى

المعسكر . ونادى بالرحيل لينزل على الحصون فقال له مَجَاعَةٌ :

— إنه والله ما جاءك إلا سرعان الناس ، وإن الحصون لملوءة رجالا

فهلهم لك إلى الصلح على ما ورائي .

أنهكت الحرب خالدا وأصيب معه من أشرف الناس من أصيب ، فقد

رق وأحب الدعة والصلح فصالح مَجَاعَةٌ على الصفراء والبيضاء والحلقة

ونصف السبي . ثم قال مَجَاعَةٌ :

— أنطلق إليهم فأشاورهم وننظر فى هذا الأمر ، ثم أرجع إليك .

فدخل مَجَاعَةٌ الحصون . وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشixe فانية

ورجال ضعفى ، فقال للنساء :

— البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون .

ففععلن . ثم رجع إلى خالدا وقد رأى خالدا الرجال فيما يرى على

الحصون عليهم الحديد فأحس ضيقا ، فقد قتل من المهاجرين والأنصار من

أهل المدينة ثلثمائة وستون ، ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين

بإحسان ستائة أو يزيدون . إنه لا يدري ما هو كائن لو استؤنف القتال .
وانتهى مجاعة إلى خالد فقال :

— أبوا مصالحتك ، ولكن إن شئت صنعت شيئا فعزمت على القوم .
— ما هو ؟

— تأخذ منى ربع السبي وتدع ربعا .

واتفقا على أن يصطلحا على الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع وعلى
نصف السبي وحائط من كل قرية يختاره خالد ومزرعة يختارها خالد ،
واتفقا على ذلك ثم سرحه وقال :

— أنتم بالخيار ثلاثا ، والله لئن لم تتموا وتقبلوا لأنهدن إليكم ثم لا أقبل
منكم خصلة أبدا إلا القتل .

فأتاهم مجاعة فقال :

— أما الآن فاقبلوا .

فقال سلمة بن عمير الحنفى :

— لا والله لا نقبل ، نبعث إلى أهل القرى والعبيد ، فنقاتل ولا نقاضى
خالدا ، فإن الحصون حصينة والطعام كثير والشتاء قد حضر ، يا بنى
حنيفة قاتلوا عن أصحابكم .

فقال مجاعة :

— يا بنى حنيفة أطيعوني واعصوا سلمة فإنه رجل مشعوم قبل أن
يصيبكم ما قال مسيلمة ، قبل أن تستردف النساء غير رضيات ،
وينكحن غير حظيات .

فأطاعوه وعصوا سلمة وقبلوا قضيته ، فخرج مجاعة سابع سبعة حتى
أتى خالدا فقال :

— ١٤٨ —

— بعد شر ما رضوا ، اكتب كتابك .

فكتب : « هذا ما قاضى عليه خالد بن الوليد مجاعة بن مرارة وسلمة ابن عمير وفلانا وفلانا : قاضاهم على الصفراء والبيضاء ونصف السبي والحلقة والكراع وحائط من كل قرية ومزرعة على أن يسلموا ، ثم أنتم آمنون بأمان الله ولكم ذمة خالد بن الوليد وذمة أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ — وذم المسلمين على الوفاء » .

وفتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان ، فقال خالد لمجاعة :

— ويحك خدعتنى .

— قومى ولم أستطع إلا ما صنعت .

وحشرت بنو حنيفة إلى البيعة والبراءة مما كانوا عليه إلى خالد وخالد في عسكره ، فلما اجتمعوا قال سلمة بن عمير لمجاعة :

— استأذن لى على خالد أكلمه في حاجة له عندى ونصيحة .

كان سلمة لا ينسى ما حل بقومه على يد خالد ؛ إنه أجمع أن يفتك به ، فكلم مجاعة خالدًا فأذن له ، فأقبل سلمة بن عمير مشتملا على السيف يريد ما يريد ، فقال خالد :

— من هذا المقبل ؟

قال مجاعة :

— هذا الذى كلمتك فيه وقد أذنت له .

— أخرجه عنى .

فأخرجوه عنه ففتشوه فوجدوا معه السيف فلعنوه وشتموه وأوثقوه وقالوا :

— لقد أردت أن تهلك قومك . وإيم الله ما أردت إلا أن تستأصل بنو حنيفة وتسبى الذرية والنساء . وإيم الله لو أن خالدا علم أنك حملت السلاح لقتلك ، وما نأمنه إن بلغه أن يقتل الرجال ويسبى النساء بما فعلت ويحسب أن ذلك على ملائنا .

فأوثقوه وجعلوه في الحصن ، وتتابع بنو حنيفة على البراءة مما كانوا عليه وعلى الإسلام . وعاهدهم سلمة على ألا يحدث حدثا ويعفوه فأبوا ولم يثقوا بحمقه أن يقبلوا منه عهدا . فأفلت ليلا فعمد إلى عسكر خالد فصاح به الحرس ، وفزع بنو حنيفة فاتبعوه فأدركوه في بعض الخوائط فشد عليهم بالسيف فاكتفوه بالحجارة ، وأجال السيف على حلقه فقطع أوداجه فسقط في بئر فمات .

وقال خالد لمجاعة :

— زوجنى ابنتك .

— مهلا ، إنك قاطع ظهري وظهرك معى عند صاحبك .

— أيها الرجل زوجنى .

فزوجته . وبعث خالد بن الوليد وفدا من بنى حنيفة إلى أبى بكر الصديق ، وساق الأسرى إلى المدينة وقد تسرى على بن أبى طالب بجارية منهم وهى أم ابنه محمد الذى يقال له محمد بن الحنفية .

وجاء عبد الله بن عمر من الإمامة إلى المدينة ، فلما رآه أبوه قال :

— ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا وارىت وجهك عنى !

— سأل الله الشهادة فأعطيا ، وجهدت أن تساق إلتى فلم أعطها .

وأطرق عمر بن الخطاب هنيئة ثم قال :

— سبقنى إلى الحسينين : أسلم قبلى واستشهد قبلى .

— ١٥٠ —

وجاء أبو مریم قاتل زید بن الخطاب إلى عمر وقال :
— إن الله أكرم زيدا بيدي ولم يهني على يده .
وقابل عمر متمم بن نويرة وهو يرثي أخاه مالكا ، فقال له عمر :
— لو كنت أحسن الشعر لأقلت كما قلت .
فقال له متمم :
— لو أن أخي ذهب على ما ذهب عليه أخوك ما حزننت عليه .
— ما عزاني أحد بمثل ما عزيتني به .
وبلغ أبا بكر أن خالدا تزوج ابنة مجاعة فكتب إليه كتابا يقطر الدم :
« لعمري يا بن أم خالد إنك لفارغ تنكح النساء . وبفناء بيتك دم ألف
ومائتي رجل من المسلمين لم يحيف بعد ١٩ » .
فلما نظر خالد في الكتاب جعل يقول :
— هذا عمل الأعرس .
وكان يعنى عمر بن الخطاب ، فالعداوة بين الرجلين مشبوبة .

١٧

كان رسول الله ﷺ — قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، وأسلم المنذر على يديه وأقام في أهل البحرين العدل ، فلما توفى رسول الله ﷺ — توفى المنذر بعده بقليل ، وكان قد حضر عنده في مرضه عمرو بن العاص فقال له :
— يا عمرو هل كان رسول الله ﷺ — يجعل للمريض شيئا من ماله ؟

— نعم ، الثلث .

— ماذا أصنع به ؟

— إن شئت تصدقت به على أقربائك ، وإن شئت على المحاييج ، وإن شئت جعلته صدقة من بعدك حبسا محرما .
— إني أكره أن أجعله كالبحيرة ^(١) والسائبة والوصيلة والحام ، ولكننى أتصدق به .

ففعل ومات . فلما مات ارتد أهل البحرين وملكوا عليهم الغرور وهو المنذر بن النعمان بن المنذر .
وقال قائلهم :

(١) البحيرة والسائبة والوصيلة والحام : أنواع من الإبل والغنم كانوا يخرمون الانتفاع بها في الجاهلية فأبطل ذلك الإسلام .

— ١٥٢ —

— لو كان محمد نبيا ما مات .

ولم يبق بها بلدة على الثبات سوى قرية يقال لها جواثا كانت أول قرية أقامت الجمعة من أهل الردة ، وقد حاصر المرتدون أهلها وضيقوا عليهم حتى منعوا من الأقوات وجاعوا جوعا شديدا . وقد قال رجل منهم يقال له عبد الله بن خدف أحد بنى بكر بن كلاب وقد اشتد عليه الجوع :

ألا أبلغ أبا بكر رسولا وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قوم كرام قعود في جواثا محصرينا
كأن دماءهم في كل فج شعاع الشمس يغشى الناظرينا
توكلنا على الرحمن إنا وجدنا الصبر للمتوكلينا

كان الجارود بن المعل من عبد القيس وقد ساءه أن يرتد قومه بعد أن هداهم الله إلى النور ، كان الجارود قد قدم على رسول الله ﷺ — مرتادا فقال :

— أسلم يا جارود .

— إن لي دينا .

— إن دينك يا جارود ليس بشيء وليس بدين .

— فإن أنا أسلمت فما كان من تبعة في الإسلام فعليك ؟

— نعم .

فأسلم ومكث في المدينة حتى فقه ، فلما أراد الخروج قال :

— يا رسول الله هل نجد عند أحد منكم ظهرا تبليغ عليه ؟

— ما أصبح عندنا ظهر .

— يا رسول الله إنا نجد بالطريق ضوال من هذه الضوال .

— تلك حرق النار فأياك وإياها .

— ١٥٣ —

فلما قدم على قومه دعاهم إلى الإسلام فأجابوه كلهم ، وإنه ليسيئه أن يرتد قومه وأن يغلقوا أفئدتهم دون أنوار اليقين ، فبعث فيهم فجمعهم ثم قام فخطبهم فقال :

— يا معشر عبد القيس إني سائلكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموه ، ولا تجيبوني إن لم تعلموا .

— سل عما بدا لك .

— تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضوا ؟

— نعم .

— تعلمونه أو ترونه ؟

— لا بل نعلمه .

— فما فعلوا ؟

— ماتوا .

— فإن محمدا صلوات الله عليه مات كما ماتوا ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمدا عبده ورسوله .

— ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأنت سيدنا

وأفضلنا .

ففاءت عبد القيس إلى الله . وأما بكر فقد خرج الحطيم بن ضبيعة أخو بنى قيس بن ثعلبة فيمن اتبعه من بكر بن وائل على الردة ، ومن انضم إليه من غير المرتدين ممن لم يزل كافرا ، حتى نزل القطيف وهجر وكان قد اتفق مع قومه على أن يردوا الملك في آل المنذر ، فملكوا المنذر بن النعمان بن المنذر ، فبعث المنذر الحطيم إلى جواثا وقال له :

— اثبت فإنني إن ظفرت ملكتك بالبحرين ، حتى تكون

كالنعمان بالحيرة .

وانطلق الحطم إلى جواثا فحاصر قومها الذين ثبتوا على الإسلام ؛ وفي ذلك الوقت بعث أبو بكر العلاء بن الحضرمي على قتال أهل الردة بالبحرين . فلما أقبل إليها فكان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال في مسلمة بنى حنيقة ، وراح الأمراء يتلقون العلاء بالترحاب وينضمون إليه حتى نزل جيش المسلمين هجر . فأرسل العلاء إلى الجارود ورجل آخر أن انضموا في عبد القيس حتى تنزلا على الحطم مما يليكما ، وخرج هو فيمن جاء معه وفيمن قدم عليه ، حتى ينزل عليه مما يلي هجر .

وتجمع المشركون كلهم إلى الحطم إلا أهل دارين ، وتجمع المسلمون كلهم إلى العلاء الحضرمي ، وخذق المسلمون والمشركون وكانوا يترأفون القتال يرجعون إلى خندقهم ، فكانوا كذلك شهرا . فبينما الناس ليلة إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدة كأنها ضوضاء هزيمة أو قتال ، فقال العلاء :

— من يأتينا بخبر القوم ؟

فقال عبد الله بن خدف :

— أنا آتيكم بخبر القوم .

وكانت أمه عجيبة ، فخرج حتى إذا دنا من خندقهم أخذوه فقالوا له :

— من أنت ؟

فانتسب لهم وجعل ينادي :

— يا أبجراه .

فجاء أبحر بن بجير فعرفه فقال :

— ما شأنك ؟

وراح عبد الله بن خدف يتفرس في القوم فإذا بهم سكارى قد لعبت بهم الخمر ، فقال :

— لا أضيعن بين اللهازم ، علام أقتل وحولى عساكر من عجل وتيم اللات وقيس وعنزة . أيتلاعب بى الحُطَم ونزاع القبائل وأنتم شهود ؟ فتخلصه أبحر وقال :

— والله إني لأظنك بمس ابن الأخت لأخوالك الليلة .

كان الأبحر يترنخ من السكر فقال له ابن خدف :

— دعنى من هذا وأطعمنى فإنى قد متُّ جوعاً .

فقرب له طعاماً فأكل ثم قال :

— زودنى واحملنى وجوزنى أنطلق إلى طيتى .

ففعل وقد غلب عليه الشراب وحمله على بعير وزوده وجوزوه وخرج عبد الله بن خدف حتى دخل عسكر المسلمين فأخبرهم أن القوم سكارى ، فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عليهم عسكرهم فوضعوا السيوف فيهم حيث شاءوا . واقتحم المشركون الخندق هرباً فاندكت رقاب ونجا أناس وقطعت رءوس وأسرت زرافات ، واستولى المسلمون على ما فى العسكر لم يفلت رجل إلا بما عليه .

وأفلت أبحر ، ودهش الحُطَم وطار فؤاده فقام إلى فرسه والمسلمون خلاهم يجوسون ليركبه ، فلما وضع رجله فى الركاب انقطع به ، فمر به عفيف بن المنذر أحد بنى عمرو بن تميم والحُطَم يستغيث ويقول :

— ألا رجل من بنى قيس بن ثعلبة يعقلنى ؟

— ١٥٦ —

فرفع صوته فعرف عفيف صوته فقال :

— أبو ضبيعة ؟

— نعم . أعطني رجلك أعقلك .

فأعطاه رجله يعقله فضربها بسيفه فقطعها من الفخذ وتركه ، فقال

الحُطَم :

— أجهز عليّ .

— إني أحب ألا تموت حتى أمضك .

كان عفيف يحب له أن يتألم كما تألم ، فقد كان معه عدة من ولد أبيه

أصيبوا في تلك الليلة ، وجعل الحطم لا يميز به في الليل أحد من المسلمين

إلا قال :

— هل لك في الحُطَم أن تقتله ؟

ويقول ذاك لمن لا يعرفه ، حتى مر به قيس بن عاصم فقال له :

— هل لك في الحطم أن يقتله ؟

فمال عليه فقتله ، فلما رأى فخذه نادرة قال :

— واسوأته ! لو علمت الذي به لم أحرّكه .

وخرج المسلمون بعد ما أحرزوا الخندق على القوم يطلبونهم ،

فاتبعوهم فلحق قيس بن عاصم أبجر ، وكان فرس أبجر أقوى من فرس

قيس ؛ فلما خشى أن يفوته طعنه في العرقوب فقطع العصب ، فسقط

الفرس وسقط راكبه ، وأسر عفيف بن المنذر الغرور بن سويد ، فكلمه

الناس فيه وسأله أن يجره ، فأثنى به إلى العلاء وقال :

— إني قد أجرت هذا .

— ومن هذا ؟

— الغرور :

إن الغرور المنذر بن النعمان بن المنذر من ملكة أهل البحرين عليهم ينظر
إلى العلاء بعينين متوسلتين قد تعلقتا بشفتي أمير القوم ، قال :

— أنت غررت هؤلاء ؟

فقال الغرور في انكسار :

— أيها الملك إني لست بالغرور ، ولكني المغرور .

— أسلم .

فأسلم وبقي بهجر .

وأصبح العلاء فقسم الأنفال ونفل رجالا من أهل البلاد ثيابا ، فكان
فيمن نفل عفيف بن المنذر وقيس بن عاصم وثمانة بن أثال ، فأما ثمانية فنفل
ثيابا فيها خميسة ذات أعلام كان الحُطَم يباهى فيها .

وقصد معظم الهاربيين من وجه سيوف المسلمين لدارين فركبوا إليها
السفن ، ورجع الآخرون إلى بلاد قومهم . فكتب العلاء بن الحضرمي
إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل لقتال هؤلاء الفلال . وأرسل
الرسل إلى سادات القبائل الذين تمسكوا بالإسلام بلزوم ما هم عليه
والقعود لأهل الردة بكل سبيل .

ولم يزل العلاء مقيما في عسكر المشركين في الدهناء حتى رجعت إليه
الكتب من عند من كان كتب إليه من بكر بن وائل ، وبلغه عنهم القيام بأمر
الله والغضب لدينه . فلما جاءه عنهم من ذلك ما كان يشتهي أيقن أنه لن
يؤتى من خلفه بشيء يكرهه على أحد من أهل البحرين ، وندب الناس إلى
دارين حيث اجتمع فلول الهاربيين ، ثم جمع المسلمين فخطبهم وقال :

— إن الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشرّد الحرب في هذا البحر ،

وقد أراكم من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر ، فانهضوا إلى عدوكم ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم .

— نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولا ما بقينا .

كان نصر الله عظيما يوم أن ركبوا المرتدين بأسيا فهم في الدهناء ، وإن ذلك النصر قد ثبت أقدامهم فارتحلوا حتى إذا بلغوا ساحل البحر راح العلاء يدعو وهم يدعون :

— يا أرحم الراحمين . يا كريم يا حلیم . يا أحد يا صمد يا حي . يا محيي الموتي . يا حي يا قيوم . لا إله إلا أنت يا ربنا .

وراحوا يغوضون ماء الخليج على ظهور الخيل والبغال والحمير والجمال ، يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يخرم أخفاف الإبل ، وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر . فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعا ، فالتقوا بالفرار واقتتلوا قتالا شديدا ، فدارت الدائرة على المرتدين وجاء نصر الله المبين .

ورجع العلاء إلى البحرين ، وانتشر الإسلام فيها وتوطدت أركانه ، وأقفل العلاء بن الحضرمي الناس فرجع الناس إلا من أحب المقام ، وقفل ثمانية بن أنال حتى إذا كانوا على ماء لبنى قيس بن ثعلبة فرأوا ثمانية ورأوا خميسة الحطيم عليه ، فسأله رجلا وقالوا :

— سله عنها كيف صارت له وعن الحطيم ، أهو قتله أو غيره .

فأتاه فسأله عنها فقال :

— نفلتها .

— أنت قتلت الحطيم ؟

— لا ، ولوددت أني كنت قتلته .

— ١٥٩ —

- فما بال هذه الخميصة معك ؟
- أ لم أخبرك ؟
- فرجع إليهم فأخبرهم فتجمعوا له ثم أتوه ، فتمرشوا به فقال :
- ما لكم ؟
- أنت قاتل الحطم .
- كذبت ، لست بقاتله ولكنى نفلتها .
- هل ينفل إلا القاتل ؟
- إنها لم تكن عليه ، إنما وجدت في رحله .
- كذبت .
- فأصابوه .
- وكان على المسلمين راهب في هجر فأسلم ، فقبل له :
- ما دعاك إلى الإسلام ؟
- دعاء سمعته في عسكرهم في الهواء من السحر .
- وما هو ؟
- اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك ، والبديع ليس قبلك شيء ،
والدائم غير الغافل ، والحي الذي لا يموت ، وخالق ما يرى وما لا يرى ،
وكل يوم أنت في شأن ، وعلمت اللهم كل شيء بغير تعلم .
- وكتب العلاء إلى أبي بكر بهزيمة أهل الخندق وقتل الحطم ؛ « أما بعد
فإن الله تبارك اسمه سلب عدونا عقولهم ، وأذهب ريحهم بشراب أصابوه
من النهار ، فافتنحنا عليهم خندقهم فوجدناهم سكارى فقتلناهم إلا
الشريد ، وقد قتل الله الحطم » .
- وكان رسول الله ﷺ — قد بعث جرير بن عبد الله البجلي لهدم

— ١٦٠ —

صنم ذى الخلصة ، فلما مات رسول الله ﷺ — غضبت خثعم رهط جرير لذي الخلصة ، وأرادوا إعادته ، فرد أبو بكر جريرا إلى قومه وأمره أن يدعو من ثبت منهم على أمر الله ليقاتل بهم من ولى عن أمر الله ، وأمره أن يأتى خثعم فيقاتل من خرج غضبا لذي الخلصة ومن أراد إعادته حتى يقتلهم الله ويقتل من شاركهم فيه ، ثم يكون وجهه إلى نجران فيقيم بها حتى يأتيه أمره .

وخرج جرير لينفذ ما أمره به ، فلم يقف في سبيله إلا رجال في عدة قليلة فقتلهم وتبعهم ، ثم كان وجهه إلى نجران فأقام بها انتظارا لأمر أبى بكر الصديق الذى ثارت عليه الأرض بخلا بما فى أيدي الناس ، أو طمعا فى زعامة زائلة .

لم تضحك فاطمة الزهراء مذ مات أبوها — ﷺ — إنها تذوب حزنا عليه وشوقا إليه . ومرضت « أم أبيها » فراح الحسن والحسين وأم كلثوم يرون إلى أمهم في إشفاق وجزع ، إنها تذوى ويريق عينيها الجميلتين ينطفئ ، والموت يزحف إليها لتلحق برسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وبالأحبة زينب ورقية وأم كلثوم .

وجاءت أمية بنت زينب وألقت نظرة على خالتها فانقبض صدرها واعتصر قلبها الحزن ، فقد عاشت في كنف الزهراء بعد موت أمها فأنستها بعطفها وحنانها وحبها لآل البيت ، فكانت لها أما بعد أمها ؛ فلو ماتت فإنها ستكون قد تجرعت قسوة اليتيم مرتين .

وشردت الزهراء فإذا بالذكريات تتدفق إلى رأسها ؛ إنها ترى ليلة زفاف علي ابن عمها عليها . إن أباه الذي أصيبت به توحشا في تلك الليلة وصب على علي وعليها ودعا لهما أن يبارك في نسلهما ، إن عليا فارس الإسلام أصدقها درعه الخطمية باعها بأربعمئة درهم ، وقد بعث معها أبوها عليه الصلاة والسلام بخميلة ووسادة من آدم حشوها ليف ورحى وسقاة وجرتين .

كانت في الخامسة عشرة من سنها وكانت تطحن وتنض بأعباء دارها الصغيرة ، وكان علي بن أبي طالب يشفق عليها ويعاونها كلما سمح وقته (وفاة الرسول)

— ١٦٢ —

بالبقاء معها . إنها لتذكر ذلك اليوم الذى ورد فيه إلى المدينة سبى وسعة
فقال لها زوجها :

— والله لقد سنوت ^(١) حتى لقد اشتكيت صدرى ، وقد جاء الله
أباك بسبى فاذهبى فاستخدميه .

— وأنا والله لقد طحنت حتى محلت ^(٢) يداى .

إنها لترى نفسها وهى ابنة النبی — ﷺ — وتكاد تسمع صوته
الجهورى فى أعماقها وهو يقول :

— ما جاء بك أى بنية ؟

— جئت لأسلم عليك .

واستحييت وهى راقدة فى فراشها كما استحييت فى ذلك اليوم أن
تسأله ، ورأت نفسها وهى راجعة تتعثر فى مشيتها .

وسرى فى وجدانها صوت على :

— ما فعلت ؟

— استحييت أن أسأله .

ورأت بعين خيالها نفسها وهى تنطلق مع زوجها إلى أبيها صلوات الله
وسلامه عليه وسمعت بأذن الخيال عليها يقول :

— يا رسول الله والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى .

— لقد طحنت حتى محلت يداى ، وقد جاءك الله بالسبى وسعة
فأخدمنا .

(١) سنوت : سقيت الإبل ونحوها .

(٢) محلت يداى : أصابتها الخشونة من قسوة العمل .

— ١٦٣ —

— والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم .

ورأت نفسيهما وقد عادا مطأطيء الرعوس ، ولكن أباهما الرحيم أتاها وقد دخلا في قطيفتهما ، إذا غطت رعوسهما تكشفت أقدامهما وإذا غطت أقدامهما تكشفت رعوسهما ، فثارا فقال :
— مكانكما .

ثم قال :

— ألا أخبركما بخبر مما سألتاني ؟

— بلى .

— كلمات علمنهن جبريل : تسبحان الله في دبر كل صلاة عشرا وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، وإذا آويتا إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين ، وكبرا أربعاً وثلاثين .
فما تركتهن منذ ذلك الوقت .

كانت صابرة مع علي بن أبي طالب على جهد العيش وضيقه . إنه لم يتزوج عليها ولكنه أراد أن يتزوج في وقت بدرة بنت أبي جهل ، فأنف أبوها — صلوات الله وسلامه عليه — من ذلك وخطب الناس فقال :

— لا أحرم حلالا ولا أحل حراما ، وإن فاطمة بضعة مني يريني ما رابها ويؤذي ما آذاها ، وإني لأخشى أن تفتن عن دينها . ولكن إن أحب ابن أبي طالب أن يطلقها ويتزوج بنت أبي جهل فإنه والله لا تجتمع بنت نبي الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد أبدا .

فإن كان علي قد ترك الخطبة ولم يتزوج عليها فإنها تموت ، وإن عليا سيتزوج بعد موتها . فراحت توصي زوجها أن يتزوج أميمة بنت أختها

زينب بعد أن تلحق بأبيها .

وعلم أبو بكر بمرض حبيبة الرسول فأثاها أبو بكر فما يجب أن تموت فاطمة وهى ساخطة عليه . إنها سألته الميراث فأخبرها أن رسول الله — ﷺ — قال : لا نورث ما تركنا فهو صدقة . فسألت أن يكون زوجها ناظرا على هذه الصدقة فأبى ذلك وقال : إني أعول ما كان رسول الله يفعل ، وإني أخشى إن تركت شيئا مما كان رسول الله — ﷺ — يفعل أن أضل . ووالله لقراءة رسول الله — ﷺ — أحب إلى أن أصل من قرابتى .

إنها وجدت فى نفسها من ذلك ، وأثاها أبو بكر واستأذن ، فدخل على كرم الله وجهه على زوجته فقال :
— هذا أبو بكر يستأذن عليك .
فقال فى صوت خافت :
— أتحب أن آذن له ؟

— نعم .

فأذنت له ، فدخل عليها يترضاها فقال :

— يا حبيبة رسول الله ، والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله ومرضاتكم أهل البيت .

وراح يترضاها حتى رضيت ، فأنصرف أبو بكر برضاها مسرورا . وبقيت سيدة النساء صامئة وصور الماضى تتوافد على ذاكرتها . إنها ترى بيت مكة وخديجة أم المؤمنين تملؤن حياة ، وأم أيمن ترعى زينب ورقية وأم كلثوم ، ورسول الله — ﷺ — يخرج إلى الناس يدعوهم إلى الله ثم يعود مجهدا مهموما لإعراض قومه عن الحق المبين ، فتهرع إليه خديجة تواسيه

وتمسح عنه الآلام والأحزان .

إن أمها الطاهرة قد رقدت هناك في مكة ، ودفنت زينب ورقية وأم كلثوم وأم أيمن هنا في البقيع ، وقبر أبوها حيث قبض في بيت عائشة . إنهم ماتوا ولكنها تراهم جميعا عند سريرها ينتظرونها لتنطلق معهم إلى حيث ذهب أبوها ، إلى الرفيق الأعلى .

كان الموت يطلبها حيثما وإنما لتترك الدنيا غير آسفة على فراقها ، فما تنافست في عزها وفخرها ، وما بهرتها زينتها ونعيمها ، وما جزعت من ضرائها وبؤسها . إنها عما قليل ستصبح ميتا يكي ، وستخلف من ورائها دنيا لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى .

وفتحت عينين واهنتين فرأت أبا الحسن والها حزينا ، والحسن والحسين وفي أعينهما دموع ، وأم كلثوم تكاد تموت من الأسى . فأرادت أن تواسيهم ولكن الكلمات ماتت على شفيتها ، ولم تجد الكلام الذي يعبر عما تعتمل به نفسها .

وحانت منها التفاتة فرأت أسماء بنت عميس فتذكرت جعفر بن أبي طالب زوج أسماء قبل أن يتزوجها أبو بكر ، فدعت الله أن تكون معه في الجنة ، وأوصت أسماء أن تغسلها .

وفاضت الروح المطمئنة ورجعت إلى ربها راضية مرضية . فأجهش أبو الحسن بالبكاء ، وراح الحسن والحسين وأم كلثوم يذرفون الدموع على أعظم أم في الوجود ، سيدة نساء أهل الجنة .

وقام على وأسماء بنت عميس وسلمى أم رافع وراحوا يغسلون الجسد الطاهر والعيون تسح الدموع ، واجتمع الناس في المسجد وقد نزل بقلوبهم حزن ثقیل ، فقد جدد موت الزهراء أحزانهم على فراق أبيها نبي

الرحمة ورسول رب العالمين .

وصلى عليها زوجها عليّ وعمه العباس ، وفي سكون الليل خرجت
الجنائز إلى البقيع وقد غامت أعين الرجال بالدموع ، وارتفع نشيج النساء
من الدور . ودفنت عليّ أضواء المشاعل فقد كانت الليلة ليلة الثلاثاء لثلاث
خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من هجرة أبيها العظيم .

وشعر عليّ بنار الحزن تلسع فؤاده فلم يقدر على أن يكتم ما به ، فوقف
يناجي رسول الله ﷺ — ويرثى زهراء :

— السلام عليك يا رسول الله ، عني وعن ابنتك النازلة إلى جوارك
والسريعة اللحاق بك ، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورق عنها
تجلدى ، إلا أن لي في التأسي بعظيم فرقتك ، وفادح مصيبتك ، موضع
تعز ، ولقد وسدتك في ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحري وصدرى
نفسك .

إنا لله وإنا إليه راجعون . لقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ،
أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهد ، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت
بها مقيم . وستنبئك ابنتك بتضايف أمتك على هضمها ، فأحفظها السؤال
واستخبرها الحال ؛ هذا ولم يطل العهد ، ولم يخل منك الذكر . والسلام
عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن
أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .

نبيع بعمان ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي ، وكان يسمى في الجاهلية
الجلندي ، وادعى النبوة . وتابعه الجهلة من أهل عُمان فحارب جيفرا
وعبادا وألجأهما إلى الجبال والبحر ، فبعث جيفر إلى أبي بكر يخبره بذلك
واستجاشه ، فبعث إليه الصديق بأمرين وهما حذيفة بن محصن
الحميري ، وعرفجة البارقي من الأزد ؛ حذيفة إلى عُمان ، وعرفجة إلى
مهرة ، وأمرهما أن يجتمعا ويتفقا ويتدئا بعمان ، وحذيفة هو الأمير ، فإذا
ساروا إلى بلاد مهرة فعرفجة الأمير .

وكان أبو بكر قد بعث عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة وأتبعه
بشرحبيل بن حسنة ، فعجل عكرمة وناهض مسيلمة قبل مجيئ شرحبيل
ليفوز بالظفر وحده ، فناله من مسيلمة قرح والذين معه ، فتقهقر فكتب
إليه الصديق يلومه على تسرعه قال :

— لا أرينك ولا أسمع بك إلا بعد بلاء .

وأمره أن يلحق بحذيفة وعرفجة إلى عمان : « وكل منكم أمير على
جيشه ، وحذيفة ما دمت بعمان فهو أمير الناس . فإذا فرغتم فاذهبوا إلى
مهرة ، فإذا فرغتم منها فاذهب إلى اليمن وحضر موت ، فكن مع المهاجر
ابن أبي أمية ، ومن لقيته من المرتدين بين عمان إلى حضر موت واليمن فنكل
به » .

فسار عكرمة لما أمره به الصديق ، فلحق حذيفة وعرفجة قبل أن يصلوا إلى عمان ، وقد كتب إليهما الصديق أن ينتهيا إلى رأى عكرمة بعد الفراغ من السير من عمان أو المقام بها ، فساروا فلما اقتربوا من عمان راسلوا جيفرا . وبلغ لقيط بن مالك بجى الجيش فخرج فى جموعه فعسكر بمكان يقال له دبا ، وهى مصر تلك البلاد وسوقها العظمى ، وجعل الذرارى والأموال وراء ظهورهم ليكون أقوى لحربهم .

واجتمع جيفر وعباد بمكان يقال له صحار ، فعسكروا به وبعثا إلى أمراء الصديق فقدموا على المسلمين ، فتقابل الجيشان هناك وتقاتلوا قتالا شديدا ، وابتلى المسلمون وكادوا أن يولوا ، فمن الله بكرمه ولطفه أن بعث إليهم مددا فى الساعة الراهنة من بنى ناجية وعبد القيس فى جماعة من الأمراء ، فقوى الله بهم أهل الإسلام ووهن الله بهم أهل الشرك ، فولى المشركون الأدبار وقتل منهم فى المعركة عشرة آلاف ، وركبهم المسلمون حتى أثخنوا وسبوا الذرارى وقسموا الأموال على المسلمين ، وبعثوا بالخمسة إلى أبى بكر مع عرفجة ، وكان الخمسة ثمانمائة رأس غير السبي ، وغنموا السوق بخذافيها .

ورأى عكرمة وحذيفة أن يقيم حذيفة بعمان حتى يوطئ الأمور ويسكن الناس ، فراح حذيفة يدعو القبائل حول عمان إلى السكون . فلما فرغ عكرمة وعرفجة وحذيفة من ردة عمان خرج عكرمة فى جنده نحو مَهْرَة . واستنصر من حول عمان وأهل عمان ، وسار حتى اقتحم على مهرة بلادها فوافق بها جمعين من مهرة ؛ أما أحدهما فبمكان من أرض مهرة يقال له جيروت عليهم شخريت رجل من بنى شخراة ، وأما الآخر بالنجد ، وقد انقادت مهرة جميعها لصاحب هذا الجمع عليهم المصباح أحد

بنى محارب والناس كلهم معه إلا ما كان من شخريت ؛ فكانا مختلفين كل واحد من الرئيسين يدعو الآخر إلى نفسه ، وكل واحد من الجندين يشتهي أن يكون النصر لرئيسهم .

ورأى عكرمة قلة من مع شخريت فدعاه إلى الرجوع إلى الإسلام فأجابته ، ووهن الله بذلك المصباح . ثم أرسل إلى المصباح يدعوهُ إلى الإسلام والرجوع عن الكفر فاعتز بكثرة من معه وازداد مباعدا مخالفة لشخريت ، فسار إليه عكرمة وسار معه شخريت فالتقوا هم والمصباح بالنعجة ، فاقتتلوا أشد من قتال دَبَا ، ثم إن الله كشف جنود المرتدين وقتل المصباح وركبهم المسلمون فقتلوا منهم ما شاءوا وأصابوا ما شاءوا ، وأصابوا فيما أصابوا ألفى نجبية ، فخمس عكرمة ألفى فبعث بالأخماس مع شخريت إلى أبي بكر ، وقسم الأربعة الأخماس على المسلمين ، وبعث السائب أحد بنى عابد بن مخزوم بشيرا فقدم على أبي بكر بالفتح ، وقدم شخريت بعده بالأخماس .

وكان الأسود العنسى قد نبغ باليمن وأضل خلقا كثيرا من ضعفاء العقول حتى ارتد كثير منهم عن الإسلام ، وقد قتله الأمراء الثلاثة قيس بن مكشوح وفيروز الديلمي ، وداذويه ، وكان ذلك في عهد رسول الله ﷺ . فلما بلغهم موت رسول الله ﷺ صلوات الله وسلامه عليه — ازداد بعض أهل اليمن فيما كانوا فيه من الحيرة والشك ، وطمع قيس بن مكشوح في الإمرة باليمن فارتد عن الإسلام ، وتابعه عوام أهل اليمن . وأرسل قيس إلى ذى الكلاع وأصحابه أن الأبناء نزاع بلادكم وثقلاء فيكم ، وإن تتركوهم لن يزلوا عليكم ، وقد أرى من الرأى أن أقتل رءوسهم وأخرجهم من بلادنا .

فتبرأ أهل ذى الكلاع فلم يمالئوه ولم ينصروا الأبناء ، واعتزلوا وقالوا :
— لسنا مما ها هنا فى شىء ، أنت صاحبهم وهم أصحابك .

فتربص لهم قيس واستعد لقتل رؤسائهم ، إخوان الأُمس . فراح يدبر أمره سرا ، فاتصل برجال قد شقوا عصا الطاعة وراحوا يعيثون فى الأرض فسادا ، وكاتبهم فى السر وأمرهم أن يتعجلوا إليه ليكون أمره وأمرهم واحد ، وليجتمعوا على نفى الأبناء من بلاد اليمن . فكتبوا إليه بالاستجابة له ، وأخبروه أنهم إليه سُرّاع ، فاستيقظ أهل صنعاء على خبر دنو أولئك الثوار منها .

وانطلق قيس إلى فيروز وهو يتصنع الدهشة والخوف من الأبناء التى ترامت إليه ، وأتى داذويه ، فاستشارهما ليخدعهما ولئلا يتهما . فأداروا قداح الرأى بينهم ، واطمأن فيروز وداذويه إلى قيس . ودعاهما قيس من الغد إلى طعام ، فخرج داذويه حتى دخل عليه ، فلما دخل عليه عاجله فقتله ، وخرج فيروز يسير والموت يتربص به حتى إذا دنا سمع امرأتين على سطحين يتحدثان ، فقالت إحداهما :
— هذا مقتول كما قتل داذويه .

فنكص على عقبيه وراح يركض ليفر من الموت ، وبلغ قيسا رجوع فيروز فخرج فرسان له يقتفون أثره فجعلوا يركضون وهو يركض متوجها نحو جبل خولان ففيه أخوال ، واستمر السباق رهيب والمطاردة المثيرة ، وقد انتهت بأن سبق فيروز الخيول إلى الجبل وامتنع بأخواله . ورجعت الخيول إلى قيس ، فأحنقه انفلات فيروز من قبضته ، ثم جمع جموعه وانقض على صنعاء فأخذها ، وأتته خيول الأسود وانضمت إليه وتناست ما كان من اشتراك قيس فى مقتل العنسى ، وقام فيروز فى أخواله

فهرع إليه أناس ممن بقوا على إسلامهم ، وكتب إلى أبي بكر بالخبر ، فقال
قيس في استخفاف :

— وما خولان وما فيروز وما فرار أووا إليه !؟
وعمد قيس إلى الأبناء ففرّقهم ثلاث فرق : أقر من أقام وأقر عياله ،
وفرق عيال الذين هربوا إلى فيروز فرقتين ، فوجه إحداهما إلى عدن
ليحملوا في البحر ، وحمل الأخرى في البر ، وقال لهم جميعا :
— الحقوا بأرضكم .

وبعث معهم من يسيرهم فكان عيال الديلمي ممن يسير في البر ، وعيال
داذويه ممن يسير في البحر . فلما رأى فيروز أن قد اجتمع عوام أهل اليمن على
قيس ، وأن العيال قد سيروا وأنهم عرضة للنهب وأنه لا يستطيع أن يفارق
عسكره لينقذهم ، أرسل إلى بنى عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة
رسولا بأنه يستمدهم ويستنصرهم لإنقاذ عياله . فركبت عقيل وعليهم
رجل من الحلفاء يقال له معاوية ، فاعترضوا خيل قيس فأنقذوا أولئك
العيال وقتلوا الذين سيروهم ، ووثبت عك وعليهم مسروق فساروا حتى
أنقذوا عيالات الأبناء ، وأمدت عقيل وعك فيروز بالرجال ، فلما أتمته
أمدادهم خرج فيمن كان اجتمع إليه وفي ذلك المدد لقتال قيس .

والتقى جيش المسلمين وجيش المرتدين دون صنعاء ، ودارت رحى
معركة رهيبة ، المسلمون يدافعون عن الحق والمرتدون يقاتلون في سبيل
عرض الدنيا ، وارتفعت أصوات المسلمين بشعارهم :

— والمحمده ! والمحمده !

فإذا بسيوف المسلمين تحصد الكافرين حصدا ، فهزم الله قيسا في قومه
ومن انضموا إليه ، فخرج هاربا في جنده حتى عاد معهم وعادوا إلى المكان

الذى فروا إليه بعد مقتل العنسى .

وخرج عكرمة بن أبى جهل من مهرة سائرا نحو اليمن حتى ورد أبين
ومعه بشر كثير ، فجمع النخع فقال لهم :

— كيف كنتم فى هذا الأمر ؟

— كنا فى الجاهلية أهل دين لا نتعاطى ما تتعاطى العرب بعضها من
بعض . فكيف بنا إذا صرنا إلى دين عرفنا فضله ودخلنا حبه ؟

فسأل عنهم فإذا الأمر كما قالوا ، ثبت عوامهم على الإسلام وهرب من
ارتد من خاصتهم ، واستبرأ النخع وحمير وقوى بهم .

ونزل بقيس هم ثقيل لهبوط عكرمة إلى اليمن ، فأرسل إلى عمرو بن
معد يكرب لينضم إليه فجاءه عمرو ، وكان عمرو قد ارتد فيمن ارتد
وجعله العنسى على جيش من جيوشه . ووقعت بين قيس وعمرو خلافات
فتنازعا وتعاريا ، فنظم عمرو بن معد يكرب شعرا يعير فيه قيسا غدرة
بالأبناء وقتله داذويه ، فراح قيس يعيره بما فعله به خالد بن سعيد حين
لقيه ، وكيف فر عمرو منه ، وكيف سلبه خالد بن سعيد فرسه وسيفه
الصمصامة .

وبعث أبو بكر المهاجر بن أبى أمية إلى اليمن ، وكان المهاجر قد تخلف
عن تبوك ، فرجع رسول الله ﷺ — وهو عليه عاتب . فبينما أم سلمة
تغسل رأس رسول الله ﷺ — قالت :

— كيف ينفعنى شيء وأنت عاتب على أخى ؟

فأنت منه رقة ، فأومأت إلى خادمها فدعته ، فلم يزل برسول الله ﷺ —
ينشر عذره حتى عذره ورضى عنه وأمره على كندة ، فاشتكى
ولم يستطع الذهاب فكتب إلى زياد بن ليلى البياضى أمير رسول الله ﷺ —

— ١٧٣ —

على حضر موت ليقوم له على عمله *

ولم يكن المهاجر بن أبي أمية ابن زاد الركب خرج حتى توفي رسول الله ﷺ ، فأتى له أبو بكر إمرته وأمره بقتال من بين نجران إلى أقصى اليمن ، فاتخذ المهاجر مكة طريقا فمر بها فأتبعه خالد بن أسيد ، ومر بالطائف فأتبعه عبد الرحمن بن أبي العاص ، ثم مضى حتى إذا حاذى جرير ابن عبد الله ضمه إليه ، وانضم إليه عبد الله بن ثور فيمن استجاب له من أهل تهامة ، ثم قدم على أهل نجران فانضم إليه فروة بن مسيك .

ولما بلغ نجران وفاة رسول الله ﷺ — وهم يومئذ أربعون ألف مقاتل ، بعثوا وفدا إلى أبي بكر ليجددوا عهدا فقدموا إليه ، فكتب لهم كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ — لأهل نجران ، أجارهم من جنده ونفسه ، وأجاز لهم ذمة محمد ﷺ ، إلا ما رجع عنه محمد ﷺ — بأمر الله عز وجل في أرضهم وأرض العرب : ألا يسكن بها دينان. أجارهم على أنفسهم بعد ذلك وملتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وعاديتهم وشاهدتهم وأسقفهم ورهبانهم وبيعهم على ما وقعت وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير ، عليهم ما عليهم ، فإذا أدوه فلا يحشرون ولا يعشرون ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ، ووفى لهم بكل ما كتب لهم رسول الله ﷺ — ، وعلى ما في هذا الكتاب من ذمة محمد رسول الله ﷺ —

وجوار المسلمين ، وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق »
وبلغت العداوة بين قيس وعمرو بن معد يكرب مداها ، ورأى عمرو أن لا قبل له بجيوش المسلمين ففارق قسينا وانطلق إلى المهاجر بن أبي أمية على غير أمان ليجيب داعي الإسلام ، فأوثقه المهاجر ، ومكنه الله من

— ١٧٤ —

قيس فأوثقه ، وكتب بحالهما إلى أبي بكر وبعث بهما إليه .
 وجيء بقيس وعمرو على بكر فقال :
 — يا قيس أعدوت على عباد الله تقتلهم وتتخذ المرتدين والمشركين
 وليجة من دون المؤمنين ؟!
 ولم يجد أبو بكر أمرا جليا ، ونفى قيس أنه قتل داذويه ، وكان ذلك
 عملا عمل في سر لم يكن به بيعة ، وكان أبو بكر قد هم بقتله ولكنه لم يجد
 الحجج القوية التي تبرر القتل فاضطر إلى أن يتنازل عن دم داذويه ، فلأن
 يخطئ السلطان في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة .
 وقال لعمر بن معد يكرب :
 — أما تخزي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور ؟ لو نصرت هذا الدين
 لرفعك الله .
 كان أبو بكر يرى أن عمرو بن معد يكرب فارس لا يشق له غبار ، وأنه
 لو أخلص للإسلام لأدى له خدمات جليلة ، فما إن قال عمرو في توبة :
 — لا جرم ، لأقبلن ولا أعود .
 حتى أطلق أبو بكر سراحه وخلي سبيل قيس وردهما إلى عشائرها ،
 وكتب أبو بكر إلى المهاجر وعكرمة : أن يسيرا حتى يقدموا على حضر
 موت .

٢٠

أسلمت كندة وأسلم أهل بلاد حضر موت كلهم ، فأمر رسول الله ﷺ — بما يوضع من الصدقات أن يوضع صدقة بعض حضر موت في كندة، ووضع صدقة كندة في بعض حضر موت، وبعض حضر موت في السكون ، والسكون في بعض حضر موت ، فقال نفر من بنى وليعة : — يا رسول الله إنا لسنا بأصحاب إبل ، فإن رأيت أن يبعثوا إلينا بذلك على ظهر .

كانوا في حاجة إلى إبل لحمل الصدقات ، وكانوا يرون أن يبعث إليهم أهل حضر موت بالإبل . فنظر رسول الله ﷺ — إلى الحضرميين فقال :

— إن رأيتم .

— فإننا ننظر ، فإن لم يكن لهم ظهر فعلنا .

وكان زياد بن لبيد البياضي عامل رسول الله ﷺ — على حضر موت ، فلما توفي — صلوات الله وسلامه عليه — وجاء أوان جمع الصدقات ، دعا زياد الناس إلى ذلك فحضره ، فقالت بنو وليعة لأهل حضر موت :

— أبلغونا كما وعدتم رسول الله ﷺ — .

— إن لكم ظهرا فسهلوا فاحتملوا .

ورأى زياد بن ليبيد أن لبنى وليعة إبلًا وأنها قادرة على حمل صدقاتها ، فقال لهم :

— إن لكم ظهرا .

فاشتد النقاش بين بنى وليعة والحضرميين ، ثم قال بنو وليعة لزياد :

— أنتم معهم علينا .

فأتى الحضرميون أن يرسلوا إبلهم ، ولج الكنديون فرجعوا إلى دارهم وهم يفكرون في الردة يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى . وولى زياد صدقات بنى عمرو بن معاوية بنفسه ، فقدم عليهم وهم بالرياض فراح يحمل منهم الصدقات ، وكان أول من قابل غلاما يقال له شيطان بن حجر ، فخرج الغلام إليه بالصدقات ، فأعجبت زياد بكرة من الصدقة ، ودعا بنار فوضع على الإبل والنوق الميسم علامة الصدقات .

وجاء العداء بن حجر فنظر فإذا ناقتة الأثيرة عنده بين نوق الصدقات ، إنه قد أطلق عليها اسم شذرة ، ولم يكن على العداء صدقة ، فذهب إلى أخيه يسأله الخبر فقال له أخوه :

— إني قد أوهمت حين أخرجتها وظننتها غيرها .

فانطلقا إلى زياد وقال العداء :

— هذه ناقتي ، هذه شذرة .

فقال أخوه شيطان بن حجر :

— صدق أخى ، فإنى لم أعطيكموها إلا وأنا أراها غيرها ، فأطلق

شذرة وخذ غيرها فإنها غير متروكة .

ولم يكن لزياد أن يطلقها بعد أن وضع عليها علامة الصدقة ، فقال للغلام إن ذلك منه اعتلال ، واتهمه بالكفر ومباعدة الإسلام ، وأطل الشر

عليهما فغضب زياد وغضب الرجلان ، فقال زياد :
 — لا ولا تنعم ولا هي لك ، لقد وقع عليها منيسم الصدقة وصارت في
 حق الله ، ولا سبيل إلى ردها فلا تكونن شذرة عليكم كالبسوس .
 إن البسوس أشعلت نار خرب سقط فيها سادات صرعى ، وإن شذرة
 لتوشك أن توقد نار حرب لا يعلم إلا الله مداها ، فنادى العداء :
 — يا آل عمرو بالرياض أضام وأضطهد ؛ إن الدليل من أكل في داره .
 ونادى :

— يا أبا السُمَيْط .

فأقبل أبو حارثة بن سراقبة بن معد يكرب في ثلة من الرجال ، فقصده
 لزياد بن لبيد وهو واقف فقال :

— أطلق لهذا الفتى بكرته وخذ بعيرا مكانها ، فإنما بعير مكان بعير .

— ما إلى ذلك سبيل .

— ذاك إذا كنت يهوديا .

واندفع إليها فأطلق عقاها ثم ضرب على جنبها فبعثها وقام دونها ، فأمر
 به زياد شبابا من حضر موت والسكون فقبضوا عليه وكفوه وكتفوا
 أصحابه ، وارتنههم وأخذوا البكرة فعلقوها كما كانت .

وتصايح أهل الرياض وتنادوا ، وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا
 أمرهم ، وغضبت السكون لزياد ، وغضبت له حضر موت وقاموا جميعا
 دونه .

وتوافى عسكريان عظيمان من هؤلاء وهؤلاء ، لا تعرف بنو معاوية
 مكان أسرائهم ولا تجد أصحاب زياد على بنى معاوية سبيلا يتعلقون به
 ليبدعوا حريهم ، فلا بد من سبب مهما كان واهيا لشن الحرب وخوض
 (وفاة الرسول)

غمار الوغى ، فأرسل إليهم زياد :

- إما أن تضعوا السلاح ، وإما أن تؤذونا بحرب .
- لا نضع السلاح أبدا حتى ترسلوا أصحابنا .
- لا يرسلون أبدا حتى ترفضوا وأنتم صخرة قماءة . يا أخا بخت الناس
- ألستم سكان حضر موت وجيران السكون ؟ فما عسى أن تكونوا
- وتصنعوا في دار حضر موت وفي جنوب مواليكم ؟
- وراحت السكون يزينون له القتال ويقولون له :
- ناهد القوم فإنه لا يقطعهم إلا ذلك .

فخرج إليهم ليلا فقتل منهم فانهزموا ، ولما هرب القوم خلى عن أبي السميطة وأصحابه ورجع زياد إلى منزله منتصرا . ولما رجع الأسراء إلى أصحابهم راحوا يحضونهم على القتال وقالوا :

— لا تصلح البلدة علينا وعلى هؤلاء حتى تخلو لأحد الفريقين .

فأجمعوا وعسكروا جميعا ونادوا بمنع الصدقة، فتركهم زياد ولم يخرج إليهم وتركوا المسير إليه . أرسل إليهم الحصين بن غمير سفيرا فما زال يغدو ويروح بينهم وبين زياد وحضر موت والسكون حتى سكن بعضهم عن بعض ، فأقاموا بعد ذلك يسيرا . ثم إن بني عمرو بن معاوية خرجوا إلى المهاجر إلى أمعاء حموها ، وكان رؤساء بني عمرو بن معاوية : أبضعة وجهدا ويشرحا ونحوهما وأختهم العمردة ، فنزل جهدا ومحجرا ونحوهما ومحجرا ومشرح محجرا وأبضعة محجرا وأختهم العمردة محجرا ، ونزلت بنو الحارث بن معاوية محجرا ، فنزل الأشعث بن قيس محجرا ، والسمط بن الأسود محجرا ، واتفقت معاوية كلها على منع الصدقة وأجمعوا على الردة ، إلا ما كان من شرحبيل بن السمط وابنه فإنه ملقما في بنى

معاوية فقالا :

— والله إن هذا لقييح بأقوام أحرار التنقل . إن الكرام ليكونون على الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا منها إلى أوضح منها مخافة العار ، فكيف بالرجوع عن الجميل وعن الحق إلى الباطل والقيح ؟ اللهم إنا لا نعالى قومنا على هذا ، وإنا لنادمون على مجامعتهم إلى يومنا هذا .

وخرج شرحبيل بن السمط وابنه السمط حتى أتيا زياد بن لبيد فانضمما إليه ، وخرج ابن صالح وامرؤ القيس بن عابس حتى أتيا زيادا فقالا له :
— بُيت القوم فإن أقواما من السكاسك قد انضموا إليهم ، وقد تسرع إليهم قوم من السكون وشذاذ من حضر موت لعلنا نوقع بهم وقعة تورث بيننا عداوة وتفرق بيننا . خشينا أن يرفض الناس عنا إليهم والقوم غارون لمكان من آتاهم ، راجون لمن بقى .
— شأنكم .

فجمعوا جمعهم وهجموا عليهم في محاجرهم فوجدوهم حول نيرانهم جلوسا ، فعرفوا من يريدون فانقضوا على بنى عمرو بن معاوية وهم شوكة القوم من خمسة أوجه في خمس فرق ، فأصابوا مشرعا ومحوصا وجمدا وأبضعة وأختهم العمردة وقتلوا فأكثروا ، وهرب من استطاع الهرب ، وعاد زياد بالسبي والأموال ، وأخذوا طريقا يقودهم إلى عسكر الأشعث وبنى الحارث بن معاوية ، فلما مروا بهم استغاث نسوة بنى عمرو ابن معاوية الأسيرات ببنى الحارث ونادينه :
— يا أشعث ، يا أشعث .. خالاتك .. خالاتك .

وثار الأشعث في بنى الحارث وهجم على الرجال الذين كانوا يحرسون النسوة الأسيرات فأنقذهن من أيديهن . وعلم الأشعث أن زيادا وجنده إذا

بلغهم ذلك لم يسكتوا عنه ولا عن بنى الحارث بن معاوية وبنى عمرو بن معاوية ، فجمع إليه بنى الحارث بن معاوية وبنى عمرو بن معاوية ومن أطاعه من السكاسك والخصائص من قبائل ما حولهم ، وتأهب للمعركة القادمة بين زياد والأشعث من بحضر موت من القبائل .

وثبت أصحاب زياد على طاعته ، وأظهرت كندة العداوة وأبدت القبائل ميلها إلى الأشعث ، فرأى زياد أن يكتب إلى المهاجر بن أمية ، فبعث إليه رسولا فتلقاه بالكتاب وقد قطع صهيده ، فغارة ما بين مأرب وحضر موت .

وعزم المهاجر على أن ينهض لمعاونة زياد في حربه ، فاستخلف على الجيش عكرمة ، وتعجل في سَرَّعَان الناس ، ثم سار حتى قدم على زياد فقبو به ساعد المسلمين . فانقض على كندة وعليهم الأشعث ، ودارت رحى معركة شديدة ، المسلمون ينادون بشعارهم والمرتدون يدافعون عن باطلهم ، حتى انهزموا وخرجوا هرابا ، فالتجئوا إلى حصن النجير وقد رموه وحصنوه ، وجاء إليهم رجال من كندة ومعهم من استغفوا من السكاسك والسكون وحضر موت .

كانت النجير على ثلاثة طرق ، فنزل زياد على أحدها ، ونزل المهاجر على الآخر ، وكان الثالث للمرتدين يغدون ويروحون فيه وتأق منه الإمدادات والمؤن . وسرعان ما أقبل عكرمة بن أبى جهل في جيش المسلمين فأنزله على ذلك الطريق ، فقطع عليهم الإمدادات والمؤن .

وفرق عكرمة في كندة الخيول وأمرهم أن يوطئوهم ، فاستشرى القتل في كندة ، وبلغ كندة وهم في الحصار ما لقي سائر قومهم فقال

قائل منهم :

— الموت خير مما أنتم فيه ، جزوا نواصيكم حتى كأنكم قوم قد وهبتم لله أنفسكم فأنعم عليكم فبؤتم بنعمه ، لعله أن ينصركم على هؤلاء الظلمة .

فجزوا نواصيهم وتعاقدوا وتواثقوا ألا يفر بعضهم عن بعض ، فلما أصبحوا خرجوا من الحصن وهجموا على المسلمين فاقتتلوا بأفنية النجير حتى كثرت القتلى بحيال كل طريق من الطرق الثلاثة ، وجعل عكرمة يصول ويحول فهزمت كندة ، وعاد من بقى منهم على قيد الحياة إلى الحصن يلحق جراحه .

وكان أبو بكر الصديق قد كتب إلى المهاجر مع المغيرة بن أبي شعبة : « إذا جاءكم كتابي هذا ولم تظفروا ، فإن ظفرتهم بالقوم فاقتلوا المقاتلة واسبوا الذرية إن أخذتموهم عنوة ، أو ينزلوا على حكمي . فإن جرى بينكم صلح قبل ذلك فعلى أن تخرجوهم من ديارهم ، فإنى أكره أن أقر أقواما فعلوا فعلهم في منازلهم ، ليعلموا أن قد أساءوا وليذوقوا وبال بعض الذى أتوا .

وانطلق المغيرة بالكتاب إلى اليمن وقد رأى أهل الحصن المواد لا تنقطع عن المسلمين ، وأيقنوا أنهم غير منصرفين عنهم ، فخشعت أنفسهم . ثم خافوا القتل وخاف الرؤساء على أنفسهم ، فعبجل الأشعث فخرج إلى عكرمة بأمان وكان لا يأمن غيره ، وذلك أنه كانت تحته أسماء ابنة النعمان ابن الجون خطبها وهو يومئذ بالجنند ينتظر قدوم المهاجر ، فأهداها إليه أبوها قبل أن يبادوا ، فانطلق به عكرمة إلى المهاجر واستأمنه له على نفسه ، فدخل الأشعث على المهاجر فاستأمنه على أهله وماله وتسعة ممن أحب ،

وعلى أن يفتح لهم باب الحصن فيدخلوا على قومه ، فقال له المهاجر :
— اكتب ما شئت واعجل .

فكتب أمانه وأمانهم وفيه أخوه وبنو عمه وأهلهم ، ونسى نفسه من العجل والدهش ، ثم جاء بالكتاب فختمه ثم فتح باب الحصن للمسلمين فاقتحموه فلم يدعوا فيه مقاتلا إلا قتلوه ، وأسروا ألف امرأة ممن في الحصن ، ووضع على السبي والفيء الحراس ، ودعا الأشعث بأولئك النفر الذين استأمن لهم ودعا بكتابه ، فإذا الأشعث ليس فيه فقال المهاجر :

— الحمد لله الذي خطأك نوءك ، يا أشعث يا عدو الله قد كنت أشتهي أن يخريك الله .

وشده وثاقا وهم بقتله فقال له عكرمة :
— أخره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم في هذا ، وإن كان رجلا نسي اسمه أن يكتبه وهو ولي مخاطبة أفذاك يطل ذاك ؟
— إن أمره لبين ، ولكنني أتبع المشورة وأثرها .

وأخره ، وجاء المغيرة بن أبي شعبة بكتاب أبي بكر والسبي على ظهور الإبل ، وقرئ الكتاب وعرف الأشعث بما فيه فاستشعر أسى ، فلو أنه صبر مع رجاله حتى يجيء المغيرة لصالح المسلمين على الجلاء ولنجا قومه من الموت وذل الأسر .

وانطلق الأشعث مع السبي إلى أبي بكر ، فراح المسلمون يلعنونه ويلعنه سبائا قومه ، وسماه نساء قومه عُرْف النار ، كلام يماني يسمون به الغادر ، وشرذ الأشعث يفكر ؛ إنه كان قد خطب أم فروة بنت أبي قحافة أخت أبي بكر لما قدم على رسول الله ﷺ — فزوجه وأخرها إلى أن

— ١٨٣ —

يقدم الثانية ، وها هو ذا يقدم الثانية وهو مقيد بالحبال بعد أن فعل ما فعل ،
تري ماذا سيفعل أبو بكر به ؟

وسارت السبايا والأسرى فقدم القوم على أبي بكر بالفتح والسبايا
والأسرى ، فدعا بالأشعث فقال :

— استزلك بنو وليعة ولم تكن تستزلمهم ولا يرونك لذلك أهلا ،
وهلكوا وأهلكوك . أما تخشى أن تكون دعوة رسول الله — ﷺ — قد
وصل إليك منها طرف ؟ ما تراني صانعا بك ؟

كان رسول الله — ﷺ — قد لعن الملوك الأربعة جمدا ومحوضا
وأبضعة وأختهم العمردة لما ارتدوا وانضموا إلى الأسود العنسي ، وإن أبا
بكر ليخبر الأشعث أنه يخشى أن يكون طرف من هذه الدعوة قد أصابه ،
فارتعدت فرائض الأشعث وقال لأبي بكر :

— إني لا أعلم برأيك وأنت أعلم برأيك .

— فإني أرى قتلك .

— فإني أنا الذي راوشت القوم في عشرة ، فما يحل دمي .

— أفوضوا إليك ؟

— نعم .

— ثم أتيتهم بما فوضوا إليك فختموه لك ؟

— نعم .

— فإنا وجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من في الصحيفة ، وإنا

قبل ذلك مراوضا .

إنه نسي أن يكتب اسمه في الصحيفة لما فاوض المسلمين على فتح باب
الحصن لقاء إحياء عشرة ، فكتب العشرة ونسى نفسه ، وقد ألزمه

— ١٨٤ —

الصديق الحجة فلم يجد أمامه إلا أن يطمع في كرم خليفة رسول الله —
 ﷺ ، فقال لما خشي أن يقع به :
 — أوتحسب في خير افتطلق أسارى وتقبلني من عثرتي وتقبل إسلامي
 وتفعل بي مثل ما فعلت بأمثالي وترد علي زوجتي ، تجدني خير أهل بلادى
 لدين الله .

إنه يلتمس من أبي بكر أن يصفح عنه كما صفع عن قيس وعمرو بن
 معد يكرب ، وأن يتم زواجه من أخته أم فروة بنت أبي قحافة ، فصفح عنه
 الصديق ولم يهدر دمه وقبل منه ورد عليه أهله وقال :
 — انطلق فليبلغني عنك خير .

وخلى عن القوم فذهبوا ، وقسم أبو بكر في الناس الخمس واقتسم
 الجيش الأربعة الأخماس ، وكتب أبو بكر إلى المهاجر يخيئه اليمن أو
 حضر موت فاخترت اليمن . فكانت اليمن على أميرين فيروز والمهاجر ،
 وكانت حضر موت على أميرين عبيدة بن سعد على كندة والسكاسك
 وزيايد بن لبيد على حضر موت .

وانصرف معاذ بن جبل من اليمن إلى المدينة ، وولى أبو بكر الصديق
 عمر بن الخطاب القضاء ، فكان على القضاء أيام خلافته كلها ، وأمر عبد
 الرحمن بن عوف على الموسم فخرج ليحج بالناس .

كان أبو العاص بن الربيع مسجى في فراشه يستشعر أنه يعيش في ضباب ، لا هو في دنيا الأحياء ولا هو في دار البقاء ، إنه يرى الذين التفوا من حوله ، ويرى في نفس الوقت الأحبة الذين ذهبوا . لا فرق عنده بين ابنته أمامة التي تجرى دموعها على خديها ، والحسن والحسين اللذين يرنوان إليه في أسى ، وعليّ بن أبى طالب الذى مال عليه يسأله في رقة كيف أصبح ، وبين زوجه زينب التي كانت صورتها تملأ كل نفسه ، وخالته خديجة ، ورسول الله ﷺ .

اختلط الماضى بالحاضر والأحياء بالأَمْوات والحياة بالفناء ، ورن في وجدانه صوت فاطمة الزهراء وهى توصى عليّ بن أبى طالب وهى تجود بأنفاسها أن يتزوج أمامة ابنة الحبيبة زينب بعد ذهابها . إن ذلك الصوت يمدّه بقوة فيفتح عينيه الذابلتين ويلقى نظرة على أمامة وعليّ بن أبى طالب ، وتنبعث فيه أمنية أن يتزوج على من أمامة قبل أن يموت ليستريح . وسرعان ما تتلاشى الفكرة لتنبعث ذكرى . إنه يرى نفسه وهو ذاهب مع أمه هالة إلى بيت خالته خديجة ليخطب زينب فيحس في أعماقه راحة ، وإن كانت أنفاسه مضطربة وحركته واهنة ، حتى أنه ليبذل جهدا ليرفع جفنيه المسبلين على ناظره .

ووقع نظره على القلادة التى كانت في جيد أمامة ، إنها قلادة خديجة

قدمتها إلى زينب ليلة زفافها . وطافت به خاطرة فقطب جبينه ، إن أمانة ليست لها أم لتقدم إليها القلادة الخالدة ، وغص حلقه لما خطر على قلبه أنه سيذهب قبل أن يرى زواجها .

وهيجت القلادة ذكرياته فرأى يوم بدر ، يوم وقع أسيرا في أيدي المسلمين . إنه لا ينسى ذلك اليوم ، فلو أنه قتل كما قتل سادات قريش لمات على الكفر ، ولكن الله أكرمه حتى دخل في دينه وعرف الهدى وطريق الحق .

وسرى في ضميره صوت حكيم بن حزام وهو يحلف : والذي نجاني يوم بدر . إنه قسم عظيم لا يحس جلاله إلا من نجى الله من سيوف المسلمين ، فمن قتل بسيفهم فقد أخزاه الله . إنه لن يستطيع أن يخسر ساجدا شكرا لله ، ولكن كل حواسه كانت في سجود ، وكل خواجه كانت في تسبيح .

وعادت القلادة لتحتل عقله ؛ إن زينب أرسلت في فدائه قلادة أمها ، فلما رآها رسول الله ﷺ — رق لها رقة شديدة ، فالرجل العظيم لم ينس حبه الكبير فقال في تأثر عميق :

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا .
وطفا على سطح ذهنه ذكريات ذلك اليوم الذى مشى إليه فيه سادات قريش وقالوا :

— فارق صاحبك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت .
كانت زينب قد آمنت برسالة أبيها وصدقته وشهدت أن ما جاء به الحق ، وثبت هو على شركه . وعلى الرغم من اختلافهما فى الدين كان قد

شغف بها حبا فقال :

— لا والله ، إني لا أفارق صاحبتى ولا أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

إنه يحبها حبا جما ، وإن أقسى سنى حياته تلك السنوات الست التى فرق فيها الإسلام بينه وبينها ، وتلك السنوات القليلة التى انقضت مذ قبرها بالقيع إلى ذلك اليوم الذى يعانى فيه سكرات الموت . وإن مما يخفف عنه كربه أنه لاحق بها ، نازل إلى جوارها .

وفتح عينيه فى جهد فوقعتا على الحسن والحسين فتذكر ابنه عليا ، وتذكر كيف أن جده العظيم كان يردفه خلفه يوم أن دخل مكة وكيف كان يحبه . فلو لم يخطفه الموت لكان الساعة إلى جوار ابنى خالته قائما عليه ، ولكان أبا لنسل رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه . إنه يشعر بأسى لا نقطاع نسل رسول الله — ﷺ — منه بموت على .

وقفزت إلى ذاكرته أحداث ذلك اليوم الذى طرحت فيه زينب ما فى بطنها . إنه يرى نفسه عائدا إلى مكة بعد أن أطلقه رسول الله عليه السلام من الأسر ، وقد دخل على زينب الحبيبة وأمرها ونياط قلبه تتمزق أن تلحق بأبها . إنه يخلى سبيلها لأنه وعد أبها العظيم ذلك ، فخرجت تتجهز للحق بأبها فلقيتها هند بنت عتبة فقالت :

— يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين للحق بأبيك ؟

— ما أردت ذلك .

— أى ابنة عمى لا تفعلنى ، إن كانت لك حاجة بمناع مما يرفق بك فى سفرك أو بمال فى سفرك أو بمال تبغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك فلا

تستحي منى ، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال .
إنها ما قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكن زينب خافتها فأنكرت أن تكون
تريد ذلك . وكانت هند آكلة كبدة حمزة أرق من زوجها أبى سفيان بن
حرب ، فأبو سفيان قد خرج فى أثرها وهى فى هودج لها حتى أدركها
بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد
فروعها هبار بالرمح وهى فى هودجها وكانت حاملا ، ونخس الراحلة
فسقطت زينب على صخرة فهلك جنينها ، ولم تزل تهريق الدماء حتى
ماتت .

إنه عزم على أن يثأر من هبار ، وإن رسول الله ﷺ — كان يوصى
سراياه إذا ما غثروا على هبار أن يقطعوا يديه ورجليه ، ولكن هبار جاء إلى
رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — بالمدينة بعد فتح مكة وأعلن
إسلامه ، فقال رسول الله ﷺ — :
— الإسلام يجب ما قبله .

وحقن هبار بالإسلام دمه .

وتذكر أبو العاص أروع حدث فى حياته ، الحدث الذى قاده إلى طريق
النور . إنه قبيل فتح مكة خرج تاجرا إلى الشام بمال له وأموال لرجل من
قريش ، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلا لقيته سرية لرسول الله ﷺ —
كان أميرها أسامة بن زيد ، فأصابوا ما معه وفر هاربا يترقب .
وفى جنح الليل أقبل حتى دخل على زينب فاستجار بها فأجارته ، فلما
خرج رسول الله ﷺ — إلى الصبح فكبر وكبر الناس معه صرخت
زينب من سقيفة النساء :

— إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

— ١٨٩ —

فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة ، أقبل على الناس فقال :
— أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟
— نعم .

— أما الذى نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت
ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أذناهم .

ثم انصرف رسول الله ﷺ — فدخل على ابنته فقال :
— أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلصن إليك ، فإنك لا تحلين له .
وبعث رسول الله ﷺ — إلى السرية الذين أصابوا ماله فقال لهم :
— إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا
وتردوا عليه الذى له فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الله الذى أفاء عليكم
فأنتم أحق به .
— يا رسول الله بل نرده عليه .

فردوه عليه . إنه لينفعل وهو مسجى فى فراشه للذكرى ، وإن صوته
ليسرى فى عين ذاته بشهادة الحق التى نطقها فى تأثر عميق فى ذلك اليوم ،
وإن أصوات الناس وصوته يرن فى وجدانه أقوى مما كان ساعة أن دار بينه
وبينهم الحوار الأخاذ :

— هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال ؟ فإنها أموال المشركين .
— بئس ما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى .

إنه انطلق إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ، ثم قال :
— يا معشر قريش هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟
— لا . فجزاك الله خيرا ! فقد وجدناك وفيا كريما .

— ١٩٠ —

— فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والله ما معنى من
الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما
أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .
أكرمته الله بأن أسلم قبل الفتح ، فكان من المهاجرين ولم يكن من
الطلاقاء . ورفت على شفتيه ابتسامة كانت تتسع ، فهو يرى وإن أسبل
عينيه رسول الله — ﷺ — وخالته خديجة أم المؤمنين وزينب الحبيبة قد
أتوا ليصحبوه فى رحلة الخلود ، فشقق شهقة لم يلتقط بعدها نفسا ،
فالرجل الذى زكاه رسول الله — ﷺ — قبل إسلامه وبعده قد أسلم
الروح .

أقبل رجل على خليفة رسول الله — ﷺ — ، وراح يقص عليه ما فعله العلاء بن الحضرمي في مقاتلة المرتدين في البحرين ، وكيف انضم إليه المثني بن حارثة الشيباني ، وكيف سار المثني شمالا حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وأنه بلغ مصب دجلة والفرات ، فقال أبو بكر :

— ومن هو المثني هذا ؟

— هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العمد ، هذا المثني بن حارثة الشيباني !

— ومن أى قبيلة هو ؟

— من بنى بكر بن وائل .

وراح أبو بكر يتأمل ما سمع ؛ إن معنى سير المثني حتى مصب الفرات مناجزة الفرس . ومن يدري لعل في ذلك خيرا للإسلام ، ولعل في ذلك انصراف المسلمين عما خلفته حروب الردة في النفوس من أحقاد وما نشأ من ثارات ، والقضاء على ثورة الناس بسلطان المدينة .

وقدم المثني بن حارثة إلى المدينة وقابل خليفة رسول الله ، وراح يقص عليه أخبار فارس وضعفها ويهون عليه أمر فتح العراق . وجعل يروى ما تلاقيه قبائل العرب التي نزلت بدلتا الدجلة والفرات من ظلم جور الدهاقين ، وأن ذلك الظلم يجعلهم كمرجل يغلى بالمقت لهم . فإذا ما

هاجم المسلمون العراق ثار العرب النازلون به للتخلص من جور الدهاقين وما هم فيه من عار ، ثم قال المثنى :

— أمرنى على من قبلى من قومي أقاتل من يلينى من أهل فارس ، وأكفك ناحيتى .

· — سأشاور أصحابى فى الأمر .

وأرسل أبو بكر إلى عمر وعلى وعثمان وسعد والزبير وكبار الصحابة يدعوهم إليه ، فأروا جميعا ضرورة استشارة خالد فى الأمر . وكان خالد باليمامة قد فرغ من أمرها فبعث أبو بكر إليه رسولا فجاء على عجل ، ولما عرف ما جاء المثنى فيه رأى ضرورة أن يعد الخليفة للحرب عدتها ، وأن يعتبر ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح يلقي إليه المسلمون بأجنادهم . فأمر أبو بكر المثنى على من قبله ، وعاد خالد إلى اليمامة ، فراح المثنى يحارب الفرس يناجزهم على العراق ، وجعل الفرس يجمعون الجموع . فخشى أبو بكر أن ينتصروا على المثنى فكتب إلى خالد أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهى الأبله ، وتألف الناس وادعهم إلى الله عز وجل ، فإن أجابوا وإلا خذ منهم الجزية ، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم . وأمره أن لا يكره أحدا على السير معه ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام وإن كان عاد إليه ، وأمره أن يستصحب كل امرئ مر به من المسلمين . وشرع أبو بكر فى تجهيز السرايا والبعوث والجيش أمدادا لخالد . وانطلق خالد حتى نزل النباح والمثنى بن حارثة معسكر بمخفان ، فكتب إليه خالد ابن الوليد ليأتيه ، وبعث إليه بكتاب من أبى بكر يأمره فيه بطاعته ، فذهب المثنى إلى خالد سامعا مطيعا .

وراح خالد يتذكر ما أوصاه به الصديق حين وجهه لقتال أهل الردة :
سر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا عن الحملة ، فإنى
لا آمن عليك الجولة . واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ، ولا تقا تل بمجروح
فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة ، وأقل من
الكلام فإنما لك ما وعى عنك ، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله
فى سرائرهم .

كان أبو بكر جنديا وقد مارس الحرب على عهد رسول الله —
ﷺ — كانت نصائحه نصيحة مجرب حكيم ، فكان خالد يتذكر
وصاياه كلما أقدم على معركة ، فقدم الأدلاء وسار ليتألف أهل فارس
ومن كان فى ملكهم من الأمم ، فمضى حتى نزل بقریات من السواد يقال
لها بانقيا وباروسما ، فدارت معركة بين الفريقين . فلما قتل من أهل بانقيا
وباروسما خلق كثير عرضوا على خالد الصلح ، فقبل خالد منهم الجزية ،
وكان الذى صالحه عليها ابن صلوبا وذلك فى سنة اثنتى عشرة ، فكتب لهم
كتابا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادى
ونزله بشاطئ الفرات . إنك آمن بأمان الله — إذ حقن دمه بإعطاء
الجزية — وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان
فى قريتك بانقيا وباروسما ألف درهم فقبلتها منك ، ورضى من معى من
المسلمين بها منك ، ولك ذمة الله وذمة محمد — ﷺ — وذمة المسلمين
على ذلك . »

وصالح خالد أهل الحيرة على أن يكونوا له عيونا ففعلوا ، فقد كانوا
يقاسون أشد أنواع الاضطهاد لما كانوا فى حكم الفرس . وكتب خالد بن
الوليد إلى أهل المدائن : « من خالد بن الوليد إلى مرازمة أهل فارس ، سلام
(وفاة الرسول)

على من اتبع الهدى . أما بعد فالحمد لله الذى فضّل تخدمتكم وسلب ملككم ووهن كيدكم ، وإنه من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ما لنا وعليه ما علينا . أما بعد فإذا جاءكم كتابى فابعثوا إلى بالرُّهْن واعتقدوا منى الذمة ، وإلا فوالذى لا إله غيره لأبعثن إليكم قوما يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

كان أبو بكر قد كتب إلى خالد وهو بالهامة ألا يكره أحدا على المسير معه ، ففعل أهل المدينة وما حولها إلى دورهم فاستمد خالد أبا بكر فأمدّه بالقعقاع بن عمرو التميمي ، فقال الناس لأبي بكر :

— أتمد رجلا قد أرفض عنه جنوده برجل ١٩

— لا يهزم جيش فيهم مثل هذا .

وانطلق القعقاع بن عمرو ليشد أزر خالد . وبلغ كتاب خالد هرمز صاحب الثغر فدهش من جرأة القائد العربى ، إن هرمز يحارب العرب فى البر والهند فى البحر ، وإنه ينزل الرعب فى قلوب العرب فكل العرب عليه مغيب . وقد كانوا ضربوه مثلاً فى الخبث حتى قالوا أنخبث من هرمز ، وأكفر من هرمز .

بعث هرمز بكتاب خالد إلى شيرى بن كسرى وأردشير بن شيرى ، وجمع هرمز وهو نائب كسرى جموعا كثيرة وسار بهم إلى كاظمة وعلى مجنبته قباز وأنوشجان وهما من بيت الملك . واقترب الجند فى السلاسل وكان أناس يعارضون ذلك ، فقال المعارضون للمؤيدين :

— قيدتم أنفسكم لعدوكم فلا تفعلوا ، إن هذا طائر سوء .

— أما أنتم فيحدثوننا أنكم تريدون الحرب .

وقدم خالد بمن معه من الجيش وهرمز فى ثمانية عشر ألفا ، فنزل تجاههم

— ١٩٥ —

على غير ماء ، فشكى أصحابه ذلك فقال :
— جالدوهم حتى تجلوهم عن الماء ، فإن الله جاعل الماء لأصبر
الطائفتين .

فلما اشتد بالمسلمين المنزل وهم ركبان على خيولهم ، بعث الله سبحانه
فأمطرهم حتى صار لهم غدران من ماء ، فقوى المسلمون بذلك وفرحوا
فرحا شديدا . ورأى هرمز أن في خالد يكمن الخطر ، فجمع أصحابه
وراح يخطط معهم للغدر بقائد المسلمين ، فلما كان الغد خرج هرمز يخطط
في ثيابه المزركشة وعلى رأسه قلنسوة بمائه ألف تتألق فيها الجواهر . فوقف
بين الصفين ودعا خالد للمبارزة وكان واثقا من غدر فرسانه بخالد .
ونزل خالد ومشى إليه فالتقيا فاختلفا ضربتين ، واحتضنه خالد ،
وحملت حامية هرمز وغدرت وانقضوا على خالد ، فما شغله ذلك عن قتل
هرمز . ورأى القعقاع خيانة أصحاب هرمز فحمل عليهم ، فلما انتهى
خالد من خصمه انضم إلى القعقاع وراح يفتك بالخونة ، والمسلمون
يكبرون فتدخل قلوب الغادرين . وانجلى القتال عن قتل كل الخونة الذين
واظفوا هرمز على الخيانة .

وراح خالد يسير في الصفوف يحرض الناس على القتال ويقول :
— يا أهل الإسلام ، إن الصبر عز ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر
النصر .

وصبر المسلمون .
وانهزم أهل فارس في وقعة ذات السلاسل ، وأفلت قباذ وأنوشجان .
وكانت قلنسوة هرمز في الأنفال ؛ إنها مفصصة بالجواهر ، وإن الناس
لينظرون إليها في عجب . ونادى منادى خالد بالرحيل ، وسار الناس

— ١٩٦ —

واتبعت خالد الأتقال فنزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة ، وبعث خالد بالفتح وما بقى من الأحماس وقلنسوة هرمز وفيل أخذه من المعركة ، وقدم زرّ بن كليب إلى المدينة بالفيل مع الأحماس فيطيف به المدينة ليراه الناس ، فجعل ضعيفات النساء يقلن :

— أمن خلق الله هذا أم شيء مصنوع ؟

فرد الصديق الفيل مع زر ، ونقل خالد اسلب هرمز ، وكانت قلنسوته بمائة ألف .

وبعث خالد المثني بن حارثة الشيباني وأخاه المعنى في آثار القوم ، وخرج المثني حتى انتهى إلى نهر وكان عنده حصن نزلت فيه امرأة حاكم المنطقة ، فحلف المعنى بن حارثة عليه فحاصر المرأة في قصرها . ومضى المثني إلى الرجل فحاصره ثم أرغمه على أن ينزل من حصنه هو ورجاله ، فقتلهم واستفاء أموالهم . ولما بلغ ذلك المرأة صالحت المثني وأسلمت فتزوجها المعنى . وترك خالد وأمرأؤه الفلاحين في أراضيهم تنفيذ الوصية أبى بكر فيهم ، وسبى أولاد المقاتلة الذين كانوا يخدمون الأعاجم .

وقد كان هرمز كتب إلى أردشير وشيرى أن خالد بن الوليد قد سار إليه من اليمامة ، وأنه بعث إليه كتابا يدعو فيه إلى الإسلام أو الحرب ، فأمدّه كسرى بقارن بن فريانس ، فخرج قارن من المدائن مددا لهرمز . حتى إذا انتهى إلى المذار بلغتته الهزيمة ، وانتهى إليه فلول الذين هاموا على وجوههم فرارا من سيوف المسلمين ، فراح يحرض بعضهم بعضا لقتال جيش المسلمين ، وقال فلان الأهواز وفارس لفلان السواد والجليل :

— إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبدا ، فاجتمعوا على العود مرة واحدة ، فهذا مدد الملك وهذا قارن ، لعل الله يديننا ويشفيننا من عدونا وندرك

بعض ما أصابوا منا .

واجتمع فلأل الأهواز وفارس ، وفلال السواد والجبل وانضموا إلى قارن ، وهم يعتزمون أن يخوضوا معركة تشفى غليل صدورهم . وعسكر قارن بالمدار واستعمل على مجبته قباذ وأنوشجان .

وعلم المثني والمعنى بالخبر فأرسلا إلى خالد وهو يقسم الفىء على من أفاء الله عليه ، ونفل من الخمس ما شاء الله ، وبعث بيقته وبالفتح إلى أبى بكر ، وبالخبر عن القوم وباجتماعهم مع الوليد بن عقبة .

وخرج خالد سائرا حتى ينزل المدار على قارن في جموعه ، فالتقوا وخالد على تعبته فاقتلوا والصدور تغلى بالحق والحفيظة ، ووصية أبى بكر ترن في وجدان خالد : قر من الشرف يتبعك الشرف واحرص على الموت توهب لك الحياة .

وخرج قارن يدعو للبراز فيبرز له خالد ومقل بن الأعشى بن النباشي ، فابتدراه ، فسبقه إليه مقل فقتله ، وقتل عاصم بن عمرو الأنوشجان ، وقتل عدى بن حاتم قباذ ، فدبت الهزيمة في صفوف جيش قارن ، وراحت سيوف المسلمين تطعن القلوب وتطيح بالرءوس ، فقتل في ليلة المدار ثلاثون ألفا سوى من غرق . وفروا عراة وأشباه عراة إلى السفن ، ومنعت المياه المسلمين من طلبهم ، ولولا المياه لأوى على آخرهم .

وأقام خالد بالمدار وسلم الأسلاب لمن سلبها بالغة ما بلغت ، وقسم الفىء ونفل من الأخماس أهل البلاد ، وبعث إلى أبى بكر بيقية الأخماس مع سعيد بن النعمان . وراح يسبى عيالات المقاتلة ومن أعانهم ، وأقر الفلاحين ومن أجاب إلى الخراج وأقام لعدوه يتحسس الأخبار .

نزل القرآن على رسول الله ﷺ — مفرقا . ﴿١﴾ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴿٢﴾ وأول ما نزل من القرآن : ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ (٢) ، أنزل عليه وهو في غار حراء يتعبد في شهر رمضان . واستمر نزول الوحي في مكة والمدينة قرابة عشرين عاما ، وكان يكتب الوحي في مكة عبد الله بن أبي السرح وهو أول من كتب لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه من قريش ، ثم ارتد وصار يقول :

— كنت أصرف محمدا حيث يريد ، كان يملئ عليّ : عزيز حكيم .
فأقول : أو علم حكيم فيقول : نعم كل صواب .
ونزل فيه : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ (٣) . ثم لما كان يوم الفتح وأمر — ﷺ — بقتله فر إلى عثمان بن عفان لأنه كان أخاه من الرضاعة أرضعت أمه عثمان ، فغيبه عثمان ثم جاء به بعد ما اطمأن الناس واستأمن له رسول الله — ﷺ — ، فصمت رسول الله ﷺ — طويلا ثم قال :

(١) الإسراء ١٠٦ (٢) العلق ١

(٣) الأنعام ٢١

— نعم .

فلما انصرف عثمان قال النبي — ﷺ — لمن حوله ، وكان بعضهم قد أقسم أن يقتل ابن أبي السرح إن رآه :
— ما صمت عنه إلا لتقتلوه .

ثم أسلم وحسن إسلامه ، ودعا الله أن يختم عمره بالصلاة فمات ساجدا في صلاة الصبح .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وعامر بن فهيرة يكتبون لرسول الله — ﷺ — في مكة وفي المدينة ، وكان أبي بن كعب أول من كتب له — ﷺ — من الأنصار بالمدينة . كان في أغلب أحواله يكتب الوحي ، وكان — ﷺ — يقول :

— خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب .

وكان زيد بن ثابت ملازما للكتابة بين يدي رسول الله — ﷺ — في الوحي وغيره . وكان المغيرة بن شعبة ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمي ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول — وقد استظهر القرآن حفظا رجال من المهاجرين ومن الأنصار . وقد حفظه على عهد النبي — ﷺ — أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد أحد عمومة أنس بن مالك ، وزيد بن ثابت . وكان جبريل إذا نزل بآية أو سورة يشير إلى مكانها بالنسبة للآيات والصور التي نزلت قبلها ، فكان ترتيب الآيات والصور من لدن العزيز الحكيم .

— ٢٠٠ —

وكان رسول الله ﷺ — يقرأ على جبريل القرآن مرة في رمضان كل عام ، وقد قرأه عليه مرتين في شهر رمضان من السنة التي توفي فيها — صلوات الله وسلامه عليه . ولحق عليه السلام بالرفيق الأعلى والقرآن محفوظ في صدور القراء ومكتوب في الرقاع والأكتاف والعُصْب .
وقتل كثير من الحفاظ في الإمامة فراح عمر يفكر في مصير القرآن لو قتل القراء في مواطن أخرى ، فشرح الله صدره لجمع القرآن . فانطلق إلى أبي بكر خليفة الرسول وهو بمجلسه من المسجد فقال له :
— إن القتل قد استحر بقراء القرآن يوم الإمامة ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها فيذهب قرآن كثير ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن .

ولاحت الدهشة في وجه الصديق فعمر يطلب منه أن يفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ، فقال في إنكار :
— كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟
ودار حوار طويل بين الرجلين انتهى بأن اقتنع الصديق بوجاهة الفكرة ، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأقبل على خليفة رسول الله ﷺ وعنده عمر ، فقال أبو بكر لزيد :

— إن عمر أتاني وقال : إن القتل قد استحر يوم الإمامة بالناس ، وإني لأخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعه — — وإني لأرى أن يجمع القرآن . فقلت له : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

فقال : هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري فرأيت الذي رأى عمر .

وكان عمر عنده جالسا لا يتكلم ، فأقبل أبو بكر على زيد بن ثابت وقال :

— إنك شاب عاقل ولا تنهك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله فتتبع القرآن واجمعه .

إن زيد بن ثابت يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ولكن لم يكن ذلك وحده يكفي . فوالله لو أن أبا بكر كلفه نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليه مما أمره به من جمع القرآن .

وراح زيد بن ثابت يتبع القرآن لا يعتمد على حفظه ، بل كان يجمعه من الرقاع والأكتاف ^(١) والعُسْبُ وصدور الرجال ، حتى وجد من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم يجدهما مع غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ ^(٢) . كانت هاتان الآيتان آخر ما نزل على رسول الله — ﷺ ، وقد مات بعد نزولهما بتسعة أيام ، فكان خزيمة بن ثابت قد دونهما قبل أن يشتغل الناس بوفاة الرسول — ﷺ .

وجمع زيد بن ثابت القرآن كما أنزل في صحف ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :
— إن أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر ، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين لوحين .

(١) جمع كُتِف وهي اللوحة من عظم الكتف كان العرب ينظفونها ويحفظونها ويكتبون عليها كتاباتهم .

(٢) التوبة ١٢٨ — ١٢٩

وقع الخبر بأردشير بمصاحب قارن وأهل المذار ، فأرسل لأندر زغر —
 وكان فارسيا من مولدى السواد ولم يكن ممن ولد في المدائن ولا نشأ
 بها — ، وأرسل بهمن جاذويه في أثره في جيش ، وأمره أن يعبر طريق
 الأندر زغر . وكان الأندر زغر قبل ذلك على فرج خراسان ، فخرج
 سائرا من المدائن حتى أتى كسكر ، ثم جازها إلى الولجة . وخرج بهمن
 جاذويه في أثره وأخذ غير طريقه ، فسلك وسط السواد . وقد حشر إلى
 الأندر زغر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين ،
 فعسكروا إلى جنب عسكره بالولجة . فلما اجتمع له ما أراد واستتب
 أعجبه ، ما هو فيه وامتلاً غرورا ، فأجمع السنين إلى خالد .

وبلغ خالد خبر الأندر زغر ونزوله الولجة فنادى بالرحيل ، وخلف
 سويد بن مقرن وأمره بلزوم الحفير ، وتقدم إلى من خلف في أسفل دجلة
 وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة وترك الاغترار . وخرج سائرا في جنوده نحو
 الولجة حتى ينزل على الأندر زغر وجنوده ومن انضم إليهم .

ووضع خالد لأعدائه كميناً في ناحيتين عليهما يسر بن أبى درهم
 وسعيد بن مرة العجلي ، ونزل خالد على الأندر زغر بالولجة ، فاقتتلوا بها
 قتالا شديدا حتى ظن الفريقان أن الصبر قد أفرغ . وبارز خالد رجلا من
 أهل فارس يعدل بألف رجل فقتله ، فلما فرغ اتكأ عليه ودعا

— ٢٠٣ —

بغدائه. وأصاب في أناس من بكر بن وائل ابنا الجابر بن بجير وابنا لعبد الأسود .

واستبطأ خالد كمينه فخرج من الكمين في وجهين ، فانهزمت صفوف الأعاجم وولوا فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم ير رجل منهم مقتل صاحبه . ومضى الأندرزغر في هزيمته فمات عطشا .

وقام خالد في الناس خطيبا يرغبهم في بلاد العجم ويזהدهم في بلاد العرب ، وقال :

— ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب ؟ وبالله لو لم يلزنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به .

وسار خالد في الفلاحين على سيرته فلم يقتلهم ، وسبى ذراري المقاتلة ومن أعانهم ، ودعا أهل الأرض إلى الجزية والذمة فقبلوا ذلك .

ولما أصاب خالد يوم الوجعة من أصاب من بكر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس ، غضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا هم الأعاجم وكاتبهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى أليس وعليهم عبد الأسود العجلي . إنه يتحرق شوقا للثأر لابنه الذى قتله خالد .

وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه أن سر حتى تقدم أليس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب ، فقدم بهمن جاذويه جابان وأمره بالحث وقال :

— كفكف نفسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن

يعجلوك .

ومضى جابان حتى أتى أليس فنزل بها ، واجتمعت إليه المسالخ التي كانت بإزاء العرب ، وعبد الأسود في نصارى العرب من بنى عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة . وساند جابر بن مجير عبد الأسود فقد قتل خالد ابنه .

وبلغ خالدًا تجمع عبد الأسود وجابر ومن انضم إليهما ، فخرج لهم ولا يشعر بدنوه جابان ، وليس مع خالد إلا من اجتمع له من عرب الضاحية ونصاراهم ، فأقبل فلما طلع على جابان بأليس قالت الأعاجم للجابان :

— أنعاجلهم أم نغدى الناس ولا نزيهم أنا نحفل بهم ثم نقاتلهم بعد الفراغ ؟

— إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا ، ولكن ظننى بهم أن سيعجلوكم ويعاجلونكم عن الطعام .

فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطعمة وتداعوا إليها وتوافوا إليها . فلما انتهى خالد إليهم وقف وأمر بحط الأثقال ، فلما وضعت توجه إليهم وجعل خلفه حماة يحمون ظهره ، ثم برز أمام الصف فنادى :

— أين أبجر ؟ أين عبد الأسود ؟ أين مالك بن قيس ؟

فلم يخرج له إلا مالك ، فقال له خالد :

— يا بن الحبيثة ما جرأك على من بينهم ؟ وليس فيك وفاء .

فضربه فقتله ، وأجهض الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوا فقال جابان :

— ألم أقل لكم يا قوم ؟ أما والله ما دخلتني من رئيس وحشة قط حتى

كان اليوم .

فقالوا حيث لم يقدرُوا على الأكل وخالِد أمامهم كارد جبار :

— ندعها حتى نفرغ منهم ونعود إليها .

كانوا يستخفون بالمسلمين وقد ظنوا أنها جولة ثم يعودون إلى أبسطهم

وأطعمتهم ، فقال جابان :

— وأيضاً أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لا تشعرون ، فالآن

فأطيعوني ، سُموها فإن كانت لكم فأهون هالك ، وإن كانت عليكم

كنتم قد صنعتُم شيئاً وأبليتُم عذرا .

أشار عليهم أن يضعوا السم في أطعمتهم فإن انتصروا فما أهون الطعام

الذى هلك ، وإن هزموا فتك السم بأعدائهم ، فأبوا . فجعل جابان على

مجنبيه عبد الأسود وأبجر ، والتحم الجيشان ودار قتال رهيب بين

الجانبيين ، المشركون صابرون يزيدهم استبسالا من يتوقعون من قدوم

بهمن جاذويه ، والمسلمون يذلون الجهد ليقضوا على أعدائهم قبل أن

يأتيهم المدد . وراح خالد يصول ويجول في صفوف أعدائه ويقول :

— اللهم إن لك على إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحدا قدرنا

عليه ، حتى أجرى نهرهم بدمائهم .

وحمل المسلمون على المشركين حملة صادقة فانكشفوا ، وراحت

السيوف تعمل في رقابهم ، فأمر خالد مناديه فنادى :

— الأسر الأسر ، لا تقتلوا إلا من امتنع .

فأقبلت الخيول بهم أفواجا مستأسرين يساقون سوقا ، وهزم القوم

وأجلوا عن عسكرهم ، ورجع المسلمون من أجلهم ودخلوا عسكر

المشركين فوقف خالد على الطعام فقال :

— ٢٠٦ —

— قد نفلتكموه فهو لكم ، كان رسول الله — ﷺ — إذا أتى على طعام مصنوع نفله .

فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل ، وجعل من لم ير الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول :

— ما هذه الرقاق البيض ؟

وجعل من قد عرفها يجيبهم ويقول لهم ما زحاً :

— هل سمعتم برقيق العيش ؟

— نعم .

— هو هذا .

فسمى الرقاق . وبعث خالد الخير مع رجل يدعى جندلا من بنى عجل ، فقدم على أبي بكر بالخبر ، وفتح أليس ، وبقدر الفىء ، وبعده السبى ، وبما حصل من الأحماس ، وبأهل البلاء من الناس . وبلغت قتلى المشركين سبعين ألفا جلهم من أمغيشيا . فلما فرغ خالد من وقعة أليس نهض فأتى أمغيشيا ففر أهلها وجلوا عن الديار وتفرقوا فى السواد ، فأفأها الله على المسلمين بغير حرب ، فأمر خالد بهدم أمغيشيا ، وأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله قط ، فقد بلغ سهم الفارس ألفا وخمسمائة سوى ما نفله خالد أهل البلاء ، وجاء الخبر إلى أبي بكر فقام فى الناس فقال :

— يا معشر قریش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله^(١) أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد .

ولما أخرج خالد أمغيشيا علم الأزاذة أنه غير متروك ، وكان مرزبان

(١) خراذيل : عرين .

الحيرة فتهباً لحرب خالد ، وقدم ابنه ثم خرج في أثره حتى عسكر خارجاً من الحيرة ، وأمر ابنه بسد الفرات . ولما استقل خالد من أمغيثيا وحمل الرجال في السفن مع الأنفال والأنفال ، فاذا بخالد يفاجأ بأن السفن قد جنحت ، فارتاع المسلمون لذلك فقال الملاحون :
— إن أهل فارس فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ، فلا يأتينا الماء إلا بسد الأنهار .

وفكر خالد فرأى أن ينطلق إلى ابن الآزاذبة وأن يعيد الفرات إلى مجراه . فخرج في فرسانه وفاجأ الفرس وهم آمنون لا يفكرون في أن يغير خالد عليهم ، فأعمل فيهم السيوف وقتل ابن الآزاذبة ، ثم سار من فوره وسبق الأخبار إلى ابن الآزاذبة ، وهجم على الفرس فقتل فيهم مقتلة عظيمة ، وفر الآزاذبة ، وفجر خالد الفرات وسد الأنهار وسلك الماء سبيله .

وقصد خالد وجنده إلى الحيرة ، فقدم الخورنق وقد قطع الآزاذبة الفرات هارباً من غير قتال ، وإنما حداه على الهرب أن وصل إليه خبر موت أردشير ومصاب ابنه .

وتنام أصحاب خالد بالخورنق ، فخرج من عسكره حتى عسكر بموضع عسكر الآزاذبة بين الغريين والقصر الأبيض ، وأهل الحيرة متحصنون في القصور . فأدخل خالد الحيرة الخيل من عسكره ، وأمر بكل قصر رجالاً من قواده يحاصر أهله ويقاثلهم ، فكان ضرار بن الأزور محاصراً القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي ، وكان ضرار بن الخطاب محاصراً قصر القدس وفيه عدى بن عدى ، وكان ضرار بن مقرن المزني محاصراً قصر بني مازن وفيه ابن أكال ، وكان المثنى محاصراً قصر ابن

بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وكان خالد قد عهد إلى أمرائه أن يبدعوا بالدعاء ، فإن قبلوا قبلوا منهم وإن أبوا أن يؤجلهم يوما وقال :

— لا تمكنوا عدوكم من آذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ، ولكن ناجزوهم ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم .

كان ضرار بن الأزور على قتال أهل القصر الأبيض ، فأصبحوا وهم مشرفون فدعاهم إلى إحدى ثلاث : الإسلام أو الجزية أو المنازدة . وأطلقوا سهام الخوف فقال ضرار لرجاله :

— تنحوا لا ينالكم الرمي حتى ننظر في الذي هتفوا به .

فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال متعلقى الخالى يرمون المسلمين ، فقال ضرار لرجاله :

— ارشقوهم .

فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل فأعروا رعوس الحيطان . ثم أغاروا عليهم وصبح أمير كل قوم أصحابه بمثل ذلك فافتتحوا الدور والديرات وأكثروا القتل . فنادى القسيسون والرهبان :

— يا أهل القصور ! ما يقتلنا غيركم .

فنادى أهل القصور :

— يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فادعوا بنا وكفوا عنا

حتى تبلغونا خالدا .

فخرج إياس بن قبيصة وأخوه إلى ضرار بن الأزور ، وخرج عدى بن عدى وزيد بن عدى إلى ضرار بن الخطاب ، وخرج عمرو بن عبد المسيح إلى ضرار بن مقرن ، وابن آكال إلى المثني بن حارثة ، فأرسلوهم إلى خالد وهم على مواقفهم ، مع كل رجل منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن .

— ٢٠٩ —

خلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عدى
وقال :

— ويحكم ! ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما
تنقمون من الإنصاف والعدل ؟
فقال له عدى :

— بل عرب عارية وأخرى متعربة .
— لو كنتم كما تقولون ، لم تحادونا وتكرهوا أمرنا ؟
— ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان بالعربية .
— صدقت .. اختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا في ديننا فلكم ما
لنا وعليكم ما علينا إن ناهضتم وهاجرتم وإن أقمت في دياركم ، أو الجزية ،
أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم
على الحياة .

— بل نعطيك الجزية .
— تبا لكم ! ويحكم إن الكفر فلاة مضلة ، فأحمق العرب من
سلكها .

ودخل عمرو بن عبد المسيح على خالد ، فقال له خالد :

— من أين أتيتك ؟
— من ظهر أبى .
— من أين خرجت ؟
— من بطن أمى .
— ويحك على أى شيء أنت ؟
— على الأرض .

(وفاة الرسول)

— ٢١٠ —

— ويلك ! فى أى شىء أنت ؟

— فى ثيابى .

— ويحك ، تعقل ؟

— نعم وأقيد .

— إنما أسألك .

— وأنا أجيئك .

— أسلم أنت أم حرب ؟

— بل سلم .

— فما هذه الحصون التى أرى ؟

— بنيناها للسفيه نجسه حتى يجيئ الحليم فينهاه .

وكتب خالد بينه وبينهم كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عددا وعمر ابنى عدى ، وعمرو بن عبد المسيح ، وإياس بن قبيصة ، وحيرم بن أكال ، عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبسا عن الدنيا ، تاركاً لها وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة » .

ولما فتح خالد الحيرة صلى صلاة الفتح ثمانى ركعات ، لا يسلم فيهن ، ثم انصرف وقال :

— لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع فى يدي تسعة أسياف ، وما لقيت قوما كقوم لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوما كأهل أليس .

كان أهل فارس مختلفين بالمدائن لموت أردشير ، فدعا خالد رجلاً من أهل الحيرة وكتب معه إلى أهل فارس، وقال للرجل :
— ما اسمك ؟

— مرة .

— خذ الكتاب فأنت به أهل فارس لعل الله أن يمر عليهم عيشهم أو يسلموا أو ينيبوا .

وبلغ الرسول المدائن وقدم الكتاب ، فقرأ مرازية فارس : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى مرازية فارس ، أما بعد فأسلموا تسلموا . وإلا فاعتقدوا من الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتمكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .

كانوا مختلفين فيمن يولونه أمورهم بعد موت أردشير وإن اجتمعت كلمتهم على قتال خالد ، وخرج عمال الخراج يجمعون الخراج ويكتبون للناس : « بسم الله الرحمن الرحيم . براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد . وقد قبضت الذي صالحهم عليه خالد ، وخالد والمسلمون لكم يد على من بدل صلح خالد ما أقرتم بالجزية وكففت . أمانكم أمان ، وصلحكم صلح ، نحن لكم على الوفاء » .

وأقام خالد في عمله سنة ومنزله الحيرة وأهل فارس مختلفون على من يولونه عليهم ، إنها لسنة كأنها سنة نساء .
 وكان أبو بكر قد عهد إلى خالد أن يأتي العراق من أسفل منها ، وإلى عياض بن غنم أن يأتي العراق من فوقها : « وأيكما ما سبق إلى الحيرة فهو أمير على الحيرة ، فإن اجتمعا بالحيرة إن شاء الله وقد قضضتا مسالحي ما بين العرب وفارس ، وأمنتم أن يؤتى المسلمون من خلفهم ، فليقم بالحيرة أحداً وليقتحم الآخر على القوم ، وجالدوهم عما في أيديهم واستعينوا بالله واتقوه وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم ، ولا تؤثروا الدنيا فتسلبوهما ، واحذروا ما حذركم الله بترك المعاصي ومعالجة التوبة ، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة » .

إن خالد قد نزل الحيرة واستقام له الأمر . وفرق سواد الحيرة على جرير ابن عبد الله وضرار وسويد وغيرهم ؛ أما عياض فإنه كان في حاجة إلى أن يمد له خالد يده في قتال أهل دومة الجندل ، وكان خالد كارها لذلك الأمر ، فما دون فتح فارس شيء . وقال خالد للمسلمين :
 — لولا ما عهد إلى الخليفة لم أنتقد عياضا .

وخرج خالد لإغاثة عياض ، واستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو ، فسلك القلوجة حتى نزل بكربلاء وعلى مسلحتها عاصم بن عمرو ، وعلى مقدمة خالد ابن الأقرع بن حابس ، لأن الثني كان على ثغر من الثغور التي على المدائن يناوش أهل فارس . وأقام خالد على كربلاء أياماً ثم انطلق إلى الأنبار .

تحصن أهل الأنبار وخندقوا عليهم وأشرفوا من حصنهم يرقبون مقدم جيش المسلمين ، وكان على تلك الجنود سيرزاذ صاحب ساباط وكان

— ٢١٣ —

أعقل أعجمى يومئذ ، وقدم خالد على المقدمة فطاف بالخندق وأنشأ القتال وكان قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع به ، وتقدم إلى رماته فأوصاهم وقال :

— إلى أرى أقواما لا علم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ولا توحوا غيرها .

وأرسلت السهام إلى العيون ففقت ألف عين يومئذ ، فسميت تلك الواقعة ذات العين .

وتصايح القوم :

— ذهبت عيون أهل الأنبار .

فقال شیرزاد :

— ما يقولون ؟

ففسر له فقال :

— آباء آباء .

فراسل خالدا في الصلح على أمر لم يرضه خالد فرد رسله. وأتى خالد أضيق مكان في الخندق وراح ينحر النحائر ويلقى بها في الخندق حتى ملأه ، ثم اقتحم الخندق والذباح جسور المسلمين ، فاجتمع المسلمون والمشركون في الخندق وفر القوم إلى حصنهم . وأرسل شیرزاد خالدا في الصلح على ما أراد ، فقبل منه على أن يخليه ويلحقه بمأمنه في كوكبة من الخيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء ، فخرج شیرزاد حتى قدم على بهمن جاذويه ، فأخبره بالخبر فلامه فقال :

— عرفت أن المسألة أسلم .

واطمأن خالد بالأنبار . ورأى أهل الأنبار يكتبون بالعربية ويتعلمونها

— ٢١٤ —

فسألهم :

— ما أنتم ؟

— قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام مختصر .

— ممن تعلمتم الكتابة ؟

— تعلمنا الخط من إياد .

ولما فرغ خالد من الأنبار واستحكمت له ، استخلف على الأنبار الزبرقان بن بدر ، وقصد لعين التمر وبها يومئذ : مهران بن بهرام جويين في جمع عظيم من العجم ، وعقة بن أبى عقة في جمع عظيم من العرب من التمر وتغلب وإياد ومن لافهم ، فلما سمعوا بخالد قال عقة لمهران :

— إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدنا .

— صدقت ، لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم كمثلنا في قتال العجم .

فخدعه واتقى به وقال :

— دونكموهم وإن احتجتم إلينا أعناكم .

فلما مضى نحو خالد قالت له الأعاجم :

— ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب ؟

— دعوني ، فإنني لم أرد إلا ما هو خير لكم ، شرّ لهم . إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وقتل حدكم فاتقته بهم . فإن كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا ، فنقاتلهم ونحن أقوىاء وهم مضعفون .

فاعترفوا له بفضل الرأي ، فلزم مهران العين ، ونزل عقة لخالد على

— ٢١٥ —

الطريق وعلى ميمنته بجير بن فلان أحد بنى عبيد بن سعد بن زهير ، وعلى
ميسرته الهزيل بن عمران ، فقدم عليه خالد وهو في تعبئة جنده فعبأ خالد
جنده وقال لمجنبيه :

— اكفونا ما عنده فأنى حامل .

وحمل خالد على عقة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيرا ، وانهمز
صفه من غير قتال فأكثروا فيهم الأسر . وهرب بجير والهذيل واتبعهم
المسلمون . ولما جاء الخبر مهران في جنده وترك الحصن ، ولما انتهى فلان
عقة من العرب والعجم إلى الحصن اقتحموه واعتصموا به .

وأقبل خالد في الناس حتى ينزل على الحصن ومعه عقة أسير ، وكان من
في الحصن يرجون أن يكون خالد كمن كان يغير عليهم من العرب . فلما
رأوه يناجزهم ويحاول أن يقتحم الحصن سألوه الأمان فأبى إلا حكمه ،
فنزّلوا على حكمه ، فلما فتحوا الحصن دفعهم إلى المسلمين ، وأمر خالد
بعقة وكان خفير القوم فضربت عنقه ، وسبى كل من حوى الحصن وغنم
ما فيه ، ووجد في بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل عليهم باب مُغلق ،
فكسره عنهم وقال :

— ما أنتم ؟

— رهن .

فقسمهم في أهل البلاء . منهم أبو زياد مولى ثقيف ، ومنهم نصير أبو
موسى بن نصير ، ومنهم أبو عمرة جد عبد الله بن عبد الأعلى الشاعر ،
وسيرين أبو محمد بن سيرين ، وحريث وعلاثة ، فصار أبو عمرة لشرحبيل
بن حسنة ، وحريث لرجل من بنى عباد ، وعلاثة للمعنى ، وحُمران
لعثمان . وكان نصير ينسب إلى بنى يشكر ، وأبو عمرة إلى بنى مرة .

كان عياض بن غنم قد شن الغارة على أهل دومة الجندل ، ولم يفتح ذلك الحصن الحصين أمرا هينا ، فحاصر عياض القوم ، وما لبث أهل الدومة أن خرجوا من حصنهم وحاصروا جيش المسلمين وقد أخذوا عليه الطريق .

وقدم الوليد بن عقبة من عند خالد بن الوليد على أبي بكر بما بعث إليه من الأخماس ، وكان أمر عياض قد بلغ الصديق فوجه الوليد إلى عياض وأمدّه به ، فقدم عليه الوليد وعياض محاصرههم وهم محاصروه ، فقال له : — الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف ، ابعث إلى خالد فاستمده .

فبعث عياض إلى خالد بن الوليد فقدم عليه رسوله عقب وقعة العين مستغيثا ، فأحس خالد شيئا من الضيق ، فقد كادت فارس أن تفتح له أبوابها ، ولكنه وجد أن لا بد من إغاثة عياض وجنوده ، فخلف على عين التمرعويم بن الكاهل الأسلمى ، وخرج فى تعبته التى دخل فيها العين . ولما بلغ أهل دومة سير خالد إليهم بعثوا إلى أحزابهم من بهراء و كلب وغسان وتنوخ والضُّجاعم ، فأتاهم وديعة فى كلب ، وابن الأيهم فى طوائف من غسان وتنوخ ، وابن الحدير جان فى الضجاعم ، فقاتلوا عياضا وقاتلهم عياض . فلما بلغهم دنو خالد وهم على رئيسين : أكيدر بن عبد الملك

والجودى بن ربيعة ، اختلفوا فقال أكيدر :
— أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أمين طائرامنه ، ولا أحد فى حرب ولا
يرى وجه خالد قوم أبدا قلوبا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعونى وصالحوا
القوم .

فأبوا عليه فقال :

— لن أمالككم على حرب خالد ، فشأنكم .
فخرج إلى حيه ، وبلغ ذلك خالدا فبعث عاصم بن عمرو معارضا له
فأخذه ، فقال :

— إنما تلقيت الأمير خالدا .

فلما أتى به خالد أمر به فضربت عنقه وأخذ ما كان معه من شيء .
ومضى خالد حتى ينزل على أهل دومة وعليهم الجودى بن ربيعة ووديعه
الكلبى وابن الأيهم وابن الحدرجان ، فجعل خالد دومة بين عسكره
وعسكر عياض ، وكان النصارى الذين أيدوا أهل دومة من العرب محيطين
بمحسن دومة لم يحملهم الحصن .

ونزل خالد يتأهب للقتال فخرج إليه الجودى ووديعه ، وخرج ابن
الحدرجان وابن الأيهم إلى عياض . وزلزلت تكبيرات المسلمين قلوب
الأعداء فذبت الهزيمة فيهم ، وراح خالد وفرسانه يصلون ويمجولون
ويضربون الأعناق ، وراح عياض وجنوده يشدون على الأعداء ويحاربون
فى سبيل الله صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص . وثار النقع وسالت
الدماء ، واختلطت صيحات الفزع بالأناث ، وانهمز الجودى ووديعه على
يدى خالد ، وهزم عياض من يليه وركبهم المسلمون . فأما خالد فإنه أخذ
الجودى أخذا ، وأخذ الأقرع بن حابس وديعه ، وفر بقية الناس إلى

— ٢١٨ —

الحصن فلم يحملهم ، فلما امتلأ الحصن أغلق من في الحصن الحصن دون أصحابهم ، فبقوا حوله ينتظرون الموت .

وقال عاصم بن عمرو :
— يا بني تميم حلفاؤكم كلب آسروهم وأجبروهم ، فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها .

وراح بنو تميم يأسرون حلفاءهم ولا يقتلونهم لوصية عاصم بن عمرو ، وأقبل خالد على الذين كانوا حول الحصن فقتلهم حتى سد بهم باب الحصن . ودعا خالد بالجودى فضرب عنقه ، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم إلا أسرى كلب فإن عاصما والأقرع وبنى تميم قالوا :
— قد آمنناهم .

فأطلقهم لهم خالد وقال :
— مالى ولكم ! أتخفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام ؟
فقال له عاصم :

— لا تحسدوهم العافية ، ولا يجوزهم الشيطان .
ثم أطاف خالد بباب الحصن فلم يُزل عنه حتى اقتلعه ، وتدفق جنود المسلمين إليه فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرارى والنساء فأقاموهم فيمن يزيد ، فاشترى خالد ابنة الجودى وكانت معروفة بالحسن والجمال .

وأقام خالد بدومة ، فأطمع ذلك الفرس في المسلمين ، فرأوا أن يناجزوهم وأن يجلوهم عن ديارهم . وأدار رعوهم أن عرب الجزيرة كاتبوهم للنهوض لقتال المسلمين غضبا لعقة الذى قتله خالد ، فخرج زرمهر من بغداد ومعه روزية يريدان الأنبار ، فكتب الزبرقان وهو على الأنبار إلى القعقاع بن عمرو وهو يومئذ خليفة خالد على الحيرة ، فبعث

القعقاع أعبد بن فدكى السعدى وأمره بالحصيد ، وبعث عروة بن الجعد البارقي وأمره بالحنافس ، فقد جاءت الأخبار أن الفرس وعرب الجزيرة اتعدوا أن يلتقوا بحصيد والحنافس . وقال القعقاع للأميرين :
— إن رأيكما مقدما فاقدا .

وانتظر روزبة وزرمهر من كاتبهما من ربيعة ليشنوا الحرب على المسلمين . فلما رجع خالد من دومة إلى الحيرة في فرسانه ، وبلغه ما فعلت الفرس ، عزم على مصادمة أهل المدائن ؛ ولكنه كره خلاف أبى بكر فقد عهد إليه أن يبقى بالحيرة ، فأرسل القعقاع بن عمرو وأباليلي بن فدكى إلى روزبة وزرمهر .

وجاء إلى خالد كتاب امرئ القيس الكلبي أن الهزيل بن عمران قد عسكر بالمضيح ، ونزل ربيعة بن بجير بالثنى وبالبشر في عسكر غضبا لعقبة . أينتظر خالد حتى يصل إلى زرمهر وروزبة ؟ فخرج خالد وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، واستخلف على الحيرة عياض بن غنم ، وأخذ طريق القعقاع وأبى ليلي إلى الحنافس .

وقدم عليهما خالد وهما بعين التمر ، فبعث القعقاع إلى الحصيد وأمره على الناس ، وبعث أباليلي إلى الحنافس فلم يتحرك زرمهر وروزبة ؛ كانا ينتظران أن يوافيهما عرب الجزيرة . فلما رأى القعقاع ذلك سار نحو حصين ، فلما رأى روزبة أن القعقاع قصد له استمد زرمهر فأمدته بنفسه ، واستخلف على عسكره المهبوزان .

والتقى الجيشان بحصيد ، فراح القعقاع يمشى إلى أعدائه مشى الوعول ، حتى إذا ما بلغ زرمهر عاجله بضربة فتركه كأمنس الدابر وقتل عصمة بن عبد الله روزبة ، فمشت الهزيمة في صفوف الفرس ، فقتل الله

العجم مقتلة عظيمة . وكان القعقاع يصول ويجول كأسد هصور ،
وصدق الصديق لما قال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا .

وهرب فلول جيش الفرس إلى حصيد مرعويين ، وانضموا إلى
المهبوذان ، وراحلوا يوسعون الأرض بأخبار صناديد المسلمين . فلما
بلغهم أن أبا ليلي بن فذكى بمن معه قادم نحو الخنافس لقتلهم ، أطلقوا
لسيقتانهم الريح ، وهرب المهبوذان ومن معه إلى المضئح حيث نزل هذيل
ابن عمران .

وانتهى الخبر إلى خالد بمصاب أهل الحصيد وهرب أهل الخنافس ،
فكتب إلى القعقاع وأبي ليلي وأعبد وواعدهم أن يجتمعوا بالمضئح . وخرج
خالد من العين قاصدا المضئح على الإبل يجنب الخيل ، فلما كانت تلك
الساعة من ليلة الموعد إذا رجل يدعى حرقوص بن النعمان من الثمر ، وإذا
حوله بنوه وامراته وبينهم جفنة من خمر وهم عليها عكوف ، يقولون له :
— ومن يشرب في هذه الساعة وفي أعجاز الليل ؟!

— اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا خمرأ بعدها . هذا خالد
بالعين وجنوده بحصيد وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا .

وانقضت عليهم بعض الخيل فضرب رأس حرقوص فإذا هو في
جفنته ، وأخذت بناته أسرى ، وقتل بنوه ، وأغار المسلمون على الهذيل
ومن معه ومن أوى إليهم وهم نائمون من ثلاثة أوجه فقتلوهم ، وأفلت الهذيل
في أناس قليل ، وامتألاً القضاء قتلى كأنما غنم قد نحررت . وقد قتل جرير بن
عبد الله عبد العزى بن أبي رهم ولييد بن جرير ، وكان معهما كتاب من
أبي بكر بإسلامهما .

وبلغ المدينة خبر مقتلتهما فراح عمر يحاول أن يوغر صدر الصديق على

— ٢٢١ —

خالد بن الوليد ، ويطلب عزله عن إمارة الجيش كما فعل يوم قتل مالك بن نويرة ، فودى أبو بكر عبد العزى ولييها وأوصى بأولادها وقال :
— أما إن ذلك ليس عليّ إذ نازلا أهل الحرب .

وكان ربيعة بن بجير التغلبي قد نزل الثني والبشر غضبا لعفة ، وواعد روزبة وزرمهر والهديل . فلما أصاب خالد أهل المضيق بما أصابهم به أمر القعقاع وأبا ليلى أن يرتحلا أمامه ، وواعدهما الليلة ليغيروا على ربيعة التغلبي ، وقد أقسم ليبيعتن تغلب في دارها .

وخرج خالد من المضيق فنزل حوران ثم الرفق ثم الحماة ، ثم اجتمع هو وأصحابه فشنوا الغارة على ربيعة من ثلاثة أوجه ، فلم يفلت من سيوف المسلمين أحد واستبى الذراري والنساء ، وبعث بخمس الله إلى أبي بكر مع النعمان بن عوف بن العمان الشيباني ، وقسم النهب والسبايا .

وفي المدينة استقبل الناس الغنائم والنسي بالفرح ، واشترى عليّ بن أبي طالب بنت ربيعة بن بجير التغلبي فاتخذها فولدت له عمر ورقية .

وكان الهديل حين نجا أوى إلى عتاب بن فلان وهو بالبشر في عسكر ضخم ، فما أرخى الليل ستائره حتى هجم جيش المسلمين من ثلاثة أوجه على جيش الأعداء وشنها غارة شعواء ، وكانت أنباء مقتل ربيعة قد تسربت إليهم فأورثتهم خيفة فهزموا بالربح ، فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا قبلها مثلها ، وأصابوا منهم ما شاءوا ، وبر خالد بقسمه فقد باغت تغلب في عقر دارها .

وخرج خالد من البشر إلى الرضاب وبها هلال بن عقة ، فلما سمع أصحاب هلال بقدم خالد فروا من وجهه ، وفر هلال في أثرهم . فدخل خالد الرضاب دون قتال ، ثم قصد إلى الفرائض . إنها تخوم الشام والعراق

— ٢٢٢ —

والجزيرة ، فلما اجتمع المسلمون بها هبت الروم واغتازت ، فها هو ذا خالد على حدودهم يهددهم . ونسى الروم ما كان بينهم وبين الفرس من عداوة أمام الخطر الجديد ، فاستعانوا بمن يليهم من مسالح أهل فارس ، واستمدوا تغلب وأياد والتمر فأمدوهم ، ثم انطلقوا إلى خالد ، حتى إذا صار الفرات بينهم قالوا :

— إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم .

قال خالد :

— بل اعبروا إلينا .

— فتنحوا حتى نعبر .

— لا نفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا .

فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض :

— احتسبوا ملككم . هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم ، والله

لينصرن ولنخذلن .

ثم لم ينتفعوا بذلك فعبروا أسفل من خالد ، فلما التأم جمعهم قالت الروم :

— امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح من أيانا يجيء .

فراحت كل جماعة تذكر مناقبها وترفع صوتها بشعارها .

ودارت رحي معركة رهيبة ، السيوف تعلو والرعوس تطير ، والوقت

يمر وئيذا وئيذا ، وتكبيرات المسلمين تجلجل ، والعرق يختلط بالدم ،

وجث الروم ومن هب لنجدتهم تغطي ساحة القتال ، وخالد يصيح في

جنوده :

— ألحوا عليهم ولا ترفعوا عنهم .

— ٢٢٣ —

فینقض علیهم فرسان المسلمین و یحشرونهم برماحهم و یسوقونهم زمرا
إلى القتل ، فقتل فی المعركة و فی الطلب مائة ألف . و ذاق الروم مرارة
الهزيمة ، و أقام خالد علی القراض بعد الوقعة عشرة ، ثم أذن بالرجل إلى
الحيرة ، و أمر عاصم بن عمرو أن یرسیر بهم ، و أمر شجرة بن الأعز أن
یسوقهم ، و أظهر بخالد أنه فی الساقة ، فقد استولت علیه فكرة و عزم علی
إنفاذها دون أن یشعر به أصحابه .

وافى الموسم فخرج الناس للحج ، وخرج أبو بكر على الناس ، وخرج خالد حاجا من الفراض لخمس بقين من ذى القعدة لا يعلم بخروجه أحد إلا عدة من أصحابه خرجوا معه . فسار طريقا من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه ، فكانت غيبته عن الجند يسيرة . فما توافى إلى الحيرة آخراهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة الذي وضعه فقدما معا ، وخالد وأصحابه مخلقون ، لم يعلم بحججه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ، ولم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعد فأرسل إليه كتابا فوافاه الكتاب منصرفه من حجه فقرأه :

« .. سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ، فإنه لم يُشج^(١) الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فليهنئك أبا سليمان النية والخطوة فأتمم يتم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتسخر وتخذل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء » .

كان أبو بكر الصديق قد رأى بعد أن رجع من الحج إلى المدينة أن يجهز

(١) يشج الجموع : يفرق جمع الأعداء ، والشجى : الشوك والعجب والدل : الافتخار والغرور .

الجيش إلى الشام ، فكان أول لواء عقده لواء خالد بن سعيد بن العاص ، فجاء عمر إلى أبي بكر فقال :

— أتؤمره بعد ما قال حين أقدم من اليمن بعد وفاة رسول الله ﷺ —
يا بني عبد مناف لقد طبت نفسا عن أمركم يليه غيركم .

إن خالد بن سعيد لم يبايع أبا بكر إلا بعد أن رضى بنو هاشم ، فلم يحفلها عليه أبو بكر ، وأما عمر فاضطعنها عليه ولم يزل بأبي بكر حتى عزله ، وأمر يزيد بن أبي سفيان فخرج يزيد في سبعة آلاف مقاتل .

وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص : « إني كنت قد رددتك على العمل الذي كان رسول الله ﷺ — ولاكه مرة وسماه لك أخرى : مبعثك إلى عمان لإنجاز المواعيد رسول الله ﷺ — فقد وليته ثم وليته . وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك إلى خير لك في حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك » .

فكتب إليه عمرو : « إني سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاهها وأفضلها فارم به شيئا إن جاءك من ناحية من النواحي » .

وكان أبو بكر قد شيع الوليد بن عقبة لما خرج لجمع صدقات قضاة ، وقال له :

— اتق الله بالسر والعلانية ، فإن من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله .

إنك في سبيل من سبل الله ، لا يسعك فيه الإذهان والتفريط والغفلة عما فيه قوام دينكم وعصمة أمركم ، فلا تن ولا تفتر . (وفاة الرسول)

إن أبا بكر يريد أن يوجهه إلى الشام أيضا ، فكتب إليه وإلى عمرو :
« استخلفا على أعمالكما واندبا من يليكما » . فراح عمرو والوليد
يندبان الناس لقتال الروم ، فقتل إليهما بشر كثير ، وانتظرا أمر أبي بكر .
وقام أبو بكر في الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله
وقال :

— ألا إن لكل أمر جوامع ، فمن بلغها فهي حسبه ^(١) ، ومن عمل لله
كفاه الله .. عليكم بالجد والقصد ^(٢) فإن القصد أبلغ ، ألا إنه لا دين
لأحد لا أمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له . ألا
وإن في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن
يخص به : هي التجارة التي دل الله عليها ونجى بها من الخزي ، وألحق بها
الكرامة في الدنيا والآخرة .

فأمد عمر ببعض من انتدب إلى من اجتمع إليه وأمره على فلسطين ،
وكتب إلى الوليد وأمره بالأردن وأمده ببعضهم ، ودعا يزيد بن أبي سفيان
فأمره على جند عظيم وهم جمهور من انتدب له وفي جنده سهيل بن عمرو
وأشباهه من أهل مكة وشيعة ماشيا ، واستعمل أبا عبيدة بن الجراح على
من اجتمع وأمره على حمص وخرج معه وهما ماشيان والناس معهما
وخلفهما .

وكان أبو بكر قد سمي لكل أمير من أمراء الشام كورة ، فسمى لأبي
عبيدة حمص ، وليزيد بن أبي سفيان دمشق ، ولشريحيل بن حسنة
الأردن ، ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن مجزّر فلسطين . فلما شارفوا

(١) حسبه : تكفيه .

(٢) القصد : الاعتدال .

الشام دهم كل أمير منهم خلق كثير ، فهرقل إمبراطور الروم خرج حتى نزل بمحمص وأرسل إلى عمرو أخاه تذارق فخرج نحوهم في تسعين ألفا ؛ وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان فعمسك بإزائه ؛ وبعث الدراقص فاستقبل شرحبيل بن حسنة ؛ وبعث الفيقار بن بسطوس في ستين ألفا نحو أبي عبيدة ، فهابهم المسلمون وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفا سوى عكرمة بن أبي جهل وكان ردءا لهم في ستة آلاف . ففزعوا جميعا بالكتب وبالرسل إلى عمرو بن العاص وإلى أبي بكر الصديق : « ما الرأي ؟ » فكاتبهم عمرو وراسلهم : « إن الرأي الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يُقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا . فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به ، وجاءهم كتاب أبي بكر : « اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فإنهم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى منكم من قلة وإنما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة على العشرة الآلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب ، واحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه . »

وتطابق رأى أبي بكر مع رأى عمرو ، فसार أمراء المسلمين إلى اليرموك .

وبلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب ، فخرجت جيوش الروم من ألوية الثغور وقدرفت النسر الروماني على ألوية فوق الرعوس . كانت السرايا تطوى الأرض طيا لتصل إلى اليرموك كل سرية من ثلاثمائة أو أربعمائة جندي

يقودهم رائد ، فكلما اجتمعت ست سرايا أو سبع أو ثمانى تكون منها كتيبة بقيادة دوق ، وقد احتفظوا بسر عددهم حتى لا يستطيع العرب تقدير حجم جيوشهم .

ارتدى الرومان الدروع وغطوا رؤوسهم بالخوذات وتسلحوا بالقسى والرماح والسيوف ، واجتمع الجيش الجرار وعلى المقدمة جرجة ، وعلى مجنبيه باهان والدراقص ، وعلى القلب النيقار . ولم يكن باهان قد وصل بعد فنادى المنادى فيهم ليرفع من روحهم المعنوية . — أبشروا فإن باهان فى الأثر . مدد لكم .

ونزل جيش الروم الواقعة وهى على ضفة اليرموك ، وصار الوادى خندقا لهم وهو هاوية لا يدرك ، وإن كانت انتصارات المسلمين فى العراق قد صكت أسماعهم ، فأراد قواد هرقل أن تستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين وترجع إليهم أفقدتهم التى طارت شعاعا .

وانتقل المسلمون من عسكرهم الذى اجتمعوا به ، فنزلوا عليهم بجذائهم على طريقهم ، وليس للروم طريق إلا عليهم فقال عمرو بن العاص :

— أيها الناس أبشروا ! حصرت والله الروم وقل ما جاء محصور بخير . فأقاموا بإزائهم وعلى طريقهم ومخرجهم صفر سنة ثلاث عشرة وشهرى ربيع لا يقدر من الروم على شىء ولا يخلصون إليهم ، وكان بين الجيشين مناوشات ، وكلما شن المسلمون غارة عادوا منهزمين ، فالتحق يحول بينهم وبين الالتحام مع أعدائهم ، فكانت سهام الروم تصيب الصدور بينما سيوف المسلمين البتارة لا تصل إلى أعناق أعدائهم . وكتب أمراء الشام إلى أبى بكر يصفون له ما هم فيه ، وكان كل جند

— ٢٢٩ —

يجارب مع أميره لا يجمعهم أحد ، وكان عسكر أبى عبيدة مجاورا لعسكر عمرو بن العاص وعسكر شرحبيل مجاورا لعسكر يزيد بن أبى سفيان ، فكان أبو عبيدة ربما صلى مع عمرو وشرحبيل مع يزيد ، فأما عمرو ويزيد فإنهما كانا لا يصليان مع أبى عبيدة وشرحبيل .

وقرأ أبو بكر كتاب أمراء الشام فكتب إلى خالد بن الوليد ليأتي جموع المسلمين في اليرموك ، فخرج خالد في أهل العراق ومعه القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى وعياض بن غنم وهاشم بن عتبة ، وراح يستحث جنوده في السير فهو يتحرق شوقا لقتال الروم .

وطلع خالد على المسلمين فارتج المكان بالتكبير ، وفي نفس الوقت ارتفعت صيحات فرح في معسكر الروم فقد طلع عليهم باهان وقدم قدامه الشامسة والرهبان والقسيسين يغرونهم ويحضونهم على القتال .

كان جيش الروم أربعين ومائتي ألف منهم ثمانون ألف مقيد ، وأربعون ألفا منهم مسلسل للموت ، وأربعون ألفا مربطون بالعمائم ، وثمانون ألف فارس وثمانون ألف راجل ، والمسلمون سبعة وعشرون ألفا بمن كان مقيما ، إلى أن قدم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفا .

ونشط الروم بمددهم فخرجوا لقتال المسلمين ، فراح كل أمير من الأمراء يقاتلهم بجنده ، فهزم الله الروم فعادوا يتحصنون في خندقهم ، وراح القبيسون والشامسة والرهبان يحضونهم على القتال وينعون لهم النصرانية حتى زينوا لهم الخروج لمناجزة المسلمين الذين جاءوا لقتالهم . وأحس المسلمون خروجهم ، وأراد كل أمير أن يخرج بجنده فلم يرتح خالد لذلك ، فسار فيهم فحمد الله وأثنى عليه وقال :

— إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى . أخلصوا

جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده . ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي . وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعلموا فيما لم تؤمروا به بالذى ثرون أنه الرأى من واليكم ومحبتة .

— فهات ، فما الرأى ؟

— إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيم وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له .

— إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله — ﷺ — هلموا فإن هؤلاء قد تهيؤوا وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعوني أليكم اليوم .

إنه طلب لنفسه الإمارة أول يوم فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم وأن الأمر أطول مما صاروا إليه ، وكان خالد قد عزم أن يخوض اليوم معركة قاصمة لظهر الروم ولا تقوم لها قائمة بعدها أبدا .

خرج الروم فى تعبئة لم ير الراءون مثلها قط ، وخرج خالد فى تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك ، فخرج فى ستة وثلاثين كردوسا إلى الأربعين ، وقال :

— إن عدوكم قد كثروا طغى ، وليس من التعبئة تعبئة أكثر فى رأى العين

من الكراديس .

فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس
وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس
وعليها زيد بن أبي سفيان ، وكان على كردوس من كراديس أهل العراق
القعقاع بن عمرو ، وعلى كردوس مذعور بن عدى ، وعياض بن غنم
على كردوس ، وهاشم بن عتبة على كردوس ، وزباد بن حنظلة على
كردوس ، وخالد على كردوس ، وابن سعيد دحية بن خليفة على
كردوس ، وامرؤ القيس على كردوس ، ويزيد بن يحنس على كردوس ،
وأبو عبيدة على كردوس ، وعكرمة بن أبي جهل على كردوس ، وسهيل
ابن عمرو على كردوس ، وعبد الرحمن بن خالد على كردوس وهو يومئذ
ابن ثمانى عشرة سنة ، وحبيب بن مسلمة على كردوس ، وصفوان بن أمية
على كردوس ، وسعيد بن خالد على كردوس ، وأبو الأعور بن سفيان
على كردوس ، وابن ذى الخمار على كردوس ، وفي الميمنة عمارة بن
مخشي بن خويلد على كردوس ، وشرحبيل على كردوس ومعه خالد بن
سعيد ، وعبد الله بن قيس على كردوس ، وعمرو بن عبسة على
كردوس ، والسمط بن الأسود على كردوس ، وذو الكلاع على
كردوس ، ومعاوية بن حُذَيْج على آخر ، وجندب بن عمرو بن حُمة
على كردوس ، وعمرو بن فلان على كردوس . ولقيط بن عبد قيس بن
بجرة على كردوس ؛ وفي المسيرة يزيد بن أبي سفيان على كردوس ،
والزبير بن العوام على كردوس ، وحوشب ذو ظلم على كردوس ، وقيس
ابن عمرو على كردوس ، وعصمة بن عبد الله على كردوس ، وضرار بن

الأزور على كردوس ، ومسروق بن فلان على كردوس ، وعتبة بن ربيعة ابن بهز على كردوس . وكان القاضى أبو الدرداء وكان القاص أبو سفيان بن حرب ، وكان على الطلائع قبان بن أشيم ، وكان على الأقباض عبد الله بن مبعود ، وكان القارئ المقداد ، وقد سن رسول الله ﷺ — بعد بدر أن يقرأ القارئ سورة الجهاد عند اللقاء وهى الأنفال .

وكان فى الجيش ألف من أصحاب رسول الله ﷺ — فىهم نحو من مائة من أهل بدر ؛ وراح أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس فيقول : — الله الله ، إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك .

كان مع المسلمين يوم بدر فرس واحد ، أما فى اليرموك فكانوا على ظهور جيادهم العربية ؛ فرس رسول الله ﷺ — عرف أهمية الفرسان بعد وقعة أحد ، فراح يرمى الخيول ويشجع المسلمين على تربيتها ، وقد وضع عنها الزكاة ، وروى أحاديث عن خيرها ، وأعطى للفرس من الفىء ضعف الفارس ، فكانت ثمرة ذلك تلك الخيول التى فتح المسلمون على ظهورها الأمصار ، ورفعوا فيها راية الإسلام .

وقال رجل لخالد :

— ما أقل الروم وأقل المسلمين !

فقال خالد فى ثقة :

— ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل

بالخذلان ، ولا بعدد الرجال .

لما رجع خالد من حججه وافاه كتاب أبي بكر بالخروج في شطر الناس ،
وأن يخلف على الشطر الباقي المثنى بن حارثة ، وقال :
— لا تأخذن نجدا إلا خلفت له نجدا ، فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى
العراق وأنت معهم ، ثم أنت على عملك .

وأحضر خالد أصحاب رسول الله ﷺ — واستأثر بهم على المثنى
وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة . ثم نظر فيمن
بقي فاختر من كان قدم على النبي ﷺ — وافدا أو غير وافد ، وترك
للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ، ثم قسم الجند نصفين ، فقال المثنى :
— والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب ، نصف
الصحابة أو بعض النصف ، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم فأئني تعريني
منهم !

وتلكأ خالد ، وأصر المثنى على أن يترك معه نصف صحابة رسول
الله ﷺ . فلما رأى ذلك خالد أعاضه منهم حتى رضى ، وكان فيمن
أعاضه منهم فرات بن حيان العجلي ، وبشير بن الخصاصية ، والحارث بن
حسان ، ومعبد بن أم معبد السلمى ، وعبد الله بن أبي أوفى الأسلمى ،
والحارث بن بلال المزنى ، وعاصم بن عمرو التميمى ، حتى إذا رضى المثنى
وأخذ حاجته ، خرج خالد قاصدا اليرموك ، وشيعة المثنى إلى قراقر ثم

— ٢٣٤ —

رجع إلى الحيرة ، فأقام في سلطانه . ووضع في المسلحة التي كان فيها أخاه المعنى ، ومكان ضرار بن الخطاب عتية بن النهاس ، ومكان ضرار بن الأزور مسعودا أخاه الآخر ، وسدأماكن كل من خرج من الأمراء برجال أمثالهم .

والتفت خالد إلى رجاله وقال :

— كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جمع الروم ، فأني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين ؟

إن خالد بن الوليد يذكر يوم الحديبية ، يوم خرج للقاء رسول الله ﷺ — وأصحابه وهم في ملابس الإحرام ليمنعهم من دخول مكة ، فسلك رسول الله ﷺ — طريقا وعرا فإذا هو والذين معه خلف خالد ، وإذا مكة على بعد مراحل قليلة منهم ، ولولا أن حبس ناقته — صلوات الله وسلامه عليه — حابس الفيل لدخل رسول الله ﷺ — مكة . إن خالدًا لذكر ذلك ، وإنه يريد أن يفعل بالروم ما فعله عليه السلام بجيش قريش ذلك اليوم الذي لا ينساه ، فقال رجاله : — لا نعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش يأخذه الفذ ^(١) الراكب ، فأياك أن تغرر بالمسلمين .

إن رسول الله ﷺ — قد سلك طريقا وعرا ليتفادى من جيش قريش ، وإن خالد بن الوليد الذي اتخذ من رسول الله ﷺ — أنموذة في حروبه لن يتردد عن اجتياز الطريق مهما كان وعرا ومهما عارض رجاله ، فعزم عليه ، ولم يجبه إلى ذلك إلا رافع بن عميرة على تهيب شديد

(١) الفذ : الفرد

— ٢٣٥ —

فقام فيهم فقال :

— لا يَخْتَلِفُن هَدِيكُمْ وَلَا يَضَعْفُن يَقِينَكُمْ ، وَاَعْلَمُوا أَنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي عَلَى قَدَرِ النِّيَّةِ ، وَالْأَجْرُ عَلَى قَدَرِ الْحَسِبَةِ ، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكْتَرِثَ بِشَيْءٍ يَقَعُ فِيهِ مَعَ مَعُونَةِ اللَّهِ لَهُ .

— أَنْتَ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ ، فَشَأْنُكَ .

فَطَابَقُوهُ وَنَوُوا وَاحْتَسَبُوا وَاشْتَهَوْا مِثْلَ الَّذِي اشْتَهَى خَالِدٌ ، فَأَمَرَهُمْ خَالِدٌ أَنْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ مَاءً يَكْفِيهِمْ خَمْسَةَ أَيَّامٍ لِلشَّرْبِ ، وَأَمَرَ صَاحِبَ كُلِّ خَيْلٍ بِقَدَرٍ مَا يَسْقِيهَا ، وَحَمَلَتِ الْإِبِلُ مَا يَكَادُ يَكْفِيهَا ، ثُمَّ رَكِبَ خَالِدٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنْ قَرَارِقٍ .

فَقَالَ مُحَرِّزُ بْنُ حَرِيشٍ الْحَارِثِيُّ لَخَالِدٍ :

— اجْعَلْ كَوَكَبَ الصَّبْحِ عَلَى حَاجِبِكَ الْأَيْمَنِ ، ثُمَّ أَمَّهُ تَفَضُّضًا إِلَى

سَوَى .

كَانَ سَوَى عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنْ قَرَارِقٍ مِمَّا يَلِي الشَّامَ فَرَّاحَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ يَسِيرُ خَمْسَةَ أَيَّامٍ فِي سَبِيلِ صُعْبَةٍ ، شَمْسُ النَّهَارِ تَلْسَعُهُمْ وَظِلَامُ اللَّيْلِ يُؤَخِّرُ زَحْفَهُمْ . وَبَعْدَ جَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ بَلَّغُوا سَوَى وَأَغَارُوا عَلَيْهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ غَسَّانَ خَرُوجَ خَالِدٍ عَلَى سَوَى وَانْتَسَافَهَا اجْتَمَعُوا بِمَرْجِ الصَّفَرِ ، وَعَلِمَ خَالِدٌ بِخُرُوجِ غَسَّانَ فَانْطَلَقَ حَتَّى صَارَ إِلَى دِمَشْقَ ثُمَّ مَرَجَ الصَّفَرِ ، فَلَقِيَ عَلَيْهِ غَسَّانَ وَعَلَيْهِمُ الْحَارِثُ بْنُ الْأَيْمَنِ ، فَانْتَسَفَ عَسْكَرَهُمْ وَعِيَالَهُمْ . وَنَزَلَ بِالْمَرْجِ أَيَّامًا وَبَعَثَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِالْأَخْمَاسِ مَعَ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمَزْنِيِّ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْمَرْجِ وَسَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى قَنَاةٍ بَصْرِيٍّ وَعَلَيْهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَشَرْحِبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهَا وَحَاصَرُوهَا حَتَّى صَالَحَتْ بَصْرِيٌّ عَلَى الْجَزْيَةِ ، وَفَتْحَهَا اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَكَانَتْ أَوَّلَ مَدِينَةٍ

— ٢٣٦ —

من مدن الشام فتحت في خلافة أبي بكر .

ثم ساروا جميعا إلى فلسطين مددا عمرو بن العاص وعمرو مقيم بالعربات من غور فلسطين ، وسمعت الروم بهم فانكشفوا إلى أجنادين وعليهم تذارق أخو هرقل . وأجنادين بلد بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين .

وسار عمرو بن العاص حين سمع بأبي عبيدة بن الجراح وشرحيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان حتى لقيهم ، فاجتمعوا بأجنادين وحاصروها ، وكان على الروم رجل منهم يقال له القبقلار ، وكان هرقل استخلفه على أمراء الشام حين صار إلى القسطنطينية ، وإليه انصرف تذارق بمن معه من الروم ، فلما تدانى العسكران بعث القبقلار رجلا عربيا من قضاة وقال له :

— ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يوما وليلة .

فدخل في الناس رجل عربى لا ينكر ، فأقام فيهم يوما وليلة ثم أتاه فقال له :

— ما وراءك ؟

— بالليل رهبان وبالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ولو زنى رجموه ، لإقامة الحق فيهم .

— لئن كنت صدقتنى لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ، ولوددت أن حظى من الله أن يخلى بينى وبينهم فلا ينصرنى عليهم ولا ينصرهم على .

ثم تراحف الناس فاقتتلوا ، فلما رأى القبقلار ما رأى من قتال المسلمين قال للروم :

— لفوا رأسى بثوب .

— لم ؟

— يوم البئيس لا أحب أن أراه ، ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا .
فاحتر المسلمون رأسه وإنه لللفف ، وقتل من المسلمين سلمة بن هشام
ابن المغيرة وهبار بن الأسود وجماعة آخر من قريش ، وانتصر المسلمون
بأجنادين ، وقتل خليفة هرقل ، ثم رجع هرقل للمسلمين فالتقوا
باليرموك .

واستقام أهل فارس على رأس سنة من مقدم خالد الحيرة ، بعد خروج
خالد بقليل على شهر براز بن أردشير بن شهریار ، فوجه إلى المثنى جندا
عظيماً عليهم هرمرز جاذويه في عشرة آلاف ومعه فيل ، وكتب للمسالخ إلى
المثنى بإقباله فخرج المثنى من الحيرة نحوه وضم إليه المسالخ وجعل على
مجنبتيه أخويه المعنى ومسعودا ، وأقام له بيابل .

وأقبل هرمرز جاذويه وعلى مجنبتيه الكوكبذ والحوكبذ وكتب إلى المثنى :
« من شهربراز إلى المثنى ، إني قد بعثت إليك جنداً من وحش أهل فارس ،
إنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم » .

فأجابه المثنى : « من المثنى إلى شهربراز ، إنما أنت أحد رجلين : إما
باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة
عند الله وفي الناس الملوك . وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم
إليهم . فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير » .

فجزع أهل فارس من كتابه وقالوا لشهربراز :
— جرأت علينا عدونا بالذى كتبت إليهم ، فإذا كاتب أحدنا

فاستشر .

ونزل المثنى على خمسين ميلا من المدائن، وأقبل جاذويه وجنده يتقدمهم الفيل، والتقى الجيشان ببابل ودار القتال فراح الفيل يضرب المسلمين بمخرطومه فيفرق صفوفهم. فرأى المثنى ضرورة القضاء على الفيل فشد وجماعة من رجاله عليه وجعلوا يطعنونه حتى أردوه قتيلا، ثم شددوا النكير على الفرس وحمل وطيس القتال وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير، فجاء النصر من عند الله وهاقت الهزيمة بالفرس، ففروا والمسلمون في أثرهم حتى بلغوا المدائن ووقفوا يطرقون أبوابها.

وبلغ شهربراز هزيمة هرمز جاذويه فمات كمدا، وفكر المثنى في أمره أيهجم على المدائن بمن معه من الجند؟ إن نفسه لتصبو إلى فتحها، ولكن فتحها بمن معه ضرب من المحال. فرأى أن يكتب إلى الصديق يخبره بانتصاراته وأن يسأله المدد، فكتب بما يجيش في صدره وانتظر رد الخليفة وهو يتحرق شوقا لفتح المدائن.

واختلفت فارس فيمن يولونه خلفا لعاهلهم، وأخيرا أجمعوا أمرهم على تولية دخت زنان ابنته، فتولت الملك فلم يسمع لها بل تأمروا عليها وخلعوها، وتولى سابور بن شهرباراز الملك ولكنه كان حدثا، فقام بأمره الفرخزاد. وتقدم الفرخزاد إلى سابور يسأله أن يزوجه آزر ميدخت ابنة كسرى قبيل، إلا أن آزر ميدخت رأت في ذلك امتنانا لكرامتها فقالت لسابور:

— يا بن عم، أتزوجني عبدى؟!

— استحي من هذا الكلام ولا تعيده عني، فإنه زوجك.

فبعث إلى سواوخش الرازي وكان من فتاك الأعاجم، فشكت إليه الذي تخاف فقال لها:

— إن كنت كارهة لهذا فلا تعاوديه فيه وأرسلى إليه وقولى له : فليقل
له فليأتك فأنا أكفيكه .

وأحكمت المؤامرة واستعد سياوخش ، فلما كانت ليلة العرس أقبل
الفرخزاد حتى دخل ، فثار به سياوخش فقتله ومن معه ، ثم خرج بها معه
إلى سابور فقتلوه ، وملك آزر ميدخت بنت كسرى .

رأى المثنى الفتن تكاد تأكل فارس ، وأن كل الظروف في جانبه .
وأبطأ خبر أبى بكر على المسلمين فلم يستطع المثنى مكثا ، فخلف على
المسلمين بشير بن الخصاصية ، ووضع مكانه في المسالخ سعيد بن مرة
العجلى . وخرج المثنى قاصدا المدينة ليخبر أبى بكر خبر المسلمين
والمشركون وليستأذن في الاستعانة بمن ظهرت توبته وندمه من أهل الردة
ممن يستطيع الغزو ، وليخبره أنه لم يخلف أحدا أنشط إلى قتال فارس
وحربها ومعونة المهاجرين منهم ، فأبو بكر لم يكن يستعمل من تاب من
أهل الردة .

كان منزل أئى بكر السنح عند زوجته جيبية بنت خارجة بن زيد بن أئى زهير من بنى الحارث بن الخزرج ، وكان قد حجّر عليه حجرة من سعف فما زاد على ذلك . فأقام هنالك بعد ما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة ، وربما ركب على فرس له وعليه إزار ورداء ممشّق فيوافى المدينة ، فيصلّى الصلوات بالناس ، فإذا صلى العشاء رحل إلى أهله بالسنح ، فكان إذا حضر صلى بالناس وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب، فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسنح يصيغ رأسه ولحيته ، ثم يروح لقدر الجمعة فيجمع بالناس .

. وكان رجلا تاجرا فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويتناح ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج هو بنفسه فيها ، وكلما كفيها فرعيت له . وكان يحلب للحى أغنامهم ، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحى :

— الآن لا تحلب لنا منائح دارنا .

فسمعها أبو بكر فقال :

— بلى لعمري لأحلبنها لكم ، وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلقي كنت عليه .

فكان يحلب لهم . فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر ثم نزل إلى المدينة

فأقام بها ، وأراد أن يخرج للتجارة فرأى أن أمور الناس لا تصلح بالتجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولا بد لعياله مما يصلحهم ، ففرض له في كل سنة ستة آلاف درهم .

وكان نقش خاتم أبي بكر : نعم القادر الله ، وكان أبو عبيدة بن الجراح على بيت المال ، وكفاه عمر القضاء فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان ، وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان .

وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد ، وعلى الطائف عثمان بن أبي أمية ، وعلى حضرموت زياد بن لييد ، وعلى خولان يعلى بن أمية ، وعلى زيد ورمع أبو موسى الأشعري ، وعلى الجند معاذ بن جبل ، وعلى البحرين العلاء بن الحضير . وبعث جرير بن عبد الله إلى نجران ، وبعث بعبد الله بن ثور إلى ناحية جرش ، وبعث عياض بن غنم إلى دومة الجندل ، وكان بالشام أبو عبيدة وشرحيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وعمر . كل رجل منهم على جند وعلهم خالد بن الوليد .

وتزوج أبو بكر في الجاهلية قتيبة بنت عبد العزى فولدت له عبد الله وأسماء ، وتزوج أيضا في الجاهلية أم رومان بنت عامر فولدت له عبد الرحمن وعائشة ، وتزوج في الإسلام أسماء بنت عميس وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب فولدت له محمد بن أبي بكر ، وتزوج أيضا في الإسلام حبيبة بنت خازجة فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم .

وكان رجلا أبيض نحيفا خفيف العارضين ، أحنى رقيقا ، معروق الوجه غائر العينين نائى الجبهة ، حمش الساقين محوص الفخذين .

ومرض أبو بكر فقد اغتسل في يوم بارد فحم لا يخرج إلى الصلاة ، وأمر عمر بن الخطاب أن يصلى بالناس . فكان الناس يدخلون ليعودوه (وفاة الرسول)

— ٢٤٢ —

وهو يثقل كل يوم ، وكانت داره أمام دار عثمان بن عفان فكان عثمان ألزم الناس له في مرضه .

وقيل له :

— لو أرسلت إلى الطبيب .

فقال في صوت خافت :

— قد رأني .

— فما قال لك !

— قال إني أفعل ما أشاء .

وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ، وكان يتبع خطوات رسول الله ﷺ — فكانت أيامه امتدادا لأيام نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه . وأراد العقد لعمر بن الخطاب فدعا عبد الرحمن بن عوف فقال .

— أخبرني عن عمر .

— يا خليفة رسول الله ، هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة .

— ذلك لأنه يراني رقيقا . ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما هو عليه . ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتني إذا غضبتُ على الرجل في الشيء أراني الرضا عنه ، وإذا لنت له ، أراني الشدة عليه . لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئا .

— نعم .

ثم دعا عثمان بن عفان فقال :

— يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر .

— ٢٤٣ —

— أنت أخير به .

— على ذاك يا أبا عبد الله !

— اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته ، وأن ليس فينا مثله .

— يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئا .

— أفعل .

— لو تركته ما عدوتك ، وما أدرى لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من

أمر كم شيئا . ووددت أني كنت خلوا من أموركم وأنى كنت فيمن مضى

من سلفكم . يا أبا عبد الله لا تذكرن مما قلت لك من أمر عمر ولا مما

دعوتك له شيئا .

ونهض أبو بكر وأسماء بنت عميس ممسكته ، فأشرف على الناس وهو

يقول :

— أترضون بمن أستخلف عليكم ؟ فإنني والله ما ألوت ^(١) من جهد

الرأى ولا وليت ذا قرابة ، وإنى قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له

وأطيعوا .

— سمعنا وأطعنا .

ودعا أبو بكر عثمان فقال له :

— اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة

إلى المسلمين . أما بعد ..

ثم أغمى عليه فذهب عنه ، فكتب عثمان : « أما بعد فإنى قد

استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، ولم ألكم خيرا منه » .

(١) ألوت : قصرت .

— ٢٤٤ —

ثم أفاق أبو بكر فقال :

— اقرأ عليّ .

فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال :

— أراك خفت أن يختلف الناس إن اختلفت نفسى فى غشيتى .

— نعم .

— جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله .

وأقرها أبو بكر ، وخرج مولى لأبى بكر يقال له شديد بالصحيفة إلى عمر ، فجلس عمر فى المسجد والناس معه ويده جريدة وراح يقول :
— أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله — ﷺ — إنه يقول : إني لم آلكم نصحا .

وقرأ شديد الصحيفة ، ودخل طلحة بن عبيد الله على أبى بكر فقال :
— استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه فكيف به إذا خلا بهم ، وأنت لاق ربك فسألك عن رعيتك ؟
فقال أبو بكر وكان مضطجعا :

— أجلسونى .

فأجلسوه فقال لطلحة :

— أبا الله تخوفنى ؟ إذا لقيت الله رى فسألنى قلت : استخلفت على أهلك خير أهلك .

وفى الصباح دخل عبد الرحمن بن عوف على أبى بكر الصديق فوجده مهتما ، فقال له عبد الرحمن :

— أصبحت والحمد لله بارئا .

— إني وليت أمركم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد

أن يكون له الأمر دونه ، ورأيت الدنيا قد أقبلت ولما تقبل وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذرى^(١) ، كما يألم أحدكم أن ينام على حسك .

والله لأن يقوم أحدكم فنضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا ، وأنتم أول ضال بالناس غدا فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالا . يا هادى الطريق إنما هو الفجر أو البحر .

— خفض عليك رحمك الله فإن هذا يهضك في أمرك ، إنما الناس في أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب ولا نعلمك أردت إلا خيرا ولم تزل صالحا مصلحا ، وأنك لا تأسى على شيء من الدنيا .

— أجل ، إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتني وددت أنى تركتني ، وثلاث تركتني وددت أنى فعلتني ، وثلاث وددت أنى سألت عنهم رسول الله — ﷺ . فأما الثلاث اللاتي وددت أنى تركتني فوددت أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شيء وإن كانوا غلقوه على الحرب ، ووددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة السلمى وأنى كنت قتلته سريحا^(٢) أو خلتيه نجيحيا ، ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة وكنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين فكان أحدهما أميرا وكنت وزيرا .

وأما اللاتي تركتني فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيرا كنت ضربت عنقه فإنه تخيل إلي أنه لا يرى شرا إلا أعان عليه ، ووددت أنى حين

(١) الأذرى : نسبة إلى أذريجان .

(٢) قتلته سريحا : قتل يسيل به الدم ، خلتيه نجيحيا : تركته وقد صبرت عليه .

سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذي القصة فإن ظفر المسلمون ظفروا وإن هزموا كنت بصدد لقاء أو مددا ، وددت أنى كنت إذا وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدي كلتيهما في سبيل الله .

ووددت أنى كنت سألت رسول الله ﷺ — عن هذا الأمر فلا ينازعه أحد ، ووددت أنى كنت سألته : هل للأنصار في هذا الأمر نصيب ؟ ووددت أنى كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ والعمة ^(١) فإن في نفسي منهما شيئا .

وقدم المثني بن حارثة الشيباني إلى المدينة وقد عقد أبو بكر لعمر ، فدخل على الصديق وهو مريض فأخبره خبر المسلمين والمشركين ، واستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبته وندمه من أهل الردة ممن يريد الغزو ، فقال أبو بكر :

— على بعمر .

فجاء فقال له :

— اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به : إني لأرجو أن أموت من يومى هذا . فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثني . وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثني . ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت على أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتني متوفى رسول الله ﷺ — وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله ، وبالله لو أننى أبى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطربت المدينة نارا . وإن فتح الله

(١) بنت الأخ والعمة : من دوى الأرحاء لا يرثان .

— ٢٤٧ —

على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهلهم وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم^(١) .
وحضرت الوفاة أبا بكر في نفس اليوم ، يوم الاثنين ، فقال لمن عنده :
— انظروا كم أنفقت منذ ولّيت من بيت المال فاقضوه عنى .
فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته فدفعوه إلى عمر ، فقال
عمر :

- لقد أتعب من بعده .
- وغابت الشمس فالتفت أبو بكر إلى زوجه أسماء بنت عميس وقال :
- غسلينى .
- لا أطيق ذلك .
- يعينك عبد الرحمن بن أبى بكر يصب الماء .
- وقال لعائشة :
- فى كم كفن النبى — ﷺ ؟
- فى ثلاثة أثواب .
- اغسلوا ثوبى هذين .
- وكانا ممزقين .
- وابتاعوا لى ثوبا آخر .
- يا أبه ، إنا موسرون .
- أى بنية ، الحى أحق من الميت ، إنما هما للمهلة والصديد .
- وقالت عائشة :

(١) باقى أحداث حروب العراق والفرس فى كتاب «سعد بن أبى وقاص»

— ٢٤٨ —

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى
 إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
 فتقلص وجه أبى بكر وبان فيه الغضب وقال :
 — ليس كذلك يا أم المؤمنين ، ولكن : « وجاءت سكرة الموت
 بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » .
 وراح ينشد بصوت خافت :
 وكل ذى إبل موروث وكل ذى سلب مسلوب
 وكل ذى غيبة يثوب وغائب الموت لا يثوب
 وأوصى عائشة أن يدفن إلى جنب النبي — ﷺ — وحشرجت
 روجه فقال :
 — رب توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين .
 ولفظ أبو بكر أنفاسه الطاهرة بعد ما غابت الشمس ، فارتفع الصياح
 فى بيته فسأل أبو قحافة وكان قد ذهب بصره عن الخبر ، فقيل له :
 — مات ابنك .
 — رزء فادح .
 وأقامت عائشة على أبيها النوح ، فأقبل عمر بن الخطاب حتى قام ببابها
 فنهاهن عن البكاء على أبى بكر ، فأبين أن ينتهين فقال عمر لهشام بن
 الوليد :
 — ادخل فأخرج إلى ابنة أبى قحافة أخت أبى بكر .
 فقالت عائشة لهشام حين سمعت ذلك من عمر :
 — إني أخرج عليك بيتى .
 فقال عمر لهشام :

— ادخل فقد أذنت لك .

فدخل هشام فأخرج أم فروة أخت أبي بكر إلى عمر فعلاها بالدره
فضربها ضربات ، ففترق النوح حين سمعوا ذلك .
وحمل أبو بكر على السرير الذي حمل عليه رسول الله — ﷺ ،
وصلى عليه عمر في مسجد رسول الله — ﷺ ، وحفر له ودخل قبره
عمر وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وجعل رأسه عند كتفى
رسول الله — ﷺ — وألصقوا اللحد بلحد النبي — ﷺ . وقبر
الرجل الذي كانت خلافته امتدادا للأيام المباركة أيام رسول الله —
ﷺ .

وخرجت عائشة ووقفت على قبر أبيها فبكت ثم قالت :

— نضر الله يا أبت وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنت
للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزا بإقبالك عليها . ولئن كان أعظم
المصائب بعد رسول الله — ﷺ — رزؤك ، وأكبر الأحداث بعده
فقدك ، إن كتاب الله عز وجل ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا
متنجرة من الله موعدة فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار
لك . فسلم الله عليك ، توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية عن القضاء
فيك .

وسار عمر في هجعة الليل وفكره يعمل ؛ إنه يذكر ما كان من أبي بكر
ومنه لما عزم أبو بكر على فتح الشام ، إن أبا بكر دعا إليه الصحابة وأهل
الرأى فقال :

— إن رسول الله كان عول أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه
واختار له ما لديه ، والعرب بنو أم وأب وقد أردت أن أستنفرهم إلى الروم

بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيدا وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين مستوجبا عند الله عز وجل ثواب المجاهدين .
فصمت أهل الرأي ، أخذتهم هيبة الروم فقال عمر :

— والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه . قد والله أردت لقاءك بهذا الرأي الذي ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد .

سُرِب إليهم الخيل في إثر الخيل ، وابتعث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود ، تتبعها الجنود فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومقر الإسلام وأهله ، ومنجز ما وعد رسوله .

وفي ظلام الليل رأى بعين الخيال نعروج عمرو بن العاص وأبي عبيدة ابن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان إلى الشام ، وتذكر أن خالد بن الوليد قد صار أميرا على جيوش المسلمين باليرموك فانقبض . إن رأيته في خالد سيئ ، فعزم على أن يستفتح عهده بعزل خالد عن إمارة جيوش المسلمين ، فهو لم ينس له قتل مالك بن نويرة وزواجه من زوجته وقتل عبد العزى بن أبي رهم وليد بن جرير وكان معهما كتاب من أبي بكر بإسلامهما .

وجاء الصبح فخرج إلى الناس فأقبلوا عليه يبأيعونه ، فلما كان الظهر ازدحم الناس في المسجد فصعد عمر المنبر درجة دون الدرجة التي كان أبو بكر يقوم عليها ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي — ﷺ — وذكر أبا بكر وفضله ثم قال :

— أيها الناس ! ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم .

وتوجه بنظره إلى السماء وقال :

— اللهم إني غليظ فليني ! اللهم إني ضعيف فقوني ! اللهم إني بخيل فسخني !.. إن الله ابتلاكم في وابتلاكم فيكم ، وأبقاني فيكم بعد صاحبي . فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فليبه أحد دوني ، ولا يتغيب عني فألوفيه عن الجزء (١) والأمانة . ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم .

وراح يكتب إلى أبي عبيدة بن الجراح يوليه على جند خالد : « ... أوصيك بتقوى الله الذي يقى ويفنى ما سواه ، الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك ، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه ؛ ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة . وقد أهلك الله في وأبلا في بك ، فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبها عنك ، وإياك أن تهلكك كما أهلكك من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم .

(١) الجزء : أن يجزى كلا بعمله .

كان خالد بن الوليد على جيش المسلمين . إنه جمع الأمراء جميعا في جيش واحد وطلب أن يولوه الإمارة يوما فأمره وهم يعتقدون أن الأمر سيطول وأن كل أمير منهم سيتولى قيادة الجيش يوما ، وما دار بخلداهم أن سيف الله المسلول سينهى المعركة في ذلك اليوم بانتصار حاسم للمسلمين .

أمر خالد عكرمة والقعقاع وكانا على مجنبتي القلب أن ينشبا القتال ، فتقدم الرجلان والذين معهما ونشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان ، فأنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فانطلق إليه فرسان المسلمين يسألونه عن الأخبار ، فأخبرهم أن المسلمين في المدينة بخير وأن خليفة رسول الله سيمدهم بالرجال .. وكنتم محمية بن زعيم وهو الرسول خبر موت أبي بكر حتى لا يفت في عضد المسلمين لما رأى الرجال ينازلون الرجال ، والحرب دائرة بين الكفر والإيمان .

رأخذ الفرسان محمية بن زعيم إلى حيث كان خالد . فلما كانا يتناجيان بعيدا عن الناس أسر محمية إلى خالد أن أبا بكر قد مات ولم يخبره بأمر عزله ، وأخبره أنه قال للجند إن المدينة بخير وأن خليفة رسول الله سيمدهم بأمداد ، فقال له خالد :

— أحسنت .

— ٢٥٣ —

ووقف محمية بن زنيم مع خالد يكتّم سر الكتاب ، وخرج من صفوف الروم جرجة حتى كان بين الصفيين ونادى :
— ليخرج إلّى خالد .

فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه ، ودنا كل منهما من صاحبه حتى اختلفت أعناق دابتيهما وقد أمن أحدهما صاحبه ، فقال جرجة :
— يا خالد أصدقنى ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المتوسل بالله . هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكمه ، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟
— لا .

— فم سميت سيف الله ؟

— إن الله عز وجل بعث فينا نبيه — ﷺ — فدعانا ففرنا عنه ونأينا عنه جميعا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه . فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ، ودعالي بالنصر فسميت سيف الله بذلك . فأنا من أشد المسلمين على المشركين .
— صدقتنى .

كان جرجة قد سمع بالإسلام مذ بعث رسول الله — ﷺ — كتابه إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبي يسأله فيه الإسلام ، وإن جرجة ليفكر في ذلك الدين وفيما جاء به كلما خلا بنفسه . إنه ليجده دينا يتساوق مع المنطق والفطرة ، وشرح الله صدره للإسلام فقال لخالد :
— يا خالد أخبرنى إلام تدعونى ؟
— إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما

— ٢٥٤ —

جاء به من عند الله .

— فمن لم يجيبكم ؟

— فالجزية ونمنعهم .

— فإن لم يعطها ؟

— نؤذنه بحرب ثم نقاتله .

— فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟

— منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا .

— هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر ؟

— نعم وأفضل .

— وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟

— إنا دخلنا فى هذا الأمر وبايعنا نبينا ﷺ — وهو حى بين أظهرنا تأتیه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسلم ويبايع . وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل فى هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا .

— بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى ولم تتألفنى .

— بالله لقد صدقتك ولا لى إليك ولا لى أحد منكم وحشة ، وإن الله لو لئى ما سألت عنه .

— صدقتنى .

وقلب الترس ومال مع خالد فكبر المسلمون ، واربدت أوجه الروم وطاف بهم غضب وخوف . غضب على جرجة وخوف مما يأتى بعد أن

انضم جرجة إلى صفوف المسلمين .

وقال جرجة لخالد :

— علمني الإسلام .

فدخل به خالد إلى فسطاطه فصب عليه قربة من ماء ثم صلى به ركعتين . وحملت الروم على المسلمين حملة شديدة فأزالوا المسلمين عن مواقعهم ، ولم يثبت إلا المحامية عليهم عكرمة بن أبى جهل . إن الدماء لتثور حارة في عروق عكرمة ، وإنه ليقول في انفعال شديد :

— قاتلت مع رسول الله ﷺ — في كل موطن وأفر منكم اليوم ؟

ثم نادى :

— من يبايع على الموت ؟

فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة . من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا أمام فسطاط خالد وقد خلصت إليهم الجراح جميعا . وخرج خالد ومعه جرجة وراح يجوس خلال الروم ، خالد يضرب بسيفه رقاب الأعداء وجرجة يدافع عن الدين الذى دخل فيه ، وكانت النسوة خلف جيش المسلمين فأخذن يضربن من انهمز من المسلمين بالخشب والحجارة ويصحن .

— أين تذهبون وتدعوننا للعلوج ؟

وراحت نخولة بنت ثعلب تنشد :

يا هاربا عن نسوة تقيسات فعن قليل ما نرى سييات
ولا حصيات ولا رضىيات

كان الزبير بن العوام أفضل صحابى في جيش خالد . فاجتمع إليه جماعة من صناديد المسلمين فقالوا له :

— ألا تحمل فنحمل معك ؟

فحمل الزبير وحملوا ، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا فراح الزبير يخوض في صفوف الروم ويلعب بسيفه يضرب الرقاب ويطلعن القلوب ، ثم عاد إلى مكانه فجاءه جماعة من الأبطال وقالوا :

— احمل فنحمل معك .

— إنكم لا تثبتون .

— سنبث .

فحمل الزبير وحملوا ، فلما واجهوا صفوف الأعداء أحجموا وأقدم ، واستمرت رحي المعركة دائرة وارتفعت الشمس ثم مالت لا يسمع إلا قعقة السيوف وصهيل الخيول وصلصلة السلاسل التي ربطت بها جند الروم . وثبت خالد وجرجة والزبير وعكرمة بن أبي جهل والدين معه والحارث بن هشام . وتنادى المسلمون فنظموا صفوفهم وراحوا يقاتلون صفاً كأنهم بنيان مرصوص وارتفعت أصواتهم بالتكبير . فرحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف ، وانطلق سهم استقر في عين أبي سفيان بن حرب فأخرجه من عينه أبو حسمة ولم يمت ذلك في عضد المسلمين . واشتد القتال فراحت سيوف المسلمين تفتد رقاب الروم وراحت الشمس تغوص في الأفق الغربي ، ونال الجهد والتعب من الرجال ، وملاً العرق أعين المقاتلين وخالد على ظهر حواده كالطود قد عزم على أن يقضى على أعدائه قبل أن يرخي الليل سدوله .

وأصيب جرجة ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما ، وصلى الناس الظهر والعصر إيماءً ، وسقط عكرمة بن أبي جهل متأثراً بجراحه ، ولفظ عمرو بن عكرمة أنفاسه ، واستشهد سلمة بن

هشلم وعمرو بن سعيد وإبان بن سعيد ؛ وطعن خالد بن سعيد طعنة قاتلة فداسته الخيل فلا يدرى أين مات .

واستمر الطفيل بن عمرو يقاتل وقد خلصت إليه الجراح ؛ إن دمه يسيل من كل جسمه وهو يشب وثوب الأسد الجريح ، إنه وطد العزم على أن يقتل كل من يصل إليه سيفه قبل أن يستشهد ، واستمر يصول ويجول ويضرب من الأعداء كل بنان قبل أن يجود بأنفاسه الطاهرة .

كان الطفيل بن عمرو قد رأى رؤيا أولها بأنه يستشهد ، وقد تحققت رؤياه وأمسى من الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون . وراح ابن الطفيل يخوض في صفوف الأعداء لعل الله يرزقه الشهادة ويلحق بأبيه ، ولكنه كان يخترقه الصف ويخرج منه والدماء منه تسيل ليعود ليخوض في الصف يطيح رعوس الذين كانوا في السلاسل مقيدين .

كان تذارق أخو هرقل في صفوف الروم . إنه يقاتل بائسا فقد عاد إلى ذاكرته ما دار بينه وبين هرقل لما جاءهما خير . دخول قواد المسلمين لغزو الشام . إن ذلك الحوار يرن في وجدانه فيشيع الهزيمة في نفسه ، إن هرقل يقول لرجاله :

— أرى من الرأي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن تصالحوهم ، فوالله لئن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفاً وتقر لكم جبال الروم ، خير من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم .

إن تذارق أcha هرقل ليذكر والندم يعترضه أنه نخر لما سمع من قيصر العظيم تلك المقالة ، وخرج في جيوش الروم ليؤدب المسلمين . وإنه ليرى الهزيمة قد لاحت ؛ فياليت ألقى إلى أخيه سمعه ولم يملكه الغرور . ليت استمع إلى أخيه لما قال : « لا تقاتلوهم فإنه لا قوام لكم مع هؤلاء القوم ، (وفاة الرسول)

إن دينهم دين جديد يجدد لهم ثبارهم (١)، فلا يقوم لهم أحد حتى يئلى
إنهم أعرضوا عنه وقالوا له : « قاتل عن دينك ولا تجبن الناس ، واقض
الذى عليك » .

إن الحماس وحده لا يقضى على الأعداء . لقد ثبت حقا أن المسلمين
قد تسلحوا بإيمان عميق ، بينما كانت قلوب الروم هواء قد دفعوا إلى المعركة
كأنما يساقون إلى الموت مقيدون فى سلاسل الحديد . إن المسلمين لما نزلوا
اليرموك ، بعثوا إليه :

— إنا نريد كلام أميركم وملاقاته ، فدعونا نأته ونكلمه .

فأبلغوه فأذن لهم . فأتاه أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان والحارث بن
هشام وضرار بن الأزور وأبو جندل بن سهيل ودخلوا عليه بأقدام ثابتة
ورعوس مرفوعة ، لم يضطربوا لدخولهم على تذارق أخى هرقل إمبراطور
الروم ، ولم تبهرهم السراشق التى كانت من الدياج بل إنهم احتقروها ،
فلما انتهوا إليها أبوا أن يدخلوا عليه فيها وقالوا :

— لا نستحل الحرير فايرز لنا .

فبرز إلى فرش ممهدة ودار بينه وبينهم حوار ، إنهم طالبوه بالإسلام أو
الجزية أو القتال فسخر منهم واحتقر شأنهم فكان القتال ، إنه قتال رهيب لم
يلق مثله من قبل ، اشترك فى معارك كثيرة وقاتل الفرس فلم يلق ما يلقاه
اليوم ، إنه يقاتل أناسا يفرحون بالموت أكثر من فرحهم بالنجاة .

وبلغ هرقل وكان دون مدينة حمص أنباء ذلك الحوار الذى دار بين أخيه
وبين أمراء المسلمين فقال للذين كانوا عنده من القواد ورجال مملكته :

(١) ثبارهم : قوتهم وصبرهم على موالاة القتال .

— ألم أقل لكم ؟ هذا أول الذل . أما الشام فلا شام ، وويل للروم من المولود المشنوم .

دخل على هرقل بعد أن تولى عرش الأباطرة المنجمون وقالوا له : إن شعبا مختونا سيقضى على مملكته ، فحسب أن اليهود هم ذلك الشعب ، وما دار بخلده أن العرب الذين كانوا قبائل متفرقة في صحراء جرداء هم ذلك الشعب الموعود .

إنه تلقى دحية الكلبي رسول النبي العربي في قصره ، وأكرم مثواه ، وقرأ كتاب محمد بن عبد الله ورد على الكتاب ردا كريما . إن محمدا سأله الإسلام فخاف على ملكه ولم يدخل في الدين الجديد ، ولو أنه أسلم كما أسلم النجاشي لما سارت إليه جمافل العرب لتحقيق نبوءة النجوم .

ودار القتال عند اليرموك عنيفا لا رحمة فيه ، وانقض فارس من فرسان المسلمين على تدارق أخى هرقل وطعنه طعنة قاضية ، فسقط عن فرسه يغيظ في دمه حتى استقر جثة هامدة تترين بجوهر عجز أن يحفظ عليها حياتها أو كرامتها .

وتضعض الروم ، وهجم خالد بالقلب وحمل حملة صادقة حتى كان بين خيلهم ومشاتهم ، وكانت ساحة القتال واسعة يمكن للخيل أن تجري فيها ، ثم تضيق عند نهايتها حتى يصبح الهرب منها عسيرا . فراح فرسان الروم يفرون أمام فرسان المسلمين وينسلون من المهرب الضيق إلى الصحراء . فلما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفسحوا لها الطريق فتفرقت في البلاد ، وبقي المشاة وحدهم في الميدان هدفا لسهام المسلمين وسيوفهم .

وأقبل خالد وفرسانه على المشاة فراحوا يضربون بالحرايب في الصدور

ويطيحون بسيوفهم الرؤوس ، فدب الفرع في قلوب المقيدين بالسلاسل
ففرروا إلى خنادقهم ؛ ولكن أين المفر ؟ إن خيل المسلمين تقتحم عليهم
خنادقهم وفرسان المسلمين يجنون الرؤوس ، فتقهقر المسلسلون والمقيدون
مرعوبين حتى سقط كثير منهم في الهاوية لتدق أعناقهم ، فمن صبر من
المقتربين للقتال هوى به من ذهبت نفسه شعاعا من الفرع ، فبهوى الواحد
بالعشرة لا يطيقونه ، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف ، فتهاقت في
الهاوية عشرون ومائة ألف ؛ ثمانون ألف مقترون وأربعون ألف مطلق ،
سوى من قتل في المعركة من الخيل والمشاة .

وأسدل القبطار وأشراف من أشراف الروم برانسهم على وجوههم وقالوا :
— لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور ، وإذا
لم نستطع أن نمنع النصرانية .

فأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب ، وماتت المعركة بعد موت
المقاتلين الروم وفرار من فر منهم . فسار خالد بن الوليد في الخنادق حتى
بلغ رواق تذارق فدخله لبييت فيه ، وشغل المسلمون بجمع الأسلاب وما
خلف الروم في عسكرهم وما تركوا في أرض المعركة .

وأصبح الصباح فخرج خالد من رواقه ليلقى نظرة على أرض المعركة
فإذا برجال قادمين يحملون جريحين ، فنظر خالد إلى الجريعين فإذا هما
عكرمة بن أبى جهل (عمرو بن هشام) وابنه عمرو بن عكرمة وهما في
النفس الأخير . فوضع رأس عكرمة على فخذه ووضع رأس عمرو على
ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ، ولم تنفع
جهود خالد في إنقاذهما فأسلما الروح ، فقال خالد :
— كلا ، زعم ابن الحنظلة أنا لا نستشهد .

كانت العداوة مشبوبة بين المسلمين وأبي جهل ، فلما أسلم عكرمة بن أبي جهل كان بعض المسلمين يعيرونه بأبيه ، فنهى رسول الله ﷺ — عن سب الآباء لأن ذلك يسيء للأحياء . وعلى الرغم من ذلك النهي كان بعض المسلمين يصرح أن الله لن يكرم أبناء أبي جهل بالشهادة ، ولكن الله أكرم ابن أبي جهل وحفيده فالله عادل لا ينتقم من الآباء في الأبناء ، فكل مسئول عن عمله ، وإن الله يقول في كتابه العظيم ﴿ ولا ترر وزارة وزر أخرى ﴾ (١) .

قضى خالد على جحافل الروم عند اليرموك في يوم واحد ، إنه يوم مشهود في تاريخ الإسلام ، وهو يوم مشهود في حياة سيف الله المسلول ، فراح أبو عبيدة بن الجراح ينظر في كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعزل خالد وهو في حيرة من أمره ، لا يدري كيف يعلن النبأ دون أن يثير حفيظة صدور جنود لا يزالون في نشوة النصر يذكرون بالفخر والإعجاب عبقرية فارس الإسلام الذي قادهم إلى فوز عظيم نادر ، قلما يجود الزم بمثله .

وأعلن أبو عبيدة نبأ موت الصديق ومبايعة الناس لعمر بن الخطاب فسرت في النفوس موجات أسى لموت أبي بكر . وكانت أسماء بنت أبي بكر مع زوجها الزبير بن العوام ؛ إنها قتلت بالأمس مع النساء اللاتي قاتلن الأعداء لما نكص الرجال على أعقابهم في أول النهار ، وإنها شاركت المسلمين أفراحهم لما جاء الله بالفتح ، وقد أمضت الليل مع صواحبها في تضميد الجراح ، فإذا بها تتلقى من النساء والرجال أرق العزاء .

وتذكرت رسول الله ﷺ — فقد قرنت انتصاراته بالأحزان ، ماتت ابنته رقية يوم عاد منتصرا في بدر ، ومات عمه حمزة يوم أحد ، وراح يتهل إلى ربه ألا يفجعه في علي بن أبي طالب ابن عمه وزوج ابنته يوم الخندق ، وماتت زينب وأم كلثوم بعد أن جاء نصر الله والفتح . إن لها في رسول الله أسوة حسنة ، فلم تندب ولم تشق الجيب ولم تخمش الوجه ، بل صبرت صبورا جميلا يليق برؤية الإسلام .

واستقبل أناس تولية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بفرح فياض ، بينما استقبل آخرون النبأ في إشفاق وخيفة . ولم ينشرح صدر خالد للخبر فقد أحس أن في الكتاب شيئا في شأنه ، فابن الخطاب لا يحبه وقد طلب من أبي بكر مرارا أن يعزله ولم يقم وزنا لأنه ابن عم أمه ، أفيست عنه عمر وقد تولى إمارة المسلمين ؟

إن البريد لم يدفع إليه الكتاب وهو أمير الجيوش ، بل دفعه إلى أبي عبيدة وما ذلك إلا إيدانا بعزله . فمشى إلى أبي عبيدة يسأله الخبر ، فقال له أبو عبيدة إن أمير المؤمنين أمر بعزله وتوليته قيادة اللواء الذي كان يقوده أبو عبيدة قبل أن يصبح أميرا على الجيوش .
أطرق خالد هنيئة ثم قال :

— الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت وكان أحب إلى من عمر .
والحمد لله الذي ولّى عمر وكان أبغض إلي من أبي بكر ، وأزمنى حبه .
وقبل خالد أن يكون قائدا للواء أبي عبيدة عن طيب خاطر لم يثر ولم يشق عصا الطاعة فهو سيف الله المسلول سواء أكان قائدا للجيوش في اليرموك ، أم كان أمير لواء لما فتح المسلمون بيت المقدس ، أم جنديا عاديا في جيش عمرو بن العاص لما فتح مصر به فقد أمر أن يطيع ولو ولى عليه عبد

— ٢٦٣ —

حبشى . كانت تلك وصية رسول الله ﷺ — للمسلمين عامة ،
وإنه ليطيع راضيا وصاليا حبيه نبي الإسلام عليه السلام .
وانقضت بموته أئى بكر الصديق أيام رسول الله ﷺ ، فقد كانت
خلافته امتدادا لعصر النبى — صلوات الله وسلامه عليه ، لم يدل ولم يغير
وكان متبعا ولم يكن مبتدعا ، وكان صاحبه فى الحياة وفى المات .
القاهرة فى ٢٥ / ١١ / ١٩٧٠

— ٢٦٤ —

المراجع

- القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
السيرة النبوية
ابن هشام
إنسان العيون (السيرة الحلبية)
على بن برهان الدين الحلبي
بلوغ الأرب
للألويسى
نهاية الأرب
السوري
إيران في عهد الساسانيين
كريستنس — ترجمة يحيى الخشاب
نور الأبصار
الشلمنجي
أحياء علوم الدين
الغزالي
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
العاسي
حقوق الإنسان في الإسلام
للدكتور على عبد الواحد واه
محمد رسول الله
مولاي محمد على
الرسول . حياة محمد
ر . ف . بودلى — ترجمة محمد محمد فرح
و عبد الحميد حوده السحار
مولاي محمد على
ترجمة أحمد حوده السحار
المودودي
المستشرقون والإسلام
المهندس زكريا هاشم زكريا
الدين القيم

الدكتورة بنت الشاطئ	نساء النبي
عباس محمود العقاد	عبقريّة محمد
السهيلى	الروض الأنف
الدكتور زكريا إبراهيم	تاريخ الطبرى
عباس محمود العقاد	مشكلة الحرية
الواحدى	فاطمة الزهراء والفاطميون
ابن أبى الحديد	أسباب النزول
الشهرستانى	شرح نهج البلاغة
تأليف . جيمس هنرى برستيد	الملل والنحل
ترجمة : الدكتور سليم حسن	فجر الضمير
جول لابوم	تفصيل آيات القرآن الحكيم
ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي	الوحي المحمدى
السيد محمد رشيد رضا	سلم الواعظين
عبد الله بن الشيخ حسن الفارسى	الحضارة البيزنطية
الكوهجى	كتاب الخراج
ستيفن رنسيما	الإسلام والاشتراكية
لأبى يوسف	النظرية العامة لكينز بين الرأسمالية والاشتراكية
ميرزا محمد حسين	دكتور جمال الدين محمد سعيد
ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب	كارل ماركس
دكتور جمال الدين محمد سعيد	ترجمة دكتور راشد البراوى
كارل ماركس	ترجمة فاروق حلمى
ترجمة دكتور راشد البراوى	رأس المال
ترجمة فاروق حلمى	الربا فى الإسلام

للمؤلف

الطبعة الأولى

أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبي وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبي بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
في قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبي		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيفان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٩	مجموعة أقاصيص	أرملة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	رواية	الحصاد
سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجارلى الذاتية
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٣	مجموعة أقاصيص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	السهول البيض
يوليو سنة ١٩٦٧		وعد الله واسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمر بن عبد العزيز
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد
فبراير سنة ١٩٧٥		هذه حياتى
ابريل سنة ١٩٧٥		مذكرات سينائية

القصص الدينية

(للأطفال)

في ١٨ جزءا	قصص الأنبياء
في ٢٤ جزءا	قصص السيرة
في ٢٠ جزءا	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءا	العرب في أوروبا

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

في ٢٠ جزءا

١	— إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	— هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	— بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	— العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	— قريش	مايو ١٩٦٧
٦	— مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧	— اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	— خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	— دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	— عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١	— الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	— غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	— غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	— غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	— صلح الحديبية	يونيه ١٩٦٩
١٦	— فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	— غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨	— عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	— حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	— وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

الأستاذ على أحمد باكثير

- ١ - اخفائون ونفريتي
- ٢ - سلامة القس
- ٣ - وا اسلاماه
- ٤ - قصر الهودج
- ٥ - الفرعون الموعود
- ٦ - شيلوك الجديد
- ٧ - عودة الفردوس
- ٨ - روميو وجولييت
- (مترجمة عن شكسبير بالشعر المرسل)
- ٩ - سر الحاكم يأمر الله
- ١٠ - ليلة النهر
- ١١ - السلسلة والغفران
- ١٢ - الثائر الأحمر
- ١٣ - الدكتور حازم
- ١٤ - أبو دلامة (مضحك الخليفة)
- ١٥ - مسمار جحا
- ١٦ - مسرح السياسة
- ١٧ - مأساة أوديب
- ١٨ - سر شهرزاد
- ١٩ - سيرة شجاع
- ٢٠ - شعب الله المختار
- ٢١ - امبراطورية في المزاد
- ٢٢ - الدنيا فوضى
- ٢٣ - أوزوريس
- ٢٤ - فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية
- ٢٥ - دار ابن لقمان
- ٢٦ - قطط وفيران

رقم الإيداع : ٤٠٣٣
الترقيم الدولي ٣ - ٢٧٥ - ٣١٦ - ٩٧٧

